المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

عصور ما قبل التاريخ

بوتقة الإنسان

تأليف: فرنسوا بون

ترجمة: سونيا محمود نجا

2079

هذا الكتاب لا يتناول كل عصور ما قبل التاريخ، حيث نحى جانبا مئات الألوف من السنين السحيقة في القدم رغم ثراء ما بها وجاذبيته، وركز على نشأة المجتمعات الحديثة التي تقرن دوما بالإنسان العاقل. والمشكلة التي يعالجها هذا الكتاب هي:

هل تشكل نهاية العصر الحجري القديم الوسيط وبداية العصر الحجري القديم الأعلى نقطة فاصلة بين الإنسان "المبكر" – وهو الكائن الذي اندثر تكوينه البيولوجي، وانمحت سلوكياته – والإنسان "البدائي" – بمعنى الإنسان "الأول" أي المؤسس للملكات والخصائص الكلية والتوجهات السلوكية التي توارثناها؟ لو اقتصر الأمر على رسم خط فاصل يوضح على يمينه إنسان النياندر وعلى يساره الإنسان العاقل حتى تصبح هناك حدود ملموسة ومفهومة بين الاثنين لهان كل شيء وأصبح ميسورا. غير أن اختصار الأشياء على هذا النحو لا يعطي إجابة شافية السؤال الخاص بالأسس الموضوعية للتطور المفترض وآلياته. ولذا فكل ما يأمل هذا الكتاب عمله هو وصف طبيعة هذا التطور ومحاولة شرح أنماطه وأسبابه.

تصميم الغلاف: محمد البرماوي

عصور ما قبل التاريخ

بوتقة الإنسان

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2079
- عصور ما قبل التاريخ: بوتقة الإنسان
- فرانسوا بون
- سونيا محمود نجا
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

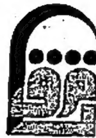
PRÉHISTOIRE: La fabrique de l'homme
Par: François Bon

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

عصور ما قبل التاريخ
بوتقة الإنسان

تـــأليف : فرانـــسوا بـــون

ترجمـــــة : سونيا محمـود نجـا



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بون، فرانسوا.
عصور ما قبل التاريخ: بوتقة الانسان/ تأليف: فرانسوا بـــون؛ ترجمة: سونيا محمود نجا.
ط ١ – القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٣٨٨ ص، ٢٤ سم
١ – إنسان ماقبل التاريخ
(أ) نجا ، سونيا محمود (مترجم)
(ب) العنوان ٥٧٣,٣

رقم الإيداع ٥٥٤٣ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى : I.S.B.N -978-977-216-014-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة

الإنسان العاقل أو البحث عن أصول الحداثة

"كنا نحاول بمشقة بالغة تجاوز منعطف فى مجرى النهر حين لاحت لنا انفراجة بدت من ورائها أسوار من نبات الخيزران وسقوف مخروطية من القش. تعالت الصرخات والصيحات ودوى المكان بدقات مئات الأكف والأقدام. لمحنا أجسادًا تتأرجح وأعينًا تدور فى أحداقها عبر أيكة كثيفة ساكنة (...) لم يكن فى مقدورنا إدراك ما يبغونه لبعد المسافة التى كانت تفصلنا عنهم وعجزنا عن التذكر؛ لأننا كنا نرتحل فى غياهب الأزمنة الأولى... تلك الأزمنة واهية الأثر الضنينة بالذكرى (...)

طوى الزمن الرجال.. نعم كانوا بشرًا.. الواقع أن أسوأ ما فى الأمر كان هذا الشك الذى خالجنا فى كونهم بشرًا".

جوزيف كونراد

"قلب الظلام"

أى نفع لعصور ما قبل التاريخ(١)؟ عن هذا السؤال وعن كم كبير آخر من الأسئلة لم تجب للأسف هذه الحقبة الطويلة المندثرة. أطبقت فمها الحجرى ولم نسمع لها صوتًا على غرار ما جاءت به مخيلة جوزيف كونراد Joseph Conrad من أصوات ترامت إلى أسماع بطله "مارلو" وهو يقطع نهر الزمن.

---

(١) لعبارة "ما قبل التاريخ" فى اللغة الفرنسية معنيان فقد يقصد بها الحقبة الزمنية، وقد تعنى فرع العلم الذى يدرسها. وحتى يسهل التمييز بينهما استعان النص الأصلى بحروف البداية majuscule للإشارة إلى الحقبة (استعضنا فى النص المترجم بعلامات التنصيص عن هذه الحروف للغرض نفسه).

آثرت الصمت فى قارة مثل أوروبا لم تعد لها فيها ذكرى.. طمستها أزمنة تراكمت شيئًا فشيئًا، وشكلت تاريخًا آخر تركن إليه الذاكرة.

لنصغ السؤال بشكل مختلف: أى مدلول لهذه الفترة اليوم، يفسر هذا الاهتمام الذى تثيره؟ نعتبرها مجرد شىء يثير الفضول؟ أم شيئًا دخيلاً يثير الذعر؟ أم نراها فترة حبلى بالإيضاحات عن تصورنا لذواتنا؟

يقرن البعض حقبة ما قبل التاريخ ببدء ظهور الإنسان أو لنقل بشكل أكثر دقة بالحد الفاصل زمنيًا بين الوجود البشرى والفترة التى سبقته؛ أى أنه يقصد بها ما اصطلح على تسميته بالعصر الحجرى القديم Paléolithique. ويغطى هذا المسمى الفترة الطويلة التى لم يشغل البشر جميعًا فيها إلا القنص والارتحال.

يتباين هذا العصر مع لاحقه، يطلق عليه العصر الحجرى الحديث "Néolithique" الذى تطور فيه اقتصاد الإنتاج القائم على الزراعة والرعى. يعنى بالعصر الحجرى إذن ذلك العصر الذى شهد خروج الإنسان من مكامنه سواء فى ذلك الجموع البشرية القديمة التى تخبطت فى محاولاتها لشق طريقها أم اللاحقون بهم البادئون فى تسخير الطبيعة لدى نشوء الحضارات. والحق أننا لو سنحت لنا مثل "مارلو" فرصة رؤية آخر الجماعات التى عاشت فى هذه الفترة السحيقة القدم، لوجدنا وجوههم البادية من خلال الأشجار على غرابتها شديدة الشبه بملامح البشر. سنجد قبالتنا بشرًا عاديين يماثلوننا فى كل شىء.

فالإنسان العاقل هو ابن العصر الحجرى القديم وقد ظهر ممثلاً لسلالة البشر منذ ما يقرب من مائتى ألف عام قبل عصرنا هذا، ولنقل تحديدًا فى العصر الحجرى القديم الوسيط.

وأصل هذا الإنسان على ما يبدو أفريقى وإن كان من المتقبل أن نعزو التطور الذى آل إليه إلى مساهمات أشمل من جماعات سكنت قارات أخرى ومناطق مثل الشرق الأدنى وآسيا.

ويرجع ذلك إلى أنه لدى ظهور أول البشر العاقلين، كان جزء كبير من العالم مسكونًا بالعديد من البشر وكان عصر ما قبل التاريخ يقاس طوله بملايين السنين وبعدة تطورت ظهرت إلى الوجود بعد الأدوات الحجرية المنحوتة والتى عرفتها الإنسانية بعد مرور مليونين وستمائة عام من عمرها. شملت هذه التطورات الأدوات المستخدمة فى الصيد وتصنيع الآلات هذا غير ما عُد أكثر الاكتشافات شهرة وهو "النار" التى ترجع مغرفة البشر بها إلى خمسمائة ألف سنة قبل عصرنا هذا.

تطورات سلوكية عدة يسرت تأقلم البشر مع العديد من الأنساق البيئية الموزعة على مستوى القارات. الواقع أنه منذ نحو مائتى ألف سنة لم تكن هناك مناطق غير مأهولة بالسكان غير أمريكا وأستراليا والمرتفعات الشاهقة فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية، هذا إذا نحينا جانبًا بطبيعة الحال – المناطق القطبية الجنوبية. أما أفريقيا الشرقية مهد البشرية فقد تناثرت مجموعات أشباه البشر على أرضها منذ أكثر من ستة ملايين عام. وأسرة أشباه البشر الأوائل ذات طبيعة مركبة تجمع بين أعضائها إنسان جنوب أفريقيا وكثير من أوائل ممثلى سلالة الإنسان (الذكى Homohabilis وإنسان Rudolfensis) وقد استطاع كل هؤلاء فى مدى زمنى لا يجاوز الثلاثة ملايين عام وربما أقل بلوغ أفريقيا الجنوبية. وبدءًا من المليون الثانى أى بعد ظهور الأدوات الحجرية الأولى بوقت قليل بدأت جماعات فى الانتشار البطىء فى جميع أنحاء هذه القارة وخارجها فى اتجاه كل من آسيا وأوروبا عن طريق الشرق الأدنى.

والمحرك الأول لهذا الانتشار الواسع هو القادم الجديد الهومو إرجاستر Homo ergaster الجد المباشر للإنسان العاقل Homosapien حتى أنه حين ظهر هذا الأخير لاحقًا كان الإنسان قد ترك بصمته في العديد من القارات وقضى بها مئات الملايين من السنين بآلية بطيئة وثابتة في آن واحد.

وأيًا ما كان الأمر فإن تاريخ البشرية منذ مائتي ألف عام في يد الإنسان العاقل على الأقل في أفريقيا وفي بعض مناطق قارة آسيا. في غير هذه الأماكن وخاصة في أوروبا، كان هناك ممثلون آخرون لهذا التاريخ استمروا لبعض الوقت.

عند ذلك بدأت من وجهة النظر الأنثروبولوجية، حقبة بالغة التعقيد والتركيب، ولعشرات الآلاف من السنين بقت الإنسانية متعددة الوجوه. اختار الإنسان العاقل مقامه في أفريقيا وآسيا بينما أفسحت أوروبا أراضيها لإنسان النياندر الذي يعد نتاجًا متطورًا موازيًا يضرب بجذوره حتى الهومو إرجاستر Homo ergaster الذي كانت جماعات منه قد وصلت إلى هذا الجزء من العالم[1] قبل ذلك بمئات الآلاف من السنين. وقد تطلب الأمر انتظار الحقبة الواقعة بين الأعوام ٢٠٠٠٠ و٤٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون حتى ينتهي الإنسان العاقل من انتشاره وتوزعه في كافة الأرجاء ويصبح في الوقت ذاته الممثل الأول والأوحد لسلالة الإنسان. وقد لقي في انتشاره مواقف متباينة جذريًا: فقد اكتشف الإنسان العاقل أماكن غير آهلة بالسكان

(١) قد تكون هناك ظاهرة مماثلة جرت في بعض مناطق آسيا التي يعتبر علماء الحفريات أن جماعات الإرجاستر (التي أطلق عليها اسم الإنسان المنتصب Homo Erectus في هذا السياق الجغرافي) قد بقت فيها لفترة تزيد على مائتي ألف عام قبل أن يحل محلهم جماعات الإنسان العاقل القادمة من أفريقيا.

استقر بها مثل أستراليا وأمريكا كما تسلل إلى المناطق المسكونة منذ أمد بعيد كالقارة الأوروبية. فى هذا السياق، ترك إنسان النياندر له مكانه عام ٣٥٠٠٠ فى فترة متزامنة مع بداية العصر الحجرى القديم الأعلى.[١]

يفسر ذلك نظرة أوروبا إلى العصر الحجرى القديم الأعلى باعتبـــاره مآلاً وخاتمة. بعد الانتشار البطىء لإنسان الإرجاستر إبان العصر الحجـــرى القديم الأدنى الذى تلاه ظهور الإنسان العاقل وتطوره فى وقت متزامن مـــع العصر الحجرى القديم الوسيط فى أفريقيا حان وقت هيمنته. غيـــر أن هـــذه الفترة تعد أيضًا بداية: إذا كان الإنسان العاقل الذى أطلق عليه فـــى أوروبـــا مسمى الكرو- مانيون Cro- Magnon قد ختم المـــسار البيولـــوجى لـــسلالة الإنسان فإنه فى ذات الوقت قد بدأ شكلاً ما من أشكال الحداثة فى سلوكياته.

---

(١) لنقل تحديدًا أن التأريخ كما يرد فى هذا الكتاب قد استوحى من معطيات أفريقية فيما يخـــص تواريخه بالغة القدم (تظهر هنا الأدوات الحجرية الأولى التى تم نحتها عام ٢٦٠٠٠٠٠ وأنـــه فى هذا التاريخ بدأ العصر الحجرى القديم الأعلى) وهو يحيلنا بشكل واضـــح إلـــى الأطـــر الأوروبية وتلك الخاصة بالشرق الأدنى حين يتعلق الأمر بتقسيمات العصر الحجرى القـــديم الوسيط بالشرق الأدنى حين يتعلق الأمر بتقسيمات العصر الحجرى القديم الوســـيط بالـــسوق (من ٣٠٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ سنة) والعصر الحجرى القـــديم الأعلـــى (مـــن ٤٠٠٠٠ إلـــى ١٢٠٠٠) ويمكننا نظرًا للتشابه الكبير بين العصرين عقد مقارنة بينهما وبين العصر الحجرى الوسيط من ناحية والمراحل المتأخرة من العصر الحجرى المتأخر من ناحية أخرى كما تـــم تعريفها فى القارة الأفريقية علمًا بأن العصر الحجرى الوسيط يبدأ أيضًا فى العـــام ٣٠٠٠٠٠ لينتهى فيما بين الأعوام ٤٠٠٠٠ و٢٠٠٠٠ مع قدوم العصر الحجرى المتأخر. ولهذه النقـــاط المحددة أهميتها نظرًا لما أشرنا إليه من كون الإنسان العاقل وإنسان النيانـــدر همـــا محـــورا العصر الحجـــرى الوســـيط Middle Stone Age او العـــصر الحجـــرى القـــديم الوســـيط paléolithique moyen طبقًا للسياق الجغرافى الذى نضع أنفسنا فيه, فى حـــين أن العـــصر الحجرى القديم الأعلى paléolithique supérieur والعصر الحجرى المتـــأخر Late Stone Age مقصوران على الإنسان العاقل.

لنقفز عبر آلاف السنين إلى يومنا هذا.. نلاحظ أن الشعوب والأقوام المعاصرة تنتمى فى أصولها إلى الإنسان العاقل الذى تتبعنا مساره خلال العصر الحجرى القديم فى بضعة سطور. هل يقتصر التقارب بينها على هذا التاريخ البيولوجى المشترك؟ بالطبع لا. أثبتت الأنثروبولوجيا الاجتماعية منذ زمن بعيد أننا نحينا جانبًا أوجه الاختلاف بين المجتمعات الإنسانية - والتى تظهر واضحة على المستويين الاقتصادى والاجتماعى بين مجتمعات الصيادين وجامعى الثمار والمجتمعات الصناعية - ووجدنا أن لها أسسًا واحدة تلتقى عندها فى تعريفها للإنسان.

ففى كل مكان يرتكز التأقلم والتكيف على دور الثقافة وفى كل مكان تلخص البنية الاجتماعية أيًا ما كانت تعقيداتها الأفراد وتعرفهم. والإنسان أينما كان يفسر العالم المحيط به بواسطة خياله الخصب ويقوم بصياغة العديد من العبارات الرمزية لترجمته.

وبعيدًا عن الاختلافات على "المستوى التقنى" التى يمكن ملاحظتها بين منتجات مجتمع وآخر، على سبيل المثال بين قوس صياد "البوشمن" Bushmen فى جنوب أفريقيا ومركبة يقودها عالم إثنولوجى جاء ليلتقى به، فإنه يتضح أن الثقافة المادية لهذين البطلين موجه مميز للتعبير عن عالم من القيم والمعانى.

ولا يوجد معيار يسمح بترتيب هذه العوالم من المعانى ترتيبًا متدرج الصعوبة والتعقيد. والسبب فى ذلك أننا إذا استطعنا فرضًا وضع أسس موضوعية للمقارنة بين متعلقاتهما التقنية كدرجة التعقيد التى تتطلبها تقنية صنع قوس الصياد البوشمن وتلك التى تستلزمها عربة محدثه الغربى فإننا بمجرد الانتقال إلى المعنى الذى يعطيه كل منهما لما يحوزه نفقد هذه الموضوعية. والحال ذاته حين يتعلق الأمر بطرق التعبير الفنى ودرجات القرابة وعالم معتقداتهما:

من بوسعه الجزم بأن حكاية inuit أكثر براعة من رواية لأندرسون أو أن جدارية للسكان الأصليين أكثر بساطة من زينة كنيسة أو معبد؟ مهما كان ثراء المقارنة بينها فلن يمكننا ترجمتها إلى أساليب قياس لدرجة تعقيدها فالاختلافات بينها غير قابلة للخضوع لتقييم قاطع باتر.

ملخص القول أنه مهما كانت درجة تفرد التراث الثقافى لكل شعب أو جماعة من الشعوب أو الجماعات المعاصرة ومهما كان عمق العلامات التى تطبعها هذه الثقافات على سلوكيات كل فرد فإنه من الممكن تمييز الملكات المشتركة التى تشكل الوحدة البيولوجية للإنسان العاقل المعاصر. بالإضافة إلى ذلك فإن هذه الملكات المشتركة تدحض كل رأى أو تقييم يحاول ترتيب أو هيكلة طرق التعبير المتعددة.

استنادًا إلى هذه المعايير يمكننا القول بأن مجتمعات الصيادين جامعى الثمار الموجودة حاليًا فى بعض بقاع العالم، هذه الجماعات من الرحل التى لم تعرف المعادن والخزف إلا من عدة عقود خلت والتى ننظر إليها ترتيبًا على ذلك باعتبارها بقايا أو مخلفات حية لعصور ما قبل التاريخ، تأخذ مكانها ودورها فى معزوفة العالم المعاصر.

لنخلص من ذلك إلى تساوى الملكات الاجتماعية والرمزية وهو ما يهمنا فى الأمر.

متى بدأت هذه الحداثة؟ يرجعها علماء ما قبل التاريخ إلى ماض سحيق فبالنسبة لهم يجيب العصر الحجرى القديم الأعلى على هذا السؤال. وواقع الأمر أن خلاله ظهرت بالفعل بعض الشواهد والعلامات القوية لهذه "الحداثة السلوكية" التى يمكن الاستدلال عليها بوضوح من تطور الفنون وطرق تزيين البدن.

الواقع أن أولى وسائل الزينة وأول شواهد الكتابة غير المصورة قد تم التثبت من وجودها فى فترات سابقة على العصر المشار إليه بآلاف السنين وبصفة خاصة فى السياق الأفريقى وهى من عمل الإنسان العاقل. كما أن القبور الأولى التى تم العثور عليها والتى تعكس انشغالاً غير مسبوق للإنسان بالموت ترجع إلى العصر الحجرى القديم الوسيط فى أوروبا والشرق الأدنى. هذه القبور تخص على السواء الإنسان العاقل الذى استوطن الشرق الأدنى وإنسان النياندر الذى ثبت تواجده فى هذه المناطق الجغرافية.

والحق يقال أنه فى بقاع مختلفة من العالم وبصفة خاصة فى أوروبا كان ظهور هذه الطباع وهذه السمات الخاصة بالعصر الحجرى القديم الأعلى – فنون تصويرية وأدوات زينة – أو على الأقل تطورها الكامل، مصاحبًا لواحدة من أوائل الثورات التقنية التى سجلها عصر ما قبل التاريخ: فى بضعة آلاف من السنين اندثرت طرق وأساليب السلف الخاصة بالعصر الحجرى القديم الوسيط وظهرت تقنيات التعامل مع الحجر. إذا ما أضفنا إلى كل ذلك، التجديدات المنوعة فى التعامل مع المواد ذات المصادر الحيوانية كالعاج والعظام وقرون الأيايل، وفى تصميمات أماكن السكنى التى تكشف باعتبارها مخصصة لجماعات دائمة التنقل عن تحسن غير مسبوق فى التنفيذ، أمكننا الفصل بوضوح بين العصر الحجرى القديم الأعلى والأزمنة السابقة عليه.

من هنا جسد فنانو كهفى لاسكو Lascaux وشوفيه Chauvet اللذين يرمزان لفن هذه الحقبة، إتمام هذه الوثبة إلى الحداثة ولم تكن هذه هى النهاية – بل ربما كانت بشكل ما البداية الحقيقية – وإنما نقطة وصول لتطور ما.

وحتى لو كان هذا التدرج المتطور فى تفاصيله مستوحى بشكل خاص من العصر الحجرى القديم الأعلى كما يتم تعريفه فى أوروبا، فإن وصول الإنسان إلى شكل ما من أشكال الحداثة السلوكية وعدم ارتداده بعد ذلك ذو دلالة ومغزى كونى. من هنا يمكننا القول بأن تقسيم العصر الحجرى القديم بطرق التعبير المحلية على اختلافها، يعد خطوة فارقة. من غياهب مرحلة ما قبل التاريخ، خرج الإنسان حديثًا متطورًا بيولوجيًا وسلوكيًا.

لنقبل كبداية هذه الفرضية. هنا تثور عدة تساؤلات: ما هى الآليات التى أدت لظهور هذه الملكات وانتشار هذه السلوكيات التى تشكل أساس هويتنا المشتركة؟ هل هذه الحداثة السلوكية لصيقة بالإنسان العاقل لا يدانيه فيها أى شكل بشرى آخر مثل إنسان النياندر القابع فى الظل بعيدًا عن التطور؟

يقع علم ما قبل التاريخ بطبيعته عند ملتقى الكثير من العلوم، فمن ناحية نجد علم الحياة الذى يصف التطور البيولوجى ومن ناحية أخرى نجد علم الأرض لأن الإنسان فى محك دائم مع طبيعة على فطرتها الأولى لم يروضها ويدجنها بعد. يضاف إلى العلمين السابقين علم الإنسان لكون الأمر يتطلب وصفًا وفهمًا للتأرجح البطىء بين تكيف الإنسان البيولوجى والثقافى مع الوسط الذى يعيش فيه ونشأة المجتمعات البشرية بحق وهو المسار غير المسبوق القائم على الذكاء.

تختلف هذه الحقول المعرفية وتأتلف ويستعير "علم ما قبل التاريخ" من بعض منها أطرها التفسيرية. من هنا كثيرًا ما اقترن تطور هذه الحداثة السلوكية بالإنسان العاقل كنتيجة ومحصلة لتطوره البيولوجى المميز. ونظرًا لظهور هذا الشكل البشرى مبكرًا فى أفريقيا اتجهت كثير من الأعمال اعتبارًا من العصر الحجرى الوسيط لهذه القارة إلى وضع أساس لطباع ستغزو العالم لاحقًا هى ومبدعوها.

يحتل العامل البيولوجى مكانًا بارزًا فى التفسيرات التى يقترحها علماء ما قبل التاريخ. غير أن هذا لا يحول دون أخذ الظروف الخاصة بالبيئة فى الاعتبار. ويعد تكيف الإنسان مع بيئته ومع التقلبات المناخية محركًا فاصلاً وحاسمًا؛ فالبعد البيئى لكل مجتمع إنسانى عامل رئيسى يصلح مفتاحًا لتفسير تطور سلوكياتها وخاصة بالنسبة لجماعات القناصين الرحل التى تعتمد فى بقائها ومعيشتها على موارد بيئة متغيرة. وبالتالى يمكن القول بأن هذا العامل قد ييسر أو يعرقل التحرك والانتقال مكانيًا. وللهجرات دور تضطلع به فقد يتبعها تغيير فى عادات السكان الأصليين الذين اجتاح غزاة جدد أراضيهم. لنضف إلى ذلك أن الحتمية البيئية غالبًا ما تتحد مع الحتمية البيولوجية لتفسير بعض من التغيرات الملاحظة خلال ألفيات عصور ما قبل التاريخ. هذان العاملان ينضمان بعد ذلك إلى الهجرة – وهى شكل إنسانى أكثر قدرة على المنافسة يحظى بتميز بما يقدمه من إجابات وردود على بعض الظروف البيئية لدوام تنقله، وبذا تجتمع معًا تأثيرات مصادر الوحى والإلهام الثلاثة لعلم ما قبل التاريخ: البعد البيولوجى لعلوم الحياة والبعد البيئى لعلوم الأرض والبعد التاريخى الخاص بالهجرات والمستعار من العلوم الإنسانية.

وهذا هو النموذج المطروح دومًا لإيضاح هيمنة وسيطرة الإنسان العاقل وتحديد مكانة العصر الحجرى القديم الأعلى خاصة فى السياق الأوروبى.

من هنا ندرك بشكل أفضل أحد أسباب التفات علماء ما قبل التاريخ دومًا إلى هذه القارة حينما يتطلب الأمر رواية الكيفية التى وصل بها الإنسان إلى الحداثة السلوكية الكاملة. إذا نحينا جانبًا "الوسطية الأوروبية" فإن الأنماط المفترضة للظاهرة فى هذا الجزء من العالم الذى ينظر فيه إلى المرور من

العصر الحجرى القديم الوسيط إلى العصر الحجرى القديم الأعلى باعتباره النتيجة المترتبة على إحلال الجماعات وتبديلها يجعل منه حدثًا مؤسسًا. مع الإنسان العاقل بدأت المسيرة الطويلة لإنسانية جديدة فاتحة وغازية وغربت شمس أشباه البشر الذين يجسدهم إنسان النياندر.

ولكن فى هذه الحلقة كما فى غيرها، هل نعد الجمع بين كل هذه العوامل التفسيرية المتباينة مرضيًا تمام الرضا؟ ونحن هنا لا نرمى مطلقًا إلى التقليل من أهمية الحتمية البيولوجية أو تقليص دور البيئة المحيطة فتداخل وتفاعل هذه الثوابت أساسى بدون أدنى شك، كما أنه حيال الهجرات البشرية من الصعب اتخاذ موقف ثابت. غير أنه يتوجب الاعتراف بأن طرق التفسير على اختلافها لا تعطى إجابة شافية فى مسألة الديناميات المتطورة التى تحرك المجتمعات الإنسانية.

لنصُغ السؤال بشكل آخر: ما هى آليات التغيير فى المجتمع؟

أفضت محاولات تحديد مكانة مجتمعات العصر الحجرى القديم الأعلى إلى إجماع على كون الفن ووسائل الزينة بالإضافة إلى بعض التغيرات التى طرأت على الأدوات التقنية شواهد وعلامات على إعادة صياغة عميقة للأشكال والوظائف الاجتماعية لجماعات العصر الحجرى القديم. يثور هنا التساؤل عن الكيفية والأسباب. هل يكفى وضع الإنسان العاقل فى سياق مناخى ما وملاحظة نجاحه وتكاثره وتناميه ثم متابعة هجراته وانتقالاته من مكان لآخر؟ أليس ضروريًا لفهم الأمر الاستعانة بمنهج تفكير أقرب ما يكون إلى علم الاجتماع الإحاثى؟ يجب هنا الاعتراف بأننا نعانى من نقص تفسيرى حاد فى هذا المجال رغم أن علم ما قبل التاريخ الحديث لم يعد منذ وقت

طويل يكتفى بشق الطبيعيات القائم على حصر مجموعات من أنماط الأدوات والمعدات التى تم بصبر وأناة شديدين جمعها وتوصيفها بمعزل عن كل مظاهر الحياة – وترتيبها وفق الأزمنة الجيولوجية.

وهذا يعنى أن علم ما قبل التاريخ قد تجاوز طموحاته الأولى بوضع تأريخ مدعم بحفريات موجهة ومرشدة، حجرية أو صناعية وأصبح مبتغاه أن يصبح راصدًا لسلوكيات وأنماط حياة ما قبل التاريخ. وهو بذلك ينحو على سبيل المثال لتبيان الكيفية التى تنتظم بها الجماعات البشرية نفسها مكانيًا فى ضوء الموارد الحيوانية والمعدنية المتاحة أمامها للاستغلال. وبذلك تصبح وجهة هذا العلم إيجاد وصف دقيق لمهارات هذه الجماعات التقنية والفنية ومساكنها بل وطقوسها الجنائزية. وقد بذلت جهود حثيثة منذ خمسين عامًا خلت لتحقيق هذه الأهداف، تطورت خلالها أساليب التنقيب وتحليل المخلفات والآثار كما تضافرت جهود علم الآثار الحيوانية وتقنية المعدات وقوائم الأعمال الفنية لإعادة المنظور الإثنولوجى لشعوب ما قبل التاريخ.

غير أن هذا التوثيق المتميز لا يستعمل دومًا فى التعامل بعمق مع الآليات التطورية للمجتمعات البشرية فى هذه الفترة. الواقع أنه حين يتعلق الأمر بتفسير المنعطفات الرئيسية التى حدثت فى فترة ما قبل التاريخ نجد أن اللجوء للعوامل البيولوجية والمناخية يحظى بقبول أكبر من الاستناد إلى الديناميات الاجتماعية. من هنا فإن ما يروى عن التطور البشرى يقدم لنا مجتمعات العصر الحجرى القديم مشوشة بمنطق وظروف خارجية لا قبل لها بالسيطرة على أغلبها أو باعتبارها لعبة يتم التنافس والتصارع عليها ولا

تملك من ذلك خلاصًا (كما فى حالات الغزو الإقليمى). ووضع هذه الأخيرة فيما يسرد ويروى عن الهجرة يعطى رؤية خادعة لديناميات اجتماعية محتملة: مما يجعل دوافعها تبقى دومًا غامضة ويضطرنا فى تفسيرها إلى الركون للنمو السكانى الذى كثيرًا ما يرتبط بدوره بأسباب بيولوجية ومناخية.

ويثور فى نهاية الأمر تساؤل: هل هذه هى صورة الإنسان – إذن بشكل أو بآخر صورتنا – التى تعكسها لنا مجتمعات ما قبل التاريخ؟

هذا العمل لا يتناول كل عصور ما قبل التاريخ؛ فقد نحى جانبًا مئات الألوف من السنين السحيقة فى القدم رغم ثراء وجاذبية ما بها وركز على نشأة المجتمعات الحديثة التى تقرن دومًا بالإنسان العاقل. والمشكلة التى يعالجها هذا الكتاب هى التالية:

هل تشكل نهاية العصر الحجرى القديم الوسيط وبداية العصر الحجرى القديم الأعلى نقطة فاصلة بين الإنسان "المبكر" – وهو الكائن الذى اندثر تكوينه البيولوجى وانمحت سلوكياته – والإنسان "البدائى"، بمعنى الإنسان "الأول"؛ أى المؤسس للملكات والخصائص الكلية والتوجهات السلوكية التى توارثناها؟ لو اقتصر الأمر على رسم خط فاصل يوضح على يمينه إنسان النياندر وعلى يساره الإنسان العاقل حتى تصبح هناك حدود ملموسة ومفهومة بين الاثنين لهان كل شيء وأصبح ميسورًا. غير أن اختصار الأشياء على هذا النحو لا يعطى إجابة شافية على السؤال الخاص بالأسس الموضوعية للتطور المفترض وآلياته. كل ما يأمل هذا الكتاب عمله هو وصف طبيعة هذا التطور ومحاولة شرح أنماطه وأسبابه.

والإطار الذى تم اختياره لعمل ذلك سيكون بشكل خاص العصر الحجرى القديم الأعلى الأوروبى باعتباره بوتقة وضع بها علماء ما قبل التاريخ منذ زمن بعيد تعريفات لهذه المعانى المجردة. ستأخذنا بطبيعة الحال منعطفات عديدة بعيدًا وتحديدًا إلى أفريقيا والشرق الأدنى. كما أننا سنتطرق بالضرورة إلى الاحقاب التى سبقت ولحقت بهذا التقسيم الأخير للعصر الحجرى القديم. فالعصر الحجرى القديم الوسيط الذى يمثل أعلاه، والعصر الميزوليثى الذى يشكل أسفله ضروريان لتحديد مكانته فى التصور مما يتيح لعلماء ما قبل التاريخ رؤيته ومسيرته وصولاً إلى "الحداثة" السلوكية.

هل تشكل هذه الفترة فاصلاً أم أنها مجرد مرحلة فى تطور متدرج طويل المدى؟

تشكل الفصول الثلاثة الأولى مدخلاً للموضوع يراد به العودة بالتاريخ إلى الوراء قليلاً وتحليل نشأة المفاهيم التى يطبقها علماء ما قبل التاريخ فى تناولهم للعصر الحجرى القديم الأعلى مع التمييز بين توقعاتهم من هذه الفترة وما تمدهم به الوثائق والمراجع الأثرية المتاحة من حقائق.

تضطلع الفصول الأولى بمهمة أخرى وهى إيضاح بعض أهم المعانى المجردة وتبيان تداخل المفاهيم الرئيسية التى ستعرض لقارئ العمل مثل: "التطور والتطورية" فى الفصل الأول و"الزمان والمكان" فى الفصل الثانى و"المكان والبيئة" فى الفصل الثالث. ويحوى الكتاب فيما تبقى من صفحاته بعض النماذج التفسيرية التى صاحبت بدايات دراسة ما قبل التاريخ إلى جانب نماذج أخرى تواكب التعريفات الحالية.

عقب هذا الفحص النقدى العلومى يتم تناول النماذج التى بحوزتنا تفصيليًا حتى يتسنى إيضاح تطور سلوكيات العصر الحجرى القديم خاصة ما تعلق منها بتقنيات ما قبل التاريخ التى تعد أهم الركائز المرجعية لهذه الفترة – حتى أنها تشكل أهم أطره التأريخية.

أما المبحث الأول من الفصل الرابع فيتناول "دواليب التغير" وهو يحلل عينة من الأعمال المنشورة التى تعد من أهم مراجع الموضوع المتناول – بدون ادعاء التغطية الكاملة له – ويتمحور حول أندريه لوروا – جورهان Andre Leroi – Gourhan. من خلال هذا العالم وبعض من العلماء اللاحقين له يتم تناول بعض العوامل القادرة على تحديد وإيضاح معالم تطور التقنيات خاصة ما تعلق منها بالحجر.

ويخلص هذا الفصل إلى إقرار ما سبق لنا الإشارة إليه فى هذه المقدمة وهو وجود نقص نسبى فى التفسيرات الخاصة بتطور السلوكيات من الزاوية الاجتماعية رغم ما أظهرته الدراسات المعاصرة لعصور ما قبل التاريخ من طموحات فى هذا الصدد. واقع الأمر أننا حين نتناول تطور الصناعات البشرية فإن منطق التطور التقني، أيًا ما كان إطار التحليل، يبقى مفتاح التفسير الرئيسى. إلا أن هناك مراكز ثقل أخرى يمكن الاستعانة بها وهى ناشئة عن توجهات اجتماعية صريحة مثل الطابع الجماعى الذى يحكم حياة الجماعات، وتقسيم الأنشطة بها وطبيعة العلاقات التى تربط بينها.

عوامل عديدة سنحاول تحليل مدلولها ومغزاها لتفسير الاختبارات التى تمت فى كافة مجالات الثقافة المادية. ويجدر بنا هنا التساؤل عن مدى بعد هذا المنظور الاجتماعى عن مسألة "التقدم التقنى" التى تبدو حقيقة مفروغًا منها. هذه المناقشات المختلفة تنظم الموضوع المتناول فى الفصول الثلاثة الأخيرة التى تعد مقالاً فى "علم اجتماع العصور القديمة" المطوع للتفكير فى آليات التغيير المعمول بها فى المراحل الحديثة من العصر القديم.

يحمل الفصل الخامس عنوانًا رئيسيًا "دواليب التغيير" وعنوانًا فرعيًا "تحولات الصياد" وهو يتناول أدوات وتجهيزات الصيد فى الثقافة المادية للجماعات خلال هذه الفترة والمدلول الاجتماعى للملاحظات فى هذا الصدد.

وتمتد هذه المناقشة التى تربط بين المعلومات التقنية والصياغة الاجتماعية من وجهة نظر الاقتصاد إلى الفصل السادس الذى يحمل عنوان:

"نبذة عن جغرافية ما قبل التاريخ البشرية" ويعاود هذا الفصل النظر فى العلاقة بين الجماعات البشرية والبيئة المحيطة بها.

ويجدر بنا هنا التساؤل عن الطريقة التى يرى بها الإنسان نفسه ويفسر بها لحالة العالم المحيط به. ولما كانت الفنون والرموز ترجمة شديدة المباشرة لخيال الإنسان، فقد رأينا التوقف عندها فى الفصل الأخير. فطرق التعبير هذه، التى غالبًا ما تجسد كنه وصول الإنسان العاقل للحداثة، تتم هنا مساءلتها باعتبارها أعراضًا لتحولات اجتماعية سنفحص مردودها وصداها على بعض المفاهيم التى تم تناولها.

من هنا كان أملنا فى تقديم أدوات اكتشاف الإنسان العاقل فى العصر الحجرى القديم الأعلى وبصفة خاصة من خلال الوثائق التى تم تجميعها عن هذه الفترة والتساؤل عن تصورنا لهذه الإنسانية القريبة والبعيدة، الصامتة والشديدة الفصاحة التى نرغب – بشىء كبير من الوجل – رؤية ذواتنا والتعرف عليها فيها.

يطمح هذا العمل فى التأثير فى جموع قراء أكبر من المتخصصين فى عصور ما قبل التاريخ والمولعين بهذا العلم. واقع الأمر أنه محاولة تقدم وتتبنى موقفًا يدافع عن تفوق الحدث الاجتماعى ووضوحه فى تاريخ الإنسان، وترى أنه لتفسير تطور سلوكياته هناك مدرج طويل المدى وليس سلسلة متتالية من الأحداث الجسام. وهو يرى فى نهاية الأمر أنه لا يمكن فهم الإنسان العاقل ومجتمعاته بشكل علمى كنتاج "مشروع" ما يطلق عليه تطور – غير أن هذا لا يحول دون محاولة تحديد بعض آلياته.





رسم أولى يرجح أن إدوارد و/أو لوى لارتيه Edouard et/ou Louis Lartet
قد نفذاه معًا أو أن أحدهما قد خطه فيما بين عام ١٨٦٠ و ١٨٧٠ ويمثل أعمال التنقيب التى تمت فى كهفى لوبريجا Lubriga
وبينا لاميال Pena La Miel (توريشلا دو كاميروس, إسبانيا) Torrecilla de Cameros, Espagne

الفصل الأول

بين التطور والتطورية

يحتل علم التأريخ أو "علم الزمن" مكانة رئيسية بين اهتمامات علماء ما قبل التاريخ. وهل يمكن أن تقوم قائمة لمتاحف الآثار أو للكتب الخاصة بعصور ما قبل التاريخ إلا على مفهوم التسلسل التاريخى للأحداث؟ إن "خبرتنا" بهذه الحقبة تمر عبر استيعابنا للحدود الزمنية والتى تعد علامات فارقة توجه فهمنا لهذا الأمر، ويظل علم التأريخ فى حد ذاته موضوعًا للبحث؛ فلقد ورثنا الفكرة القائلة بأن تأسيسه كان الدافع الرئيسى والمحرك بالنسبة لعلماء عصور ما قبل التاريخ خلال مائة عام أو يزيد فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا، حيث إن إثبات قدم الإنسان وغزو هذه "المساحة" الزمنية كان يعنى حينئذ وضع حدود فاصلة.

من منهج هؤلاء العلماء نستخلص فكرة أن علم التأريخ لا يقوم على مجرد تحديد تاريخ الأحداث – فالأمر لا يتعلق "بالسرد التاريخى" فحسب وفقًا للتعريف الذى صاغه بوريس فالنتين Boris Valentin[١] ولكن علم التأريخ يعطى معنى لتتابع الأحداث.

الخطوات الأولى لإنسان ما قبل التاريخ فى عصر داروين:

منذ اللحظات الأولى التى تلت اكتشاف عصور ما قبل التاريخ، حاول الناس إعطاء معنى ما، بل معنى واحد للتطور الإنسانى وللمجتمعات الإنسانية. ولكن فى

---

(١) Valentin, Boris, Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs (XIVe-VIe millénaire avant J.-C.). Paris, Publications de la Sorbonne, «Cahiers archéologiques de Paris I», 2008.

أى حالة ذهنية تمت صياغة هذا الحديث الذى يدور حول أصل الإنسان وذلك فى أوروبا القرن التاسع عشر التى بسطت سلطانها على أرجاء العالم رغبة منها ليس فقط فى غزو المكان بل والزمان أيضًا؟.

لقد تركت الأيديولوجية السائدة – أى تلك التى ترى أن خطا التقدم لا مجال لمقاومتها بل على العلوم أن تساهم فى ذلك مساهمة فاعلة – أثرها على مكتشفى حقبة ما قبل التاريخ. من هذا المنطلق فإنه عندما تم عمل تأريخ لأزمنة ما قبل التاريخ وعندما تم التمييز على سبيل المثال بين "العصر الحجرى القديم" (المنحوت) و"العصر الحجرى الحديث" (المصقول)[1] فإن هذين القسمين الأساسيين تم إدراجهما سريعًا فى إطار محاولة فهم التقدم الذى أحرزته الإنسانية. لكن طغت المطالبة بالتقدم التقنى على التغيرات الاقتصادية التى تزامنت مع هاتين الحقبتين: حقبة المزارعين – الرعاة من غير الرحل الذين عاشوا فى العصر النيوليتى (العصر الحجرى الحديث) الذى تلى عصر الصيادين جامعى الثمار الرحل الذين عاشوا فى العصر الحجرى القديم.

لم يكن ذلك الإيمان بالتقدم وليد علم ما قبل التاريخ ولكنه وجد فيه أرضًا خصبة للتطبيق. ولنذكر على سبيل المثال فكرة جوستاف كليم Gustav Klemm وهى فكرة سابقة على الاعتراف بأزمنة ما قبل التاريخ بقليل.

---

(١) Lubbock, sir John, Prehistoric Times, as illustrated by ancient Remains and the Manners and Customs of modern Savages, Londres, William and Norgate, 1865.

تم التفريد والتمييز بين هاتين الحقبتين بعد الأعمال التى قام بها جاك بوشييه دو بارت Jacques Boucher de Parthes الذى فرق مسبقًا من خلال ملاحظاته التى قام بها فى المناطق المحيطة بنهر السوم Somme بين الصناعات التى تمت فى عصور ما قبل الطوفان (المصنوعة من الغرين الطوفانى diluvium) وبين الصناعات التى يطلق عليها اسم الصناعات السلتية (المصنوعة من الطمى alluvium) تشمل الصناعات الأولى الأدوات المنحوتة، أما الثانية فقد عرفت ظهور الصقل (انظر ما يلى).

فى عام ١٨٤٣ اقترح كليم Klemm وصف نمو المجتمعات الإنسانية من خلال ثلاث مراحل هى على التوالى: مرحلة "التوحش" ومرحلة "الانصياع" ومرحلة "الحرية". وتتميز كل منها بمكتسباتها فى المجال التقنى وفى التنظيم السياسى وكذلك فى أسلوب التعبير الدينى(١). وقد وجد بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا لدى لويس هـ. مورجان Lewis H.Morgan تصوّر تخطيطى قريب الشبه للغاية من هذا الوصف ولكنه مطعّم هذه المرة بأدلة وفرتها الدراسات الخاصة بعصور ما قبل التاريخ التى أجريت خلال هذه الفترة.

يصف مورجان Morgan فى كتابه الشهير Ancient Society (المجتمع القديم)(٢) الإنسانية وقد اجتازت على التوالى عصر التوحش وعصر البربرية حتّى وصلت أخيرًا لعصر الحضارة. وقسم المؤلف كل عصر من هذه العصور إلى ثلاث مراحل تتناسب كل منها مع اختراع من الاختراعات التقنية. وهكذا عرف عصر "التوحش" بالتتابع: اللغة والنار والفأس والرمح وأخيرًا القوس (وهو ما يعرف بالعصر الحجرى القديم). وشهد عصر البربرية توالى صناعة الأوانى ثم تربية الحيوان والزراعة قبل استخدام المعادن (وهو ما يعرف "بالعصر الحجرى الحديث" ثم "عصر المعادن") أما عن عصر الحضارة فيتمثل فى الكتابة التى سبقت استخدام البارود والطباعة وأخيرًا البخار والكهرباء.

وما يجعل من هذه القراءة للتطور تطورية حقًا، هو ذلك المنطق المتكامل الذى تندرج تحته من ناحية الأحداث التى تؤكده، ومن ناحية أخرى البعد المنهجى الذى تتواجد فيه هذه الأحداث. استنادًا لذلك ينظر للأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والدينية والتقنية فى كل مجتمع إنسانى باعتبارها عناصر متشاركة فى التطور تتقدم

(1) Klemm, Gustav Friedrich, Allgemeine Kulturgeschichte der Menschheit, Leipzig, Teubner, 1843-1852, vol. I-X.

(2) Morgan, Lewis H., Ancient Society or Researches in the Lines of Human Progress from Savagery, through Barbarism to Civilization, Londres, Macmillan, 1877 (La Société archaïque, Paris, Anthropos, 1985).

وفقًا لإيقاع متناسق. وبما أن المستوى التقنى لبعض المجتمعات هو الـذى يحـدد وصفها بالتوحش، فلابد وأن تتصف بنيتها الاجتماعية وكـذلك تفكيرهـا الـدينى ووضعها الاقتصادى بكل ما يصبغها بالوحشية.

لا تتعلق مثل هذه الرؤية بالازدهار الفكرى والسلوكى للجماعات الإنسانية فحسب وإنما تخص أيضًا جوهر طبيعتها البيولوجية. ولقد تزامن بالفعل اكتشاف حقبة ما قبل التاريخ فى منتصف القرن التاسع عشر مع الاعتراف بالتطور البيولوجى للكائنات الحية. وإذا كانت الفكرة القائلة بأن الإنسان ذاته ليس سوى ثمرة لتحول فسيولوجى لا تزال موضوعًا للكثير من الجدل المتناقض، خاصة عند رواد علم عصور ما قبل التاريخ، فإن الكثيرين قاموا بالاستحواذ على هذا المفهوم حتى يدرجوا هذا العلم الجديد فى إطار تناول تطورى شامل. بهذه الطريقة، وجدت البيولوجيا لها مكانًا فى هذه المسيرة وارتبط كل من علم السلالات وعلم عصور ما قبل التاريخ (أو علم الحفريات) ارتباطًا يتسم بالتناغم. فكل هذه العلوم تسعى وراء الهدف نفسه وتتوحد جميعها حول مشروع مشترك؛ ألا وهو إعادة تدوين المسيرة الكاملة للبشرية باستخدام أمثلة مستقاة من المكان والزمان.

وفى منتصف القرن التاسع عشر، نشر شارل داروين Charles Darwin كتابه الشهير "أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعى أو المحافظة على الأجناس المفضلة فى الصراع من أجل الحياة".[1] ومع ذلك فإنه إذا ما كانت مسألة التحول البيولوجى للأنواع قد طرحت علانية على الجميع، وإذا كانت الآليات التى وصفها داروين Darwin فى كتابه – خاصة ما تعلق بالانتخاب الطبيعى – تدعم قوانين التطور التى توجت باكتشاف الجينات بعد حوالى أربعين عامًا، فإن دراسة

(1) Darwin, Charles, On the Origin of Species by Means of natural Selection, or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life, Londres, J.Murray, 1859 (traduit en français en 1862)..

التطور تظل نوعًا ما مشوشة بسبب بعض المواقف الأيديولوجية المفترضة. وهذا هو الحال فى فرنسا على وجه الخصوص، حيث قام بعض الكتاب الذين يدعون انتماءهم لنظرية داروين بإحياء فكر جون باتيست دو لامارك Jean- Baptiste de Lamarck الذى طرح واحدة من النظريات التحولية الأكثر والأقدر تعبيرًا عن منطق التقدم الذى كان حينذاك ينظر له باعتباره أمرًا مفروغًا منه.

مقابل الظروف البيئية التى ذكرها واستند إليها داروين Darwin، فضل كثير من مكتشفى علم ما قبل التاريخ تبنى فكرة الطبيعة الموجهة لتطور الأنواع خلال مسيرة التقدم على النحو الذى يرتئيه لامارك Lamarck[1]: "فتحسين الأنواع" و"التعقيد المتزايد للكائنات الحية" لا يمكن أن يكونا فى أذهانهم ثمرة الظروف فحسب، حيث إن الظروف خاضعة دومًا للصدفة كما هو الحال عند داروين. فعندما يؤكد هذا الأخير على أن البيئة تميل إلى المحافظة على هذا الكائن أو ذاك أو تعجل باختفاء كائن آخر أو تثبت صفة تشريحية ما عند نوع معين أو تفسد قابلية للتكيف لدى نوع آخر، فإنه يقترح بالفعل رؤية مختلفة للغاية عن المذهب الإحيائى الذى يتبناه لامارك Lamarck. حيث يرى لامارك أن الطبيعة تتحرك وفقًا لهدف ألا وهو التعقيد المتنامى للكائنات طبقًا لخطة موضوعة سلفًا. إلا أن داروين، وفى ذلك مدعاة للسخرية، لم يستخدم كلمة "تطور" إلا فى الطبعة السادسة من كتابه (١٨٦٩) مفضلاً على هذه الكلمة مصطلحات مثل "سلالة معدلة" و"التعديل عن

(١) Lamarck, Jean-Baptiste de, Philosophie zoologique ou Exposition des considérations relatives à l'histoire naturelle des animaux; à la diversité de leur organisation et des facultés qu'ils en obtiennent; aux causes physiques qui maintiennent en eux la vie et donnent lieu aux mouvements qu'ils exécutent; enfin à celles qui produisent, les unes le sentiment et les autres l'intelligence de ceux qui en sont doués, Paris, Dentu, 1809. الفلسفة الحيوانية – عرض للاعتبارات الخاصة بالتاريخ الطبيعى للحيوانات والخاصة بتنوع تنظيمها والملكات التى تكتسبها من جراء هذا التنظيم، والمتعلقة كذلك بالأسباب الفيزيائية التى تبقيها على قيد الحياة وتتيح لها إمكانيات الحركة التى تقوم بها؛ وتلك التى تزودها بالمشاعر أو بقدر من الذكاء لمن منها لديه استعداد لذلك.

طريق الانتخاب الطبيعي" أو "طفرات الأنواع" وذلك لتفادى، على ما يبدو، استخدام كلمة تعنى منذ القرن الثامن عشر نمو كائن ما وفقًا لمراحل محددة مسبقًا (تطور الجنين). وعلى ذلك يكون لامارك تطوريًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، بينما يظل داروين أكثر قربًا من أن يكون "تحوليًا" لكن التاريخ خلط الأوراق.

على أية حال فإنه بنهاية ١٨٦٠، أصبح بعض علماء عصور ما قبل التاريخ من المدافعين باستماتة عن النظرية التطورية (بالمعنى الحرفى للكلمة) حتى لو فضل البعض، خاصة فى فرنسا، الحديث عن التحولية؛ لأنها تجسد الميراث الفرنسى الذى يمثله لامارك Lamarck. ظلت المفاهيم التى ابتكرها هؤلاء الدارسون حينذاك وكذلك المصطلحات التى تجسدها رحمًا يخرج إلى النور لعشرات السنين.

نشأة "علم السلالات القديمة وأعمال لارتيه Lartet":

فى هذه الحقبة ذاتها، اهتم علم السلالات البشرية أيضًا بوصف هذا التطور، فعندما وفر علم ما قبل التاريخ المواد اللازمة لوصف هذا الماضى "المتوحش" ثم "البربرى" أجرى علم السلالات البشرية بحثًا وتحقيقًا مشابهًا من خلال المكان فارضًا إحضار عناصر تغذى نفس الهدف من مناطق بعيدة. ليس هناك من داع للتأكيد على العلاقة بين هذا المنهج الفكرى وبين المحاولات الاستعمارية فى ذلك الوقت. علينا فقط التأكيد على أن صورة بعض الشعوب ظلت ثابتة على حالها فى هذا العصر فى خيال الغربيين: مثال ذلك شعوب الهوتنتوت Hottentots فى أفريقيا الجنوبية والفيجين فى باتاجونيا Fuégiens de Patagonie وسكان أستراليا الأصليين أو فى تسمانيا؛ حيث ظلت هذه الصورة طويلاً مرآة تعكس هذا الانتظار.(١)

(1) Fauvelle-Aymar, François-Xavier, L'Invention du Hottentot. Paris, Publications de la Sorbonne, 2002.

على أية حال فإن كلاً من علم ما قبل التاريخ وعلم الإثنولوجيا أو علم السلالات البشرية قد التقيا ليس فقط على صعيد وصف "العادات" – وذلك حتى نستخدم كلمة مرادفة لسلوكيات لم توصف بعد "بالثقافة" – لكن أيضًا على صعيد العلاقات بين هذه العادات وبين الهوية البيولوجية لأصحابها، فلقد جلبت السفن إلى أوروبا الكثير من القطع المادية الممثلة لثقافة هذه الشعوب سواء أشياء تمثل حالة هذه الشعوب (ملابس من جلود الحيوانات – قسي وسهام ... إلخ) أو أجزاء من أجسادهم؛ فقد تم جمع الكثير من الجماجم وقوالب الأجساد التي شكلت معًا أساس منهج يتيح قراءة ما للعالم بعد إعادة صياغتها في واجهات المتاحف وصناديقها الزجاجية في القارة الأوروبية وعلى نطاق أشمل في العالم الغربي بأسره.

في مثل هذا السياق الفكري تمت الاكتشافات التي أعطت إيقاعًا متدرجًا لمعرفتنا بعصور ما قبل التاريخ ووجهت رؤيتنا لصناعاتها البربرية ورجالها القدامى. ونتذكر هنا بصفة خاصة عملية إخراج حفرية إنسان النياندر عام ١٨٥٦ حيث أثار اختلاف ملامح هذا الإنسان بشدة الجدل الدائر حول الهوية البيولوجية لإنسان ما قبل التاريخ.

وفي عام ١٨٦٨ انضم إليه الكرو – مانيون Cro- Magnon آخذاً دوره ومكانه في هذه الكوكبة من الأجداد القدامى، وقد ساهمت بعض هذه الاكتشافات في التعريف بما أطلق عليه لاحقًا العصر الحجري القديم الأعلى.

ونحن ندين بالفضل لإدوارد لارتيه Edouard Lartet لقيامه بتحديد ملامح هذه الحقبة من خلال أعماله التي قام بها عام ١٨٦٠ أولاً في منطقة جبال البرانس ثم في منطقة دوردوني Dordogne. أكملت أبحاثه الملاحظات الرائدة التي أبداها كثيرون منهم: فرنسوا جوانيه François Jouannet في منطقة دوردوني Dordogne (١٨١٦) وويليام بوكلاند في أرض الغال (١٨٢٢) وبول تورنال في مغارات بيز

Bize (١٨٢٦) بالإضافة إلى فيليب شارل شمرلنج Philippe- Charles Schmerling فى بلجيكا (١٨٣٠) أو جون باتيست نوليه Jean- Baptiste Noulet فـى المنـاطق المحيطة بمدينة تولوز فى عام (١٨٥٣) وفى الوقت ذاته كـان كـازيمير بيكـار Casimir Picard ثم جاك بوشيه دو بارت Jacques Boucher de Perthes يعمـلان فى منطقة لا سوم La Somme فى خمسينيات القرن التاسع عشر. أثار دو بـارت de Perthes المزيد من الجدل حول مدى قدم الإنسان وأرسى دعائم تسلسل زمنـي يشكل مسبقًا تعريف العصر الحجرى القديم فى مقابل العصر الحجرى الحـديث[١]. غير أن لارتيه Lartet هو الذى أتى بالأدلة الحاسـمة، متـسلحًا بأسـاليبه كعـالم حفريات ذى حالة ذهنية مختلفة، التى تؤكد وجود إنسان ما قبل التـاريخ وكـذلك إثباته لوجود مواد تسمح بوصف بعض ملامح تطوره من خلال الـدور الربـاعى quaternaire الذى ظهر فيه الإنسان. أما عن بوشيه دو بارت Boucher de Perthes فقد أشار ضمنيًا فى أعماله الأولى على الأقل إلى النظرية الكارثية التـى تحـدث عنها كوفييه Cuvier وذلك لوصف حقبة طفولة الإنسانية وتسميتها. فهو يعتقـد أن الأنواع قد ظهرت بشكل تتابعى على الأرض وفقًا لسلسلة متتالية من الكوارث ظل آخرها عالقًا فى الأذهان فى صورة الطوفان المذكور فى العهد القـديم. غيـر أن لارتيه Lartet لا يؤيد مثل هذا النمط من التفكير.[٢]

(1) Boucher de Perthes, Jacques, Antiquités celtiques et antédiluviennes. Mémoire sur l'industrie primitive et les arts à leur origine, Paris, Treuttel et Würtz, 1847 (1849), 1857 et 1864..

(٢) عرف لارتيه Lartet بمعارضته للنظرية الكارثية التى قال بها كوفييه Cuvier (مع أن هـذه النظرية قد سادت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر). لعبـت المطالبـة باسـتمرارية العصور الجيولوجية والحفرية دورًا كبيرًا ومهمًا عندما فكر العلماء فى تطور الأنواع وخاصة الإنسان. وبالرغم من أن لارتيه Lartet قد اتخذ موقفًا معارضًا لنظرية الكارثة، فأنـه ظـل طويلاً متشككًا فى نظرية التحولية، معلنًا لوقت طويل احترامه "لنظرية الثبات" القائلـة بـأن الإنسان ظل على الهيئة التى فطرها الله عليها، ولم يغير موقفه ويتحول جزئيًا إلى تبنى نظرية التحولية إلا فى السنوات الأخيرة من عمله. أما بوشيه دو بارت فقد انضم لمؤيـدى النظريـة

ولنعد قليلاً إلى الوراء، تعود تلك الأفكار المتعلقة بقدم الإنسان السابق على حدوث الطوفان إلى القرن الثامن عشر بل وقد تمتد إلى أبعد من ذلك قليلاً، إلا أن هذه الأفكار لم تتبلور حقًا إلا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر حيث تجسدت بفضل بعض الاكتشافات وتشكلت من خلال بعض الخطوط النظرية الأولية.

ينبثق علم ما قبل التاريخ من أكثر من تخصص وممارسة فكرية انتهى بها الأمر إلى التلاقى عند هذا العلم. من ناحية، أثار كل من علم الجيولوجيا وعلم الحفريات انتباه الدارسين بشكل متزايد منذ نهاية القرن الثامن عشر غير أن الإنسان لم يحظ باهتمامهما فى بداية الأمر. ومن ناحية أخرى، فإنه جرت العادة أن يخصص مؤرخو العصور القديمة جل اهتمامهم بالحضارات الكبرى (العصور القديمة بأشكالها المتعددة وخاصة الحضارة المصرية واليونانية والرومانية والدراسات السلتية... إلخ) ولكن تدريجيًا رجعوا باهتماماتهم القهقرى إلى ما وراء هذه الحضارات زمنيًا وموضوعيًا.

كما يعد العصر الحجرى القديم ثمرة دراسات حفرية وجيولوجية. فقد وجد القائمون على هذه العلوم أنفسهم أمام مخلفات وبقايا تثير التساؤلات حول موقع الإنسان خلال عصور لم يكن ليظن أن له وجودًا بها. وهكذا، فإنه عندما حرك جوانيه Jouannet التربة فى باش دو لاز Pech de l'Aze عام ١٨١٦ بحثًا عن عظام الحيوانات المنقرضة وجد إلى جوارها أحجارًا تؤكد وجود عمل بشرى مما

التحولية منذ ١٨٥٠. لكن اعتناقهما الفكرى هذا لا يعنى أن أيًا منهما قد أنكر خلق الله للكون. ويصدق هذا الأمر بشكل خاص لدى بوشيه دو بارت، حيث ظلت أفكاره الميتافيزيقية تغـذى طوال حياته طريقة تناوله لعصور ما قبل التاريخ. حول هذه الموضوعات يمكن مراجعة:

. Coye‹ Noël‹ La Préhistoire en parole et en acte. Méthodes et enjeux de la pratique archéologique (1830 – 1950), Paris, L'Harmattan‹ «Histoire des sciences humaine», 1997; Groenen‹ Marc‹ Pour une histoire de la préhistoire, Grenoble, Jérôme Million, «L'homme des origines», 1994 ; Richard, Nathalie‹ L'Invention de la Préhistoire. Une anthologie‹ Paris‹ Presses Pocket, « Agora », 1992 ; Hurel‹ Arnaud, La France préhistorienne de 1789 à 1941, Paris, CNRS Editions, 2007.

أصابه بشيء من الحيرة والتردد. حدث ذات الأمر مع ذلك الجيل من الرواد الذى تمت الإشارة إليه أعلاه ومن ضمنهم بوشيه دو بارت Boucher de Perthes الذى دافع أكثر من غيره عن الاعتقاد الذى يؤكد أن تلك الآثار قديمة للغاية.

وإذا كانت غالبية هؤلاء العلماء فى محيط الدوائر الأكاديمية فى عصرهم، فإن لارتيه Lartet الذى أنهى حياته أستاذًا للحفريات بمتحف التاريخ الطبيعى بباريس هو عالم حفريات يعرف له نظراؤه الفضل فى علمه. هذه السطوة المؤسسية ستلقى لاحقًا بكل ثقلها على فحص وجهات نظره؛ ذلك أنه يمتلك تمامًا أدوات العمل المنهجى المعمول بها آنذاك. وقد قام باستكشاف العديد من التجاويف ونشر بسرعة النتائج التى توصل إليها وأرسى بذلك الدعائم الأولى لتأريخ مرجعي واضعًا حدودًا لبعض المقاطعات فى فترة ما قبل التاريخ، كثيرًا ما سيتم الرجوع إليها لاحقًا. واقع الأمر أن نشاط عالم ما قبل التاريخ سيصبح لفترة طويلة عودة أبدية إلى ذات المنابع كما يعود المؤرخ لينهل من مكتبته المعدنية لا من مجلداته الورقية، لمراجع رسوبية بدلاً من المراجع الورقية حتى يقدم قراءة جديدة وتفسيرًا أكثر دقة والحديث هنا يجرى عن "طبقات مرجعية".

فى عام ١٨٦٠ قام لارتيه Lartet بعدة رحلات قادته أولاها إلى "ماسات" Massat فى منطقة (آربييج) وتلتها أورينياك Aurignac فى منطقة الهوت جارون (Haute Garonne) حيث أثبت بشكل مقنع وحجة داحضة قدم الإنسان؛ فقد وجد أدوات مصنوعة من (العظام أو قرون حيوان الرنة أو الأحجار بالإضافة إلى عظام وهياكل حيوانات منقرضة) بها آثار إعمال بعض من هذه الأدوات[١] وبالتالى لم يعد من الممكن الاعتراض بالقول بأن وجود النباتات القديمة والأدوات التى استعملها الإنسان معًا ناتج عن اختلاط طبيعى بين بقايا ومخلفات تعود إلى أحقاب مختلفة.

---

(1) Lartet, Edouard, «Note sur des os fossiles portant des empreintes ou entailles anciennes et attribuées à la main de l'homme», Bulletin de la Société géologique de France, 2e série, vol. XVII, 1859-1860, p. 492-495.

بعد ذلك بفترة وجيزة وتحديدًا اعتبارًا من ١٨٦٣ ذهب لارتيه Lartet إلى منطقة الدوردونى Dordogne بصحبة صديقه هنرى كريستى Henri Christy. جذبتهما بلا شك إلى هذا الإقليم الاكتشافات التى أسفر عنها التنقيب فى مواقع كومب – جرونال Combe Grenal (أو جرانال Granal وبيش دو لاز Pech de L'Aze أو بيه دو لازيه Pey de L'Azé) والتى قام بها على التوالى جوانيه Jouannet والقس أوديارن Odierne كما شدهما إلى هذه الأماكن بعضًا من المنقولات التى كان رجل يدعى شارفيه Charvat قد أراهما إياها فى العام السابق على هذا التاريخ. على أية حال فعندما ذهب العالمان إلى قرية إيزى – دو – تاياك Tayac Eyzies - de - المستقرة فوق الصخور، من كان يظن أن هذه البلدة المتواضعة التى تعود إلى العصور الوسطى ستغدو أحد أهم المراكز الخاصة بعصور ما قبل التاريخ، وأن المشهد المحيط بها سرعان ما سيرتبط بإدراكنا لهذه الفترة الزمنية.

بفضل أعمال التنقيب التى قام بها كل من لارتيه Lartet وكريستى Christy فى الكهوف المجاورة لمناطق لا مادلين La Madeleine وموستييه Moustier ووادى جورج دونفير Gorge d'Enfer ولوجيرى Laugerie تحولت هذه البقاع إلى أرض مقدسة بالنسبة لعلماء ما قبل التاريخ من كافة أرجاء العالم.

أصبح لاسم كل بلدة صغيرة اسم رنان يضاهى المواقع الكبرى ويرمز إلى فترات تاريخية رئيسية ومحورية ونذكر منها: منطقة كرو – مانيون Cro - Magnon الصخرية ومنطقتى لوجورى Laugerie ووادى جورج دونفير Vallon de Gorges d'Enfer ولاحقًا مزرعة لاسكو Ferme de Lascaux ... إلخ

لم تتوان النتائج وسرعان ما كشفت كل مغارة – وهى تعد الآن مواقع تفقّدها كل من لارتيه Lartet وكريستى Christy – عن مجموعات وفيرة من المخلفات والأدوات المصنوعة من العظام وقرون حيوان الرنة والعاج والصوان المشذب وبقايا الحيوانات... إلخ.

أسفرت دراستهما عن وجود أشكال مميزة وفريدة، وبالتالى رسمت الخطوط الأولية لعصور ما قبل التاريخ والتى سرعان ما ظهرت فى المتاحف أصداؤه. من هذه الأشياء نتوقف أمام جزء من لويحة من العاج اُكتشف عام ١٨٦٤ فى المادلين La Madcheine به محفور بدقة بالغة شكل لفيل يحيط الشعر الكثيف برأسه. "علت شهرة هذا الفيل وفاقت أهميته ما للعظام المنحوتة التى عثر عليها فى منطقة أورينياك Aurignac من أهمية فى إثبات وجود إنسان ما قبل التاريخ ووضعه فى إطار خيالى جديد جنبًا إلى جنب مع الماموث. استطاع الإنسان القديم إذن أسر هذا الحيوان الرمزى على الأقل عن طريق النظر ناقلاً إياه لأعيننا. هكذا صرنا نمتلك صورة حيوان منقرض ينتمى لحقبة كنا نظنها حتى وقت قريب مجرد حقبة جيولوجية، وتعد هذه الصورة أبلغ رد على فكر جورج كوفييه Georges Cuvier والمدافع عنه إيلى دو بومون Elie de Beaumont (١) وكان هذا الأخير بعد رفضه لنتائج بوشيه دو بارت Boucher de Perthes قد حاول عرقلة الفرضيات الأولى التى وضعها لارتيه Lartet.

جبرييل دو مورتييه Gabriel de Mortillet وتقسيم ما قبل التاريخ إلى عصور

على الرغم من أهمية أعمال لارتيه Lartet، فإن ما كتبه تم نقله بعد وفاته فى إطار فكرى يختلف نوعًا ما عن إطاره الأصلى أو على الأقل عن إطار أعماله الأولى. ففى هذه الفترة وتحديدًا بين عامى ١٨٦٠ و١٨٦١ اجتهد لارتيه Lartet فى

(١) لخص جبرييل دو مورتييه G.de Mortillet لاحقًا المواقف التى اتخذها كوفييه Cuvier والتى دافع عنها بومون بقوله: "نعم, لقد أنكر كوفييه فى كتابه المهم وجود الإنسان المعاصر للظواهر الجيولوجية الأخيرة ولآخر سلالات الحيوانات المنقرضة؛ أى أنه أنكر وجود الإنسان الحفرى. فقد كان جورج كوفييه العالم المتميز والعبقرى الذى تتشرف به فرنسا بل والعالم أجمع توراتيًا متحمسًا. Le Préhistorique. Antiquité de l'homme. Paris, Reinwald. «Bibliothèque des sciences contemporaines», 1883، p. 10 – 11.

إثبات قِدم الإنسان وفي وضع أساس لواحدة من المحاولات الأولى لتأريخ أزمنة الدور الرباعي التي عاش خلالها هذا الأخير معتمدًا في ذلك على علم الحفريات الذي يمثل ويشكل أفقه الفكري كعالم. وقد استطاع لارتيه Lartet بهذه الطريقة إيجاد تسلسل زمني ليس ارتكازًا على الإنسان وصناعاته وإنما استنادًا إلى ترتيب اختفاء الحيوانات.(١)

من هنا فقد وصل للإنسان عن طريق الحيوان محتفظًا بتفضيل وميل خاص تجاه هذا الأخير. وقد استعاد الحيوان أو لنقل على الأقل صورته من خلال الإنسان. ترتيبًا على ذلك أصبح كل موقع تنقيب مجموعة طبقات ذات دلالة حفرية: يبدأ التسلسل الزمني بالعصر الأورينياكي الذي يجسد عصر دب الكهوف الضخم وينتهي بماسات Massat. ويفصل هذا العصر عن عصر الثور البري عصر الفيل ووحيد القرن يليه عصر حيوان الرنة.

ظل هذا التأريخ المعتمد على الحيوانات يحظى بالأهمية لتضمنه تفسيرًا للدراسات المطولة التي قام بها العديد من علماء الآثار في نهاية القرن التاسع عشر لوصف هذه البقايا بقدر كبير من الدقة. ولكن ما أن ظهر هذا البناء الفكري إلى الوجود حتى تجاوزته الاهتمامات التطورية التي سبقت الإشارة إليها.

إذا كان لابد لحقبة ما قبل التاريخ التي تجسد مرحلة طفولة البشرية من هدف، فهو إبراز المسيرة الطويلة للإنسانية وبيان تطور سلوك الإنسان وتشريحه الداعمين لهذا الغرض.

استشعر وجود هذا المنعطف والتحويل في الاتجاه كل من لارتيه Lartet وكريستي Christy عام ١٨٦٤ عقب حملتهما المثيرة في منطقة البريجور

(1) Lartet, Edouard, «Nouvelles recherches sur la coexistence de l'homme fossile et des grands mammifères fossiles réputés caractéristiques de la dernière période géologique», Annales des sciences naturelles, II, Zoologie, 4e série, X, 1861, p. 177-253.

Perigord التى خلصا منها إلى وجود وصف "الأسلحة والأدوات" وصفًا دقيقًا بغيـــة التمييز التاريخى بين مختلف وقفات العصر الحجرى.(١)

هذه الخطوة قام بها لاحقًا آخرون نذكر منهم على وجه الخصوص جبرييل دو مورتييه Gabril de Mortillet الذى انكب أكثر من غيره على وصف تطور الإنسان المجسد لما تم إنجازه من تقدم. بوصفه مؤيدًا لنظرية التحولية ومناصرًا بشراسة للنظرية المادية دافع مورتييه Mortillet عن فكرة ارتقاء الإنسان بدون تدخل إلهى. من هذا المنطلق رفض إعطاء أى شكل من أشكال المعتقدات الروحية لإنسان الدور الرباعىٰ؛ أى إنسان العصر الحجرى القديم، فقد ظهرت هذه المعتقدات فى رأيه خلال العصر الحجرى الحديث كما أنها فيما يرى ليست مكونًا جوهريًا من مكونات الطبيعة البشريةً. وهو بذلك يختلف اختلافًا جذريًا عن بوشيه دو بارت Boucher de Perthes الذى سعى فى أعماله إلى إثبات ليس فقط قدم الإنسان وإنما وجود شعور روحى متأصل نفخ فيه عند خلقه. لهذه الأسباب ذاتها عارض مورتييه Mortillet أرماند كاترفاج Armand quatrefages وهو عالم حظى بمكانة كبيرة وكان يؤكد دور الخالق فى ظهور الإنسان وفى تميزه وتفرده عن سائر أنواع الحيوانات.

أما بالنسبة لمورتييه فليس هناك إله وإنما هناك سيد واحد ألا وهو التقدم التجريبى للمادة وهو المشروع الفكرى الذى دار حوله جل نشاطه، ونذكر هنا على سبيل المثال المجلة التى أسسها عام ١٨٦٤ وأصبحت من المنابر الأولى التى قامت بنشر الأبحاث المتعلقة بعصور ما قبل التاريخ:

L'histoire positive et philosophique de à Materiaux pour servir l'homme.

---

(1) Lartet. Edouard et Christy, Henri, «Sur des figures d'animaux gravées ou sculptées et autres produits d'art et d'industrie rapportables aux temps primordiaux de la période humaine», Revue archéologique, vol. IX, 1864. p. 233-267.

المواد اللازمة لدعم تاريخ الإنسان التجريبى والفلسفى.

كما قام عام ١٨٦٧ بتنظيم قاعات متحف الآثار السلتية والرومانية – الفرنسية القديمة (الذى أطلق عليه فيما بعد متحف الآثار القومية) المخصصة لعصور ما قبل التاريخ. هذا المتحف أنشاه نابليون الثالث قبل ذلك ببضعة أعوام فى ضاحية سان جيرمان – أون – ليه Saint Germain – en – Laye.

ويرجع إلى مورتييه الفضل كذلك فى عرض بعض الأشياء التى تعود لعصور ما قبل التاريخ فى معرض باريس الدولى الذى أقيم فى ذات العام. وهو أول من قام عام ١٨٦٥ بمبادرة إقامة أول المؤتمرات الدولية المخصصة لآثار وأنثروبولوجيا إنسان ما قبل التاريخ. ويذكر له كذلك إدخاله عام ١٨٧٨ لبرنامج أنثروبولوجيا ما قبل التاريخ فى برامج الدراسة بالمدرسة العليا للأنثروبولوجيا بباريس. وهذا ما يدعونا إلى تقدير تأثيره ونفوذه الكبير الذى استمر حتى وفاته عام ١٨٩٨ ومعرفة تأثير العلم التجريبى فى المجتمع الفرنسى فى ذلك العصر.

ولقد عبّر مورتييه متسقًا فى ذلك مع رؤيته عن التقدم السلوكى والتطور البيولوجى الذى حدث للإنسان خلال أزمنة الدور الرباعى. ويجسد كل تقسيم وضعه مورتييه Mortillct: الشيلى والموستيرى والسوليترى والمجدلينى انطلاقة فى تشذيب الحجر قبل التعامل مع العظام. أما الأشكال الإنسانية فقد عرفت توالى فى الأجناس والسلالات بقدر مرورها بدرجات ومراحل سلوكية (نيندرتال ونوليت فى الشيلى وأولمو فى الموستيرى. أما بالنسبة للسوليترى فقد بقيت السلالة مجهولة. وفى الدور المجدلينى كانت هناك سلالتا لوجيرى باس وكرو – مانيون)[١]

(1) Mortillet, Gabriel de, «Promenades préhistoriques à l'exposition universelle», Matériaux pour servir à l'histoire positive et philosophique de l'homme, vol. III, 1867, p.181-283 et 285-368.

وهذا البناء الفكرى يرتكز على العلاقة بين "الأجناس والسلالات" من ناحية و"السلوكيات" من ناحية أخرى. ويساهم هذا الربط بينهما فى تحديد مفهوم العصر (الحجرى – البرونزى – الحديدى) الذى يشمل الحقب التاريخية (الحجرى Eolitlique والحجرى القديم paléolithique والحجرى الحديث Néolithique) التى تنقسم بدورها إلى أدوار (الشيلى والموستيرى... إلخ).

وستلعب لاحقًا كل من الفترة السوليترية والمجدلينية دورًا فى تعريف العصر الحجرى القديم الأعلى. تتوج بالنسبة لمورتييه هاتان الحقبتان الأخيرتان من الدور الرباعى التطور المنطقى لأزمنة العصور الحجرية القديمة. هذا التطور تجسده ذروة المنتجات السوليترية والمنتجات العظمية المجدلينية بالإضافة إلى أعمال النقش والحفر والنحت التى تمثلت فى أفضل صورها خلال الحقبة الثانية.

عندما تعرضت النظرية التطورية الراديكالية التى وضعها مورتييه Mortillet لاحقًا للنقد وحل حينذاك مفهوم "الثقافة" محل "الحقبة" بقيت بعض ملامح هذا التعريف مرتبطة إلى حد ما بالدورين السوليترى والمجدلينى مما يفسر ما حظيا به من مكانة فى تسلسل أزمنة ما قبل التاريخ. بالإضافة إلى ذلك نجد أن البعد المتعلق بالسلالات والأجناس، الذى ألهمه رؤيته لتطور الإنسانية فى عصور ما قبل التاريخ، سيحتفظ ببصمته الواضحة لفترة طويلة. هذه البصمة سيكون لها أثر بالغ على عدد كبير من الدراسات والأبحاث اللاحقة بالرغم مما لحق ذكرى مورتييه Mortillet من اتهام بالدوجماتية.

كان للتسلسل التاريخي الذي قدمه مورتييه حالات وأوضاع كثيرة أوضحها كلها في أعماله المنشورة. والحالة المبينة هنا تتفق في خطوطها العريضة مع الاقتراح الذي دافع عنه عام ١٨٨٣، Galriel de‹l'homme Mortillet de Antiquité. la Préhistorique شكك مورتييه Mortillet في كون حفرية Gro- Magnon تنتمي للعصر الحجري القديم ولم يعتمد الاحفريات لوجورى -باس كحفريات ممثلة لإنسان لفترة المجدلينية.

نكتفى هنا بالقول إنه فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر احتل مورتييه قمة علم ما قبل التاريخ فى فرنسا وتجاوز تأثيره العلمى كل الحدود. أملى مورتييه من خلال تدريسه وأعماله فى تنظيم المتاحف والمجلة التى أسسها على مريديه الطرق التى ينبغى أن تسجل بها أفعال وشهادات إنسان ما قبل التاريخ. هكذا مضى الأمر بالنسبة "للأعمال الفنية" على شاكلة ما تم من تناول للأعمال والإبداعات التى كشف عنها لارتيه Lartet خلال تنقيبه فى منطقتى "ماسات" Massat و"لا مادلين" "La Madeleine" وما جمعه إدوارد بييت Edouard Piette اعتبارًا من ١٨٧١ من المواقع المجدلينية الكبرى فى منطقة جبال البرانس (جوردان Gourdan، لورتيت Lortet، إسبالونج Espalungue ولو ماس دأزيل بصفة خاصة Le Mas d'Azil)

من هذا القبيل أيضًا هناك الآثار قد التى ينحو البعض إلى تفسيرها والنظر إليها باعتبارها قبورًا مما يفسح المجال لتلمس وجود إحساس دينى.

لوحات جدارية مثيرة للقلق وقبور مثيرة للخلاف والجدل

لم يكن مفهوم فن ما قبل التاريخ أمرًا يتيسر التسليم بوجوده. وكان لارتيه Lartet أول من استشعر ضرورة الدفاع عن نسبة أعمال النحت والحفر التى عثر عليها خلال أبحاثه إلى هذا العصر. غير أن مهارة بعض من مبدعيها جعل من مهمته تلك مهمة شاقة ومعقدة.[1] بالإضافة إلى ذلك شاب هذا المجال الكثير من

---

(١) فى مواجهة الفكرة القائلة بصعوبة نسب تلك الأعمال الفنية إلى العصور القديمة والتى لا تتناسب والحالة البربرية المتسمة بالجهل التى نتصور عليها هذه الجماعات والزمر القاطنة والعاجزة عن استخدام المعادن وسائر المصادر الأولية التى تستعملها حضارتنا فى العصر الحديث، فإن لارتيه Lartet يؤكد أن صيد الحيوانات والأسماك كان يفى بوفرة هؤلاء السكان الأصليين مما كان يتيح لهم الفرصة لقضاء وقت فراغ لا ينغصه شىء. وإذا كانت الحاجة أم الاختراع فيمكن القول بأن "الفراغ الناشئ عن الحياة اليسيرة يؤدى إلى وجود الفنون"

اللغط بسبب "الأحجار التى تمثل أشكالاً" والتى عثر عليها بوشيه دو بارت Boucher de Perthes، فلقد جمع هذا الأخير بدقة شديدة أجزاء وقطعًا من صخور وحصى ذات أشكال مثيرة ومعبرة (حيوانات ووجوه بشرية) ووصفها – رغم غياب كل ملمح لتدخل بشرى فيها – بأنها تحمل دليلاً على ما أولاه الإنسان لجمال الطبيعة فى فترة ما قبل الطوفان من اهتمام رأى فى هذه الأحجار التى تخيل أن الإنسان الأول قد قام بالبحث عنها وجمعها، دليلاً على إدراك هذا الإنسان وحساسيته المفرطة وعزا ذلك إلى شعور فطرى وهبه الله إياه. وقد أضر هذا المفهوم بمعركته للاعتراف بقدم الإنسان. ويمكن هنا تفهم تشكك معارضيه فى مجموعة الصخور المثيرة للفضول التى جمعها. خلال ستينيات القرن التاسع عشر وازن مؤسسو علم ما قبل التاريخ بين هذه المقتنيات المثيرة للفضول التى تعود إلى فترة ما قبل الطوفان وبين الملاحظات العقلانية والمنطقية التى أبداها بوشيه دو بارت Boucher de Perthes حول الأدوات التى ثبت بما لا يدع مجالاً للشك تصنيعها وأبدوا الكثير من الحذر فى تقبل مفهوم الإدراك والحس البدائى لدى إنسان ما قبل التاريخ؛ وبذا لحقت الأحجار ذات الإشكال بعالم الخيال.

ظلت اكتشافات لارتيه Lartet خلال الأعوام ذاتها عصية على النقد. فقد تطلب الأمر تفسير الأشياء التى تظهر على أنها بالضرورة نتاج جهد فنى حقيقى. هنا يكمن الغموض الذى تتسم به هذه الأشياء. فهى من ناحية دليل على وجود إنسان ما قبل التاريخ مثلها فى ذلك مثل ماموث موقع لا مادلين La Madeleine الذى سبقت الإشارة إليه ومن ناحية أخرى فهى أدوات تدل على وجود فوضى أو على الأقل على نوع من أنواع الاضطراب من حيث طبيعتها.

Lartet, Edouard et Christy, Henri, «Sur des figures d'animaux gravées ou sculptées...», op.cit

وقد اتضح الأمر لاحقًا، فهذا النقاش الدائر حول الاعتراف بهذا الفن وهذه القبور يشير بوضوح إلى التباين فى الصورة البادية عن إنسان ما قبل التاريخ وما يحيط ببدايات تعريفه. والسؤال هنا: هل علينا إنكار النسبية الزمنية التى يتسم بها العقل الإنسانى؟ فمن هذا المنطق كتب لارتيه Lartet بشيء كبير من الحذر قائلاً:

"(فى مواجهة) الاعتراض القائم على التناقض الواضح بين تنفيذ هذه الأعمال الفنية وبين القدم الذى ننسبه إليها فنحن نسجل هنا ملاحظتنا بأن التقدم والكمال فى الفنون ليسا دائمًا متسقين مع التدرج الزمنى."(١)

أم أن علينا أن نعتبر أن الصفات والميزات التشكيلية التى لا مجال لإنكارها لا يجب أن تحجب الدوافع الحقيقية لمبدعيها، تلك الدوافع التى تعكس طبيعتهم البدائية، وأن نعتبر أن قانون التقدم لابد وأن ينطبق على هذه الأعمال كما ينطبق على كافة ما ينتجه الإنسان؟

هذا هو الرأى الذى يدافع مورتييه Mortillet عنه حيث يرى أن هذه الأعمال، بغض النظر عن خصائصها التشكيلية بعيدة كل البعد عن أى شكل من أشكال الروحانيات - بل قد يكون هذا ما يميزها. الواقع أن مورتييه لم يتردد فى الإشادة ببعض هذه الأعمال معتبرًا إياها تحفًا فى فن الحفر مشيرًا إلى أن البعد عن الروحانيات فيها يثبت انتمائها إلى "فن المحاكاة" وبالتالى فهى ليست إبداعات وليدة منهج فكرى بالمعنى الحرفى للكلمة.

وقد أوضحت ناتالى ريتشارد Nathale Richard ذلك بدقة عندما أشارت إلى "العقلية السطحية" التى اتسم بها إنسان ما قبل التاريخ واصمة إياه بقصور التفكير

---

(١) المرجع السابق يستند لارتيه Lartet إلى المقارنة التالية:
منذ ألفى عام أو يزيد قام كل من فيدياس Phidias وبراكسيتل Praxitèle مستخدمين العاج والمرمر بعمل أكثر تصميماتهما سموًا ودنوًا من الجمال المثالى. وهى التصميمات التى اقتصر الفن الحديث على اتخاذها كنماذج يحتذى بها دون أن يقدر على تجاوزها ولا حتى على مضاهاتها.

والتبصر ومفترضة فيه لا مبالاة تخلصت منها البشرية لاحقًا مؤذنة عندئذ بظهور الشعور الديني(١). فهذا الشعور يكون ناتجًا عن الإحساس بالخوف من المجهول وهو الإحساس الذي لم يتوافر لدى إنسان ما قبل التاريخ، هذا الإنسان الفنان الذي لم يكتسب تلك المهارة إلا بسبب أن له عينين تبصران ويدين ترسمان.(٢)

ولمفهوم فن المحاكاة هذا ميزة كبرى؛ فلم يقدم إنسان ما قبل التاريخ أعمالاً إبداعية، ولم يترك لنا سوى تمثيل صادق للحقائق التي تحيط به. فإذا انطبق هذا الأمر على أعمال الحفر والنحت التي تصور الحيوانات فإنه ينطبق أيضًا على رسمه لذاته. وهكذا يمكن اعتبار الصور البشرية وثائق تشريحية بنفس دقة دراسات علم الجماجم يستند لهما معًا عندما يتعلق الأمر بتحديد وجود سلالات تعود لعصور ما قبل التاريخ. ولقد أكد بييت Piette بشكل خاص على وجود سلالتين إحداهما "رشيقة" والأخرى بينة (أو لنقل ثقيلة الردفين) وذلك ارتكازًا على الأشكال الإنسانية التي جمعت من طبقات لوجوري - باس Laugerie – Bassc وماس دأزيل Mas – d'Azil وبراسمبوى Brassempouy. وتمثل السلالة الثانية

---

(1) Richard, Nathalie, L'Invention de la préhistoire. Une anthologie, op.cit.

(٢) يلخص مورتييه Mortillet عام ١٨٨٣ تصوراته الخاصة بفن ما قبل التاريخ قائلاً: "تؤدي أعمال الحفر والنحت سواء في مجملها أو في تفاصيلها إلى نتيجة مفادها أن الدين كان غائبًا بشكل نهائي عن ذهن إنسان ما قبل التاريخ. فهذا النحت والحفر ليسا سوى نماذج بسيطة لزخرفة غاية في البدائية أو محاكاة ناجحة إلى حد ما لأشياء موجودة بالطبيعة بينما يتميز المفهوم الديني بالميل إلى ما هو وراء الطبيعة وبالتالي يستبدل الملاحظة بالخيال. حينئذ يتم تجاهل المعطيات البسيطة والواقعية لإفساح المجال للأفكار الطائشة وليدة الخيال الجامح. من هنا فإن الأديان أيًا ما كانت تنتج أعمالاً فنية على هيئة مسوخ وأشكال شاذة لا معنى لها. ويكفي للتأكد من ذلك إلقاء نظرة خاطفة على أي معبد آلهة من معابد المتوحشين الأكثر بدائية وحتى تلك الشعوب التي توصف بأنها الأكثر استنارة. لن تجد أي أثر لذلك الانحراف الفكري وهذا الجنوح الخيالي في كل الأعمال المجدلينية فلابد وأن نخلص من ذلك - وأنا أكرر هذا الأمر - إلى أن الإنسان المجدليني فنان متميز إلا أنه لم يكن لديه أي تصور ديني.

Mortillet, Gabriel de, Le Préhistorique. Antiquité de l'homme, op.cit., p. 475 – 476.

صورة النساء لدى شعوب تعد نماذج للحالة البدائية التى كان عليها الإنسان، مثال ذلك شعب الهوتنتوت Hottentots فى جنوب أفريقيا.(١)

وهذه المقارنة المثيرة لقلق واهتمام أنصار وعاشقى التقدم عقدت بين التماثيل الصغيرة فى العصر الحجرى القديم وبين مورفولوجيا نساء هذا الشعب. وقد اكتسبت شهرتها على يد شارتجى بارتمان Saarjie Baartman وحظيت بمستقبل باهر خلال العقود الأولى من القرن العشرين فى حين تغيرت المفاهيم والتصورات الخاصة بإنسان ما قبل التاريخ وتلك المتعلقة بالشعوب البدائية المعاصرة.

وإذا كان فن عصور ما قبل التاريخ قد أصبح مقبولاً فى ظل هذه الظروف فذلك لاقترانه بالأشياء والأدوات (الأسلحة المزخرفة والتماثيل صغيرة الحجم واللوحات المحفورة) التى جمعها من ترسبات الكهوف والمغارات.

ولا يشمل هذا الفن بأية حال الرسومات وأعمال الحفر التى زينت هذه الأماكن فى عام ١٨٨٠ ولدى نشر مارسيلينو سانز دو سوتيولا Marcelino Sainz de Sautuola لأول بيان للفن الجدارى الذى يعود للعصر الحجرى القديم ويعد محصلة لأبحاثه ومشاهداته فى كهف "التاميرا" Altamira بمنطقة كانتبر "Cantabres"، تعرض لموجة نقد شديدة، وكان قد نقل رسومات سقف هذا الموقع.

---

(1) Piette, Edouard, L'Epoque éburnéenne et les Races humaines de la période glyptique, Saint-Quentin, 1894; id., «La station de Brassempouy et les statuettes humaines de la période glyptique», L'Anthropologie, vol. VI, n° 2, 1895, p.129-151.' L'Anthropologie, vol. vi, n° 2 ‹1895 ‹p, 129 – 151

عرضت فينوس قبائل الهوتنتوت فى معارض فرنسا وإنجلترا خلال الأعوام ١٨١٠ و١٨١٥

Fauvelle-Aymar, François-Xavier, «Les khoisan dans la littérature anthropologique du XIXe siècle. Réseaux scientifiques et construction des savoirs au siècle de Darwin et de Barnum», Bulletins et Mémoires de la Société d'anthropologie de Paris, n.s., vol.XI, n° 3 – 4, 1999, p. 425 – 471 ; Badou, Gérard, L'Enigme de la Vénus hottentote, Paris, Jean-Claude Lattès, 2000.

وهناك علماء عديدون وبصفة خاصة الفرنسيون منهم أمثـــال مورتييــه Mortillet وإميل كارتيلاك Cartailhac Emile لا يقبلون بصحة مثل هذه اللوحات المذهلة.(١) وبناء على طلب هذين الأخيرين قام إدوارد هارليه Edouard Harlé بتفتيش ســريع للمكان مع كل ما يحيط بالمسألة من شكوك: ألم يتلــق كارتيــاك Cortailhac مـــن مورتييه Mortillet خطابًا يأمره فيه بتوخى الحذر قائلاً:

"يريدون أن يخدعوا علماء ما قبل التاريخ الفرنسيين، فلتحذر مــن هــؤلاء الكهنة الأسبان" (٢)

من هنا فقد تنازع حكمهم من ناحية، وخلفياتهم عن قدرات ومدارك إنسان ما قبل التاريخ، ومن ناحية أخرى الخوف من الوقوع ضحايا لتزوير قد يــؤدى إلـــى فقدان الثقة فى علم طالما كافحوا لكى يحظى بالثقة والقبول. هذا التحقيق المعكوس الذى تم على يد هارليه Harlé خلص إلى نتيجة منطقية مدعمة بأدلـــة قويـــة ممـــا أضفى طابعًا حديثًا على أعماله.

انزوت مسألة الفن الأثرى الجدارى لمدة عشرين عامًا. وتطلب الأمر انتظار عام ١٨٩٥ بما حواه من أعمال لإميل ريفيير Emile Riviére فى منطقة لا موت La Mauthe بإقليم دوردونى Dordogne ثم عام ١٩٠١ واكتشاف الكهوف المجاورة لمنطقتى فون دى جوم Font- de- Gaume وكومبارل Combarelles الذى دعمته أعمال الشاب هنرى بروى Henri Breuil حتى يثور هذا الموضوع بشدة فى

(١) يذكر التاريخ أن أول من رأى هذه الرسومات هى ماريــا Maria ابنـــة دون مارســيلينو دو سوتيولا Don Marcelino de Sautuola وقد قادتها إليها عيناها خلال الطفولة.

(2) Cartailhac, Emile, «Les cavernes ornées de dessins. La grotte d'Altamira, Espagne. Mea culpa d'un sceptique», L'Anthropologie, vol. XIII, 1902, p.348-354. من أبرز الحجج التى قدمت لاحقًا هى المتعلقة بظروف الإضاءة اللازمة لتنفيــذ تلــك الأعمال؛ فانتمائها إلى تقنية لا تتناسب والعصر الحجرى القــديم الــذى يفتــرض أن تكــون الرسومات قد نفذت فيه.

3. Harlé, Edouard, «La Grotte d'Altamira, près de Santander (Espagne)», Matériaux pour servir àl'histoire primitive de l'homme, vol. XVI, 1881, p.282.

إطار علوم ما قبل التاريخ ويعود الجدل مجددًا حول الجوانب الروحية عند إنسان العصر الحجرى القديم. غير أن هذا الاعتراف الذى تم على مرحلتين: الأولى تخص الاعتراف بفن الأشياء والثانية تخص الاعتراف بفن الجداريات – ألقى بظلاله بعد ذلك على الثنائية القائمة بين الفن اللا دينى وبين التعبير المقدس الذى ستجسده فيما بعد "المعابد" الجدارية البعيدة عن أماكن السكن والحياة اليومية.[١]

وثمة جدل آخر ذو مغزى يدور حول مسألة قبور إنسان العصر الحجرى القديم التى يحتمل وجودها. وكما رأينا من قبل، يرى مورتييه أن إنسان ما قبل التاريخ كان يعيش فى سلام بمنأى تمامًا عن أية "أفكار دينية".[٢] غير أن أولى نتائج أى فكرة دينية هى إثارة الخوف من الموت أو على الأقل من الموتى. وقد نتج عن ذلك وجود تزامن بين ظهور الأفكار الدينية وظهور الممارسات الجنائزية، وبما أنه ليس هناك من أثر لأية ممارسات جنائزية فى الدور الرباعى (الذى ظهر فيه الإنسان) فلم يكن الإنسان فى ذاك الوقت لديه إذن أى نوع من أنواع الشعور الدينى[٣]، دحض مورتييه فكرة وجود مقبرة فى أورينياك Aurignac وذلك على عكس لارتيه Lartet [٤]، جدير بالذكر أن هناك مؤلفين آخرين يؤيدون هذه التصورات التطورية والمادية غير أنها كانت تصحبها تفسيرات مخالفة بشكل

---

(١) انظر الفصل السابع.

(2) Mortillet, Gabriel de, Le Préhistorique. Antiquité de l'homme, op.cit., p. 628.

(٣) المرجع السابق ص ٤٧٥ – ٤٧٦.

(٤) عندما استكشف لارتيه Lartet هذه الطبقة قبل ذلك بعشرين عامًا, فسرها على أنها قبور بسبب احتوائها على العديد من العظام البشرية الموجودة على سطح تربة هذا الموقع وقت اكتشافه. اتضح بعد ذلك أن هذه البقايا لآثار جنائزية أكثر حداثة (فى العصر الفاصل بين ما قبل التاريخ والعصور التاريخية) من الطبقة التى تحتوى على الصناعات وبقايا العظام فهى لا تتناسب مع النقوش البارزة "للولائم الجنائزية" التى كان يحلو للارتيه Lartet تخيل أنها تصحب الدفن. إذا كان هذا المثال يبدو وأنه يعطى مصداقية لموقف مورتييه Mortillet, إلا أنه لا يسرى على المدافن فى العصر الحجرى القديم والتى تم تجديدها لاحقًا مثل لوجورى Laugerie أو جريمالدى Grimaldi والتى رفض مورتييه Mortillet إعطاءها صفة القبور.

جذرى تدور حول مكانة الدين خلال العصور القديمة. فبالنسبة لآبل هوفلاك Abel Hovelacque، على سبيل المثال، يعتبر الدين ومظاهره هو أكبر تعبير عن الحالة المتدنية "لسلف الإنسان"؛ لأنه يعد استجابة ساذجة لخوفه الحيوانى من المجهول.(١)

وفى جميع الأحوال فإن وجهة النظر الإلحادية هذه والتى تتعارض بشدة مع الموقف الكهنوتى تبين كيف كان علم ما قبل التاريخ يستخدم كأداة فى أكثر أنواع الجدل حساسية التى أثارت المجتمع الفرنسى فى نهاية القرن التاسع عشر.

وبطبيعة الحال، قام المدافعون عن خلق الله للإنسان باستثمار هذا العلم الناشئ؛ ويشهد بذلك لويس فيجييه Louis Figuier، هذا المبشر العظيم بالعلوم الذى انكب من خلال مجموعة الكتب ذات الجمهور العريض - التى أشرف على نشرها - على دراسة الإنسان البدائى منذ عام ١٨٧٠. وفيما يلى نرى كيف عرّف فيجييه Figuier مشروعه عندما اعترض على "طائفة الماديين"(٢):

---

(١) إذا ما اعتقدنا أن (وهى الطريقة التى تبدو لنا صحيحة للحكم على الأشياء) الدين ليس إلا الخوف من المجهول فإن أسلاف الإنسان كانوا بلا شك دينيين كما هو الحال لدى الحيوانات الدنيا والأغلبية العظمى من البشر. ونحن لا نجد الإنسان اللا دينى حقًا إلا فى الطبقات العليا من البشر؛ فهو إنسان العلم الذى يفضل الملاحظة والتجربة وبفضلهما يختزل يومًا بعد يوم مجال خوفه وبتعبير آخر مجال الألوهية.

Hovelacque, Abel, Notre ancêtre. Recherche d'anatomie et d'ethnologie sur le précurseur de l'homme, Paris, Leroux, 1877.

2. Figuier, Louis, L'Homme primitif, Paris, Hachette, 1873, 3e éd., «Tableau de la nature. Ouvrage illustré à l'usage de la jeunesse», p.1.

(٢) فى تمهيد هذا الكتاب, يضيف المؤلف فى فاتحته:

"تشغل مسألة الأصول المؤكدة للإنسان بال المفكرين والعلماء فهم يريدون الاستزادة من المعلومات المتعلقة بإنسان ما قبل التاريخ. كما يهتم بذلك أيضًا الجمهور البعيد عن العلوم بل إننا نلحظ أن الضمير العام تحزنه الفكرة القائلة بوجود صلة قرابة بين الإنسان والقرد التى نشرها بعض العلماء الطبيعيين. وفى النهاية فإن هذه النظرية المزعجة التى لم تظهر إلا لوقت قصير وسرعان ما اختفت ما زالت تشغل الشباب. ها قد جاء الوقت كى يرتفع صوت محايد فيجد أنصار تلك النظرية المحزنة معارضًا لهم".

"يحتاج علم الإنسان البدائى إلى دعم الجميع وإسهامهم؛ (لأنه) سيكون من سوء حظ هذا العلم أن يصطبغ بصبغة معادية للدين، أو أن يمثل هذا التيار أو ذاك من التيارات الفلسفية".

وقد استند حينذاك إلى مقبرة أوريناك Aurignac، التى دحض مورتييه Mortillet وجودها وخلص (بأسلوب لا مثيل له) وبكل وضوح إلى أن الإنسان البدائى كان يعتقد فى خلود الروح؛ فقد كان ينتظر حياة مستقبلية أفضل من تلك التى حظى بها فى الدنيا بصراعاتها وبؤسها. لقد كان يؤمن بوجود الله. يا أخى أحييك وأمد إليك يدى عبر العصور الهائلة التى مرت. لقد كانت علومك قاصرة محدودة وذكاؤك ضعيفًا لكن الزمن والتقدم كفيلان بتنميتهما وتطويرهما. فهذه الجذوة ما أن تشتعل حتى تكبر وتتلألأ بمرور الزمن[1]. فمصطلح "الإنسان البدائى" الذى استعمله فيجييه Figuier ليس عديم القيمة ويجانبنا الصواب إذا اعتقدنا أن الأمر هنا يتعلق بمرادف قد يختلف بشكل طفيف عن الألفاظ المخصصة للإنسان الحفرى: فهذه الكلمات تعبر عن مفاهيم متعارضة ومتناقضة[2]. فإذا كانت الكلمة الأولى تشير لفكرة التطور البيولوجى الذى يبطن ضمنيًا وجود أشكال بشرية حفرية فإن الثانية تدحض هذا المفهوم.

---

(١) ذات المرجع ص ١٣١.

(٢) قد تبدو حالة علم الألفاظ للوهلة الأولى مضطربة بعض الشيء خلال هذه الحقبة؛ فكثير من الكتاب يستخدمون اللفظين وكأنهما بالفعل مترادفان. وبالرغم من هذا الخلط النسبى فالحق أن هذا اللفظ أو ذاك "إنسانًا بدائيًا" أو "إنسانًا حفريًا" يمكن أن يستعملا للتعبير عن القاسم المشترك بينهما فى تلك الحقبة. وهذا هو المعنى الذى تقصده عبارة فيجييه Figuier التالية:

نعنى بشكل عام بتعبير "النوع الحيوانى الحفرى" نوعًا من الأنواع المنقرضة لا يوجد من سلالته أحدًا فى الوقت الحاضر؛ فلم يكن للإنسان وجود فى تلك الحالة حيث كان أسلافنا فى عصر الكهوف يشبهوننا بشكل غير عادى مما يصعب وصفهم آنذاك بالحفريين. لم يكن هناك سوى إنسان بدائى أى كائن بشرى معاصر للثدييات الكبرى التى اختفت فى عصرنا من على وجه الأرض.

ذات المرجع ص ١٢٥.

وقد اقترح فيجييه Figuier فكرة أن الإنسان قد عاش – ولا يزال يعيش – على صورة لم تعرف أى تحولات تشريحية عبر الزمن بالرغم من سلوكه القديم. لهذا أقر فيجييه Figuier عندما عاين كرو – مانيون Cro- Magnon "أنه فى حيرة من أمره بسبب التشابه بين كرو – مانيون وبين جماجم الأجناس البشرية المعاصرة".(١)

وقد حاول تطبيق الفكرة نفسها على إنسان النياندر Neandertal الذى يعتبر أن شكله يتشابه مع البشر المعاصرين الذين لا يتطرق الشك إلى ملكاتهم العقلية.

فلنلخص الأمر إذن؛ فرضت الفكرة القائلة بأن الإنسان قديم للغاية نفسها خلال القرن التاسع عشر. وفى هذا الصدد، علينا دون شك أن نأخذ فى الإعتبار أنه فى عام ١٨٦٠ حين اشتعلت الخلافات التى فرقت بين دو بومون de Beaumont وبين من سيظهرون فيما بعد كعلماء أوائل فى مجال ما قبل التاريخ، فقد كان الصراع بين هؤلاء العلماء من أجل الاعتراف بهذا العلم الجديد قد أصبح منذ ذلك الوقت محسومًا لصالحهم. كل ما كان ينقصه كان فقط نفوذ عالم مثل برسويش Breswich أو ليل Lyell أو فالكونر فى إنجلترا أو لارتيه Lartet في فرنسا كى يتم الاعتراف به بشكل نهائي. وبذات الطريقة، ومنذ اللحظة الأولى لاكتشاف هذا العلم، أعطى علم ما قبل التاريخ المبادئ اللازمة لتأسيس فلسفة تقدمية تطبق على التاريخ الإنسانى وفق رؤية تجريبية مقبولة على الصعيد العالمى (لنقل تكاد تكون مقبولة). ومع ذلك فخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، تصدع مجال هذا العلم فظهرت النظرية التحولية لتتناقض مع نظرية خلق العالم، والإنسان الحفرى ليتناقض مع الإنسان البدائى.

(١) ذات المرجع ص ١١٩.

لكن بعد ذلك، وتحديدًا فى السنوات الأولى من القرن العشرين، ضاقت الفجوة بشكل ملحوظ بين التفسيرات المختلفة لهذا العلم. إذا كان مبدأ تطور الإنسان يعد أمرًا مسلمًا به بين الجميع إلا أنه قد تزامن معه التشكك فى بعض دوافع النظرية التطورية وفقًا للمنظور الفلسفى الذى أسسها عليه مورتييه Mortillet.

فى هذا المشروع الذى أسهم فيه بكل نشاط جيل جديد من علماء ما قبل التاريخ، يحتل تعريف العصر الحجرى القديم الأعلى وسماته مكانة محورية.

يبرز ضمن هذه الطليعة الأولى هنرى بروى Henri Breuil الذى فرضت شخصيته نفسها؛ فقد كان قسًا كاثوليكيًا وفى ذات الوقت بمثابة حبر أعظم فى علم ما قبل التاريخ. ويرجع له الفضل فى كتابة العديد من النصوص المؤسسة لهذا العلم، مثال ذلك كتابه: Subdivisions du paléolithique supérieur "أقسام وتقسيمات العصر الحجرى القديم الأعلى" فى عام ١٩١٣[١].

كان إنتاج هذه الفترة وإبداعها متعارضين مع النموذج الخطى الذى قدمه مورتييه Mortillet، فقد كان يسمح بتعايش الإنسان الحجرى مع الإنسان البدائى فى ذات الاستدلال. وهو التقسيم الذى يتوافق مع مكانتى إنسان النياندر وإنسان الكرو - مانيون الذى يتواجد كل منهما فى مواجهة الآخر وتفصل بينهما الحدود الزمنية الحائلة بين العصر الحجرى القديم الأدنى والعصر الحجرى القديم الأعلى[٢].

(1) Breuil, Henri, «Les subdivisions du Paléolithique supérieur et leur signification», Congrès international d'anthropologie et d'archéologie préhistorique, 14e session, Genève, 1912, Genève, Kündig, 1913, p. 166-238..

(٢) لم يظهر التقسيم الذى يميز الفترات الحديثة من العصر الحجرى القديم الأدنى والذى أدى إلى إيجاد عصر حجرى قديم وسيط (يواكب تقريبًا الفترة الموستيرية بالنسبة لأوروبا) إلا فيما بعد. وقد تم إقراره نهائيًا خلال السنوات ١٩٤٠ - ١٩٥٠.

الإثنولوجيا ونقد النظرية التطورية:

تمثل السنوات الأولى من القرن العشرين نقطة تحول بالنسبة للنظرية التطورية وأكثر رؤاها راديكالية، تلك التى ترسخ لتحول كلى وخطى للإنسان بفضل تقدم دائم. وسرعان ما عارض بروى Breuil بعضًا من أسس علم التأريخ التى وضعها مورتييه Mortillet وكتب قائلاً: "ليس تطور الشعوب (...) بالأمر الهين كما يصوره البعض".(١)

لكن نقد النظرية التطورية كان لا يزال مبكرًا وحادًا فى مجال الإثنولوجيا. عارض كثير من المؤلفين مثل عالم الأنثروبولوجيا الأمريكى فرانز بواس Franz Boas النماذج السائدة آنذاك: الصلة بين الحالة الاجتماعية والنمو البيولوجي للإنسان، تسجيل كل مشاهدة وملاحظة فى داخل إطار مرجعى محدد سلفًا ومبنى وفق مراحل نمو سلوكى.

من هنا لم يعد عالم الإثنولوجيا يهتم بالأنثروبولوجيا الطبيعية وقصر تركيزه على المظاهر الثقافية.(٢) وبالتالى فهو لا يأخذ فى اعتباره أن تعريف الوضع الاقتصادى بالبسيط لاقتصاره على الصيادين الجامعين للثمار والحكم على جهل

---

(١) ذات المرجع . Id., «La question aurignacienne. Etude critique de stratigraphie comparée», Revue préhistorique, vol.II, 1907, p. 173-219, p. 219.

(٢) هذا الاتجاه الجديد للإثنولوجيا يفسر المعنى المزدوج المعاصر لمصطلح "أنثروبولوجيا": فمنذ بداية القرن العشرين, كان هذا اللفظ يعنى فى ذات الوقت العلوم الطبيعية التى تهدف إلى دراسة الإنسان من الناحية الفسيولوجية (أى "الإثنولوجيا الطبيعية" والتى إذا ما طبقت على علم ما قبل التاريخ فإنها تصبح مرادفة "لعلم الحفريات البشرية" بالإضافة إلى العلوم الإنسانية التى تهتم بالسكان الحاليين من الناحية الاجتماعية البحتة دون الرجوع لهويتهم البيولوجية "الأنثروبولوجيا الاجتماعية").

الحرفى باستخدام المعادن بكونه مستوى بدائيًا للثقافة الفنية يستلزم ضمنيًا وصم الملامح الأخرى لذات المجتمع (مثل عالم الرموز والبنى الاجتماعية) بذات "البدائية". وإذا كانت الإثنولوجيا يزداد اهتمامها تدريجيًا بالروابط الجامعة للمجالات المختلفة لنفس المجتمع فإن الملاحظة لكل هذه الأمور معًا، لم تعد تحددها مصفاة فكر مؤيد.

فلنأخذ على سبيل المثال اكتشاف الخيال عند شعوب لا تزال توصف بالبدائية. أن تكوين عالمهم الرمزى وتنوعه اللذين نقلتهما اللغات والأديان التى اتضح ثراؤها بتوالى الأبحاث والتحقيقات يفندان افتراضات أنصار النظرية التطورية تفنيدًا قويًا كما يكذبان الرؤية المتدرجة المترتبة عليها.

هذا التغير فى المنظور طرأ على المجتمع الغربى خاصة فى مجال تاريخ فنه.

فالاعتراف "بالفن الزنجى" خلال هذه السنوات وأثره الكبير المتعاظم يعد استجابة لظاهرة مماثلة، ألا يجسد الفن التكعيبى الذى استحوذ على الفن الزنجى نظرة جديدة للواقع تحاول التحقق من تعقيداته؟

هذا الانفصال عن التطورية ألا يوضح أن اهتمام علماء الإثنولوجيا قد انصرف عن مسالة تطور الشعوب؟ أحجم البعض منهم بالفعل عن الالتفات إلى نمو المجتمعات عبر الزمان وركز اهتمامه على مرجعية الحاضر مع توجيه مناهجه فى البحث على المقارنة بين المجتمعات الإنسانية من خلال المكان.

وبذلك حجب هؤلاء أثر تحقيقاتهم وأبحاثهم التطورية التى كان علم الإثنولوجيا وعلم ما قبل التاريخ قد وجّها لها جل اهتمامهما معًا.

وفى هذا السياق حلت النظرية الانتشارية diffusionniste بشكل كبير محل الرؤية التطورية بالنسبة لبعض المدارس خاصة عند تعلق الأمر بإيضاح آليات

التغيير فى مجتمع ما. إذا أضفنا لذلك المنهج الذى اتخذته الإثنولوجيا لنفسها فى ذلك الوقت وهو البحث الميدانى الذى يعتبر وجود باحثيه وعلمائه شرطًا رئيسيًا لتعريف الأرض موضع البحث - أمكننا أن نرى حدود الإثنولوجيا الحديثة وإطارها وموضوعاتها النظرية ومناهجها.

هذا ما يجسده لنا أبرز مؤسسيها مالينويسكى Malinowski الذى أقام معسكرًا على رمال جزر تروبريون Trobriand. لقد ولّى الزمن الذى كانت فيه أبحاث الإثنولوجيا تخصص فى آن واحد الجهد لقولبة أعضاء هؤلاء السكان الأصليين البؤساء الذين تصادف وجودهم فى طريق القائمين بالبحث الميدانى ولوصف سلوكهم. أى أنه مضى زمن إثبات عريهم وعوزهم الظاهرين بالحكى أو جمع الآثار المادية[١].

هذا الانفصال بين الإثنولوجيا والتطورية وبشكل ما بين الإثنولوجيا والتطور ذاته، ألا يؤدى إلى اتخاذ مسافة بين هذا العلم وعلم ما قبل التاريخ؟

لا شك أن ذلك قد حدث بشكل جزئى، على الأقل فى فرنسا - ولا يخلو اختفاء مصطلح "علم الحفريات" من القاموس الفكرى من دلالة، وهو المصطلح الذى شاع استخدامه مع علم ما قبل التاريخ. وسيعرف هذا العلم الأخير منعطفًا خلال مسيرته فى مواجهة التطورية. وقد صاحب تبنى هذا المفهوم من منطلق بيولوجى وهو ما نحا إليه معظم الباحثين فى السنوات الأولى من القرن العشرين؛ حركة نقدية على صعيد التحولات السلوكية.

---

(١) على شاكلة الأعمال التى خصصها بول هيادس Poul Hyades بين عامى ١٨٨١-١٨٨٣ لأبناء شعب الباتاجون Patagons الذين التقى بهم فى أرض النيران (بين تشيلى والأرجنتين)
Chapman, Anne, Barthe, Christine et Revol, Philippe, Cap Horn 1882 – 1883. . Rencontre avec les Indiens Yahgan, Paris, De la Martinière, «Artémuse», 1995.

البحث عن حل وسط

ابتداع العصر الحجرى القديم الأعلى

إن المقارنة بين كتابين يمثلان المحطات المهمة فى تاريخ هذا العلم تسمح بشق طريق بين الخطوط الرئيسية والعريضة للتطور الذى تم فى علم ما قبل التاريخ من نهاية القرن التاسع عشر إلى عشرينيات القرن العشرين. والكتاب الأول عنوانه:

"La France préhistorique d'après les sépultures et les monuments"

"فرنسا خلال عصور ما قبل التاريخ كما تظهرها القبور والآثار" وهو من تأليف إميل كارتياك Emile Cartailhac وهو من علماء ما قبل التاريخ الأكثر تأثيرًا فى الجيل الثانى[1]. والكتاب الثانى عنوانه:

"Les Hommes fossiles. Eléments de paléonthologie humaine"

"الإنسان الحفرى – مبادئ علم الحفريات البشرية" وقد ألفه مارسولان دو بول Marcellin de Boule وهو عالم الأنثروبولوجيا الأكثر تأثيرًا فى النصف الأول من القرن العشرين[1].

---

(1) Cartailhac, Emile, La France préhistorique d'après les sépultures et les monuments, Paris, Félix Alcan, «Bibliothèque scientifique internationale», 1889 ; Boule, Marcellin, Les Hommes fossiles. Eléments de paléontologie humaine, Paris, Masson, 1921, p. VIII.

منذ نشر هذا الكتاب عام ١٨٨٩ أصبح مرجعًا لا غنى عنه فى مجال علم ما قبل التاريخ، وظل يوصى بقراءته حتى عام ١٩٤٠. وقام بول Boule الذى صرح أنه بدأ فى ظل رعاية وعطف صديقه العزيز "إميل كارتياك" بتكريمه فى كتابه الذى نشر لأول مرة فى نفس العام الذى شهد وفاة كارتياك.

Boule, Marcellin, Les Hommes fossiles. Eléments de paléontologie humaine, Paris, Masson, 1921, p. VIII. هناك طبعة ثانية صدرت عام ١٨٩٦ هى تلك التى نستخدمها.

(2) Boule, Marcellin, Les Hommes fossiles..., op.cit ; Leroi-Gourhan, André, Les Racines du monde. Entretiens avec Claude-Henri Rocquet, Paris, Belfond, 1982, p.30.

طبع هذا الكتاب أكثر من مرة حتى عام ١٩٥٢. يعد كتاب بول مرجعًا أساسيًا لحقبة ما قبل التاريخ فى النصف الأول من القرن العشرين، وهو الكتاب الذى من خلاله اكتشف العديد من العلماء هذا التخصص مثل أندريه جوران الذى سنتحدث عنه فيما بعد، وقد صرح أنه قرأ هذا الكتاب بكثير من الاهتمام.

ما الذى يمكن ملاحظته بالنسبة لموضوع التطور البشرى على المستويين البيولوجى والسلوكى؟ يلتزم كتاب "La France Préhistorique" فى مجمله بالتأريخ الذى وضعه مورتييه Mortillet. هكذا قسم العصر الحجرى القديم إلى فترات: الفترة الشيلية Chelles والأشيلية Saint Acheul التى تسبق الفترة الموستيرية Moustier. وتتميز صناعة الفترة السوليترية Solutré بتقدم ونمو مذهل لاستعمال الأحجار(٢) وهى تلك التى تلت الفترة الموستيرية وانتهت مع صناعة الفترة المجدلينية التى تمثل "القمة فى صناعة العظام"(٣) ومع ذلك فقد أبدى كارتياك بعض الحذر حيال تطبيق هذا التاريخ بشكل كلى، حيث أوضح أنه لو كنا قد اعتبرنا هذا التأريخ مؤقتًا وخاصًا بأرض الغال La Gaule على أقصى تقدير لاقتصر أثره على تقديم بعض الخدمات.

ولكن بدلاً من ضبطه بشكل مستمر وتغييره ليتوافق مع ظروف كل بلد، تم التمسك به كقاعدة تخضع لها لا إراديًا الأبحاث والملاحظات بل والنتائج أيضًا(٤) حجب هذا النقد الموجه ضد التطور الخطى والكلى للسلوكيات الإنسانية تساؤلاً وتشككًا حول الفلسفة الوضعية العمياء(٥) التى هيأت الأجواء للاعتراف بوجود الروحانيات لدى إنسان ما قبل التاريخ.

---

(1) (Leroi-Gourhan, André, Les Racines du monde. Entretiens avec Claude-Henri Rocquet, Paris, Belfond, 1982, p.30.

(2) Cartailhac, Emile, La France préhistorique..., op.cit., p.57.

(٣) ذات المرجع ص ٥٨.

(٤) ذات المرجع ص ٤٥.

(٥) ينساق البعض وراء مظهر خادع ولأننا نلحظ أن هناك تعقداً تحسنًا هائلاً فى الصناعة من الأدوات الأكثر بدائية وبساطة إلى أعظم الآلات التى تعمل بالبخار والكهرباء فلقد اعتبر الناس أن هذا التقدم سيغدو بلا نهاية. وهكذا اعتبر التقدم قانونا للطبيعة.
ظن الناس أن الحضارة التى ستظل بمنأى عن كافة الكوارث ستزداد عظمتها حتى آخر يوم من أيام البشرية. ماذا عساى أن أقول؟ إذا ما نظرنا إلى تطور الحياة على الأرض وكأنها لابد وأن

ظل موقف كارتياك Cartailhac بشكل مواز متحفظًا تجاه التطور البيولوجى للإنسان مرتكزًا فى ذلك على مؤلفات كاترفاج quatrefages ومحاجاته لإثبات وحدة الجنس البشرى فى المكان والزمان بدلاً من الاستناد إلى النظرية التحولية الأكثر راديكالية التى دعا إليها مورتييه Mortillet بالرغم من أن كارتياك لم يستبعد معقولية مبدأ التحول التشريحى للإنسان على مر العصور إلا أنه لم يمض قدمًا فى هذا الاتجاه. وبعد أن أكد على ندرة الشواهد المتاحة آنذاك حول سلالة وسلسلة نسب الإنسان، وصف كارتياك Cartailhac "السلالتين الحفريتين" الوحيدتين اللتين لا يداخله الشك فيهما وهما: سلالة إنسان النياندر وسلالة إنسان الكرو - مانيون. وهو يعتبرهما فى حديثه تحويرات وتنوعات حدثت على مر العصور فى داخل ذات الجنس. لنؤكد هنا أن الأمر بالنسبة له لا يتعلق مطلقًا بأجناس حفرية وإنما بأشكال أركية للنوع البشرى ما زالت بعض صفاته باقية حتى يومنا هذا. بهذا المعنى وعلى شاكلة كاترفاج quatrefages وعديد من علماء الأنثروبولوجيا الآخرين المعاصرين فإن الحدود التى وضعها بين إنسان النياندر وإنسان الكرو - مانيون ليست عازلة تمامًا.

بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا، عبرت أعمال بول Boule على العكس من ذلك عن تأييد شديد من جانبه لمبدأ التطور البيولوجى للإنسان. وقد ذهب إلى وصف "أجناس" فى داخل الجنس الواحد بل وإلى وجود "أنواع حفرية" تتابعت عبر الفيات

تؤدى دائمًا إلى وجود كائنات تزداد رقيًا يومًا بعد يوم فسنفترض أن الإنسان لا يمثل آخر حلقة بالنسبة للمخلوقات كما قد يدور فى خيال البعض ولكن الملاحظة المتأنية قد تهدئ من هذه الحماسة وتقلل من هذه الآمال. فقدرات وملكات العقل البشرى يبدو وإنها لا تشارك فى هذا التقدم. فمن المستحيل أن نثبت أن طفل الشعوب التى كانت تنحت حجر الصوان كان سيعجز عن التعلم وعن النمو شأنه فى ذلك شأن أطفالنا. من يستطيع أن يؤكد لنا أن الفن قد يشهد يومًا أعظم من ذلك الذى ظهر فيه فيدياس Phidias وبراكسيتال Praxitèle؟ من الذى يقبل أن يكون ذكاء نيوتن Newton أو ديكارت Descartes اللذان استطاعا استيعاب قوانين وتناغم الكون يمكن أن يخضع للتطوير؟

إن علوم الحفريات وآثار ما قبل التاريخ والإنثولوجيا المقارنة قد عملت بلا جدوى وبإصرار شديد لم تنجح فى تفسير الغموض الذى يحيط بالبشرية وبنكانها وبأقدارها.

ذات المرجع ص ٢٦-٢٧.

عصور ما قبل التاريخ. وشيئًا فشيئًا بدأت ملامح السلالة البشرية تتبين وتتضح بشكل مطرد مع كتابة تاريخ تسلسل نسب المجموعة العليا من الرئيسات.[1] خلال هذه الفترة، ظهرت وثائق عديدة وأدلة مؤيدة لهذه الفرضية نذكر منها: البقايا الأولى لإنسان جاوة Pithécanthrope والتى عثر عليها فى جزيرة جاوة الهولندى أوجين ديبوا Eugéne Dubois عام ١٨٩٠ ثم الفك الأسفل لمويه Mauer الذى تم العثور عليه فى ألمانيا عام١٩٧٠ وإنسان بلتدون Piltdown الذى تم اكتشافه فى إنجلترا فيما بين الأعوام ١٩١٢ و١٩١٥.

آثار ومخلفات عديدة للنياندرتاليين ظهرت إلى النور فى كرابينا Krapina بكرواتيا عام ١٨٩٩ وفى شابل – أو – سان chapelle – aux – Saints فى منطقة كوريز Courréze على يد القسيسين جون وآميديه بويسونى Jean et Amédée Bouyssonie عام ١٩٠٨، وفى موستييه Moustier على يد أوتو أوزر Otto Hauser عام ١٩٠٨، وفى فيراسى Ferrassie فى منطقة دوردونى Dordogne بواسطة دينيس بيرونى Denis Peyrony عام ١٩٠٩ بالإضافة إلى ما اُكتشف فى لاكينا La quina بمنطقة شارونت Charente على يد ليون – هنرى هنرى مارتان Léan Henri Henri Martin عام ١٩١١.

وسرعان ما أدلت كل من الصين (شو – كو – تيان Chou – Kou – Tien عام ١٩٢٥) وأفريقيا الجنوبية (تونجس Taungs وستيركفونتين Sterkfontein فى العامين ١٩٢٤ و١٩٣٦) بدلوهما وأعطيانا المزيد من الوثائق والدلائل الحاسمة التى أسهمت فى تغيير المفهوم المجرد للحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد (سلف البشر الذى ذكره مورتييه Mortillet) إلى أشكال أركية للبشر (رجل جنوب أفريقيا القديم ورجل شرق أفريقيا) وأنواع من أجناس البشر الحفرية (مثل الإنسان الذكى Homo habilis والإنسان منتصب القامة Homo erectus).

---

(1) Boule, Marcellin, Les Hommes fossiles ....op. cit. pIX

لدى إصدار بول Boule للطبعة الأولى من كتابه عام ١٩٢١، لم تكن هذه المجموعة من الوثائق قد جمعت بعد، وقد تطلب ذلك الانتظار حتى النصف الثانى من القرن العشرين كما أن الأسس النظرية التى ساهمت لاحقًا فى تفسير هذه الوثائق كانت لا تزال فى طور الإعداد.

رأى بول Boul آنذاك أن هناك أربعة أشكال بشرية تتعاقب، ظهرت الأشكال الثلاثة الأولى منها خلال العصر الحجرى القديم الأدنى وفق الترتيب التالى:

إنسان هيدلبرج Homo heidelbergensis (والحفرية التى تمثله أفضل تمثيل هى حفرية الفك الأسفل لمويه Mquer)، يليه إنسان داوسونى dawsoni (وتؤكد وجوده حفرية بلتدون) فإنسان النياندر (Neandertal).

وآخر هذه الأشكال هو الإنسان العاقل الحفرى Homo Sapiens Fossilis وهو السلف المباشر للإنسان العاقل Homo sapien الذى ينتمى للعصر الحجرى القديم الأعلى وينقسم بدوره إلى ثلاثة "أجناس" وذلك وفقًا للاكتشافات التى تمت فى جريمالدى Grimaldi وكرو – مانيون Cro – Magnon وشانسولاد Chancelade ولنترك جانبًا المراحل الأكثر قدمًا من سلسلة النسب هذه[1] ونركز اهتمامنا على ظهور الإنسان العاقل وعلى مكانة إنسان النياندر.

---

(١) لنوضح هنا فقط أن إنسان جاوه بدا لبول Boule منتميًا لسلالة موازية لسلالة الإنسان وهذه القرابة تبين فى رأيه تعقد التشعب الناتج عن تطور الرئيسات. أما حفرية بلتدون فقد اتضح لاحقًا (١٩٥٣) أنها ملفقة تجمع بين جمجمة حديثة وفك شمبانزى. وإذا كان بول هو أحد الأوائل الذين اعتبروا أن هذا الجزء من الجمجمة والفك ينتميان لكائنين مختلفين يعود أصل كل منهما إلى نوع مختلف فقد خلص بالنظر إلى الجمجمة فقط إلى ترجيح وجود إنسان ذى جمجمة إنسانية فى حقبة أكثر قدمًا من الدور الرباعى quaternaire. هذا الإنسان ينتمى بشكل أوضح لسلالة الإنسان العاقل الحالى منه إلى إنسان النياندر. من هنا يبدو أن جذور سلفنا المباشر تعود لأزمنة سحيقة من الماضى (المرجع السابق صـ ١٧٢) من هنا وأيًا ما كانت الشكوك والمخاوف التى تحيط بحفرية بلتدون فهى تؤيد حجته المرجحة لوجود فصل جذرى منذ أمد بعيد بين الإنسان العاقل وإنسان النياندر.

يدافع بول Boule عبر صفحات كتابه عن فرضية يتوقع لها مستقبلاً واعدًا وهى القائلة بوجود فصل حاسم وجازم بين إنسان النياندر والإنسان العاقل، فإنسان النياندر فى رأيه فى أدنى مراتب تطور السلالة البشرية. وهو لا يتردد قط فى وصفه "بالنوع المتدنى"[١]. هذا الفصل البيولوجى يجد صدى عاليًا له فى المجال السلوكى فهناك قفزة ثقافية ذات دلالة تميز المنتجات البشرية المنسوبة إلى إنسان النياندر؛ أى تلك التى تنتمى إلى الفترة الموستيرية[٢] ومنتجات العصر الحجرى القديم الأعلى الذى بدأ ببداية الثقافة الأوريناكية. هذه الثقافة قد تكون نتاج الأطوار الأكثر قدمًا من الإنسان العاقل التى تمثلها سلالات جريمالدى وكرو - مانيون. هذا الفصل السلوكى كان ذا أثر على مجموعة الأدوات الحجرية وعلى تقدم صناعات العاج وعظام قرون الرنة، وبشكل خاص على ظهور التعبيرات الدينية والجمالية والرمزية (النحت والفنون وأدوات الزينة). غير أنه بالنظر إلى التزامن المفترض بين هذه وتلك أو على الأقل تتابعها المباغت على الأراضى الأوروبية، لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون الإنسان العاقل نتاج تطور طرأ على جماعات وزمر النياندر. كما أن ثقافته البدائية الأوريناكية لا يمكن أن ترجع أصولها إلى العصر الموستيرى:

"إن البشر الأوائل الذين ينتمون لعصر الرنة وهم الأورينياكيون الأوائل الذين جاءوا على نحو مفاجئ بعد الموستيريين فى بلادنا، كانوا بشرًا قريبين للغاية من بعض السلالات البشرية الموجودة حاليًا. وهم يختلفون عن الموستيريين سواء بسبب ثقافتهم الراقية أو رقى وتنوع خصائصهم الطبيعية. غير أن هؤلاء "الكرو- مانيون الذين حلوا فجأة محل النياندرتاليين فى بلادنا، لابد وأنهم كانوا يعيشون قبل

---

(١) ذات المرجع صـــــ ٢٤٥

(٢) كان بول يكتب كلمة Moustérien على النحو التالى Moustiérien.

ذلك فى مكان ما، وإلا فعلينا القبول بحدوث طفرة غاية فى الأهمية والمباغتة حتى لا يبدو الأمر غير معقول".[١]

الرسالة واضحة إذن كل الوضوح: فإنسان النياندر والموستيرى يجسدان كلاهما بشرية حفرية انتهت بقدوم العصر الحجرى القديم الأدنى، فى حين أن مقدم العصر الحجرى القديم الأعلى الذى يتزامن مع بداية ظهور الإنسان العاقل فى أوروبا والذى تستهله الثقافة الأورينياكية يوافق زمنيًا مجيء شكل بدائى للإنسانية الحديثة.

هذه البشرية الجديدة، لابد من البحث عن جذورها فى مكان آخر غير أوروبا؛ لأن "هذا الطريق المسدود لا يتيح لتاريخ البشرية الأولى أخذ شكل التطور المتواصل المنتظم؛ لأنه مكون من إسهامات متقطعة من موجات متتالية قادمة من أماكن بعيدة، من الأراضى الشاسعة بآسيا وأفريقيا والتى لا نملك عنها حتى الآن إلا معلومات نادرة وغير محددة".[٢]

فهذا الانفصال الرئيسى الذى حدث أثناء العصر الحجرى القديم يدعو بشكل صريح إلى رؤية انتشارية بدلاً من النظرية التطورية التى كان لا يزال يعتمد عليها حتى ذاك الوقت.

بين مؤلفى كارتياك Cartailhac وبول Boule ظهر إلى الوجود مفهوم "العصر الحجرى القديم الأعلى". ماذا يعنى هذا المفهوم؟ قد يبدو كخلاصة براقة جامعة لمواقف بدت فى السابق متناقضة. رد بول Boule على شكوك كارتياك Cartailhac ومعاصريه من العلماء حول موضوع التطور البيولوجى للإنسان بقوله إن الجنس البشرى يعد حقًا نتاج تحول حدث بمرور الزمن. ولكن هل يعنى ذلك أن

---

(١) ذات المرجع ص ٢٤٣.
(٢) ذات المرجع ص ١٠.

بول Boule يؤكد على النصر الحقيقى والكامل للتصورات التى سبق لمورتييه Mortillet الدفاع عنها بضراوة؟ الإجابة بالنفى فالأمر عكس ذلك تمامًا؛ لأن ابتداع العصر الحجرى القديم الأعلى هو مواصلة للنقد اللاذع للتطورية الراديكالية الذى تبناه مورتييه Mortillet استكمالاً لما بدأه كارتياك Cartailhac؛ فالتطور الإنسانى ليس ثمرة تتابع غير ملموس لمراحل بيولوجية وسلوكية مرتبطة ببعضها البعض بدقة تماثل ارتباط تروس ساعة الحائط. فمسرح ما قبل التاريخ يزخر بالانقطاعات والتراجعات والتناقضات الجغرافية.

على النقيض مما ذهب إليه مورتييه Mortillet، فقد نظر إلى إنسان ما قبل التاريخ باعتباره ذا حس دينى – على الأقل الإنسان العاقل – الذى نستدل من تعريفه على تمتعه بمثل هذه الصفات السلوكية.

فى هذه المسألة، لعب هنرى بروى Henri Breuil دورًا محوريًا بفضل جهاده فى معركتين أساسيتين، إحداهما للفن الجدارى والأخرى للاعتراف بالدور الأورينياكى. من هاتين المعركتين اللتين خاضهما بضراوة وتصميم ضد الجماعة المؤيدة لمورتييه Mortillet واللتين ألفتا قلوب جيل جديد من علماء ما قبل التاريخ فى السنوات الأولى من القرن العشرين حولهما اشتق تعريف العصر الحجرى القديم الأعلى.

بروى Breuil ونشأة علم ما قبل التاريخ "الحديث"

تعرف بروى Breuil للمرة الأولى على علم ما قبل التاريخ عام ١٨٩٥ عندما شارك وهو ما زال فى الثامنة عشرة من العمر فى ندوة تحدث فيها القس جون جيبار Jean Guibert، أحد معلميه، بحماس شديد عن مسألة أصل الإنسان

حيث كان قد فرغ لتوه من دراسة حولها.(١) نصح جيبار تلميذه بقراءة ما كتبه وأشار عليه بقراءة كتاب كارتياك Cartailhac عن فرنسا خلال عصور ما قبل التاريخ. استشعر بروى قوة من أخذ معلمه بيده ومن خطابات توصية زوده بها قريب له يدعى جيوفروا دولت دو منيل Geoffroy d'Ault du Mesnil كان قد ساند وساعد بوشيه دو بارت Boucher de Perthes فى إنجاز عمله فى منطقة لا سوم La Somme. وفى عام ١٨٩٧ قام بروى Breuil بأول رحلة دراسية له ولحق ببييت Piette أحد أشهر علماء ما قبل التاريخ آنذاك فى منطقة براسمبوى Brassempouy حيث كانت تعمل حملته فى التنقيب بعد عشرين عامًا من الإنجازات المذهلة فى بعض أجمل مواقع جبل البرانس Pyrénées(٢). وهكذا نشأت بين الرجلين علاقة مثمرة استمرت حتى وفاة بييت Piette عام ١٩٠٦.

فى تلك الأثناء، صعد نجم بروى Breuil مما أهله لأن يصبح واحدًا من علماء ما قبل التاريخ الأكثر تأثيرًا فى النصف الأول من القرن العشرين.

وإذا كانت أعماله الأولى تدور حول العصر البرونزى إلا أن اهتمامه بالعصر الحجرى القديم الذى ضاعف منه بلا شك تردده على بييت Piette ورؤيته لمجموعاته ازداد بتتابع أعمال التنقيب التى أجراها فى أماكن مختلفة على خطا معلمه وموجهه (خاصة فى منطقة ماس دأزيل Mas d'Azil).

بدأ نجاح بروى Breuil الفعلى فى هذا المجال عام ١٩٠١ عندما اقترن اسمه باكتشاف الرسوم وأعمال النحت على جدران كهوف منطقة البريجور Périgord وتحديدًا فى فون دى جوم Font – de – Gaume وكومباريل Combarelles. قام بروى

---

(1) Guibert, Jean, Les Origines, questions d'apologétique. Cosmogonie. Origine de la vie, origine des espèces, origine de l'homme. Unité de l'espèce humaine. Etat de l'homme primitif, Paris, Letouzey et Ané, 1896.

(٢) انظر عاليه.

Breuil ولويس كابيتان Louis Capitan بنشر تلك الاكتشافات سريعًا مما أثــار جــدلاً حقيقيًا حول الاعتراف بالفن الجدارى الذى توقف طويلاً بعد الخــلاف الــذى أثارتــه رسوم التاميرا Altamira وأخذ بروى Breuil مكانه كمعارض لمورتييه ومن خلفه.

من جهة أخرى قربه هذا الصراع منذ عام ١٩٠٢ من كارتياك Cartailhac الذى كان قد عمل مع مورتييه لاستبعاد فرضية مثل هذا الفن عظيم الحجم. وقــع عالم عصور ما قبل التاريخ البارز، ابن إقليم جسقونيا، أســيرًا لشخــصية القــس الشاب الطاغية وأبدى اقتناعه بهذه الاكتشافات الجديدة. وسرعان ما ارتبط الرجلان بأواصر صداقة حقيقية جمعت بينهما.

بعد اعترافه بأخطائه فى مقال شهير بعنــوان "اعترافــات متــشكك" "Mea Culpa d'un Sceptique" انضم كارتياك Cartailhac لبروى Breuil فى دفاعه عــن الفن الجدارى. وقام الاثنان بفرض سطوتهما على هذا المجــال وبــذلك اســتبعدا آخرين طمحوا إلى الاعتراف بهذه الظواهر مثل ريفيار Rivière الذى اكتشف عام ١٨٩٥ أعمال لا موت La Mouthe المحفورة. انطلق الاثنان معًــا فــى مــشروع ضخم لاستكشاف الكهوف واستهلاه بالرجوع إلى التاميرا Altamira وقــد نــشرا أعمالهما حول هذا الموضوع عام ١٩٠٦، ويمكننا القول إن كارتياك Cartailhac قد فتح أمام بروى Breuil أبواب منطقة البرانس على مصراعيها[(١)].

وأصبحت هذه المنطقة من الأماكن المفضلة لعملهما. ارتبط العالمــان فــى الاكتشافات وفى دراسة أعمال مارســولا Marsoulas (١٩٠٢) وجارجــا Gargas (١٩٠٦) ونيــو Niaux وبيــدياك Bédeilhac (١٩٠٦) ولــو بورتــال Le Portel (١٩٠٨) بالإضافة إلى لو توك دودوبار Le Tuc d'Audoubert (١٩١٢) وليه تروا – فرير Les Trois – Frères (١٩١٦) دون أن يترك بروى Breuil مجال البحــث

---

(1) 1. E. Cartailhac, «Les cavernes ornées de dessins...», op.cit.

فى كهوف منطقة البريجور Périgord حيث تعددت الاكتشافات هناك أيضًا. فى بضعة أعوام، احتل الفن الجدارى الصدارة بين الدراسات المخصصة لأزمنة ما قبل التاريخ وأصبح بروى Breuil الوسيط المميز لهذا الفن.

بفضل موهبته فى الكتابة والرسم وبفضل ما نقله من رسومات متعددة على جدران الكهوف والمغارات، أخرج بروى Breuil هذا الفن من غياهب تجاويف الجبال إلى النور. وكان لطبيعة هذا الفن المذهل ولإطاره شديد الخصوصية نتائج مباشرة على صورة إنسان ما قبل التاريخ: فاعتبارًا من ١٩٠٣ افترض سالومون ريناش Salomon Reinach أن الأمر يتعلق بأحد أشكال ممارسة السحر وسرعان ما أطلقت على الكهوف المزخرفة وقتها لفظة "المحاريب". نجد هنا أن شكلاً من روحانيات إنسان ما قبل التاريخ قد أخذ رغم بدائيته فى ذاك الوقت مأخذ الجد فى مواجهة كل ما سبق وكتبه مورتييه حول هذا الموضوع.(١)

فى ذات الوقت، دخل بروى Breuil فى صراع آخر هو صراع الاعتراف بالفترة الأورينياكية، ونذكر هنا أن مورتييه Mortillet كان قد فسر الصناعات التى عثر عليها فى مأوى أوريناك Aurignac وفقًا لوجهة نظره فى التقدم الذى حدث للبشرية على مر العصور.

---

(١) استكمالاً لما سبق كتابته عن العلاقة الوثيقة التى تربط بين علم الإثنولوجيا وعلم ما قبل التاريخ، يجدر بنا ملاحظة أن الفنون الجدارية للجماعات البدائية قد أصبحت منذ نهاية القرن التاسع عشر موضوعًا لدراسة قائمة بذاتها. حيث قام كل من كارتياك وبروى بعمل مقارنات وتشبيهات مماثلة فى كتاباتهما الأولى عن الفن الجدارى فى العصر الحجرى القديم خاصة عند نشر عملهما حول التاميرا Altamira الذى تضمن محاكاة للوحة قام بها فريديريك كريستول Frédéric Christol فى مأوى زخرفه فنانون من البوشمان bushmen (مشهد المعركة الشهير لكريستول كاف Christol Cave فى جنوب أفريقيا)

Cartailhac, Emile et Breuil, Henri, La Caverne d'Altamira à Santillane près Santander (Espagne), Monaco, 1906; Le Quellec, Jean-Loïc, Fauvelle-Aymar, François-Xavier et Bon, François, Vol de vaches à Christol Cave. Histoire critique d'une image rupestre en Afrique du Sud, Paris, Publications de la Sorbonne.

ومن الناحية المنطقية فإن الصناعة التى كشف عنها لارتيه: Lartet والتى تميزت بثراء منقولاتها المصنوعة من العظام كانت لابد وأن تنتمى لما بعد السوليترى؛ فاستعمال العظام لم يعرف إلا خلال الدور المجدلينى. وقد حدا ذلك بمورتييه Motillet بعد تمييزه الفترة، أن يلحقها بالدور المجدلينى.

غير أنه توجد بعض الأدلة التى تناقض هذا التسلسل الزمنى خاصة ما كان من جمع لهذه الصناعة بحيوانات صنفها العلماء أقدم من ذلك. فمن ناحية ظهرت منذ نهاية القرن التاسع عشر، بعض التساؤلات التى طرحها كارتياك Cartailhac ذاته، ومن ناحية أخرى أثبتت الاكتشافات التى قام بها بييت Piette فى براسمبوى Brassempouy أن هناك حلقة وسيطة تقع بين الفترتين الموستيرية والسوليترية وهى مرحلة بالغة الأهمية لما خلفته من فن منقول رائع مصنوع من العاج.[1] ونقصد هنا "تماثيل فينوس" ومنها تمثال "السيدة ذات القلنسوة" والذى عثر عليه عام ١٨٩٤ والذى فرض نفسه كصورة رمزية لعصور ما قبل التاريخ.

وإذا ما افترضنا صحة ذكريات بروى Breuil الواردة فى سيرته الذاتية[2] فإن أولى مناقشاته مع كارتياك Cartailhac حول هذا الموضوع ترجع إلى عام ١٩٠٢ فى المروج الواقعة قرب مغارة مارسولا Marsoulas فى منطقة الجارون (Haute- Garonne). أشرك كارتياك Cartailhac زميله الشاب فى تساؤلاته حول المغارة المجاورة فى تارتيه Tarté والتى كان العالمان إدوارد هارليه Edouard Harlé ولويس درباس Louis Darbas قد وجدا بها صناعة من الحجر والعظام شبيهة

(١) الحديث هنا عن الطابق "éburnéen" الخاص ببييت Piette.

(٢) كتبت المذكرات على الآلة الكاتبة ولم تنشر. وقد حفظت نسخة منها فى أرشيف المكتبة المركزية للمتحف القومى للتاريخ الطبيعى بباريس. وهناك نسخة أخرى فى متحف الآثار القومى فى سان جيرمان أون ليه Saint- Germain- en laye. راجع فيما يخص "المعركة الأورينياكية".

2. Dubois, Sébastien et Bon, François, «Henri Breuil et les origines de la "bataille aurignacienne"», in Coye, Noël (dir.), Sur les chemins de la Préhistoire. L'abbé Breuil du Périgord à l'Afrique du Sud, Paris, Somogy, 2006, p. 135-147.

بصناعة أورينياك Aurignac ومقرونة هى الأخرى بحيوانات قديمة: من هنا فإن وجود مراحل وسيطة بين الفترتين الموستيرية والسوليترية ارتبطت بهما صناعات أورينياك Aurignac وتارتيه Tarté ووجود صناعات "طبقة التماثيل الصغيرة" فى براسمبوى Brassempouy هى شغل بروى Breuil الشاغل. بعد ذلك بفترة وجيزة وتحديدًا عام ١٩٠٥ نشر بروى أول مقال له حول هذا الموضوع. حمل هذا المقال عنوانًا يرجع لعمل أوصى به لارتيه Lartet مضمونه نقد لاذع لمواقف مورتييه:

"Essai de stratigraphie des dépôts de l'âge du renne"

"دراسة لطبقات عصر الرنة الرسوبية"

وهو مقال شهير يعد شهادة لصالح الملاحظات على مواقع العمل فى مواجهة الافتراضات الأيديولوجية.(١)

لم تتوان ردود فعل "حزب مورتييه Mortillet" فى شجب وجهات نظر بروى Breuil المعادية لأعمال أستاذهم، وبالرغم من ذلك فإن الهجوم الذى شنه بروى أتى سريعًا بثماره. فقد استطاع اعتبارًا من ١٩٠٩ أن يضع بكل جسارة هذا العنوان:

"L'Aurignacien présolutréen, éplogue d'une controverse"

"الفترة الأورنياكية السابقة على الفترة السوليترية، نهاة جدل دائر"

وبذلك أكد أن هذه الصفحة قد طويت(٢).

---

(1) Breuil, Henri, «Essai de stratigraphie des dépôts de l'âge du renne», Congrès préhistorique de France, I, Périgueux, 1905, p.75 – 83 ; id., «L'évolution des idées relatives à "l'Aurignacien"», Aurignac et l'Aurignacien. Centenaire des fouilles d'Edouard Lartet, extrait du Bulletin de la Société Méridionale de Spéléologie et de Préhistoire, vol. VI – IX, 1956 – 1959 (1963), p. 36 – 39, p. 37.
والعلاقة التى يقيمها بروى لبدء هذه المرحلة ونهاية حياته جديرة بالاهتمام

(2) Id., «L'Aurignacien présolutréen. Epilogue d'une controverse», Revue préhistorique, vol. IV, 1909, p. 229 – 248 et 265 – 286.

خلال هذا الوقت، انضم كثير من العلماء بخلاف كارتياك Cartailhac وكثير من معاونيه (إيميه روتو Aimé Rutot والأخوة بويسوني Bouyssonie وبيروني Peyrony. .... إلخ) إلى صف بروى Breuil. كما جلبت عمليات تنقيب عديدة تم القيام بها للتثبت في العديد من المواقع في دوردوني Dordogne (خاصة لو روت La Ruth) وفي جبال البرانس Pyrénées (تارتيه Tarte وبعدها مباشرة جارجاس Gargas) وفي سوليتريه Solutre براهين جديدة لصالح بروى Breuil.

ويعرض كتاب جوزيف ديشلت Joseph Déchelette:

"Manuel d'archéologie préhistoriqu, celtique et gallo – romaine"

"آثار عصور ما قبل التاريخ السلتية الفرنسية – الرومانية" والذى كُتبت صفحاته المخصصة لعصر ما قبل التاريخ عام ١٩٠٨ لتفسيرات بروى Breuil كإطار مرجعي وحيد، مما أوجد لها صدى كبيرًا لدى جمهور عريض.

إلى جانب أعماله العديدة المنشورة حول هذا الموضوع وجه بروى Breuil حديثه للخارج من خلال جامعة فريبور Fribourg التي تقلد فيها عام ١٩٠٥ منصب أستاذ، وهكذا ظهرت إلى الوجود الفترة الأورينياكية محدثة فاصلاً واضحًا بين العصور المختلفة لمرحلة ما قبل التاريخ بدلاً من التطور المتدرج الذى كان قد لاقى قبولاً حتى ذاك الوقت.

دشنت الفترة الأورينياكية أول "حضارة" كبرى لصيادى عصر الرنة بأدواتها ونصالها التي تحولت إلى مجموعة متنوعة من الآلات الحجرية وأشيائها المصنوعة من العظام والخشب والعاج وشواهدها من الزخارف والأعمال الفنية.(١)

---

(١) سرعان ما أصبح هذا الكتاب مرجعًا في مجال الآثار حيث ساهم في التعريف بهذا العلم لدى جمهور يتعدى عدده بكثير دائرة الذين يقومون بممارسته. أكد ديشلت Dechelette في مقدمة الكتاب فضل بروى Breuil عليه قائلاً: "علينا أن نعبر بشكل خاص عن الامتنان الذى نستشعره تجاه المسى بروى الذى راجع باهتمام كبير المسودات الأولى لجزء كبير من هذا

إلى هذه الحضارة انتمى بعد ذلك فنانو الدورين الـسوليترى والمجـدلينى. ويرى بروى Breuil أن هذه التجديدات تفسر بالفعل وضع الحد الفاصل بين العصر الحجرى القديم الأدنى الذى ينتهى بالدور الموستيرى والعـصر الحجـرى القـديم الأعلى الذى تعد الفترة الموستيرية أولى مراحله.(١)

خلال هذه الصراعات المختلفة استطاع بروى Breuil من خلال الاعتـراف بالفن الجدارى وتفرد الدور الأورينياكى ومن ثم تفرد العصر الحجرى القديم الأعلى كله، أن ينسب لنفسه شرف نقض وفضح الدوجماتية الأيديولوجيـة التـى يمثلهـا مورتييه Mortillet ودفع علم ما قبل التاريخ إلى مصاف العلوم الحديثة.

ارتكزت أعمالها اعتبارًا من هذه الآونة على الملاحظة الدقيقة للأمـور سـواء كانت تتعلق بالطبقات الجيولوجية أو بالجوانب الفنية. الواقع أنه فى إطار التشكيك فـى التطورية الراديكالية استطاع بروى Breuil عن جدارة التماهى فى الحركة السابقة عليه والتى انضم إليها كثير من معاصريه. وجاء منهجه هذا صدى لحركة كانت قد تـشكلت فى علوم إنسانية أخرى مثل الإثنولوجيا. ولكن خلف صورة الفصل التى جاهد بـروى Breuil لجعلها مظهرًا من مظاهر هذه الفترة بإصراره طـوال حياتـه علـى الطـابع الملحمى الحماسى لهذه "المعركة" تتوارى وتختفى فى الحقيقة محاولة دقيقـة وبارعـة للتوفيق، تؤدى إلى تضييق مجال التفسير فى علم ما قبل التاريخ.

الكتاب مفيدًا إيانا بالكثير من معارفه المتعمقة فى مجال عصور ما قبل التاريخ. كثيـر مـن الصفحات المخصصة للعصر الحجرى القديم مدينة له بتعديلات وإضافات أكثر من موفقـة. وسيرى القارئ أننا اقتبسنا من كتبه الكثير، خاصة فى الجزء المتعلق بالمرحلة الأولـى مـن عصور ما قبل التاريخ".

1- Dechelette, joseph, manuel darchcologie prhistorique, celtique et galloromaine, paris, picard, 1912, p.xl – xll.

(١) اعتبر البعض الفجوة التى صنعها بروى Breuil فى تسلسل عصور ما قبل التاريخ قاطعـة حتى أنهم ذهبوا مثلما فعل جاك دو مو جان Joques de Morgan فى عـام ١٩٢١ إلـى أن استخدام مصطلح "العصر الحجرى القديم" لم يعد ينطبق إلا علـى المراحـل الـسابقة علـى "حضارات عصر الرنة" واقتبسوا مصطلح العصر الحجرى الأثرى rcheolthique لوصـف هذه الحضارات إلا أن هذه التسمية لم تلق نجاحًا.

وكما رأينا من قبل، يعد تعريف العصر الحجرى القديم الأعلى استجابة لضرورة التوفيق بين المفاهيم الخاصة بالإنسان الحفرى وهو انعكاس للتطور البيولوجى للإنسان الذى تم الاتفاق عليه، والإنسان البدائى استنادًا إلى الفكرة القائلة باستمرارية بعض الملكات البشرية. وحيث إن الجانب الروحى يعتبر سمة عامة وملازمة للإنسان، فإننا نستطيع أن نؤكد بالفعل على وجود ذلك الجانب عند شعوب ما قبل التاريخ، أو على الأقل عند من ينتمى منهم لسلالة الإنسان العاقل Sapiens. وبالتالى يمكننا القول بأن إنسان النياندر الذى يجسد صورة الإنسان الحفرى، المتوارى خلف قضبان الحدود الزمنية الفاصلة بين العصر الحجرى القديم الأدنى والعصر الحجرى القديم الأعلى قد ساهم، إذا عكسنا الآية، فى تعريف الإنسان الحديث بكل ما تحمله الكلمة من معان. ويلخص بول Boule ما سبق قائلاً:

"يمثل عصر الرنة مجموعة من الخصائص تطبعه بشكل موحد وتشكل تقدمًا هائلاً قياسًا على العالم الموستيرى. ذلك أن هناك ثمة تناقض حقيقى بين إنسان العصر الحجرى القديم السحيق والعصر الحجرى القديم الحديث.

وتضعنا اكتشافات الهياكل العظمية البشرية الآن أمام حقيقة وجود أنواع راقية حقًا حيث يملك معظمهم رأسًا أكثر دقة وجبهة عريضة مستقيمة. كما أنهم قد تركوا فى الكهوف التى سكنوها شواهد تدل على مهاراتهم اليدوية وإبداعاتهم الذهنية الابتكارية وأفكارهم الفنية والدينية وقدرتهم على التجديد حتى أنهم قد استحقوا أن يحملوا بكل جدارة لقب الإنسان العاقل "Home Sapiens"(١)

وهناك استشهاد آخر ذكره بول Boule يعبر أفضل تعبير عن محاولة التوفيق بين المذاهب التفسيرية التى طالما اعتبرت من قبل متناقضة وأصبحت ملازمة فى رأينا لتعريف العصر الحجرى القديم الأعلى.

---

(1). Boule, Marcellin, Les Hommes fossiles..., op.cit., p.247 – 24

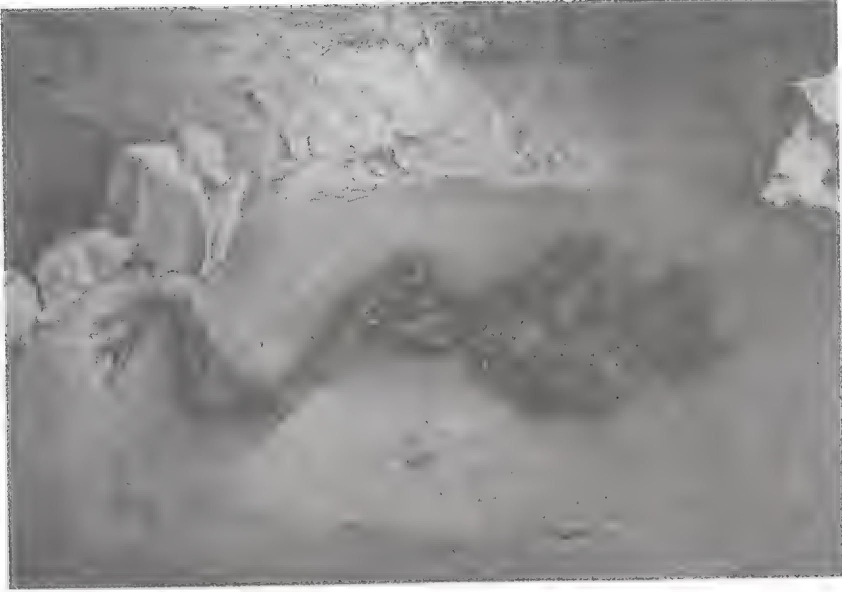
"لقد حان الوقت الذى يمكننا أن نعتبر فيه أن التطور الطبيعى للبشرية قد وصل لمنتهاه، وهكذا فقدت إشكالية أصول الإنسان طابعها الحيوانى لتغدو إشكالية أنثروبولوجية وإثنوجرافية بحتة".

الخلاصة أن الفصل البيولوجي والسلوكى الذى تم وضعه بين العصر الحجرى الأدنى والعصر الحجرى الأعلى، والذى حل محل التحول التدريجى المتواصل الذى دعا إليه مورتييه، أصبح يشكل منعطفًا فى هذا التخصص ويسمح بتبنى خطاب يؤيد تطور الإنسان وفى الوقت ذاته ينقد التطورية فى أكثر صورها راديكالية. ولكى يتم ذلك كان لابد من الاقتباس من النظريات الانتشارية. هذه النظريات أفرزت صورة من صور "نظرية الكارثية الجديدة".

ألا يتزامن بالفعل ظهور الإنسان العاقل الملقب آنذاك بالكرو - مانيون فى أوروبا قادمًا من مكان آخر غير محدد مع اختفاء الإنسان الحفرى من خلال قصة غرق إنسان النياندر؟[١]

---

(١) ذات المرجع.



صورة المقبرة الجرافيتية الخاصة "بإنسان مونتون" "L’homme de Menton" التى تم اكتشافها فى كهف كافيلون Cavillon بمنطقة جريمالدى Grimaldi بإيطاليا بواسطة إيميل ريفيير Emile Rivière

الفصل الثاني

الزمان والمكان

ظهر مفهوم "ثقافة" ما قبل التاريخ تدريجيًا محل مفهوم "الحقبة" مع "انعطاف" المعركة الأورينياكية وبشكل أكبر مع تعريف العصر الحجرى القديم الأعلى. واقع الأمر أنه يمكننا اعتبار أن إظهار هذه الفترة الجديدة، فترة العصر الحجرى القديم الأعلى، إلى الوجود مع التنحية الظاهرية لضغوط ومتطلبات التأريخ فقط قد أوجد، منظورًا مختلفًا لجماعات وزمر ما قبل التاريخ مبنيًا حول مفهوم الثقافة.

يدين هذا المفهوم بالكثير لفكرة أخذ المكان فى الإعتبار بالإضافة إلى المنظور الزمنى التاريخى الذى كان معتدًا به ويمكننا فى ضوء هذا التغيير تقييم الإضافة التى جاء بها نص بروى Breuil المنشور عام ١٩١٣ بعنوان:

"التقسيمات الفرعية للعصر الحجرى القديم الأعلى ومدلولاتها"[(١)] وهو نص يعد من أبرز كتاباته، اختزنت منه الذاكرة الجماعية لعلماء ما قبل التاريخ بشكل رئيسى تحديده فواصل بين التقسيمات الزمنية الأساسية للعصر الحجرى القديم الأعلى على النحو التالى:

- الأورينياكى (ويشمل ثلاثة أطوار: الأدنى على شاكلة الشاتلبيرونى والوسيط على نمط الأورينياكى والأعلى على مثال لا جرافيت).
- السوليترى.
- المجدلينى.

---

(1) Breuil. Henri. «Les subdivisions du Paléolithique supérieur...», op.cit.
ظهرت طبعة جديدة مصححة عام ١٩٣٧ وتعد الأكثر استخدامًا منذ ذلك الحين.

وتحوى هذه المساهمة من قبل بروى Breuil على فكرة أخرى أكثر أهمية وحداثة من وجهة نظره وهى تعايش تقاليد ثقافية متباينة معًا خلال الفترة ذاتها.

ويذهب بروى Breuil إلى أنه قد يوجد فى أوروبا بدءًا من أفول الفترة الأورينياكية (وهو يعنى هنا العصر الأورينياكى الأعلى على نمط لا جرافيت La Gravette) فصل جغرافى بين المنطقة الأطلنطية حيث يزدهر السوليترى ومن بعده المجدلينى وبين "إقليم" بحر متوسطى يشهد نشوء تقليد موازٍ قريب الشبه من "الجريمالدى" Grimaldien كما سيلاحظ لاحقًا.(١)

اختار بروى Breuil عن قصد تعبير "تقسيم فرعى" وذلك لهدفين: فهو من ناحية يضيف إلى التأريخ والتتابع الزمنى فكرة وجود تقسيمات جغرافية(٢) وواقع

---

(١) تم التخلى عن مصطلح "جريمالدى" grimaldien (الأورينياكى الأعلى ذو الهيئة الجريمالدية لدى ظهور لفظة التاردى جرافيتى Tardigravettien التى جاءت باتساع معناها ملبية للاحتياج القائم غير أنه سرعان ما تم استبدالها بكلمة Epigravettien وهى الأكثر قبولاً فى الآونة الحالية. وأيًا ما كان الاسم الذى يطلق على هذه الكيانات الثقافية فهى تجسد دومًا فى التفسيرات الحالية وجوهًا معاصرة للسوليترى والمجدلينى. .

(٢) يروى بروى Breuil فى الفصل العشرين من سيرته الذاتية كيف واتته فكرة هذا المقال على النحو التالى:

"الأصل فى فكرة هذا المقال حديث تجاذبت أطرافه مع بول Boule فى أواخر شتاء ١٩١١-١٩١٢ وعرضت عليه فيه فى عجالة كيف أنه يبدو لى أن جزءًا فقط من أوروبا هو الذى مر به العصران السوليترى والمجدلينى. هذا الجزء تفصله فصلاً غير قاطع عن آخر جبال البرانس ونهير الرون ومرتفعات الألب. فى هذا الجزء الأخير امتد العصر الأورينياكى الأعلى حتى الأزيلى L'Azilien والتاردينى Tardenoisien. انتابت بول Boule الدهشة واستوقفته الفكرة ربما أكثر منى؛ لأننى انطلقت معه فى حديثى عنها بشكل تلقائى وبدون إعداد مسبق، وقال: "بروى" Breuil فكرتك جديرة بالاهتمام لبتك تصقلها بالبحث وتعرضها فى المؤتمر القادم. لدى عودتى إلى مكتبى أخذت فى إخراج كل الأوراق والنشرات الخاصة بالعصر الحجرى القديم الأعلى وترتيبها ترتيبًا جغرافيًا ثم عمدت فى أوقات فراغى إلى انتقاء مقاطع منها. قمت بعد ذلك بعدة سفرات وأبحاث ميدانية وحتى مطلع سبتمبر لم أكن قد كتبت حرفًا واحدًا. وصلت إلى جنيف برفقة بول Boule وأوبرماير Obermaier وغيرهما وعبرنا معًا إقليمى بورجونى Bourgogne وكوت دور (ساحل الذهب Côte d'Or) المليئين بكهوف أجهل عنها كل شىء.

فى صبيحة افتتاح المؤتمر، لم أكن قد كتبت شيئًا بعد. وفى اليوم المحدد لمداخلتى تخلفت عن حضور جلسة الصباح وكتبت ثلاثة عشر مقترحًا استغرقت فى إلقائها ثلاثة أرباع الساعة. لدى نفاذ الوقت المخصص لى طلب منى الاستمرار نظرًا لما كان يمثله الموضوع من أهمية".

الأمر أن تراص مجموعات وزمر من ذوى التقاليد والمهارات المتباينة جنبًا إلى جنب فى حيز مكانى هو الأصل والأساس فى مفهوم "الثقافة".

واقع الأمر أن "ثقافة ما قبل التاريخ" خلافًا "للحقبة" لا تُعرف فقط بحدودها الزمنية وإنما بثباتها الجغرافى أيضًا. من هنا فإن علم ما قبل التاريخ مع احتفاظه بصلات وثيقة بالعلوم الطبيعية – علمَى الجيولوجيا والحفريات – وبتبنيه مفهوم "الثقافة" قد تزود بأطر فكرية تسمح له بالمشاركة هو أيضًا فى حركة الإصلاح التى ستفضى إلى التعريف المعاصر للعلوم الإنسانية.

تقسيم الحقب الزمنية والتغيرات الجغرافية:

لنفحص فى إيجاز الصلات بين المكان والزمان لدى نشأة علم ما قبل التاريخ. منذ القرن التاسع عشر والمكان مطوع لخدمة الزمان، وإذا تأملنا الفترة السابقة على هذا التاريخ، ونعنى هنا تلك المحصورة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر التى انطلقت فيها السفن الأوروبية تغزو وتجوب كل بحار الكرة الأرضية وتكتشف العالم والتى ظهر فيها ولع الغرب الشديد بوصف الاختلاف والتنوع، وجدنا أن كل ذلك قد ساهم فى اختمار الوعى بالزمن ومدى عمقه، لنقل على الأقل إن هذه النظرة إلى غير المحيط المألوف تفسر الخطط المستقبلية لغزو الماضى.

من هنا فقد ساهم تصنيف الكائنات الحية وترتيبها الذى شرع القرن الثامن عشر فى عمله، فى تحديد أطر ظهرت فى داخلها أولى نظريات التطور[١] خلال القرن التاسع عشر.

إن الترتيب الأفقى للأنواع بمعنى تصنيفها إلى طبقات وأنساق وعائلات... إلخ، طبقًا لدرجة تعقيدها العضوى النسبى الذى شاع فى القرن الثامن عشر، تحول لاحقًا إلى ترتيب رأسى. أعيد بين ليلة وضحاها تصنيف الكائنات الحية المألوف من الأقل إلى الأكثر تعقيدًا باعتباره محصلة تطور بطيء للأنواع عبر الزمان.

(١) على شاكلة ما عرضه لامارك عام ١٨٠٩ Philosophie zoologique.... op.cit.

وبدأ اتجاه لاستخدام تعبير "مراتب الطبيعة" فى القرن الثامن عشر لوصف مستوى التعقيد العضوى فى الكائنات الحية للارتقاء عبر الزمان.

وبالطريقة ذاتها، أدى اكتشاف الجماعات ذات التقاليد الغريبة أمثال "آكلى لحوم البشر" فى أمريكا الجنوبية الذين يعتمدون فى معيشتهم على الصيد والسلب والنهب مستخدمين الأحجار عوضًا عن المعادن غير المتوفرة، إلى إطلاق العنان لخيال الغربيين فيما يخص ماضيهم. وسواء اتخذناهم مثالاً لقدح أو مدح المجتمع الأوروبى المعاصر، فإن أفراد جماعات الهوتنتوت Hottentots فى أفريقيا الجنوبية والباتاجون Patagons فى أمريكا الجنوبية كما تم وصفهم – سواء كأعاجم بدائية أو كوحوش مستأنسة مفتقدين لفضائل الحضارة أو بمنأى عن مثالبها – يجسدون صورة ما للإنسانية البدائية.

منذ القرن السادس عشر والمقارنة بين الأدوات الحجرية التى تم جلبها من هذه البلدان البعيدة وبين الأشياء التى وجدت فى أوروبا وعرفت منذ أمد بعيد، تثير علامات الاستفهام حول الأصل المشترك بينها وبين الحقبة البربرية التى طواها الزمن فى أوروبا وبقيت حتى يومنا هذا فى بعض بقاع الكرة الأرضية، من أمثلة هذه الأدوات ما يطلق عليه "ألسنة الثعبان" التى ليست فى نهاية الأمر سوى رؤوس سهام و"أحجار الصاعقة" التى تعد نوعًا من الفؤوس الحجرية.(١)

---

(١) كانت هذه الأشياء الحجرية قد لفتت أنظار الغربيين منذ أمد بعيد ونسجت حولها المعتقدات والأساطير وكأنها كنوز من العصور الوسطى، ونعيد التذكير هنا بأنه منذ نهاية القرن السادس عشر أقدم ميشيل ميركاتى Michel Mercati على القول بأن "أحجار الصاعقة" ترجع إلى أصول بشرية وليست نتاج ظواهر غامضة خارقة للطبيعة. وفى كتابه المنشور عام ١٧١٧؛ أى بعد نحو قرن من وفاته ١٥٩٣، ذكر ميركاتى أن هذه الأشياء قد استخدمت فى الحروب قبل استعمال الحديد والسبب الذى ساقه معللاً ذلك أن الإنسان القديم لم يجد ما يستخدمه استخدام السكين سوى شطفات حجر الصوان. وقد استخدم العديد من الكتاب عناصر إيضاح متباينة لمقارنة هذه الأشياء بالأدوات الحجرية التى تستخدمها جماعات وشعوب معاصرة فى

كثرت التساؤلات عن هذه الأصول المشتركة حتى أنه فى القرن التاسع عشر، حين ظهر أخيرًا علم ما قبل التاريخ، أصبحت هذه الشعوب "البدائية" التى هدهدت خيال الغربيين لعدة قرون خلت، تشكل وقفات لازمة للفكر الباحث فى هذه الأزمنة السحيقة ألقى القاصى بأضوائه على الدانى وأمده بأول إطار لتفسيره(١).

استمر هذا الاتفاق الوثيق بين عوالم يفصلها بون زمنى ومكانى شاسع، طيلة القرن التاسع عشر وارتكزت عليه الكثير من الأسانيد والحجج التى استخدمت فى تصور ما أنجزته الإنسانية من تقدم وفق الفلسفة الوضعية المشار إليها سلفًا، كما رأينا من قبل، تحكمت الرؤية التطورية فى البناء الفكرى لهذا "الدار الجامع" الذى يضم معًا الأنثروبولوجيين وعلماء الآثار وعلماء الإثنولوجيا. من هنا فإن الشعوب البدائية بالصور التى تبدو عليها حياتها فى القرن التاسع عشر، أشبه بالذخائر والبقايا البيولوجية والسلوكية لماضٍ طواه الزمان فى مواقع أخرى، وبالتالى فإن الانكباب على دراسة هذه الشعوب لا يتم نتيجة اهتمام خاص بها وإنما لكونها أمثلة حية لمسيرة الإنسانية.

وقد محورت الإثنولوجيا الحديثة محتواها وطموحاتها على مشارف القرن العشرين تحديدًا حول نقد هذه النماذج، ونكتفى هنا بالقول إنه فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، لم يكن اختلاف المجتمعات الإنسانية باختلاف المكان مجهولاً بطبيعة الحال، وقد ساهم بشكل أساسى فى تفسير التكوين الزمنى.

وقد لوحظ فى أعمال علماء ما قبل التاريخ الأوائل، على الأقل أكثرهم تأثيرًا وحرصًا على ترتيب زمنى وتاريخ يحظى بالإجماع، وجود رؤية موحدة، وقد تاقت نفوسهم جميعًا إلى تحقيق هذا المطمع الفكرى خاصة مورتييه Mortillet الذى وجه عام ١٨٨٣ هذا المجاز الجميل إلى من ينتقصونه:

أمريكا على وجه الخصوص، من هؤلاء الكتاب نذكر: الدروفوند ALdrovande ١٦٤٨، جوسيو Jussieu ١٧٢٣، وماهودل Mahudel ١٧٣٠.

(1) Fauvelle-Aymar, François-Xavier Bon, François et Sadr, Karim, «L'ailleurs et l'avant. Eléments pour une critique du comparatisme ethnorgaphique dans l'étude des sociétés préhistoriques», L'Homme, n° 184, 2007, p. 25 – 46.

إن إدراك أعداء علم السلالات القديمة أن التصنيف الجيد يرسى للعلم الجديد ركائز متينة، يجعلهم يرفضون عمل تصنيف آخر [ولا يداخلنا هنا شك في أن مورتييه Mortillet يحيلنا إلى الترتيب الزمنى الخاص به]. وطبقًا لآرائهم لا يوجد تقسيم جاد. ومرجع ذلك ليس وجود فترات انتقالية بين التقسيمات وإنما لإمكانية تداخلها وتراكيبها. فهذه التقسيمات ليست متزامنة فى مختلف البلدان وليست متماثلة الطول فى كافة المناطق. هذا كله حقيقى غير أن الاعتراضات لا تخلو من الوجاهة، ويكفى لإثبات ذلك أن نسوق مثالاً. أى شىء أوضح تقسيمًا وأيسر فى الوصف والتعريف من الليل والنهار؟ لنقل إذن إن حجج أعداء تصنيف علم ما قبل التاريخ، إذا كانت ذات قيمة فستصل بنا إلى الجزم بعدم وجود كليهما، واقع الأمر أن بين الليل والنهار هناك نقلات متباينة الطول منها وقتا الأصيل والفجر. إذن فبدلاً من أن يكون الليل والنهار متزامنين فإنهما يتراكبان وفق الأقاليم بل يصل بهما الأمر إلى التعارض البين. وطول كل منهما متباين فهو أن كان يمتد لدينا إلى نحو الاثنتى عشرة ساعة فهو بالقرب من القطبين يصل إلى عدة أشهر، وبالرغم من ذلك فإن تقسيم الزمن إلى أيام وليالٍ بالغ الوضوح والدقة والعملية. والأمر لا يختلف البتة فى تقسيم ما قبل التاريخ إلى عصور وفترات وأحقاب.(١)

إذا كان "مورتييه" قد تجشم عناء الدفاع عن عرضه فذلك قبل الهجوم المتكرر عليه وعلى نظامه التأريخى من قبل بروى Breuil؛ لأن مناقشات عدة دارت بين صفوف علماء ما قبل التاريخ حول مدى عمومية وشمولية ما يقول. بل إن هذا النقاش المحتدم يعد أحد أسس هذا العلم. من هنا فقد أصر لارتيه Lartet وذلك منذ ١٨٦١ على أن التقسيمات التى قام هو نفسه بعملها استنادًا، كما نذكر، إلى معطيات علم الحفريات ليست قابلة للتطبيق بشكل نهائى إلا فى منطقة معينة

(1) Mortillet, Gabriel de, Le Préhistorique. Antiquité de l'homme, op.cit., p.22

ومحددة وهى هنا منطقة جنوب فرنسا. وواقع الأمر أنـــه لاحـــظ "امتـــدادًا لعـــصر الأرخص وهو الثور البرى الذى يمثل إحدى تقسيماته فى ليتوانيا، كمـــا لاحـــظ أن حيوان الرنة ما زال يعيش فى الغابة الهرســـينية Forêt hercynienne منـــذ عهـــد قيصر" وقد أضاف فى هذا الصدد:

"لا يختلف الأمر كثيرًا بتطبيق الطريقة الأثرية الآركية بشكل فيه عموميـــة؛ وذلك لأنه فى ذات الحقبة التى يرينا فيها "تاسيت Tacite" فى أرض الغال التابعـــة لروما القديمة La Gaule romanisée مدارس مدينة "أوتان Autun" وقد انتظم فيهـــا نحو أربعين ألف طالب و"جرمانيا La Germanie" وشعوبها تنعم بمؤسسات مدنيـــة نجده يصف لنا جماعات وأقوام مجاورة لهم على ســـبيل المثـــال Les Fenni فـــى إستونيا (الذين يعدهم أسلاف اللابون Les Lapons) وقد بقت على جهلها باســـتعمال المعادن وفى حالة من البربرية لا نقبل بها إلا على مضض لوصف ســـكان أرض الغال الأصليين المعاصرين للأفيال ووحيد القـــرن والـــضباع والدببـــة والـــذين لا يملكون للزود عن أنفسهم ومقاومة هذه الحيوانات إلا الفئوس الأشيلية المـــصنوعة من حجر الصوان أو السهام الأورينياكية المصنوعة من قرون حيوان الرنة"[1].

هذه الحجج سترد فى العديد من المؤلفات خلال العقود اللاحقة، وسنجد فـــى أعمال كارتيلاك Cartailhac بصفة خاصة صدى قويًا لها إذ أنه مثل مـــن ســـبقه سيوجه رسالة تحذير إلى من تبنى رؤية شديدة الراديكالية فيمـــا يتعلـــق بـــالتطور الإنسانى فى دروب التقدم.

هذه الدعوة لإعادة النظر فى عمومية وشمولية الدرب الذى انتهجه الإنـــسان عبر الأزمان نجد تطبيقًا لها بشكل أكثر مباشرة فى أعمال عالم ما قبـــل التـــاريخ

---

(1) Lartet, Edouard, «Nouvelles recherches sur la coexistence de l'homme fossile...», op.cit.

البلجيكى إدوارد دوبون Edouard Dupont. ففى عام ١٨٧٢ وانطلاقًا من معطيات تم جمعها من بلجيكا وشمال فرنسا طرح هذا العالم نموذجًا - من الفترة الآشـولية وحتى العصر الحجرى الحديث - يبرز فيه اختلاف بين تقليد يستنه شعب يستوطن السهول وآخر يسير عليه شعب يعيش فى الجبال[١].

هذه الرؤية البديلة للتطور الخطى الذى دافع عنه "مورتييه" Mortillet سـيتم دحضها وسحقها نظرًا لما يتمتع به هذا الأخير من نفوذ وسطوة غيـر أنهـا لهـا الفضل فى تبيان أن هناك محاولات ومخططات تفسيرية أخرى قـد بـرزت إلـى الوجود تعطى دورًا أكثر أهمية لشكل من أشكال الجغرافيا البشرية فى عصور مـا قبل التاريخ[٢].

محصلة الأمر أنه إذا كان علم ما قبل التاريخ خلال العقـود الأخيـرة مـن القرن التاسع عشر قد سيطر عليه مورتييه Mortillet ومؤيدوه بقبضة حديدية فمن الخطأ تجاهل المحاولات المتكررة لمناهضيه للتصدى له ومعارضته بإظهار رؤية أكثر تعقيدًا لتطور جماعات وأقوام ما قبل التاريخ استنادًا للتنوع الجغرافى، علـى الأقل فى الفترة الأورينياكية التى تشهد تصادمًا وعدم توافق تأريخيًـا وهـذا هـو التوجه التفسيرى الذى حاول بروى Breuil من خلال أعماله تأصـيله. وهـذا مـا يفسر بدون مدعاة شك التأييد الواسع الذى يلقاه ودليل ذلـك العـدد الكبيـر مـن المؤلفات التى تسير فى الاتجاه ذاته.

---

(1) Dupont, Edouard, «Classement des âges de la pierre en Belgique», Congrès international d'anthropologie et d'archéologie préhistorique, 6e session, Bruxelles, 1872, Bruxelles, C.Muquardt, 1873, p.459 – 479..

(٢) فى معالجته للمراحل الأكثر حداثة من عصور ما قبل التاريخ وخاصـة العـصر الحجـرى الحديث يأخذ مورتييه Mortillet نفسه هذه المحاولات فى الاعتبار.

من "بروى" Breuil إلى بيرونى Peyrony،

تطبيق الانتشارية على علم ما قبل التاريخ.

نقل بروى Breuil أنظاره إلى آفاق أخرى وأخذ فى حسبانه البعد الجغرافى للظواهر التى يدرسها لتفسير بعض الآليات التطورية التى طرأت على جماعات وأقوام ما قبل التاريخ. وقد أسهم بهذه الحركة، كما رأينا من قبل فى إحلال مفهوم "الثقافة" محل مفهوم "الحقبة". وبذا أدخل "بروى" Breuil[1] فى علم ما قبل التاريخ وتحديدًا فى الجزء الخاص بالعصر الحجرى القديم مفاهيم مستعارة من الانتشارية. ولكننا لنخطئ إذا ما ظننا أنه فى هذا الصدد يملك رؤية متقلصة تحديدية تتلخص فى موضوع "الغزوات" وحده. فبدون أن يبت ويفصل فى التطور الخطى الذى دافع عنه مورتييه Mortillet وفى الاستخدام الكاريكاتورى للانتشارية بدا بروى Breuil غير جازم فيما يتعلق بالأسباب التى أفضت إلى وضع الثقافات فى نصابها. وقد أشار إلى تعدد التعبير عنها قائلاً:

"هذه المسائل المعقدة غير قابلة للحل بتطور متجانس تمامًا ومستمرة ولا بشرح مبسط لهجرات متتالية"

وقد نحا إلى رؤية الأشياء من زوايا متعددة واعتبر أن التغييرات التى حدثت ثمرة تداخل متتالى وتعاون بين عدة جماعات وأقوام تؤثر وتتأثر ببعضها البعض إما لسطوة صناعية أو تجارية وإما لتسرب تدريجى أو غزو حربى أو مفاجئ لقبائل أجنبية دخيلة. هذا الاستشهاد يوضح جيدًا تركيب وتعقيد المسار الذى يسعى للحديث عنه والأدوار المتعددة التى يرى أن الجغرافيا البشرية قد لعبتها فى فترة ما

(1) Breuil. Henri, «La question aurignacienne...», op.cit., p.219.
Id.. «Les subdivisions du Paléolithique supérieur...». op.cit., p.9

قبل التاريخ: من هنا فإن تجاور أكثر من حوض قابل للسكنى في أوروبا مثل الإقليمين الكبيرين البحر متوسطى والأطلنطى – يسمح له بتصور إمكانية وجود علاقات وتأثيرات توضح بطبيعتها بعض التغييرات التى طرأت أثناء العصر الحجرى القديم الأعلى.

وبالتالى فقد أول دور من موجات الهجرة العالية، باستثناء وصول الإنسان العاقل، فى مطلع العصر الحجرى القديم الأعلى الذى اعتبر أنه نشأ عن غزوات لشعوب أعلى.فى ترتيب الأجناس ومن الناحية الحضارية من أسلافهم من رجال النياندر.(١)

على أنه مهما كانت درجة حذر بروى Breuil فإن الوقفات التأريخية الكبرى ستجد اعتبارًا من النصف الأول من القرن العشرين تفسيرًا أساسيًا مع تعميم النموذج التفسيرى الذى تقدمه هجرات الشعوب وذلك رغم تحذيرات هذا العالم. مثل هذه الغزوات التى شهدنا قدومها من الجنوب والشرق فى صورة أمواج متتابعة، أصبحت الحجة الرئيسية لإزالة الغموض عن المراحل الكبرى للتطور الإنسانى فى عصور ما قبل التاريخ. من هنا ترى أن تحليل سلوك جماعات العصر الحجرى القديم، منظورًا إليه من خلال موضوع انتشار الأفكار ووجود تأثيرات ومبادلات كان من الممكن أن تزج بدراسات ما قبل التاريخ فى طريق جديد وتكون رجع صوت لأنثروبولوجيا اجتماعية تم استبعاده تمامًا. ذلك أن الهدف الذى سعى بروى Breuil ومعاصروه وراءه هو ذاته الهدف الذى تاق إلى تحقيقه علماء ما قبل التاريخ من الجيل السابق وهو: اقتراح تسلسل تأريخى يكون المكان مرة أخرى فيه فى خدمة الزمان. كان من الممكن أن تبدو الانتشارية كمحاولة للتقريب والمصالحة والتوفيق بين البعدين الزمنى والمكانى فى الثقافات البشرية.

---

(١) ذات المرجع ص ١٤.

والأمر ليس إلا ذرًا للعيون وخداعًا للبصر: فالمكان كما استعمله علماء ما قبل التاريخ بما يسمح به ويتيحه من لعبة الهجرة يسمح قبل كل شيء باقتراح تفسير للتغييرات التأريخية الملاحظة.

وقد أصبح العصر الحجرى القديم الأعلى بصفة خاصة مسرحًا لمثل هذه الظواهر.

إذا كان مقدمه يتم تفسيره بوصول جماعات جديدة فإن ذات السيناريو يتكرر في معظم مراحل التاريخ الكبرى. فعلى هذا النحو يتم تقديم تطور وتقدم للعصر السوليترى على حساب الجماعات السابقة عليه، وقد حل محل هؤلاء بعد ذلك "قبائل" حاملة للثقافة المجدلينية.

لنأخذ على سبيل المثال أعمال عالم ما قبل التاريخ دينيس بيرونى Denis Peyrony من إقليم البريجور الذى قويت سطوته فيما بين الأعوام ١٩٣٠ و ١٩٥٠ وطوال النصف الثانى من القرن العشرين رغم الانتقادات التى وجهت إليه.

فى بداية الثلاثينيات اقترح بيرونى إعادة صياغة التأريخ الذى قدمه "بروى" Breuil مرتكزًا بشكل أكبر على موضوع الغزوات. لاحظ بيرونى أن مرحلتين فقط من العصر الأورينياكى وهما الأورينياكى الأدنى على شاكلة شاتلبيرون Châtelperron والأورينياكى الأعلى على شاكلة جرافيت Gravette تنتميان إلى ذات الحضارة وأنه على النقيض من ذلك لا ينتمى الأورينياكى الوسيط على شاكلة أورينياك Aurignac لذات الحضارة. انطلاقًا من هذه الملاحظة فقد دافع بيرونى عن الفكرة القائلة بأنه كانت هناك جماعتان متباينتان عاشتا جنبًا إلى جنب طوال الألفيات الأولى من العصر الحجرى القديم الأعلى وهما سكان إقليم البريجور (الذين يجمعون بين العصرين الأورينياكى الأدنى والأورينياكى الأعلى طبقًا لما جاء به بروى Breuil) والأورينياكيون الأصليون (المنتمون للعصر الأورينياكى الوسيط السابق).

والأمر فى ذهنه يتعلق بشعوب مختلفة من وجهتى النظر الثقافية والبيولوجية ينتمى بعضها إلى "جنس الكومب كابيل Combe- Capelle وينتمى البعض الآخر إلى جنس الكرومانيون Cro Magnon".(١)

وعلينا أن نعترف أن التصور الذى يقترحه علينا بيرونى Peyrony لهجراتهم المتتابعة يترك انطباعًا بتلاحق بالغ السخف تقع ملابساته فى أقاليم لا كوراز La Corrèze، لو بريجور Le Périgord ولا جيروند La Gironde.

"فى إقليم البريجور Périgord احتل الجنس البشرى الملقب بكومب كابيل Combe- Capelle محل إنسان النياندر. وقد أجبرهم مقدم الكرومانيون بأعداد كبيرة على التجمع والانسحاب على ما يبدو إلى الشرق [أى إلى لا كوراز La Corrèze]. وقد استقر المنتصرون عندئذ [فى مخابئ إقليم الدوردونى Dordogne] غير أنه لدى ملاحظته بعد ذلك أن بعضًا من مخابئ إقليم البريجور Pèrigord قد تركها وهجرها أورينياكيو المرحلة الأولى. وواصل بيرونى Peyrony تصوره للأمر قائلاً:

هل من المفترض تفسير ترك الكرو - مانيون للمكان المفضل لمجموعات الإيزى Eyzies على أنه رغبة فى البحث عن مجال أفضل للصيد؟ أليس منطقيًا أكثر افتراض أن هذه القبائل قد تمت إبادتها أو إجبارها على التراجع القسرى أمام

(١) اكتشفت الحفرية التى أعطت اسمها لهذا الجنس فى موقع فى إقليم البريجور Périgord يطلق عليه كومب كابيل بواسطة أوتو هوزر Otto Hauser عام ١٩٠٩ وقد وجدت فى طبقة تحوى أثاثًا منسوبًا إلى العصر البريجوردى الأدنى طبقًا لبيرونى (وهو ما يقابل الأورينياكى الأدنى الذى أشار بروى Breuil إليه).

وقد تبين تمتعه ببعض الاختلافات التشريحية عن مثيله الكرومانيون الذى يرجع إلى الأورينياكى بالمعنى الحصرى (الأورينياكى الوسيط طبقًا لبروى Breuil) وكلاهما مصنف من الإنسان العاقل.

وقد أعيد النظر لاحقًا فى نسبه إلى العصر البريجوردى الأدنى الذى أطلق عليه فى هذه الفترة "الشاتل بيرونى" أو "الكاسل بيرونى" وذلك نظرًا للرداءة المفترضة فى أعمال الحفر والتنقيب التى قام بها هوزر Hauser.

الأعداد الغفيرة من جماعات الكومب كايل [...] تميل الأحداث إلى ترجيح الفرضية الثانية التي تبدو أكثر معقولية.(١)

يتضح من ذلك أنه كان مقدرًا لهذه الحرب بين جماعات إقليم البريجور Périgord وجماعات الأورينياكيون الاستمرار طويلاً لولا مجيء القادمين الجدد من السوليتريين الذين احتلوا مكان كل من الأوهارا O'Hara والأوتيمينز O'Timmins، وبالتالي نخطئ كل الخطأ إذا تصورنا أن تأثير هذا السيناريو بكل ما حواه لم يجاوز الحدود الفرنسية فقد انتشر المفهوم "البريجوردي" وبعض مما يروج له من أفكار ومعلومات خارجها.

في أوروبا وتحديدًا في الثلاثينيات أصبح لهذا المفهوم بعد إثنيّ بالمعنى البيولوجي للكلمة لا يقل عنه نجاحًا نظرًا للقبول الذي أضحت فكرة التنافس بين الأجناس تلقاه. بعد ذلك بعدة سنوات غامر بيروني بطرح نموذجه على المستوى الأوروبي لاعتقاده:

"بأن موجة أولى من البشر من عنصر الكومب كابيل combe capelle مدفوعة بموجة أخرى من الكرو - مانيون Cro - Magnan قد انتشرت في جنوب روسيا ووسط أوروبا وجنوب غرب فرنسا. وقد تبعتها بعد ذلك بقليل، من الناحية الجيولوجية جماعات من الكرومانيون استولت على البلقان وبقت منها قبائل في وسط أوروبا ومضت أخرى إلى الغرب في اتجاه أرض الغال. لدى وصولها هناك

---

(1) Peyrony, Denis, «Les industries "aurignaciennes" dans le Bassin de la Vézère. Aurignacien et Périgordien». Bulletin de la Société préhistorique française, vol. XXX, fasc.10. 1933, p.543 – 559.

كان بيروني يعمل مدرسًا في إيزي – دو – تاياك Eyzies- de- Tayac قبل أن يؤسس هناك متحفًا يجمع فيه نتاج أبحاثه. هذا المتحف سيخلد فيما بعد أعماله ملقيًا الضوء على ما أطلق عليه البريجور Périgord ويصبح المتحف القومي لفترة ما قبل التاريخ.

شنت هجمات على مجموعات الكومب – كابيل Combe Capelle وطردتها من أغلب المخابئ التى كانت تلوذ بها[1].

كان بالصورة التى تم بها وصف الموقف شيء كبير من اللبس والغموض. وقد نال ذلك من النموذج المطروح الذى لم يلبث أن تم تصحيحه. غير أن بعض الأطر النظرية خاصة ما تعلق منها بدور هجرات الجماعات ستبقى كإحدى ركائز التفسير.

واقع الأمر أنه منذ ذلك الحين فإن المراحل الأساسية التى تم التثبت من تأثيرها فى تغييرات الممارسات والسلوكيات والتى تشير دومًا إليها التقسيمات التأريخية تجد تفسيرًا لها فى تنقل الجماعات واحتلال بعضها لأماكن البعض الآخر.

نرى من كل ذلك سيطرة من التأريخ على المكان الذى أضحى نقطة وصول ونقطة مغادرة لكثير من الجماعات. أصل هذه الجماعات غالبًا ما يكتنفه الغموض غير أنه ما يمكن التأكد منه فى نهاية الأمر هو أن كل التغييرات التى طرأت عليها كانت بسبب تحركاتها وانتقالاتها.

غير أنه أحيانًا يحدث العكس وتكون نقطة انطلاق هذه الجماعات معروفة، كأن تطردها جماعة أخرى من أماكن استقرارها. ما يبقى مجهولاً هو الطريق الذى تسلكه والاتجاه الذى تذهب بعد ذلك صوبه. على نهج بيرونى Peyrony، نلاحظ هنا نشوء منهج فكرى ميز لفترة طويلة علم ما قبل التاريخ بل واستمر حتى يومنا هذا:

هناك شبه اتفاق ضمنى على استبعاد أصول الظواهر التى نرى أثرها وتوابعها من خلال هجرة الجماعات الغازية من إطار الدراسة ومع اختفاء للزمر السابقة عليها فى مناطق مجهولة. هذا إذا لم يتم الإقدام على القول بفنائها كأقرب الحلول للتصديق.

---

(1) Peyrony, Denis, «Le Périgordien, l'Aurignacien et le Solutréen en Eurasie d'après les dernières fouilles», Bulletin de la Société préhistorique française, fasc.9-10. 1948, p. 305 – 328, p. 327.

المنعطف التفسيرى خلال الخمسينيات:

بدا فى العقد الواقع بين ١٩٥٠ و١٩٦٠ أن هذا التوجه يراوح فى مكانه وقد أعيد النظر فى المخططين الزمنيين الثقافيين اللذين قدماهما بروى Breuil وبيرونى Peyrony مع تعديل جزئى فى صياغة أهداف البحث فى علم ما قبل التاريخ. حشد جيل جديد من علماء ما قبل التاريخ طاقاته لإعادة تعريف وصياغة تساؤلات وطرق بحث هذا الفرع من فروع العلم نذكر منهم:

أندرية لوروا – جورهان André Leroi - Gourhan الذى سيتيح له ماضيه بوصفه عالما فى الإثنولوجيا طرح تساؤلات من خلال تخصصه على مجال علم ما قبل التاريخ.

أما فرنسوا بورد Françis Bordes ودينيس دو سونفيل – بورد Denise de Sonneville - Bordes فقد طبعا الأبحاث العلمية بأعمالهما فى مجال التصنيف الحجرى ولمدة طويلة. إلى جانب هؤلاء نذكر جورج لابلاس Georges Laplace الذى جدد فى معالجة الصناعات الحجرية خدمة لرؤية مخالفة تمامًا لتطويرها.

تشكل ثمرة هذه الجهود مجتمعة، من الجانبين النظرى والمنهجى، ركيزة علم الآثار الخاص بفترة ما قبل التاريخ فى فرنسا وأوروبا لنبقى فى أذهاننا ما تم إنجازه من تطور فى مجالى أعمال التنقيب المساحية وتسجيل ترتيب البقايا والمخلفات بهدف الحفاظ على صورة موضوعية للمواقع بعد الانتهاء من أعمال التنقيب.

من منظورنا الخاص لدور صياغة مفهوم العصر الحجرى القديم الأعلى فى مرور الإنسانية الحفرية إلى شكل بدائى – ولنقل – للإنسانية الحديثة يمكننا القول بأن مناهجهم تشكل منعطفًا ذا مغزى ومعنى.

ونحن ندين بصفة خاصة لأندريـــه لـــوروا – جورهـــان Andre Leroi - Gourhan لوضعه التساؤلات عن نمط فكر جماعات الأزمنة الماضية ومعيشتها فى مركز اهتمامات وانشغالات علماء ما قبل التاريخ. والملاحظ أن هذا الـــنهج الـــذى يوثق الصلة بين علم الإثنولوجيا وعلم ما قبل التاريخ سوف يطبع لفتـــرة طويلـــة مجمل الأبحاث العلمية. تكشف الميادين المتعددة التى بحث فيها أندريه – جورهان (مثل المساكن وأنماط الحياة والفنون بمدلولاتها) عن مدى اتساع ما قام بتغطيته فى أعماله التى يحتل فيها وصف الأحداث التقنية وترتيبها وتفسيرها مكانة متميزة. فى هذا المجال وفى كافة المجالات التى كرس لها جل وقته اختار هذا العالم بدلاً مـــن اللجوء إلى خطط التفسير مثل الانتشارية لشرح تتـــابع الاتجاهـــات الكبـــرى، أن يعزوها إلى السلوكيات الإنسانية والتطور الذى يطرأ عليها. وقد دأب على تحريك الفكر بشأن كل ما يشرحه ويفسره كخطوط قوة للتطوير التقنى.[١]

ونرى فى ذات الفترة مدارس أخرى تعد فى ظاهرها أكثـــر "تقليديـــة" مـــن مدرسة لوروا ــ جورهان Leroi – Gourhan لتفضيلها الحلول القائمة على الكوادر الزمنية، تبتعد أيضًا عن الموروثات السابقة من حيث المراجع النظرية والمنهجيـــة التى تستخدمها. بعض هذه المدارس ستقوم بتحـــديث طـــرق التنـــاول والمعالجـــة التطورية لعلم ما قبل التاريخ المطبقة على البعد الثقافى فقط للإنسان. وهذا بـــشكل كبير حال لابلاس Laplace فقد وجه فكره إلى تطور الـــصناعات وطبقـــه بـــصفة خاصة على ظهور مواصفات العصر الحجرى القديم الأعلى. باتباعه هذا المـــنهج أعاد إحياء النموذج التطورى مستعيدًا من جديد مفاهيم ومفردات العلوم الطبيعية.

بذلك بدأ الحديث عن الدورة التطورية: طبقًا لما جاء به لابـــلاس Laplace فإنه على نمط بعض النظريات الخاصة بتطور الحياة، هناك فترات يميزها تعـــدد

---

(١) راجع الفصل الرابع.

أشكال الصناعات الإنسانية وانطلاق صناعات جديدة منها في اتجاهات عدة وتخصصات متدرجة. مثل هذه الظاهرة في رأيه تتبلور أيضًا في المكان؛ لأن مراحل التخصص تتواكب مع تباعد تدريجي عن مركز الأصل. وقد قادته هذه المسيرة الفكرية بتطبيقها على مسألة المرور بين العصر الحجري القديم الوسيط والعصر الحجري القديم الأعلى، إلى اقتراح النموذج التالي الذي يطلق عليه "النموذج التركيبي" أو النموذج التوليفي "Synthétotype".(١)

"يبدو تعدد الأشكال الأساسي كنهاية أو نقطة وصول لتطور متدرج طويل المدى وغير محسوس مثرى بأشكال جديدة طوال العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط بصفة خاصة.

أصبحت عائلة هذه التركيبات متعددة الأشكال الناتجة عن هذا التقدم البطيء بالنسبة لنا قاعدة تطور لاحق لثقافات متجانسة محددة بشكل واضح، ذات بنية متوازنة. هذه الثقافات تم إفقارها نسبيًا بالتخصص وبها نجد العناصر التي تم تجميعها في السابق وقد انفصلت وبذلك أصبحت خصائص مميزة".(٢)

يمثل هذا بالنسبة له تفسير مقدم العصر الحجري القديم الأعلى الذي يعد المحرك الرئيسي له ظهور تقنية تشظية الأحجار وشطفها واستعمال النصال والـ Leptolihisation.(٣)

---

(١) استطاع بذلك نقل نظرية المراكز الوراثية التي قدمها فافيلوف Vavilov

(2) Laplace, Georges, Recherches sur l'origine et l'évolution des complexes leptolithiques, Paris, De Boccard, «Mélanges d'archéologie et d'histoire de l'Ecole française de Rome», 1966, p. 263.

(٣) هذا المفهوم ليس جديدًا بمعنى الكلمة، استقر مصطلح الـ Leptolihisation في المفردات التي قام بييت Piette بوضعها وقد أعاد بروى Breuil استعماله حتى أن المفهوم الذي صيغ له هذا المصطلح وهو: تعميم تقصيب الحجارة الرقائقي قد أصبح لصيقًا بتعريف العصر الحجري القديم الأعلى، من هنا فقد صمم بروى Breui عام ١٩٣٧ في الطبعة الثانية من

لم اختير النصل بهذا الشكل حتى أنه احتل هذه المكانة فى الصناعات؟

أوضح لابلاس Laplace بدون أن يبدى سببًا لذلك أن "انطلاق آليات التغيير اللبتوليتيكى Laptolittique أو عصر الحجر الخفيف يبدو منسوبًا إلى التذبذبات المناخية المقلقة والعوارض الجوية المشوشة لتوازنات المدى الجغرافى"(١) بنسب دور رئيسى فى تطور السلوكيات البشرية إلى الظروف المتباينة للبيئة الطبيعية أعطى لابلاس Laplace لمسألة الحتمية البيئية أو لمذهب الجبر البيئى دورًا.

لم تحظ أعمال لابلاس Laplace بقبول كبير ربما نظرًا لراديكاليتها النظرية ولطابعها المجرد رغم أنه فى بعض البلدان خاصة إسبانيا وإيطاليا قد تم تأسيس مدارس ارتكازًا على مبادئه. أما فى فرنسا فقد تم تبنى ما قدمه كل من فرنسوا بورد Françis Borde ودينيس دو سونفيل بورد Denise de Sonneville Bordes فى أعمالهما فى مجال التصنيف الحجرى خلال هذه الفترة، طور هذان العالمان أبحاثًا تهدف إلى إعطاء صورة أفضل ومعرفة أفضل بقابلية التغيير فى تجميعات الأدوات.

كان الاتجاه فى التصنيف حتى الخمسينيات هو الارتكاز فقط على "الحفريات المرشدة" مما يعنى انتقاء نوعيًا دقيقًا لعدد محدود من الأشياء منوط بها تجسيد وتمثيل ثقافة أو أخرى من العصر الحجرى القديم الأعلى.

كتابه Suldivisions du Paleolithique Superieur وأكد مرة أخرى على أنه من الضرورى أن نفرق بوضوح كما لو كان منتميًا بالفعل لدورة صناعية أخرى، بين العصر الحجرى القديم الأعلى التابع للدورة الكبرى الشيلو – موستيرية Chelleo - Mousterien التى سبقته واقترح بالنسبة له مسمى "Leptolithique" أو "عصر الحجر خفيف الوزن" وهو يتناسب مع خفة وزن وصغر حجم الكثير من أحجار الصوان فى هذا العصر.

Breuil, Henri, «Les subdivisions du Paléolithique supérieur...», op.cit., p. 12 – 14.

(1) Laplace, Georges, Recherches sur l'origine et l'évolution des complexes leptolithiques, op.cit.

من هنا تلخص الدور الأورينياكى الذى أشار إليه بروى Breuil على سبيل المثال فى بعض الأنماط التى تعتبر مميزة وتطغى أهمية شكلها على أهمية وظيفتها مثل "النصل الأورينياكى" و"المكشط الانسيابى" و"الإزميل أو المنحت المقوس" كنماذج للآلات الحجرية.

أدخلت أعمال بورد Bordes ولابلاس Laplace تحليلاً تصنيفيًا كميًا يسمح بتقييم أفضل وتقدير أعلى لدرجة التقارب بين الكثير من الصناعات بأخذ قوائم أكثر اكتمالاً من المنقولات فى الحسبان. هذا المنهج يشكل مرحلة جديدة فى التعرف على تركيب وتعقيد تقاليد ومهارات صناع العصر الحجرى القديم وهو ذو أصداء وأثر على الطريقة الواجب انتهاجها لمعرفة طبيعة التغييرات التى طرأت بمرور الزمن. واقع الأمر أن الهدف هو الوصول إلى تبين التغيرات المتدرجة المحتملة وليس فقط تحديد فواصل ووقفات[١] بالمفاضلة بين مجموع التصنيفات الكمية تم تمييز وجهتين:

أولاهما بادر بها بورد Bordes وترتكز على عمل قوائم نموذجية على أساس كمى مبنى على معايير ثابتة. من هنا تم جمع الآلات الحجرية الخاصة بالعصر الحجرى القديم الأعلى فى قائمة تضم اثنين وتسعين صنفًا بدءًا من المكشط البسيط إلى "تصيل دوفور Lamelle Dufour" مرورًا بإزميل أو منحت لا جرافيت La Gravette[٢]

---

(١) فكرة اكتشاف التغييرات التدريجية ليست بالجديدة فى حد ذاتها, وقد كرس بروى Breuil وبيرونى Peyrony أبحاثًا ودراسات مطولة لوصف التطور المفترض لبعض أشكال الآلات التى ورد ذكرها فى الكيانات التى ساهما فى تعريفها (مثال ذلك التشذيب المفترض للنصال التى وصفها بيرونى Peyrony بين البريجوردى الأدنى ومرحلته الأعلى أى بين نوعى الشاتلبيرونى والجرافيتى).

(٢) مما لا شك فيه أنه من المضجر للقارئ أن يتم له تعديد الأصناف المعينة المنشورة فى مؤلف دينيس دو سونفيل – بورد Denise de Sonnevile- Sonneville-Bordes, Denise de et Perrot,

أما الوجهة الثانية فقد أشار بها لابلاس laplace وأساسها تحديد نماذج وفقـا لتفصيلات بعض الصفات التى رؤى وثاقة صلاتها بالموضوع مثل الـشكل العـام للشيء أو نوع التعديل وموضعه. لاستخدام مجاز لغوى يمكننا القول بأن التصنيف المنسوب لبورد Bordes ينتمى إلى نوعية الكتابة الرمزية (يقابل كل شكل كلمـة) بينما التصنيف الخاص بلابلاس laplace هو نوع هجائى (يتم تجميع عدد محـدود من الحروف التى تشكل الكلمات).

فى الحالة الأولى يسبق النوع التحليل أما فى النوع الثانى فيتم التعريف بوجـوده بواسطة التحليل، وبالتالى فبينما يتم التعرف على رمز الفكرة السابق تعلمه يتوجب فـك شفرة الكلمة المكونة طبقًا للنسق الأبجدى على العصر الحجرى القديم الأعلى.

أما وقد تزودنا بهذه الملاحظات المنهجية فلنحلل تطبيقاتها وفقًا لما رآه بورد Bordes. لدى كتابة هذا الأخير أنه يجب الإقلاع عن هذا التصور الوقتى لصناعات العصر الحجرى القديم وهو التصور الذى يسيطر غالبًا بشكل لا إرادى على أذهان العديد من علماء الآثار طالب هو أيضًا بطرق وأساليب لوصـف بعـض آليـات التحولات الصناعية.[1] وسنرى لاحقًا كيف أن هذا الموقف سيقوده وزوجه، مثلـه فى ذلك مثل لابلاس Lapalace، إلى مناقشة الأساس والأصل فـى هـذه الرؤيـة السائدة التى تفترض وجود فصم ظاهر أو فجوة واضحة بـين العـصر الحجـرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى.

Jean, «Lexique typologique du Paléolithique supérieur. Outillage lithique: I. Grattoirs. II.Outils solutréens. III. Outils composites, perçoirs. IV. Burins. Outillage lithique (suite et fin)», Bulletin de la Société préhistorique française, 1954 (p. 327 – 333 et 334 – 335), 1955 (p.76 – 78) et 1956 (p. 408 – 412 et 547 – 559).

لنقل، لمزيد من السهولة، إن النتائج التى تم الحصول عليها اعتمادًا علـى هـذه القـوائم قـد ساعدت على عمل رسومات بيانية استعانت كافة المؤلفات الخاصة بعلم ما قبل التاريخ بالمنحنيات التى وردت بها.

(1) Bordes, François, Le Paléolithique dans le monde, Paris, Hachette, «L'univers des connaissances», 1968, p. 151 – 152.

انتقد سونفيل – بورد Sonneville – Bordes وصف إنسان النياندر الذى سبق تقديمه. وتوصل إلى ملاحظة أن هذا الإنسان ليس فى نهاية الأمر "فرعًا جانبيًا ثانويًا وجافًا استحبب وصفه تاركًا فجأة العالم البدائى مفسحًا المكان للإنسان الجديد، إنسان العصر الحجرى القديم الأعلى العاقل"[1] وبذلك توصل سونفيل – بورد Sonnevile- Bordes لإعادة صياغة العلاقات والصلات بين هاتين الفترتين:

"مهما كان من أمر هذه الصلات الوراثية بين بشر العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى فقد ورث أبناء هذا العصر الأخير عن سابقيهم كمًا هائلاً من التجارب والتقاليد ما دام الأساس المشترك للآلات الحجرية الشائعة فى العصر الحجرى القديم الأعلى من إبداع واختراع الفترة الموستيرية".

ظاهر الأمر أننا هنا نشهد كما فى السابق لدى لابلاس Laplace إعادة نظر فى مواقف الجيل السابق غير أن أبحاث بورد Bordes وزوجه ليست فى الواقع إلا امتدادًا بشكل ما له؛ فهما يمثلان محاولة هادئة رقيقة للمصالحة والتوفيق بين عدة مواقف تبدو للوهلة الأولى متباينة.

والنموذج الذى يطرحانه يحاول إيجاد تعايش بين اهتمامًاتهما الجديدة فى صورة الآليات التطورية للصناعات مع بعض الخطط التفسيرية الكبرى السالفة التى تقوم هجرات الجماعات بها بدور الفواصل. إذا كانت جماعات بشر النياندر تُقرن بمقدم العصر الحجرى القديم الأعلى فهذه الثورة تستدعى إلى الذهن مجىء جماعات جديدة: ينظر إلى دور البريجوردى الأدنى كتطور إقليمى للدور الموستيرى الأوروبى بينما يحتفظ الدور الأورينياكى بمكانته كثقافة غازية ومحصلة لهجمة جماعات قدمت من الشرق.

(1) Sonneville-Bordes, Denise de, La Préhistoire moderne, Périgueux, Fanlac, 1967, p.31. Id., L'Age de la pierre, Paris, PUF, «Que sais-je», 1975, 4e éd., p.95.

هذه التركيبة والتوليفة من التفسيرات تجمع بين موقفى مورتييه Mortillet وبروى Breuil وهى مع إعادة تقييمها لإنسان النياندر تصدق على المكانة المتميزة لإنسان الحديث. ونلاحظ هنا بونًا شاسعًا يفصلها عن الوصف الخالى تقريبًا من أى مدح الذى كان بول Boule قد ساقه منذ عقود خلت.

هناك فارق فى الطبيعة يحميه من أى تقارب فى غير موضعه مع الإنسان الحفرى. "إذا كان السابقون عليه قد مهدوا له الطريق" فإن معه تكتمل مرحلة الأنسنة الأخيرة "وبوجه خاص ما تعلق منها بالتفوق الروحى الذى اكتمل وظهر فى الإبداع الفنى"(١)

بعض الطرق التفسيرية باقية إذن لشرح التغيرات التى طرأت فى الفترة الواقعة بين العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى. كذلك الأمر بالنسبة للتقسيمات الرئيسية فى داخل العصر الحجرى القديم الأعلى: وقد رأينا كيف عزف بورد Bordes عن اعتبار الصناعة السوليترية شديدة التميز نتاجًا لتغير الميراث التقنى لأسلافه المباشرين فى ذات الإقليم ونعنى هنا البريجوديين.

جمع ما لا يجمع: مفهوم عملية الانتقال

من هنا نجد أن الأعوام الواقعة بين ١٩٥٠ و١٩٦٠ هى أعوام العودة لاكتشاف الآليات التطورية وهى فى نهجها هذا تذهب إلى حد فرض شكل جديد للتطورية الثقافية التى بادر لابلاس Laplace بتقديمها ولم يصب ذلك النماذج السابقة بأى ضرر بل إن الوضع المتبنى والمدافع عنه غالبًا هو الأقرب لأعمال بورد Bordes وهو الذى يحاول التقريب بين الفصم والاستمرارية.

---

(١) ذات المرجع ص١٢٣ ص١٢٤.

منذ ذلك الحين وحتى وقتنا هذا نجد أن مساحة التفسير فى علـم مــا قبــل التاريخ قد تشكلت حول هذين القطبين. نحا بعض المؤلفين إلى الدفاع عن تطورات مستوطنى المكان لشرح التغييرات التى حدثت خلال العصر الحجرى القديم الأعلى بل وظروف نشأتها ومنهم جيرهاد بوزنسكى Gerhard Bosinski الذى صرح بــأن العصر الحجرى القديم الأعلى، الذى يمثل ثقافة أسلافنا يرمي بجذوره فى أصــول إنسان النياندر فى العصر الحجرى القديم الوسيط[١].

وقد أضاف أن ذلك يعنى أن الانتقال بين الحقبتين قد تم بدون فصم "وقد قاده موقفه هذا إلى إعادة النظر فى الروابط والصلات بين إنسان النيانــدر والإنــسان العاقل وإلى اقتراح رأى يخالف أغلبية علماء الإنثولوجيا وهو أن الثــانى امتــداد للأول واستكمال له ما دمنا لا نستطيع فى الواقع فصل الثورات الثقافية التى أورثنا إياها صانعوها ومستعملوها"[٢].

فى مقابل هؤلاء جمع آخر من المؤلفين يتمسك بفرضية الفصم والقطع بــين هاتين الحقبتين ويحتفظ للهجرات البشرية بكل أهميتها. هذا الجمع يرى فــى هــذه الهجرات الحل الوحيد ذا المصداقية حين يتطلب الأمر تفسير التطورات الكبرى فى العصر الحجرى القديم. ويمكننا تلمس ذلك فى قولهم:

---

(1) Bosinski, Gerhard, Homo sapiens. L'Histoire des chasseurs du Paléolithique supérieur en Europe (40 000 – 10 000 avant J.-C), Paris, Errance, 1990, p. 35.

(2) Djindjian, François, Kozlowski, Janusz et Otte, Marcel, Le Paléolithique supérieur en Europe, Paris, Armand Colin, «U Histoire», 1999, p. 144.

D'Errico, Francesco, Zilhão, João, Julien, Michèle, Baffier, Dominique et Pelegrin, Jacques, «Neanderthal acculturation in Western Europe? A critical review of the evidence and its interpretation», Current Anthropology, n° 39, 1998, p. S1 – S44; Zilhão, João et d'Errico, Francesco, «The chronology and taphonomy of the Earliest Aurignacien and its implications for the understanding of Neandertal extinction», Journal of World Prehistory, n° 13, 1999, p.1 – 68.

"لا نريد بطبيعة الحال أن نطرح جانبًا فكرة وجود مكونات تطورية إقليمية غير أنها فى اعتقادنا تندرج فى حركات الهجرة العرضية الأساسية – خاصة ما تعلق بأصل العصر الحجرى القديم الأعلى ووصول الإنسان الحديث إلى القارة الأوروبية. فى أغلب الأحيان تحاول النماذج المقترحة توفيق هذه الاختيارات التفسيرية: فقد أصبح هناك إجماع على أن المجتمعات النياندرتالية ذات قدرة تطورية، وقبول لفكرة أنها استطاعت هى الأخرى انتهاج الدروب الموصلة إلى العصر الحجرى القديم الأعلى إما بشكل مستقل وإما بتأثير جماعات جديدة لبشر حديثين حاملين للثقافة الأورينياكية.

من هنا يمكننا القول أن هناك "مثاقفة" للجماعات الأولى بتأثير من الجماعات الثانية[1]، وأن أهمية هذه الظواهر معترف بها رسميًا فى التسلسل الزمنى كفترة قائمة بذاتها توصف بالانتقالية بين العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى. هذه الفترة التى تضم بين خمسة وعشرة آلاف عام تضم الصناعات المعروفة بالانتقالية وهى ثمرة هذه المجتمعات النياندرتالية المتغيرة المتنقلة.

ولكن أيًا ما كانت الاختلافات بين الفرضيات السابقة فهى تجمع كلها على وجود هجرة بشرية كأساس للتطور التدريجى، قد أوصلت البشر فى عصور ما قبل التاريخ إلى ضفاف العصر الحجرى القديم الأعلى أو على الأقل صاحبت الحركة التى بدأتها المجتمعات النياندرتالية.

---

(1) Demars, Pierre-Yves et Hublin, Jean-Jacques, «La transition Néandertaliens/hommes de type moderne en Europe Occidentale: aspects paléontologiques et culturels», in Otte, Marcel (dir.), L'Homme de Neandertal, t. VII, Vandermeersch, Bernard (dir.), L'Extinction, Actes du colloque international de Liège (4- 7 décembre 1986), Liège, «ERAUL», n° 34, 1989, p. 23- 37; Mellars, Paul. «Neanderthals and the modern human colonization of Europe», Nature, n° 432, 2004, p. 461 – 465.

ولهجرة جماعات الإنسان المبكر الذى يعد من الناحية التشريحية إنسانًا حديثًا إلى أوروبا مبرر رئيسى يقف بين التفسيرات الأنثروبولوجية منتهيًا إلى وجوب الفصل الواضح بين إنسان النياندر والإنسان العاقل. فى هذه الحالة لا يمكن القول إلا بأن الإنسان العاقل قد جاء من مكان آخر. نلاحظ مرة أخرى أن مجال التفسير يجد نقطة توازنه، وأنه خلف واجهة التضاد تساهم أغلب هذه المواقف بشكل، إلى حد ما، غير ظاهر فى عمل مصالحة أو توافق لإيجاد خلط طفيف بين الفصم والاستمرارية. ومن المستحب حاليًا عدم النظر إلى إنسان النياندر باعتباره إنسانًا فظًا وحشيًا مطأطئ الرأس وصل إلى نهاية مراحل تطوره بحلول العصر الحجرى القديم الأعلى، ولكن من ناحية أخرى فإن المرحلة الوحيدة لهذا التطور الثقافى قد أوكلت إلى جنسنا الوحيد المؤهل لهذه المهمة.

ويمكننا أن نرى أن المنظور البيولوجي يضغط بكل ثقله حين يتعلق الأمر بشرح بدء ظهور السلوكيات التى كان من المتوقع للعصر الحجرى القديم الأعلى أن يجسدها – بشر يملكون كل الملكات والصفات التى تشكل أساس الشخصية وركيزتها فى المجتمعات البشرية بمعنى الكلمة. طغت هيئة الرجل البدائى على هيئة الرجل الحفرى خلال هذه المرحلة الفاصلة المارة من العصر الحجرى القديم الوسيط إلى العصر الحجرى القديم الأعلى. غير أننا ندرك من الآن فصاعدًا أن مثل هذه الظاهرة تستحق أن يكرس لها ويخصص لها فصلاً زمنيًا قائمًا بذاته فهى "المرحلة الجسر" أو "المرحلة الانتقالية"(١).

---

(١) ربما يجدر بنا التأكيد على أنه فى الخطاب الموجه للجماهير العريضة غالبًا ما يقدم موضوع الهجرة المفاجئة والمباغتة مكرسًا هيمنة وسيطرة جنسنا بدون مواربة. هذا على سبيل المثال ما ورد فى الفيلمين التسجيليين "أوديسا الجنس" ٢٠٠٣ L;Odssee de L'espece و"الإنسان العاقل" ٢٠٠٤ Homosapiens من إخراج جاك مالاتير Jacques Malature وإيف كوبنز Yves Coppens.

إن أخذ المساحة واختلاف المواقف فى الإعتبار قد سمح بالاحتفاء فى مطلع القرن العشرين ببدء ظهور مفهوم "ثقافة ما قبل التاريخ" بدلاً من مفهوم "الأحقـــاب" وبذلك أصبح هناك منظور جديد فى طريقة إدراك وفهم عصور ما قبـــل التـــاريخ والإقرار بتعقيد وصعوبة هذه الظواهر. غير أنه يتوجـــب علينـــا أن نـــسجل أنـــه باحترام "الديالكتيكية" أو الجدلية القديمة بين الزمان والمكان يتضح لنـــا أن الثـــانى كان قد طوّع بشكل أساسى لخدمة الأول. واقع الأمر أنه بسبب التفسير التحديـــدى للانتشارية فقد ظهر المكان كمسرح للهجرات البشرية وكإطار لحـــديث بالأســـاس متعلق بالزمان والتاريخ.

هذا النموذج الذى ساد فى النصف الأول من القرن العشرين بقى حيًا حتـــى يومنا هذا وهو يدخل بكل ثقله عندما يتعلق الأمر بمقدم العصر الحجـــرى القـــديم الأعلى ومعه بالتوازى الإنسان الحديث من الناحيتين البيولوجية والسلوكية. إلا أنه بدءًا من الخمسينيات كان على هذا النموذج التكيف مع الانشغال والاهتمام الواضح بآليات تطور ثقافات عصور ما قبل التاريخ وظهور فرضيات يمكنها التعبير عـــن شكل متجدد من التطورية الثقافية. ولكن بمرور الزمن تم البحث عن توفيـــق بـــين هذه الاختيارات التفسيرية المتباينة ولو بتغييرها وتعديلها بعض الشىء فى محاولـــة لربط مفهوم الفصل (الذى تغذية دومًا رؤية انتشارية) بمفهوم الاستمرارية.

كانت أعمال بروى Breuil وجيله قد سمحت بشكل واضح بتلازم الـــصور التى كانت متباينة فيما سبق للإنسان الحفرى والإنسان البـــدائى، بفـــضل العـــصر الحجرى القديم الأعلى بالمقابلة مع العصرين الحجريين القديمين الوسيط والأدنـــى. وقد شهدنا خلال العقود الأخيرة بشكل ما امتدادًا لهذه الحركة: انصب الأمر علـــى تباين قدرتنا على وصف الإنسان ومجتمعاته بكل تعقيداتها مع التفرقة بوضوح بين الإنسان الحديث والسابقين عليه وخاصة مجموعات إنسان النياندر، وهو ما يتمثـــل فى التأريخ وفى التسلسل الزمنى فى الفترة المعروفة بـــ"الانتقالية".

لنعد إلى مفهوم المكان، تسللت من خفايا هذا الفصل فكرة أخرى تتعلق بالعلاقة بين الإنسان وبيئته، لم تكن هذه العلاقة لتخفى سواء نظرنا إلى التغيرات التى حدثت عبر الأزمنة من زاوية الانتشارية أو فضلنا عليها الرأى القائل بوجود ديناميات ثقافية داخلية. واقع الأمر أن النموذجين يطرحان تساؤلات، قلت أم كثرت عن قدرة الإنسان على التكيف مع المواقف والأوضاع البيئية المتباينة سواء مكانيًا أم زمنيًا.

سوف نولى الآن اهتمامًا بهذا الوجه الآخر للعلاقات بين الإنسان والمكان خاصة ما تعلق منها بتأثير البيئة.



أعلى: تفاصيل جدارية صخرية مجدلينية بالصالون الأسود "Salon noir" بمنطقة نيو Niaux (أرياج Ariège) تمثل حيوان البيسون

أسفل: ريموندن Raymonden (شانسلاد Chancelade، دوردونى Dordogne) حفر مجدلينى على العظم يمثل حيوان البيسون وقد نزع لحمه جزئيًا وتحيط به أشباح لها شكل البشر متحف البريجور (Périgueux)

الفصل الثالث

المكان والبيئة

شغلت الصلات بين الإنسان وبيئته الطبيعية علماء ما قبل التاريخ منذ ظهور هذا العلم إلى الوجود. ففى عام ١٨٦٠ كانت أول الأسماء التى ارتكزت عليها انطلاقته العلمية لعلماء فى علم الطبيعة. وسرعان ما زودتهم المعطيات الحفرية التى تم جمعها من مجموعة مواقع أوروبا الغربية بعناصر المشهد من أنواع الحيوانات مما ساعد على عمل تقسيم مراحل لهذه الحقبة التى بادروا إلى إعادة تكوينها[١]. وتجدر الإشارة إلى أنه قد حدث نفس الشيء فيما يتعلق بالمظاهر البيولوجية.

نذكر فى هذا الصدد أن القرن التاسع عشر قد أظهر ولعًا شديدًا بالأبحاث الخاصة بعلم المجالد glaciologie التى ترسم شيئًا فشيئًا معالم الجرافات (ركام مجارة يجرفه نهر جليدى) والأسطح الطميية terrasses alluviales الدالة على وجود الموجات الجليدية التى شهدها العصر الحجرى القديم.

اعتبارًا من هذا التوقيت بدأت هذه المعلومات مجتمعة فى تقديم الخطوط الأولى للتطور المناخى فى الدور الرباعى quaternaire بين مراحل باردة ومراحل معتدلة. من هنا وبغض النظر عن صورة Epinal عن الشتاء الجليدى الممتد والمترامى الأطراف الذى يؤسس لرؤية رومانسية عن عصابات وفلول بشرية تعانى من قسوة تقلبات المناخ نجد علماء ما قبل التاريخ ينكبون على دراسة تأثير التغيرات المناخية. وبالتالى يمكن القول بأن التطورية التى سادت فى علم ما قبل

---

(١) انظر ما كتب سابقًا عن أعمال لارتيه Lartet

التاريخ واختارت تجاهل التغيرات البيئية المحتملة بين الأقاليم قد استندت إلى الخطوط العريضة فى تطور المناخ لشرح الفواصل الكبرى فى تأريخ أزمنة ما قبل التاريخ، بهذا الشكل استطاع مورتييه Mortillet على سبيل المثال إلقاء الضوء على التطور الذى طرأ فيما بين الصناعات الأشولية acheuléennes الغنية بالسلاح الصوانى (المعروف بالقبضة) والصناعات الموستيرية Moustérien التى تتعدد فيها الآلات المصنوعة بالتشظى والشطف خاصة "المكاشط"(١).

هذه الأشياء كما يرى صنعت خصيصًا للتعامل مع الجلود والفراء بغية التزود بأردية تقى من البرد الذى زادت حدته بين الفترتين المشار إليهما(٢) وبدون

(١) طبقًا للوصف الذى أورده مورتييه Mortillet فإن هذا السلاح الصوانى عبارة عن أداة لقطع وتقليم الخشب لا يمكن استخدامه فى صنع الملابس. فى بداية الدور الرباعى Quaternaire كان الإنسان الذى يسكن فرنسا يسير عاريًا ولم يكن يضيره ذلك فى شىء لأن الطقس كان حارًا. حين تغيرت الظروف المناخية استطاع الإنسان لما كان يكسو جسمه من الشعر أن يتحمل البرودة لبعض الوقت غير أنه ما لبث أن فضل أن يتقيها. وقد طور لهذا الغرض الآلات الحجرية التى كان يصنعها حتى تمكنه من صنع الملابس. وقد تم العثور على المكاشط التى كانت تستخدم فى دبغ وتنعيم جلود الحيوانات المثاقب الحادة لقطعها وثقبها.

Formation de la nation française. Textes, linguistique, palethnologie, anthropologie, Paris, Félix Alcan, 1897, p. 322 – 323

(٢) ذات المرجع ص ٣٢٤

قفز مورتييه Mortillet بما فعله قفزة تاريخية نظرًا لعدم وجود مراجع أنثروبولوجية يمكنه الاستناد إليها. نحى هذا العالم من حديثه جماعات الدور السوليترى المعاصرة. أدى به جهله بسياق الكرو – مانيون Cro. Magnon إلى التشكك – وهو غير محق فى ذلك – فى طابع العصر الحجرى القديم. (انظر ما سبق).

يقصد مورتييه فى هذا النص بعبارة "جنس لوجيرى" الجماعات المجدلينية غير أن الأمر يستوجب التذكير بأن الدور المجدلينى يتميز تحديدًا بتطور صناعة العظام: فى نظر مورتييه Mortillet هذا التجديد التقنى يجد تفسيره ليس فقط فى الاستعدادات الجديدة لهذا الجنس وإنما أيضًا فى الظروف المناخية التى كان عليه مجابهتها وقد قال واصفًا إياه: كان همه الأول، بدا جل همه أن يقى نفسه البرد القارس؛ من هنا فقد بحث عن الكهوف والمخابئ بين الـ [illegible]ور. كثرت المساكن فى أماكن توقف هذه الجماعات، وبدت من خلال الآلات التى يصـ[illegible]ـنها اهتمامهم بالحصول على نوعية جيدة من الملابس. يكفى كمثال فى هذا الصدد إبر الحياكة ذات الثقب المصنوعة من العظم من العصر المجدلينى (ذات المرجع ص ٣٢٥).

إبداء الأسباب الحقيقية, وضع مورتييه Mortillet على عاتق التغيـرات المناخيـة وحسابها انقراض "جنس إنسان النياندر" أو بالأحرى تحوله إلى جنس جديد أكثـر بعدًا عن القرود وأكثر كمالاً يعرف باسم "la race de laugerie " "جنس اللـوجيرى" أو الجماعات المجدلينية.

خلال الفترة ذاتها عزا "بييت" Piette إلى التغيرات المناخية ظهـور الفـن وذلك فى بداية "عصر العاج" "Eburneen" وهو ما يقابل فى ذهنه الفترة الواقعة بين الفترتين الموستيرية والمجدلينية.

"عندما بدأت أنهار الثلج الموستيرية فى الذوبان واستشعر الإنـسان اعتـدال الطقس حمل الإنسان متعلقاته خارج الكهوف ووضـعها بعيـدًا عـن انحـدارات الصخور [...]. جعلته سعادته للعيش فى ضوء الشمس وعـدم تعرضـه للريـاح الشمالية العاتية ولذعات البرودة الشديدة يشعر نسبيًا بساعات هادئة هانئـة وبميـل إلى الاختراع والإبداع [...]. استيقظت فى داخله، ولأول مرة، غريزة حب الجمال اللصيقة بجنسنا وفتحت له أفاقًا جديدة [...]. تاقت نفسه إلى المثاليـات وتخلـص بذلك من الشق الحيوانى فيه"(١).

من هذه الأفاق الجديدة التى بدت له فى سماء الطقس الصحو، ظهرت إلـى الوجود أول الإبداعات الفنية، أول الشواهد الحية على طموحات البشرية الجديـدة.

---

(١) يعد "العصر العاجى" بالنسبة لبييت Piette مرادفًا للفترة السوليترية غير أننا نعلم أنه سيساهم بعد بضع سنوات فى اكتشاف الأوريناكى والتعرف عليه.

2. Piette, Edouard, L'Epoque éburnéenne et les races humaines de la période glyptique, op.cit., p.4-6.

"الحقبة الماضية والأجناس البشرية فى فترة النقش على الجواهر" المرجع السابق ذكره ص ٤ – ٦

نذكر هنا بأن الوصف التصويرى للمناخ كما أورده بييت Piette يختلف تمامًا عمـا اقترحـه علينا مورتييه Mortillet. جدير بالاهتمام أن نعرف أن هذا الأخير كان لا يذكر بقدر كبير منـاخ الدور السوليترى مثلما اهتم بذلك الذى ساد خلال ازدهار الدور المجدلينى (راجع ما سبق).

من هنا نرى أن دور الاختلافات والتغيرات المناخية قد وضع مبكرًا فى الحسبان لتفسير بعض التطورات التى استشعر وجودها خلال العصر الحجرى القديم.

هذا الدور يكتسب أهمية خاصة فى الانتقال من العصر الحجرى القديم إلى العصر الحجرى الحديث وقد رأينا منذ ظهور العالم بوشيه دو بارت Boucher de Perthes أنه من أهم الخواص المميزة بين العصرين الحجريين القديم والحديث هو استبدال الحيوانات بحيوانات أخرى، هذا إلى جانب تشذيب الأحجار وظهور الخزف.

فقد لوحظ تطور فى بعض الأنواع مثل الوعول اليحمور والخنازير البرية على حساب حيوانات أخرى اختفت أو هاجرت من أوروبا الغربية مثل الماموث والرنة، وفى هذا دلالة على تغير شديد فى المناخ يضع نهاية للثلاجة أو العصر الجليدى الأخير.

هذا التزامن بين التطورات السلوكية والاختلافات البيئية التى أحاطت بها قد لفتت الأنظار إلى ما قد يكون من تأثير الثانية على الأولى.

هنا يلوح لنا دور جديد لمورتييه Mortillet ؛ فقد أدار ظهره للمنظور المعتاد والمألوف للتطور الخطى واستدعى إلى الأذهان فرضية هجرة الجماعات وبذلك أوجد كسرًا حادًا وفصمًا واضحًا فى مسيرة ما قبل التاريخ وتتابعها وذلك لتفسير الانتقال إلى العصر الحجرى الحديث.

واقع الأمر أنه طبقًا لما رآه فإن أغلب صائدى حيوان الرنة المنتمين للفترة المجدلينية قد تبعوا انسحاب هذه الحيوانات إلى الشمال وحلت محلهم جماعات أخرى قدمت من الشرق واستقرت فى بيئة أوروبية مختلفة تمامًا. هذا التفسير الذى سيخضع لنقاش حاد لاحقًا قد دفع بكارتياك Cartailhac على سبيل المثال إلى التساؤل: "عما

إذا كانت الفكرة تنتشر بصورة أفضل من الإنسان – هذا مع عدم استبعاد فرضية أن جماعات جديدة قد ظهرت حينذاك فى أوروبا"، وقد أضاف هذا العالم:

" كان اليسر الذى تم به الانتشار أكبر نظرًا لعدم وجود فروق كبيرة حضارية بين الجماعات فى ذلك الوقت: كان الإنسان قادرًا على إدراك قيمة الاكتشافات والوسائل المستحدثة واستيعابها وتطبيقها وإدخال تحسينات عليها(١)".

يمثل هذا النقاش صورة مقدمة للمناظرات التى سبق لنا الحديث عنها:

سرعان ما تمت صياغة الاتجاهات التفسيرية الأساسية ذاتها. ولكن أيًا ما كان الأمر سواء كان انزواء وانضواء الفترة المجدلينية وظهور العصر الحجرى الحديث ناتجًا عن هجرة جماعات بشرية أو تأقلمها مع ظروف جديدة، عن تأثيرات خارجية أو عن عبقرية تفتقت عنها أذهان أفرادها فإن علماء ما قبل التاريخ الأوائل قد أدخلوا التغييرات المناخية فى الاعتبار حتى يمكنهم تبين الأسباب الدفينة لذلك.

هذه الركائز الفكرية جعلت علم ما قبل التاريخ فى القرن العشرين يولى أهمية كبرى للعوامل المناخية. ولكن إذا كان تأثير البيئة قد تجانس وتآلف مع المبادئ التطورية المنتشرة فى القرن التاسع عشر خاصة لدى مورتييه Mortillet يجدر بنا التساؤل عن الطريقة التى ستتفق بها مثل هذه الحتمية مع فكرة الهجرة حين تصبح مطروحة أكثر فأكثر للاستفتاء.

سنحاول إذن أن نفهم كيف أمكن لفكرة وضع البيئة فى الاعتبار ملازمة الرؤى المتباينة التى سبق تحليلها. ستشكل لنا نهاية العصر الحجرى القديم فى هذا الصدد نقطة انطلاق مع تحليل أكثر عمقًا للمفاهيم التى تحيط بتصوبيه.

---

(١) ذات المرجع ص ١٢٥.

الإنبات البطىء لمفهوم العصر الميزوليثى (العصر الحجرى القديم الأوسط) Mésolithique

يعد الانتقال من العصر الحجرى القديم إلى العصر الحجرى الحديث – كما سبق وذكرنا – أكثر المراحل الحاسمة فى التطور البشرى. رؤى أن الفارق بين العصرين من الاتساع بحديث بات من المتعذر رؤية العلاقات المتبادلة بينهما وكانت الفجوة الفاصلة بينهما من العمق بحيث بدا مستحيلاً إيجاد جسور تصل بينهما. ويمكن بصيغة أخرى القول بأن تعريف هذين العصرين قد صاحبه إيضاح وجود فجوة كبيرة بينهما حتى نستخدم ذات المصطلح الذى استعمله علماء ما قبل التاريخ لتوصيف هذه المرحلة الغامضة.

بدأت جماعات الصائدين جامعى الثمار وما يحيط بهم من جموع الحيوانات المتوحشة وصنوفها فى الاختفاء، وعلى الضفة المقابلة ظهرت فجأة من حيث لا نعرف جماعات وفرق مزارعى العصر الحجرى الحديث وبصحبتهم قطعان الحيوانات المستأنسة. للوهلة الأولى عدت هذه المرحلة تعبيرًا عن انقلاب طبيعى هائل – طوفان – مرجع توراتى صبغت تقاليده الكارثية التى يجسدها فى فرنسا كوفييه Cuvier ومريدوه على الجيولوجيا والحفريات؛ ذلك أنه وراء الهرج والمرج اللذين تسببت فيهما الطبيعة وحاول العلم جاهدًا توثيقهما، رأى بعض العلماء أقدارًا إلهية أو لنقل إنهم اقترحوا وصفًا للأساليب والسبل التى جندت لتتحقق هذه الأقدار.

ولكن حين نشأ علم ما قبل التاريخ فى منتصف القرن التاسع عشر كان قد مضى وقت طويل على هذا المنطق الكارثى وأصبح الشغل الشاغل لعلماء ما قبل التاريخ الأوائل استبدال صورة الطوفان بصورة أكثر حيادية لفجوة نظر إليها فى بادئ الأمر كعلامة على اختفاء كامل للعنصر البشرى من أوروبا وتحولت بشكل سريع إلى نقص فى المعارف يجب الإسراع فى معالجته.

إلا أنه اعتبارًا من عام ١٨٦٠ ظهر تعارض بين الخطاب التطورى الذى تمت صياغته لإعادة كتابة هذه المسيرة المتمهلة للإنسانية فى عصور ما قبل التاريخ والتسلسل المقترح للأحداث لشرح تاريخها الحديث المكون من الحروب والاجتياحات والغزوات. بعبارة أخرى إذا أخذنا فى الاعتبار التطور المتدرج الذى خضع كل منهما له يصبح سؤالنا عن توقيت بداية الإنسانية التاريخية وانتهاء الإنسانية الحفرية. ذلك أن الرؤية القائلة بوجود "طوفان" كان لها على الأقل فضل وضع خط فاصل بين فترة ما قبل التاريخ والتاريخ، بين الزمن الغائب عن الذاكرة والذى كان مسرحًا لتطورات طبيعية متدرجة ببطء وأول الأحداث التى وعتها الذاكرة الإنسانية وحفظتها. وكان على مورتييه Mortillet إذا طرح جانبًا فكرة الكارثة أن يوفق ويوائم بين هذه الأشكال المختلفة من الروايات التفسيرية وقد اقترح السيناريو التالى:

"تحت وطأة تغير مناخى شديد غيرت الإنسانية الحفرية وبالأحرى الجماعات المجدلينية من عاداتها بادئة بذلك المرحلة الوحيدة للعصر الحجرى القديم وهى المسماه بـ Tourassiens"

بالتوازى مع هذا التغيير قدمت جماعات من الشرق يطلق عليها التاردينيون (Tardenoisiens) لم تحول الإنسانية فقط إلى العصر الحجرى الحديث ولكن بشكل أكثر اتساعًا وشمولية إلى ديناميكية من النوعية التاريخية. واقع الأمر أن ظواهر مثل الغزوات حلت محل الأسباب الطبيعية فى محاولة لتفسير التغييرات المرتقبة[1].

---

(١) توضح لنا خاتمة الكتاب الذى سبق لنا الإشارة إليه تحت عنوان " نشأة الأمة الفرنسية " "Formation de la nation françaisc" مداخل الأيديولوجية التى صاحبت مثل هذه الرؤية: فقد أفضى اللقاء بين الجماعتين التوراسية والتاردينية إلى عملية التهجين التى شكلت الشخصية والهوية الفرنسية. لحقت بهذه المرحلة الجوهرية وبشكل مؤكد "أنواع أخرى من التخليط ذابت تباعًا فى النواة الأصلية". ولكن "بدلاً من أن تدمرها زادت من حيويتها". ولم يتردد مؤلف الكتاب للتأكيد على طموحاتها العميقة فى اعتبار هذه الجماعة أرومة شعب أرض

وبذلك يعد الانتقال بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث من خلال الجماعات التوراسية "Tourassiens" والجماعات التاردينية "Tardenoisiens" كما بدا فى كتابات مورتييه "Mortillet" ليس فقط تغييرًا بين مجموعة بشرية وأخرى وإنما مفصلة نموذجية.

هذا السيناريو لم يقبل به كل معاصرى بول فالكثير منهم تناول بالنقاش أهمية الغزو الذى أبرز مورتييه Mortillet دوره الراجح. غير أنه منذ هذه الحقبة تميزت نهاية العصر الحجرى القديم وبداية العصر الحجرى الحديث بتوازن دقيق بين التطورات المرتبطة بالمناخ وتلك الناشئة عن الحركات الكثيفة للجماعات.

هذه الأسباب المختلفة تفسر واحدة نهاية الفترة المجدلينية والأخرى توسع المجتمعات الزراعية الرعوية.

غير أنه حتى مطلع القرن العشرين بقيت أسئلة كثيرة تبحث عن إجابة:

ما هى هوية هذه الجماعات التى جاءت بعد الفترة المجدلينية وقبل مقدم العصر الحجرى الحديث والتى أطلق عليها مورتييه Mortillet صفة التوراسية Tourassiennes؟

للغال "نواة الديمقراطية الفرنسية" التى ستستمر بدون شك فى نشر هذا المضمون المثالى لدى كل الشعوب التى ستضمها إليها!

(1) Mortillet, Gabrielde, Formationde la Nation fran,caise ..., op.cit., p. 328-329; Boule, Marcellin, les Homes Fossils.. op.cit., p. 338.

وطبقًا لما رآه مورتييه فإن هذا التهجين ما زال من الممكن استشعاره فى الفرنسيين المعاصرين – راجع هذا الرأى كثير من علماء الأنثروبولوجيا مثل بول Boule الذى كتب عام ١٩٢١:

"طبقا لوجهة النظر الأنثروبولوجية وكافة وجهات النظر الأخرى فإن المصادر الأزيلية Alziliens والتاردينية تعدنا بطبائع انتقالية تجمع بين أنماط من البشر فى بنيتها تشبه إنسان عصر الرنة مع ظهور متدرج (للقادمين الجدد)".

ترتسم اعتبارًا من هذه الأونة خطوط التوزيع الأولى للأجناس الأوروبية كما نراها اليوم خاصة ما تعلق منها بالجنس للبحر متوسطى.

Boule, Marcellin, Les Hommes Fossiles "الإنسان الحفرى", op.cit. p 338.

هل التاردينيون هم أول من عاش من الجماعات فى العصر الحجرى الحديث؟

من أين جاءت جماعات المزارعين؟ وكيف تطورت اقتصاديات الإنتاج؟

هذه التساؤلات تبرر ظهور تقسيم زمنى جديد من العصرين الحجريين القديم والحديث يتلقى التفسيرات التى آثارتها عملية الانتقال: نشهد عندئذ فى الربع الأول من القرن العشرين نشأة مفهوم "الميزوليثى".

لندرك سبب ظهور هذا المفهوم ونشأته يتوجب علينا العودة مرة أخرى إلى الوراء. فى نظر كل من "مورتييه" ومعاصريه يتحد دورا تحولات الطبيعة وحركات الجماعات لتفسير المرور من العصر الحجرى القديم إلى العصر الحجرى الحديث. أداروا ظهورهم للنظرية الكارثية وتطلعوا إلى نقلة بين العصرين تستند إلى هذين العاملين المختلفين من طقس وهجرة, تفاعلهما معًا. هذا لا يعنى أن هذه النقلة قد نظر إليها باعتبارها حقبة قائمة بذاتها فى التسلسل الزمنى الذى يشكلانه فـ"الميزوليثى" لم يكن قد ظهر بعد(١).

فى عام ١٨٩٠ بدأت هذه النقلة تأخذ شكلاً ماديًا بفضل ما جلبه بييت Piette من دلائل ومصادر من أعمال التنقيب والحفر التى قام بها فى ماس دأزيل mas d'Azil؛ فقد اكتشف فى هذا الكهف، بين الطوابق المجدلينية وتلك الخاصة بالعصر الحجرى الحديث، مرحلة وسيطة تجمع بين صفاتهما معًا وبوفرة تثبت هذه النقلة التى يبحث عنها الجميع أسماها الأزيلية L'Azilien.

---

(١) فى عام ١٨٧٠ كان مصطلح "الميزوليثى" معروفًا غير أنه لم يكن تعريفه متفقًا عليه بين الكتاب, بل إن البعض ذهب إلى اعتباره مرادفًا لعصر الرنة مما يؤكد مرة أخرى أن الرغبة فى تمييز المراحل الحديثة فى العصر الحجرى القديم بشكل قاطع وحاسم قد سبقت مؤلفات بروى Breuil ولنتذكر فى هذا الصدد ما كان من بييت Piette بشأن مصطلح "Leptolithique".

لمعرفة المزيد عن "الميزوليثى" يمكن مراجعة:

Coye, Noël, La Préhistoire en parole et en acte...op.cit., p. 218 – 237 et 254 – 263

Barbaza, Michel, Les Civilisations postglaciaires. La vie dans la grande forêt tempérée, Paris, La Maison des roches, «Histoire de la France préhistorique», 1999.

اقترح مورتييه Mortillet حينذاك مصطلحًا منافسًا وهو "التوراسية" غير أن هذا لم يمنع من التقاء الاثنين فى خطوطهما العريضة. وأيًا ما كان اسمها فلهذه المرحلة صناعة أمكن رؤية وتلمس ميراثها (الهاربون... إلخ) الذى يتميز بصغر أدواته الحجرية. اقترن بتميز الأدوات وجود حيوانات ما بعد العصر الجليدى الشبيهة بتلك التى نعرفها وإن كان ليس بها أى فصيلة مستأنسة.

اعتبارًا من ذلك الحين فإن الطبيعة المتناهية الصغر للأدوات أصبحت واحدة من أهم الخصائص المميزة لهذه الحقبة التى تلت العصر الحجرى القديم. وقد تم تدعيم هذا الرأى عندما تبين العديد من المؤلفين خاصة أدريان دو مورتييه (الابن) وجود صناعة أزيلية أطلق عليها بعد ذلك الصناعة "التاردينية". ثالث ما يميز هذه الحقبة وجود العديد من النصال القزمية هندسية الشكل القريبة من المثلثات والمربعات المنحرفة والمعينات والمقاطع الدائرية, مما دعا العالم مورتييه Mortillet وابنه إلى نسبتها إلى طابق العصر الحجرى الحديث الأول الذى عادة ما تنتهى له هذه الأشياء. من هنا يمكننا القول بأن "التاردينية" هى الترجمة الأثرية للغزوات الأولى التى تميز وفقًا لما يراه مورتييه الأب هذه المرحلة الجديدة. ويعد غياب الآلات المشذبة والخزف وبقايا الحيوانات المستأنسة خلال هذه الفترة التاردينية مما يتناقض مع ما يعرف عن العصر الحجرى الحديث.

هذا التناقض من الوضوح حتى أنه فى الربع الأول من القرن العشرين عزل بعض المؤلفين الفترة التاردينية من هذه الحقبة. وبدأت عندئذ تترسخ تدريجيًا فكرة وجود مرحلة إنتقالية حقيقية بين العصرين الحجريين القديم والحديث تبدأ بالأزيلية لتمتد إلى "التاردينية" وبين الاثنتين الفترة السوفيتيرية Le Sauveterrien[1].

---

(١) عرف لوران كولانج Laurent Coulanges عام ١٩٢٨ هذا المصطلح عقب أعمال التنقيب التى قام بها فى موقع سوفيتر – لا – ليمانس Sauveterre – La – Lémance (لو – إيه – جارون) (Lot – et – Garonne).

فى مطلع عـــام ١٩٠٩ اقتـــرح جـــاك دو مانجـــان Jacques de Mangan مصطلح "الميزوليثى" لوصف هذه النقلة بين العصر الحجـــرى القـــديم والعـــصر الحجرى الحديث وما لبث هذا المصطلح أن فرض نفسه على الساحة(١). وجـــدير بالذكر أن الطابع النصالى القزمى Microlithique لصناعات هذه المرحلة والـــذى يقترن دومًا بتعريفها يتناسب وتعميم نوع من الأسلحة أصبح يميز صيادى الغابـــات خلال هذه المرحلة وهى القسى ومعها سهام ذات رؤوس تشبه طرف الإزميل.

موضع "الميزوليثى" فى تطور سلوكيات ما قبل التاريخ:

عانى مصطلح "الميزوليثى" لفترة طويلة من عدم القدرة على تجسيد وتمثيل الحقبة تمثيلاً كاملاً. واقع الأمر أنه بالنسبة لمعظم مروجى هـــذا المـــصطلح فـــإن "ميزوليثى" مرادف لنقلة اقتصادية وتقنية... إلخ بين الـــصائدين جـــامعى الطعـــام الرحل دائمى الترحال والتنقل الذين عاشوا فى العصر الحجرى القديم والمزارعين الرعاة المتوطنين الذين استقروا فى العصر الحجرى الحديث. وقد أثبتـــت الوقـــائع التى تم تجميعها فى الأبحاث التى قام بها العلماء فى القرن العشرين وجود مواقف متباينة. فإذا كانت بعض مجتمعات هذه الحقبة تبدو ذات سمات انتقالية فإن هنـــاك مجتمعات أخرى مواطنوها من الصائدين جامعى الثمار الـــذين يـــشبهون كثيـــرًا أسلافهم فى العصر الحجرى القديم.

يمكننا القول بشكل نهائى إن "الميزوليثى" الحقيقى والذى ينظر إليه باعتباره علامة لتطور متدرج وصولاً للعصر الحجرى الحديث قد ثبت غيابه مـــن أوروبـــا

---

(١) راجع بصفة خاصة التوليفة التى اقترحها بعد ذلك بعدة أعوام:
Morgan, Jacques de, L'Humanité préhistorique. Esquisse de préhistoire générale, Paris, La Renaissance du livre, «L'évolution de l'humanité», 1921.

ووجود ما يمثله بأكثر الترجمات أمانة له فى الشرق الأدنى(١). خلال هـذه الفتـرة التى تقع فى اثنتى عشرة ألف سنة قبل التاريخ المدون نـشهد توطينـا واسـتقرارًا لجماعات من الصيادين جامعى الثمار الذين سيغيرون بعمـق وبـشكل تـدريجى علاقتهم بالبيئة المحيطة مفسحين المجال لاستئناس لاحق للنباتـات والحيوانـات. وبذلك تمكنوا فى العام ٩٥٠٠ قبل التاريخ المدون من التحول من وضع القناصـين النهابين إلى وضع "المنتجين". فى مقابل هذه الأقوام التى استوطنت الشرق الأدنى, خاصة من يطلق عليهم مسمى "الناتوفيـه natoufienne" كانـت هنـاك جماعـات الصائدين جامعى الثمار الرُحل فى أوروبا, وقد رفض الكثير من الكتاب وصـفهم بـالميزوليثيين وأسـموهم بـأقوام "مـا فـوق العـصر الحجـرى القـديم" "épipaléolilhiques". وقد قصدوا بهذا المسمى مجتمعات قريبة مـن مجتمعـات العصر الحجرى القديم تحولت عاداتهم نتيجة العيش فى الغابات بدون أن يعدل ذلك من وضعهم كقناصين نهابين(٢).

وتؤكد هذه الرؤية على الفكرة القائلة بأن هذه المجتمعات كان من الممكن ألا يطرأ عليها أى تغيير وأن يستمر وجودها على هذا النحو ما لـم تـدخل حياتهـا جماعات العصر الحجرى الحديث القادمة من الشرق الأدنى.

---

(١) هذا إذا نظرنا جغرافيًا إلى المساحة الواقعة بين الشرق الأوسط وأوروبا لأنه فيما عدا تلـك وجد فى آسيا وأمريكا وربما فى بعض أجزاء من أفريقيا ميزوليثيون حقيقيون بمعنى جماعات ذات اقتصاد انتقالى.

(٢) قالت بهذا الرأى أنيت لامنج أمبريـر Annette Laming Emperaire فـى مقـال بعنـوان: "الصائدون النهابون بعد العصر الجليدى وفى الفترة الميزوليثية" ضمن المرجع التالى:
Leroi- Gourhan, André et al. (dir.), La Préhistoire, Paris, PUF, «Nouvelle Clio», 1966, p. 140 – 156. ; بعد صدور هذا الكتاب بعدة سنوات عبر جون – جورج روزوا Jean – Georges Rozoy عن رأى مماثل فى المؤلف الذى خصصه لهذه الحقبة والذى يعد من المراجـع الأساسية المجددة فى هذا المجال:

Rozoy, Jean-Georges, «Les derniers chasseurs. L'Epipaléolithique en France et en Belgique. Essai de synthèse», Bulletin de la Société archéologique champenoise, numéro spécial, 1978.

هل نعتبر انطلاقًا من كل هذا أن "قاطني الغابات" المعاصرين للألفيات التالية لآخر عصر جليدى مجرد ظاهرة عارضة فى العصر الحجرى القديم؟ أم نعتبرهم كما اقترح ميشيل باربازا Michel Barbaza مجتمعات تجسد ميزوليثى.

حقيقى مبتكر ومتماسك باستعداداته وطبائعه فى زمان ومكان بعينهما"[1].

خلال العقود الأخيرة ساهمت الأبحاث فى علمى الآثار والإثنولوجيا فى تمحيص التباين بين ما يطلق عليه "قناص نهاب" وما يطلق عليه منتج. وقد بينت أنه خلف مسمى "الصائدين جامعى الثمار" تختبئ وتتوارى فى الحقيقة فروق دقيقة فى السلوكيات الاجتماعية والاقتصادية. مظاهر عدة تميز بشكل واضح جماعات الصائدين جامعى الثمار الأوروبيين فى فترة ما بعد العصر الجليدى عن السابقين عليهم فى العصر الحجرى القديم، مما يبرر فصلاً وفصمًا أكثر حسمًا مما يوحى به تعبير "ما فوق العصر الحجرى القديم"[2].

وإذا كان لمصطلح "ميزوليثى" أكثر من دلالة وفقًا لمناطق وأقاليم العالم التى نكون بها فإنه يترجم بشكل جيد فى السياق الأوروبى وجود تغييرات طرأت فى مطلع الدهر الهولوسينى Holocene بين جماعات الصائدين - جامعى الثمار[3].

يطفو على السطح هنا مرة أخرى التساؤل عن العلاقة بين الإنسان وبيئته. فالصورة الشائعة الأكثر تداولاً تسمح، فى اختفاء أقاليم السهوب والتوندرا فى العصر البليوستوسينى وظهور البيئة الغابية الخاصة بالدهر الهولوسينى بدلاً منها، بإدراك أحد الأسباب التى أوصلت إلى التغيير الواضح فى السلوك.

---

(1)1. Barbaza, Michel, Les Civilisations postglaciaires. La vie dans la grande forêt tempérée, op.cit., p.17.

(٢) انظر الفصل الخامس.

(٣) ينقسم الدهر الرابع إلى حقبتين جيولوجيتين: البليوستوسينى والهولوسينى. ترجع هذه الأخيرة إلى نحو عشرة آلاف عام قبل التاريخ المدون وقد استقرت فيها الظروف المناخية على النحو الذى نشهده حاليًا.

تطورت الحمية الغذائية مما أعطى الموارد النباتية مكانًا أكثر أهمية وأدى لتقسيم الجماعات البشرية وفصلها فى مساحات تحدها أشجار عالية ولابتكار خطط وطرق صيد لقنيصة جديدة. وقد تطلب الأمر اللجوء إلى أسلحة جديدة.

هاكم بعض من زوايا الرابطة بين الإنسان وبيئته الجديدة. من هنا إذا كانت التغييرات المناخية تلعب دورًا حاسمًا فى الاستيطان التدريجى لجماعات الشرق الأدنى الذى يسمح به دوام بعض الموارد البرية حتى تدجينها أو استئناسها، فإن هناك ظواهر تطورية محسوسة تعبر عن ذاتها فى أوروبا فى ذات التوقيت بين جماعات الصائدين – جامعى الثمار وهى مرتبطة ارتباطًا وثيقًا هى أيضًا بتطور البيئة. يحترم التأريخ أو التسلسل الزمنى الأكثر استخدامًا اليوم هذا التفسير ويحتفظ بتعبير "ما فوق العصر الحجرى القديم" لجماعات الصائدين جامعى الثمار الموجودة بين العصرين البليوستوسينى والهولوسينى أى ما بين الأعوام ١٢٠٠٠ و١٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون (وهو حال الجماعة الأزيلية) فى عام ١٠٠٠٠ قبل الميلاد نجد أنفسنا وقد انقلبنا فى الميزوليثى الأوروبى (الذى يضم على سبيل المثال السوفيترية Sauveterrien والتاردينية Le Tardenoisien) وذلك حتى مقدم العصر الحجرى الحديث أى بعد فترة تتراوح بين ألفين وستة آلاف عام تبعًا للمناطق[١].

هل تذهب مثل هذه الحتمية البيئية بكل شكل آخر لحركة الجماعات لتحديد موقع عصر ما فوق العصر الحجرى القديم Epipaleolithique ثم العصر الميزوليثى Mesolithique؟، والسؤال المطروح هنا منذ مضى مورتييه هو: هل تحتفظ رؤية توالى عصور ما قبل التاريخ بفاصل تفسيرى واضح بين التطور الإقليمى للسلوكيات المستند إلى المناخ وتصور أحداث هجرة وترحال لاحقة لا تلتقى عندها إلا الجماعات المنتمية للعصر الحجرى الحديث للعصر؟ من هنا نجد أن الدراسات التى

(١) انظر لاحقًا الفصل الخامس.

تهتم بالعصر الميزوليثى إذا ما تجاوزت هذا التناقض تنتهى بمزج مفاهيمها المتباينة هذه معًا. كما ذكرنا من قبل فإن علماء ما قبل التاريخ فى نهاية القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن التالى قد لفت أنظارهم فى العصر الميزوليثى انتشار الصناعات المرتكزة أساسًا على النصال القزمية الهندسية.

إذا كانت لهذه الأشياء فى عرفهم أشباه سابقة عليها فى بعض صناعات العصر الحجرى القديم الأوروبى فقد استوقفهم اتساع رقعة انتشارها فى بداية العهد الهولوسيتى (العهد الحديث كل الحداثة). يعد مجمل حوض البحر الأبيض المتوسط وأغلب مناطق أوروبا القارية ضمن الرقعة المشار إليها. والغريب أن بروى Breuil وجد تشابهًا كبيرًا بينها وبين صناعات آسيوية معاصرة وصناعات أفريقية يمتد انتشارها إلى أطراف القارة. وجد بروى Breuil نفسه فى مواجهة هذه الظاهرة يطبق النموذج الذى كثيرًا ما يستعين به ونعنى هنا الهجرات، وبذلك اتفق مع فكر مورتييه Mortillet(١) – لمرة عابرة لا يستشف منها إمكانية دوام الاتفاق بينهما – وقد صرح:

"إنه بالنسبة لمسألة الأزيلية L'Azilien أو التاردينية Tardenoisien وللمصطلحات الوسيطة التى تجمع بينهما، نحن فى حاجة إلى البحث فى الجنوب فى اتجاه نقطة ما من حوض البحر المتوسط عن أصل هذه الصناعات الصغيرة. يجب أن نفترض أن جماعات العصر الحجرى الحديث قد طاردت تباعًا قبائل عدة تسكن هذه المناطق حتى الشمال الغربى. وربما كانت هناك أقوام أخرى مماثلة قد تغلغلت فى اتجاه الجنوب واحتلت مناطق شاسعة داخل القارة الأفريقية"(٢)

---

(١) حتى إذا لم يقع بروى Breuil فى ذات الخطأ الذى وقع فيه مورتييه Mortillet بتشبيه التاردينية بالعصر الحجرى الحديث.

(1) Breuil, Henri, Les subdivisions du Paléolithique supérieur et leur signification, Lagny, Imprimerie Crevin, 1937, p. 73-74.

لنذكر هنا أن الحديث عن الطبعة الثانية التى تم تصحيح وتنقيح الجزء الخاص بهذا الموضوع بها. كما أن هذا النص قد نشر حاملاً العنوان ذاته ١٩١٣.

ورغم أن دور الهجرات البشرية قد حظى بكل الاهتمام والتقدير فى النصف الأول من القرن العشرين ويحتفظ حتى يومنا هذا بمكانة مهمة إلا أن رؤية بروى Breuil قد هوجمت بشدة، وتحفظ العلماء والباحثون منذ ذلك الحين أمام هذه الفرضية القائلة باتساع نطاق هجرة الجماعات.

تثبت العلماء من انتشار جماعات العصر الحجرى الحديث مساحيًا ولم يغفلوا عن التأثيرات المتبادلة بين هذه الجماعات ومثيلاتها من الصائدين – جامعى الثمار. وإن كان الأمر قد انتهى باستيعاب الأولى للثانية استيعابًا كاملاً، إلا أنهم لاحظوا ظهور الميزوليثى كتطور متعدد السمات رمى بجذوره فى الصفات الأساسية لإقليم بعينه.

ما يتم التأكيد عليه غالبًا هو أن الأساس فى التطور التقنى مرجعه انتشار الأفكار مما ينفى تمامًا منطق الهجرات الكثيفة للجماعات أو فكرة وجود تقارب ما بين "التاردينيين" الذين استوطنوا شمال فرنسا والجماعات الويلتونية Wiltoniens فى أفريقيا. وقد لوحظ أنه – حتى على مستوى أوروبا فإن قاعدة التنوع هى السائدة وقد أوضحت الأبحاث التى أجريت على الصناعات الحجرية الخاصة بهذه الحقبة تعدد تصنيفات الأشياء المنتمية لمجموعة "النصال القزمية الهندسية" Microlithes geometriques مما يشى بوجود عدة ثقافات متشابكة ومركبة. ولا يتعارض هذا كله مع الفرضية الشائعة بعودة بعض تقاليد عصر ما فوق الحجرى القديم Epipaleolithique إلى الأقاليم الأوروبية الواقعة على البحر المتوسط والتى ظهر فيها فى سنة ١٢٠٠٠ قبل التاريخ المدون جماعات امتد نفوذها تدريجيًا إلى الشمال وإلى المنطقة الأطلنطية.

ويعود لهذه الفرضية الفضل فى الجمع بين الدور المفترض للتعديلات البيئية التى تميز هذه الحقبة والوجود المحتمل "لدفعات" بشرية تجسدها مثل هذه الحركات والتنقلات.(١)

واقع الأمر أنه فى الفترة الواقعة بين العصرين البليوستوسينى والهولوسينى كانت الشعوب التى استوطنت أكثر المناطق اعتدالاً فى أوروبا تفوق نظرائها فى الأقاليم الشمالية وتلك المقيمة فى المناطق المطلة على الأطلنطى التى نمت ثقافاتها فى بيئة جليدية أضحت غير ذات بال. وتمثل صناعة "النصال القزمية" اتجاهًا نحو تطوير صناعة الآلات الحجرية وتصغير أحجامها، أحد أسباب هذا الاتجاه هو صناعة رؤوس السهام لشيوع استعمال القسى التى تعد إحدى التقنيات السائدة خلال هذه الحقبة. ويرجع الإقبال على استعمال هذا السلاح إلى امتداد اتساع البيئة الغابية. من هنا نرى تقاربًا بين آليات سبق تطبيقها فى أحقاب تاريخية واضحة المعالم:

يمكننا القول بأن التعديلات التى تطرأ على البيئة تضمن نجاح بعض الحلول التقنية ومن ثم انتشارها. يستتبع ذلك ازدهار الجماعات القائمة على هذه الحلول وبالتالى فإن حركات وانتقالات الجماعات تجد لها تفسيرًا جزئيًا فى التطور البيئى الذى أن لم يكن قد حرض عليها فعلى الأقل هيأ لها الظروف الملائمة. فى العصر الميزوليثى الأوروبى سادت المناطق الغابية وأدى ذلك إلى تدبير التقنيات وتوزعها

---

(١) نفت لامنج أمبرير Laming – Emperaire فى الستينيات هذه الفكرة وذكرت أن "النصال القزمية" يبدو وجودها ناشئًا عن ظاهرتين أساسيتين: من ناحية الميل إلى تصغير حجم الآلات الحجرية وهو ميل يرجع إلى أبعد من العصر الحجرى القديم الأعلى ويرتبط بالبحث عن أفضل مردود، ومن ناحية أخرى الاتجاه إلى استعمال الأشكال الهندسية التى تعد اختراع بحر متوسطى مرتبط بدون شك بتقنيات جديدة فى الصناعة وفى إضافة مقابض للآلات, وهو اتجاه انتشر بدون هجرات.

Laming – Emperaire, Annette, "Les chasseurs predateurs du Postglaciaire et le Mesolilhique", op. cit. p150

فى أماكن عدة. غير أن هذا للعين الخبيرة ليس إلا تغريدة بجعة تطلقها طبيعة برية على حالتها الأولى: فهذه الغابات التى استشعرت زهوًا وقتيًا لـم تلبـث أن فقـدت قدرتها على الصمود أمام التوسع اللاحق للجماعات فى العصر الحجرى الحـديث التى طفقت تقطع أشجارها بضربات من الفؤوس الحجرية المصقولة.

المناظر الطبيعية فى العصر الحجرى القديم الأعلى

تمنح نهاية العصر الحجرى القديم وتطورات العصر الميزوليثى أو (العصر الحجرى الوسيط فرصة هائلة لمن يرغب فى التأمل ومعرفة دور البيئة.[1]

يتغير الإنسان وتتبدل سلوكياته بتأثير من التقلبات المناخية. هذه الفكرة عـن تأثير الوسط المحيط والتى نمت فى أذهان الكوادر الفكرية المنادية بالتطور غـدت لاحقًا رؤية جديدة قائمة على ركائز تفسيرية مختلفة منها: انتشار الأفكار وحركـة الشعوب. من هنا أصبح التوسع "التاريخى" للمجتمعات الإنـسانية وثيـق الـصلة والارتباط بالظروف الطبيعية وسنرى لاحقًا كيف أن البيئة ساهمت فى التقريب بين الرؤيتين التطورية والانتشارية.

هناك تطور تدريجى مماثل فى مجال الدراسات المهتمة بالعصر الحجـرى القديم. هذه الدراسات تأثرت فى بداية الأمر بوجهات النظر التطورية غير أنها بعد ذلك نحت إلى الرأى القائل بوجود تيارات هجرة واسعة ظن لفترة أنها ترجع إلـى العصر الهولوسينى غير أنه انتهى الأمر ليس فقط إلى نسبها إلى العصر الحجـرى القديم وإنما إلى اعتبارها من عناصر تفرد المرحلة "الأعلى" منه[2].

---

(١) يعاد تناول هذا الموضوع بشكل أكثر عمقًا فى الفصلين الرابع والخامس.
(٢) راجع الفصل الأول.

اعتبارًا من ذلك الوقت أصبحت المراحل الأكثر حداثة من العصر الحجرى القديم مصبًا تفسيريًا تلتقى فيه أمواج الحفريات والمعلومات الجيولوجية لتشى بأخبار إنسانية لم تملك أمام تغيرات الطبيعة حولاً ولا قوة. فى ذات التوقيت نجد أن كل ما اضطلع "علم ما قبل التاريخ" بوصفه من أحداث بما فيها من جماعات وتيارات فكرية يلقى بنفسه فى ذات الخضم مما جعل التحدى الكبير على مدى سنوات القرن العشرين هو التنسيق والمواءمة بين هذه الرؤى المتباينة.

بدت هذه التيارات للوهلة الأولى متناقضة، فحين انكب العالم بروى Breuil على دراسة صناعات العصر الحجرى القديم الأدنى والوسيط مكملاً ما جاء به مورتييه Mortillet – انصب الاهتمام على الصناعات القائمة على التشظية فى البيئة الباردة بينما تقدمت صناعات الفؤوس اليدوية Bifaces تلبية للرغبة فى استغلال البيئة الثرية بالنباتات. أوضح أن هناك علاقة وثيقة بينها وبين بيئة المجتمعات التى أنتجتها مبقيًا كل الديناميات ذات الطبيعة "التاريخية" لحقبة العصر الحجرى القديم الأعلى التى عاش بها الإنسان الحديث.

اتفق بروى "Breuil" مع مورتييه Mortillet فى ذلك ولكنه فى الوقت ذاته اختلف معه فيما يخص التطور الخطى بين صناعات المراحل الأولى من العصر الحجرى القديم وضمها إلى مفهوم الثقافة: فهذه الشعوب التى قامت بتصنيع هذه الأدوات اللفلوازية Levalloisien المتشظية والموستيرية بما فيها من فئوس يدوية قد عاشت طبقًا لرأيه معًا لفترة طويلة زمنيًا وانتشرت مكانيًا تبعًا للتذبذبات المناخية التى طرأت عليها.

أما بورد Bordes فقد ذهب إلى أبعد من ذلك وانتقد بشدة هذا التفريع الصناعى الثنائى المرتبط بالمناخ مدافعًا عن وجود ديناميات ثقافية ذات دلالة "تاريخية" لوصف تعدد سياقات العصر الحجرى القديم الوسيط. هذه السياقات ينظر إليها كتجسيد لشعوب عدة تحكمت فى مصائرها وأمسكت بزمام أمورها طبقًا لنموذج لم يعرف إلا فى العصر الحجرى القديم الأعلى فقط.

دافع بورد Bordes كذلك عن شعوب مستقلة بشكل كبير عن الظروف الخارجية التى تعزى للبيئة[١] فى المقابل نجد بالنسبة لعلماء آخرين ينتمون إلى علم ما قبل التاريخ فى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠ أن الحتمية المناخية التى يدافعون عنها تتعارض مع مثل هذه القراءة.

من هنا تبع لابلاس LaPlace الرؤى التطورية التى تبرز دور المناخ وهو يتناول أصول العصر الحجرى القديم الأعلى: حاول شرح النمو العام للتقنيات الرقائقية فى ضوء الحركة الخارجية للبيئة المحيطة واعتبر - بدون أن يذكر الأسباب بشكل واضح - أن "التطور المتدرج للـ Leptolithisation الشائع فى كل المجتمعات الإنسانية خلال هذه الفترة مرتبط به ارتباطًا وثيقًا وتابع له كل التبعية"[٢] أيًا ما كان الأمر وسواء تبنينا فكرة تطور جماعة بشرية ما فى موطنها، أو فكرة اللجوء إلى ظواهر الهجرة لتفسير التغييرات التى تحدث، فإن ما يجرى فى البيئة من تحول يمدنا بعناصر الإجابة المرجوة.

ولكن بعد هذا التواطؤ والتوافق البسيط فإن الرهان الحقيقى هو التقريب بين هذه المواقف الفكرية المختلفة. وهنا تظهر أهمية الدور الذى تلعبه البيئة، هذا هو السبب الذى جعل الاقتراب من البيئة الطبيعية، الذى طالب به الجميع منذ عدة عقود, يزداد أهمية ويصبح له ثقل فى جميع التفسيرات. ولن تشهد هذه الأهمية تراجعًا مع ما نراه فى مجتمعنا من اهتمام يوليه الجميع لعلم البيئة، فالبيئة ستحتل من الآن فصاعدًا مركز الصدارة.

---

(١) ربما كان هذا البعد تحديدًا هو الذى ألقى بالضوء على الفارق المميز بين العصر الحجرى القديم الأدنى ومرحلته الوسيطة.

(1) Laplace, Georges, Recherches sur l'origine et l'évolution des complexes leptolithiques, op.cit.

انتشر هذا المنظور تدريجيًا بين علماء ما قبل التاريخ فى القـرن العـشرين وارتكزت عليه معظم التركيبات والتوليفات الحالية[1]. نجد على سـبيل المثـال أن فرنسوا دجندجيان François Djindjian ومساعديه يولون ذات الاهتمام للهجـرات وللظروف البيئية التى تمت هذه الهجرات فى إطارها. ندرك مما سبق أنـه رغـم إيمان المؤلفين باستقلالية نسبية للثقافات التى يقومون بتعريفها فـإنهم كثيـرًا مـا يبرزون تأثير الظروف المناخية.

ها كم الطريقة التى يصفون بها الظروف المناخية التى صـاحبت العـصر الحجرى القديم الأعلى الأوروبى: فى الأعوام مـا بـين ٤٠٠٠٠ و٣٥٠٠٠ قبـل التاريخ المدون كانت هناك فترة معتدلة نسبيًا. واكب هذه الفترة "مرحلة أقل قـسوة وعنفًا كانت خلالها الانتقالات والتبادلات ميسرة"[2]. شهد العصر بعد هـذه الفتـرة عودة للأصقاع الثلجية عرفت خلالها المجتمعات الإنسانية "شكلاً جديدًا من التكيف والتأقلم [....] مرتبطًا ببيئة السهوب والفيافى"[3] التى تطورت آنذاك. بلغت قـسوة هذا المناخ الثلجى ذروتها عام ٢٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون؛ أدى تزايـد المنـاطق المغطاة بالثلج إلى: "انشطار التقاليد الثقافية بين شرق القارة وغربها والعزوف عن السهول الشمالية فى أوروبا الوسطى"[4] بعد هذه الفترة الجليدية بـشكل مطلـق[5] عادت درجات الحرارة إلى الارتفاع، واعتبارًا من العـام ١٥٠٠٠ قبـل التـاريخ

---

(١) راجع على سبيل المثال:
Djindjian, François, Kozlowski, Janusz et Otte, Marcel, Le Paléolithique supérieur en Europe, op.cit.

(٢) ذات المرجع صـــــ ٣١٦

(٣) ذات المرجع صـــــ ٣١٧

(٤) ذات المرجع صـــــ ٣١٨

(٥) أطلق على هذه الفترة لفظ Pleniglaciaire وهو مـرادف لعبـارة "Maximum glaciaire" ويعنى أعلى كثافة جليدية.

المدون بدأت المرحلة الوحيدة للعصر البليوستوسينى التى انتهت عام ١٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون باعتدال الطقس وظهور بوادر الدهر الهولوسينى.

يميز هذه المرحلة الجليدية المتأخرة حركة ديمغرافية نشطة وزيادة ملحوظة فى قدرات الجماعات الإنسانية على التأقلم على الحياة "فى المناطق غير المأهولة التى كساها الجليد بكثافة أو القريبة منها بمجرد ذوبانه"(١).

تشير هذه الأقوال إلى أن جغرافية أوروبا قد طرأت عليها تغييرات وتحولات خلال سنين العصر الحجرى القديم الأعلى، ومن المؤكد أن انعكاسات ذلك على ديناميات التطور السكانى والتعمير كانت كبيرة، ولنعد إلى الوراء نحو عشرين ألف سنة لنرى خلال العصر الجليدى الأخير كيف تسببت المساحات الشاسعة المغطاة بالجليد الكثيف فى المناطق الشمالية وحول مجموعة الجبال القارية فى انخفاض ملحوظ لمستوى المياه فى البحار والمحيطات, وكيف كانت حدود أوروبا ومحيطها مختلفة. كان من الممكن آنذاك الانتقال من فرنسا إلى إنجلترا بدون أن تبتل أقدامنا رغم أن هناك نهرًا يفصل البلدين، منابعه عند قناة ثلجية ومياهه مجمدة فى مجرى يصل حتى خط يقع تقريبًا بين خطى عرض لندن وموسكو. وكانت هناك فى المقابل مساحات شاسعة طفت وظهرت على السطح وهى فى أيامنا هذه مغمورة بمياه خليج جسقونية Gascogne والإدرياتيك، هذه المساحات كانت فى تلك الفترة قابلة للتعمير. امتدت أقاليم التوندرا والصنوبر والسهوب التى ما لبثت أن اجتذبت فصائل عدة من الجاموس والرنة والماموث والبيسون (الثيران الوحشية) والجياد والظباء الآروس. وتراجعت الغابات إلى

---

(١) ذات المرجع.

يتم فى الفصل التالى الربط بين أهم ثقافات العصر الحجرى القديم الأعلى والمراحل المتباينة المشار إليها عاليه.

الحدود الجنوبية للقارة حيث تتمركز الوعول والأيائل (اليحمور) والخنازير البرية، إما ظباء الجبال والعنزات الجبلية فكانت تهبط على سفوح الجبال – والصورة فى مجملها جد مختلفة عما هو موجود حاليًا.

ما يتوجب تجنبه هو الاحتفاظ فى الذاكرة بهذه المعالم الخاصة بآخر العصور الجليدية وتعميمها على العصر الحجرى القديم الأعلى؛ ذلك أن طقس هذه الفترة البارد فى مجمله قد تميز بتذبذب واضح، وعلوم البيئة بما حققته من تقدم بيّن خلال السنوات الأخيرة تحاول جاهدة قياس مدى هذه التذبذبات ودراسة الحدة التى اتسمت بها. نحن نعلم جيدًا أن الظروف المناخية فى العصر الجليدى الأخير قد تباينت بشكل ملفت خلال عدة قرون تخللتها بضعة عقود قلبت الموازين وغيرت المشهد بالكامل وتبعًا له موارده.

يمكننا بالتالى القول إنه بغض النظر عن التطور العام للمناخ فإن ما يبدو ذا تأثير فعال على قدرات وملكات تأقلم الجماعات البشرية وتكيفها مع بيئتها هو هذه التغييرات المناخية والطابع الفجائى الذى اتسم به حدوثها، ينكب حاليًا كثير من الكتاب على دراسة تأثير هذه الفترات العنيفة والفجائية ومنهم فرانشسكو ديريكو Francesco d'Errico وماريا فرناندا سانشيز جونى Maria Fernanda Sánchez Goñi وماريان فان هارين Marian Van-haeren[1]. شملت تحليلاتهم عدة عناصر ودالات حاولوا قياس تأثيراتها على الجماعات البشرية ومنها: امتداد المساحات المأهولة بالسكان قياسًا على تقدم الركام الثلجى والتراجع النسبى لخطوط الساحل إلى جانب اتساع المشهد بسيادة المروج على الغابات.

---

(1) D'Errico, Francesco, Sánchez, Goñi, Maria Fernanda et Vanhaeren, Marian, «L'impact de la variabilité climatique rapide des OIS 3-2 sur le peuplement de l'Europe», in Bard, Edouard (dir.), L'Homme face au climat, Symposium annuel du Collège de France (2004), Paris, Odile Jacob, 2006, p. 265 – 282

ووجود مساحات محاطة بسياج من الأشجار مع تطور ملحوظ وتنوع في فصائل الحيوانات والكتلة الإحيائية بصفة عامة بتنوع المحيط البيئي. ويعد هذا المعيار الأخير من أغناها دلالة[1]. فقد تبين أن الكتلة الإحيائية (وهي كتلة سطح الكرة الأرضية من المادة الحية الحيوانية أو النباتية) أكثر انخفاضًا في المحيط الغابي وأنها تتنامى بشكل واضح في السهوب التي تجد فيها قطعان الحيوانات آكلة العشب البيئة الأكثر ملاءمة لنموها. ويلاحظ أنه إذا اشتدت قسوة الطقس كأن ترتفع نسبة تجمد الأرض وتزيد حدة هطول الثلج فإن الحيوانات تعاني أشد المعاناة.

خلاصة القول إن البيئة الأكثر ملاءمة هي بيئة السهوب المعتدلة والمروج الشاسعة التي تتيح للإنسان موارد حيوانية عديدة. ففي رأي هؤلاء الكتاب: هذه الظروف مواتية لتناسل وتكاثر القنيصة مما يعدد الفرص السانحة أمام الإنسان قناصها. بالإضافة إلى ذلك فإن هذه المساحات المفتوحة تشكل دعوة صريحة للجماعات البشرية للتنقل والاتصال والمبادلة فهذه الأمور متاحة بشكل أكبر في المسافات الطويلة عنها في البيئة المحدودة التي تشغلها الغابة.

بتضافر هذه المظاهر المتباينة أثبت فرانشسكو ديريكو Francesco d'Errico ومعاوناته في نهاية الدراسة التي قاموا بها وجود تزامن بين انطلاقة تقليد ثقافي جديد في العصر الحجري القديم الأعلى وبداية مرحلة مناخية نمت خلالها بيئة السهوب. وكان تساؤلهم عقب هذا الاكتشاف هو التالي:

Les "OIS3-2" sontles stades isotopiquesqui recouvrentle paleolithique auperieur.

(١) يرتكز استخدام هذا المعيار على الدراسة التالية:

Delpech, Françoise. «Biomasse d'ongulés au Paléolithique et inférences sur la démographie», Paléo, n° 11, 1999, p.19 – 42.

إلى أى مدى يمكن لهذا الارتباط والتزامن أن يكون عرضًا لابتكار أنساق تقنية وربما ثقافية ولسانية التى تشترك فيها الجماعات التى تعيش فى المناطق الشاسعة وتشهد نموًا سكانيًا واضحًا – ناشئًا عن هذه الظروف البيئية؟(١)

توصلت الدراسات والأبحاث التى تناولت الحتمية البيئية إلى تفسيرات أكثر دقة واستبدلت المنظور الوظيفى الوحيد – القائل بأن كل آلة تلبى احتياج بيئة بعينها – بعوامل أخرى وبخاصة النمو السكانى. هذا المعيار يعد محركًا مهمًا لتغيير السلوكيات البشرية. وبالتالى فإن تفصيل وتشجيع توجهات اقتصادية معينة يعد تفسيرًا وتعليلاً بوجود التطورات التقنية المتعلقة بها فى كثير أو قليل. ويفسر النمو السكانى جزئيًا الحاجة إلى إعادة تعريف للأنشطة الاجتماعية.

ويلاحظ أن هذا المنظور متأثر بشكل كبير بالتقليد الأنجلو – سكسونى وبخاصة الأمريكى الذى اعتبرت مدرسته التطورية الجديدة الديمغرافيا منذ وقت طويل أحد أهم محركات تغيير المجتمعات الإنسانية. أما فيما وراء الأطلنطى فإن أغلب النماذج المتعلقة بتطور المجتمعات من عصابات إلى قبائل فمقاطعات ودول(٢) والتى تجاوز حدود عصور ما قبل التاريخ – تعتبر الديمغرافيا العامل الرئيسى.

كثير من هذه الدراسات يرى أن العامل الديمغرافى وثيق الصلة بالتغيرات البيئية. وتشغل الظروف البيئية – بعيدًا عن الروابط المحتملة التى توثقها بالديمغرافية – المدارس الأنجلوسكسونية وتأثيرها جازم قاطع فى هذا المجال من ناحية أهمية الموضوع ومن ناحية طريقة تناوله.

---

(1) D'Errico, Francesco et al., «L'impact de la variabilité climatique rapide...»: op.cit., p. 278.

(٢) ترجع هذه التقسيمات إلى واحد من المؤلفين الذين يعدون من مراجع هذه المدرسة الفكرية:
Service, Elman R. Primitive, Social Organization. An Evolutionary Perspective, New York, Random House, 1962.

منذ زمن بعيد وكثير من هذه المدارس يمحور مناهجه الفكرية حول البحث عن نماذج ذات قيمة ومغزى عام وقد وصلوا إلى وأخذ توقعى مستوحى من المواقف المعاصرة يتطلب الأمر قياس مدى إمكانية تطبيقه على السياق الأركيولوجى.

ترتكز هذه الطريقة على فرض أولى يرى أن هناك سلوكيات كلية يشترك فيها البشر تجاوز وتتخطى كل الحواجز الزمنية ويسهل اكتشافها. من هذه السلوكيات يتم دومًا التأكيد على العلاقة بين الإنسان وبيئته منظورًا إليها كحتمية ملزمة نسبيًا. بعبارة أخرى يعد عمل نموذج لاستغلال البيئة بمضاهاة سياقات إثنولوجية معاصرة معينًا لهم لتفسير المعطيات الأثرية (الأركيولوجية) التى يسمح جمعها إما بتأكيد أو بنفى أى فرضية مسبقة. يعبر عن هذا التوجه الفكرى بشكل جيد المدرسة الفكرية الأمريكية "New Archeology" التى تأسست فى الستينيات وفق هذه المبادئ(١). ويتعارض هذا التناول الفرضى الاستنباطى مع التناول الشائع فى أوروبا وخاصة فى فرنسا والذى يوصف بكونه استقرائيًا: فجمع الوقائع والأحداث ينبغى أن يسبق عمل النماذج لا أن يدعم فكرة مسبقة.

أيًا ما كان هذا التعارض فى الخطوات الإجرائية المتخذة على جانبى الأطلنطى فإن الدور المنوط بالبيئة يزداد أهمية فى عيون علماء ما قبل التاريخ

(١) هذا هو التناول المقترح فى المرجع الأساسى لهذه المدرسة ذات التوجه الفكرى الأمريكى:
Binford, Solly R. et Binford, Lewis R. (dir) New Perspectives in Archéology, Chicago, Aldine Pub. Co., 1968.

وقد استمر فرانشسكو ديريكو Francesco d'Errico ومعاوناته فى ذات الاتجاه معتبرين: "أن الثقافات البشرية متفردة ولكل منها خصائص:

(أنساق رمزية واجتماعية وتقاليد تقنية... إلخ) تميزها. غير أن هناك اتجاهات عامة فى علاقاتها مع البيئة يمكن استخلاصها واستخدامها لبناء نموذج توقعى عن العلاقات التى ربطت بين مجتمعات العصر الحجرى القديم وبيئاتها".

(D'Errico, Francesco et al., "L'impact de la variabilité climatique rapide ..." op. cit., p 266).

الأمريكيين منهم والأوروبيين بل ويعد واحدا من أهم أدواتهما للتقريب بين طريقتيهما فى التناول. بدأت توفيقية ميثودولوجية على شاكلة ما قدمه فرانشسكو ديريكو Franceesco d'Errico ومعاونات الذى يستعير من التقليد الأمريكى تناوله الفرضى الاستنباطى.

نقل هؤلاء المؤلفون النموذج التالى الذى تمت صياغته ارتكازًا على معطيات إثنولوجية:

تسمح الزيادة فى الموارد النباتية بتقليص الاحتياج للتنقل لمسافات طويلة بغية التزود بالمواد الغذائية. ويؤدى ذلك "إلى كم أقل من العلاقات بين الجماعات مما يترتب عليه زيادة فى الثقافات البشرية"(١) ويمكن التحقق من صحة هذه القاعدة فى مجال اللسانيات:

"كلما كانت المناطق التى تعيش فيها الجماعات البشرية كثيفة الأمطار شديدة الحرارة على مدار العام كلما تميزت هذه الجماعات بتنوع واضح فى اللغات المستخدمة. أما المناطق القاحلة أو التى تتباين فيها الفصول بشكل كبير فلا تنوع يذكر فى لغاتها. وتفسير ذلك يرجع إلى أن هذه المناطق الأخيرة معرضة أكثر من غيرها لمخاطر بيئية يضطر فيها أفراد الجماعات إلى تنمية الصلات والعلاقات الاجتماعية على مسافات كبيرة حتى يتمكنوا من عمل خطط وترتيبات ملائمة تضمن لهم تأمين احتياجاتهم الأولية على مدار العام"(٢).

وقد سمح ذلك للمؤلفين باقتراح الفرضية التالية:

"طبقًا للنموذج المستخلص من هذه المؤلفات فإن الكيانات الثقافية واللسانية فى العصر الحجرى القديم الأعلى قد أظهرت بدون شك اتجاهًا إلى احتلال

---

(١) ذات المرجع ص ٢٦٨.
(٢) ذات المرجع ص ٢٦٩.

مساحات أوسع خلال الفترات شديدة البرودة وشديدة الجفاف وإلى الانقسام والتفرق خلال فترات اعتدال الطقس.[1]

هذه الانتقالات المتزايدة للجماعات البشرية مشروطة فى معظمها بضرورة وجود إشراف وإدارة جماعية للقنيصة نظرًا لأن تقسيمها يعوض الطابع الصدفوى غير الدائم للصيد. فالصيد أعلى أنشطة الإعاشة مخاطر ويكفى لإدراك ذلك مقارنته بنشاط آخر مثل جمع النباتات. ونتوقف هنا عند ما يمكن أن يبدو واحدا من تناقضات المنطق ويمثل الروابط الوثيقة الملاحظة بين الهيكل الاجتماعى للجماعات البشرية والبيئة التى تنمو فيها: فثراء بيئة السهوب من شأنه التهيئة للنمو السكانى للجماعات البشرية طبقًا للعلاقة السابق الإشارة إليها. غير أنه حتى يتم ذلك من اللازم أن يكون لهذه الجماعات سلوك جماعى يهدف إلى تحقيق أفضل عائد من الصيد وبصفة خاصة إلى درء المخاطر التى يحويها هذا النشاط.

"Flower Power"

عناصر نقد الحتمية البيئية:

سمحت الأمثلة التى تمت الاستعانة بها فى هذا الفصل بإيضاح المظاهر المختلفة التى تظهر بها مكانة البيئة فى دراسات علم ما قبل التاريخ. بمنأى عن التعارضات المتوقعة بين مختلف المدارس المنادية بالرؤى التطورية أو النماذج الانتشارية أو الطرق الفرضية الاستنباطية أو المناهج الاستقرائية يتوجب علينا التوقف أمام الدور الذى تمنحه مدارس عدة على ضفتى الأطلنطى لحتمية الظروف البيئية. فهذه الظروف غالبًا ما تكون مفتاح التفسير عندما يتطلب الأمر إعطاء

(١) ذات المرجع.

مدلول لتحول وتغير مجتمعات ما قبل التاريخ. وقد سمح هذا العامل بتوحيد النماذج المتباينة واضعًا نقطة توازن بين التطور المحلى وإحلال جماعات محل أخرى وفق تحركاتها من مكان لآخر. كلتا الظاهرتين تابعتان فى أغلب الأحوال للظروف البيئية وبالتالى مرتبطتان من خلالها.

هذه الرؤية التى نسجت على مهل على مدى القرن العشرين وصولاً إلى التوفيقات الحديثة هل حازت كل الرضا؟ واقع الأمر أن مثل هذه الحتمية يمكنها فى حالات كثيرة أن تكون بسهولة شديدة محل اعتراض.

طيلة عصور ما قبل التاريخ، كان من الممكن للتطور السلوكى فى خطوطه العريضة ولتبنى ملمح اقتصادى أو آخر أن يجد تفسيرًا محليًا يأخذ فى اعتباره البيئة التى شهدت ظهورهما. وكان من الممكن أيضًا أن ينتشر مكانيًا حيث تتوافق الأرض مع ساكنيها. ولكن إذا سلمنا بذلك كيف يمكننا تفسير تجاهل أغلب الانقلابات التطورية "الكبرى" التى حدثت طيلة العصر الحجرى القديم لكل الحواجز البيئية؟

نجد على سبيل المثال أن طريقة تقصيب الحجارة المسماة باللفلوازية وهى واحدة من أهم مهارات العصر الحجرى القديم الوسيط فى أوروبا والشرق الأدنى هى ذاتها الملمح المميز للعصر الحجرى الوسيط فى أفريقيا. ونجد فى هاتين القارتين أنه حين تندثر هذه التقنية تاركة مكانها لتقنية الشطف وصناعة النصال ننتقل فى القارة الأوروبية من العصر الحجرى القديم الوسيط إلى العصر الحجرى القديم الأعلى وتشهد القارة الأفريقية أيضًا نقلة من العصر الحجرى الوسيط إلى العصر الحجرى المتأخر.

ويمكننا فى نهاية الأمر القول بأنه حين أصبح تصغير الآلات الحجرية وتقزيمها هو الاتجاه السائد وعممت فكرة البحث عن الأشكال الهندسية أضاء هذا الحل التقنى عصور ما قبل التاريخ فى هاتين القارتين.

وأيًا ما كان التوافق الزمنى الملاحظ بين التطورين تبعًا للمناطق فإن هناك ما ينبغى التوقف عنده:

رغم الشواهد فإن اتساع الظواهر تكذب تشيعها الصارم للبيئة؛ لأن كل تطور تقنى من هذه التطورات كان قابلاً للغرس فى أنظمة بيئوية شديدة التباين. هناك إذن عوامل أخرى يجدر البحث عنها لإيضاحها وهى ترتكز بشكل أساسى على ديناميات داخلية خاصة بالمجتمعات البشرية. من هنا فقد لاحظ بوريس فالنتين Boris Valentin: "وجود مثل هذه التيارات الواسعة التى تسمو فوق الفروق الإقليمية المحتملة وتسترها يحيلنا إلى سمة أساسية وركيزة فى الأشكال الاجتماعية الخاصة بالعصر الحجرى القديم والميزوليثى"(1).

من الممكن ألا يكون التدرج الذى انتهجناه فى الملاحظة ليس أفضل السبل وأن يتطلب تحديد دور البيئة بشكل دقيق أن نقف عند التغيرات الثقافية المختلفة التى تتجسد فيها هذه التيارات التطورية. غير أن ذلك لن يحول دون ظهور تناقضات جلية على الأقل فى ضوء الأطر الحالية.

إذا ما نظرنا فى الصلات المستقرة بين أغلب ثقافات العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا والبيئة الخاصة بها, لابد وأن نلاحظ أن الأسانيد الداعمة لبعدها البيئى يكذبها ويناقض انتشارها فى بيئات طبيعية متباينة جذريًا. لنفكر قليلاً فى الفترة الأورينياكية. يجمع التوزيع الجغرافى خلال هذه الفترة فى مجموعة واحدة شعوب تستوطن سواحل كل من شرق البحر المتوسط والأطلنطي. والأمر ذاته لدى الشعوب التى عاشت بعد ذلك فى الفترة المجدلينية على المساحة الممتدة من السهل الألمانى - البولندى الفسيح إلى منطقة المزيتا Meseta بإسبانيا. ألا توضح هذه الأمثلة أن الجماعات المشار إليها كانت تستقى من ثقافتها التى تبدو أغلب الظن مشتركة, هذه

(1) Valentin. Boris, Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs ... op. cit. p 74.

الفترة الهائلة على التكيف مع بيئات متباينة؟ قد يتطلب منا الأمر إعادة النظر فى تعريفاتنا؛ فقد تكون معاييرنا فى وضعها غير ملائمة ويكون علينا تفكيك وتحليل هذه الثقافات لنرى جماعة من العصر الحجرى القديم فى بعدها البيئى.

أيًا ما كان الأمر فالحاجة ملحة لتحسين النماذج التى فى حوزتنا حتى نتمكن من التفكير فى العلاقة بين الإنسان وبيئته كما يجدر بنا أن نلتفت باهتمام إلى العوامل الأخرى التى سمحت بتشكيل ونشر والاحتفاظ بسمات سلوكية - بداهية مستقلة أو تكاد تكون كذلك من كل قيد بيئى.

إذا كان من العبث نفى كل تأثير للبيئة لإيضاح تطور السلوكيات الإنسانية فيمكننا القول إنه على الأقل ليس بالمسئول الوحيد عن بعض الظواهر الأساسية.

لقد تم بالتأكيد تحريك دواليب وتروس عدة بتشغيل هذا المفتاح التفسيرى ولكن هل تنتمى كلها إلى الآلية التطورية؟ وماذا عن الطريقة التى تحدد بها الهياكل والبنيات الاجتماعية تطورها الذاتى؟.



إلى اليسار:

نواة حجر صوان ذات نصال تم جلبها من موقع التنقيب الأوريناكى المكشوف بمنطقة كوربياك – فينيوبل Corbiac- Vignoble (دوردونى Dordogne). قام بالتنقيب عنها جاك تيكسييه J.Tixier (رسم: م. رودوران M. Reduron)

إلى اليمين:

نصل أوريناكى من حجر الصوان تم جلبه من كهف لا توتو دو كمالهوت La Tuto de Camalhot (أرياج Ariège). نقب عنه جوزيف فيزيان (رسم: ج. فيزيان)

الفصل الرابع

دواليب التغيير (١)

تطور التقنيات

من أهم رهانات دراسات عصور ما قبل التاريخ استخلاص خطوط القوة التي تسمح بتفسير سبب التغييرات في السلوكيات الإنسانية. وهي تحاول جاهدة استنادًا لما في حوزتها من وثائق متفرقة، أن تنفذ التكليف الذي أسند إليها في منتصف القرن التاسع عشر وهو إصدار خطاب عن أصول البشرية والفصول الأولى في تطورها. بينت التحليلات المبدوءة في الفصول السابقة أن هذا المطمح يسمو ويعلو فوق كل المراحل التي اجتازها هذا العلم. حاولت كل مرحلة تناول هذه المسألة من زاوية مختلفة تبرز إحدى التحديات الخارجية أو الداخلية بالنسبة للإنسان وثقافته أي البيولوجية أو البيئية، الاجتماعية أو التقنية أو لنقل بشكل أدق الاقتصادية. في هذا الأمر تحديدًا لا تناقض هناك بين التطورية في أكمل صورها والانتشارية الارتحالية حتى المستخدم منها بشكل به شيء من الآلية.

تتسابق هذه الاتجاهات الفكرية المتباينة، ربما بطرق مختلفة جذريًا في العثور على مفاتيح تفسير هذه الانتقالات التي هزت عصور ما قبل التاريخ. ولا يتسنى بغير هذا كله فهم المكانة التي تولى للبيئة وإدراكها.

واقع الأمر أنه ما زالت آليات التطور يشغلها هذا الأمر، غير أن كثيرًا من السبل التي تم انتهاجها لم يعد بها جديد مما استدعى التعامل مع التقييم المتمهل لسلوكيات الصائدين جامعي الثمار الرُحل.

مضت أكثر من مائة وخمسين عامًا على بدء ظهور دراسات حول عصور ما قبل التاريخ اتضح من خلالها وعى بطىء بتعقد ظواهر هذه الفتـــرة التاريخيـــة التى أضحت بعيدة كل البعد عن الصورة النمطية التى يحتفظ بها عنها.

مفهوم ثقافة ما قبل التاريخ:

فى إحدى مراحل هذا الوعى بتعقد ظواهر هذه الفترة تمت صياغة تعريـــف لمفهوم "ثقافة ما قبل التاريخ"(١). قام بهذه المهمـــة "بـــروى" Breuil وجيلـــه وقـــد أضحى هذا المفهوم لفترة طويلة رحمًا ولدت منه مفاهيم وطـــرق بحـــث خاصـــة بدراسات علم ما قبل التاريخ كما تنبأ بول Boule عـــام ١٩٢١ الـــذى قـــال: "إن مستقبل هذا العلم أساسًا فى الجغرافيًا الجيولوجية الأثينية"(٢) وهو يعـــدها الـــسبيل الوحيد لتبيان تعقد المواقف الأثرية. بسلوك هذا الـــسبيل، أظهـــرت الأبحـــاث أن العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا ترصيع معقد للغاية. وفى الوقت الحالى، نحصى نحو ثلاثين مصطلحًا يجسد كل واحد منها فترة مختلفة أو عبارة متفردة فى داخل هذه الفترة، هذا إلى جانب أن الثقافات المشار إليها قد تشهد بعض الميل عن الحدود الجغرافية والزمنية المنسوبة لها (هذا الحيد عن المعالم المحددة سلفًا تستخدم فى الإشارة إليه لفظة "faciés").

نال مفهوم "ثقافة ما قبل التاريخ" حظه من النقد منذ زمن بعيد وأخـــذ عليـــه الارتكاز على أساس هش، نظرًا لجهل علماء ما قبل التاريخ بالمجالات الأساســـية فى المجتمعات الإنسانية مثل الدين واللغة وعلاقات النسب والقرابة.

---

(١) راجع الفصل الثانى.

(٢) Boule. Marcellin. Les Hommes fossiles..., op.cit., p. 252.

ثارت التساؤلات عما نقصده بالفعل بهذا المفهوم ووجدنا أنه فى أذهاننا إما واقع مضى، عاشه بشكل كامل أو منتقص، من نفترض أنهم شخوصه وإما مجرد أداة تصورية لا يمكن بدونها ترتيب الأحداث. أيًا ما كان الأمر وبغض النظر عن صحة هذه الانتقادات وحتى إذا لم يغط هذا المفهوم إلا بعض سمات الثقافة المادية لجماعات العصر الحجرى القديم فهو ضرورى لعلم يبغى مواجهة تعقيد المجتمعات البشرية السابقة. بعبارة أخرى هل يمكن لتحليل أكثر دقة للأحداث أن ينحو منحى آخر غير تقسيم الحقبة المشار إليها بدقة أشد وأكبر؟ أليس القول بتسمية أو عماد ثقافة جديدة دلالة على تتمة تحليل أدق للأحداث الماضية والوقائع الأثرية؟(١).

الأمر هنا يتعلق بركائز علم مدعو إلى تقديم وثائق دقيقة عن أقاليم لم تكتشف بعد أو مدد زمنية منسية. على كل حال، حتى لو كان مصطلح "ثقافة" المستخدم فى علم ما قبل التاريخ أشمل وأعم من عبارة التقاليد التقنية الأكثر محدودية فهو تعبير عن حقيقة ما.

قد يكون تصنيف الثقافات مضجرًا ومملاً بل وتعسفيًا أحيانًا إلا أن توزيعها زمنيًا ومكانيًا ذو دلالات قوية. كثيرًا ما كان اتساع ثقافة ما، دافعًا لمحاولة تبين وجود ثوابت دورية بمعنى التعرف على سلسلة من المراحل المتجانسة نسبيًا تدل على شىء من الاستقرار لدى جماعات العصر الحجرى القديم تتخللها مراحل أخرى قد تشى بانتقالات أكثر سرعة لسلوكيات بعينها. هذا كما رأينا من قبل، إذا لم يتم ربط هذه المراحل بالتغييرات المناخية الكبرى التى حدثتْ فى العصر الجليدى الأخير.

---

(١) يحدث ذلك حتى لو تم الاحتفاظ فى الأذهان بسبب آخر يرجع إلى الطابع والشكل الاجتماعى للعلوم: فبينما يضع عالما الحفريات والأنثروبولوجى لنفسيهما التعرف على الأنواع والتمييز بينها هدفًا نجد أن مهنة الأثرى تتطلب من ممارسها تسمية وعماد ثقافات غالبًا ما ترتبط باسمه. راجع فى هذا الصدد:

Laplace, Georges, «Autorité et tradition en taxinomie», Antiquités nationales, n° 18 – 19, 1986 – 1987, p.33 – 37.

من هنا يمكننا اليوم تلخيص تطور العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا على النحو التالى:[1] مرحلة يطلق عليها المرحلة الانتقالية بين العصرين الحجرى القديم الوسيط والحجرى القديم الأعلى تقع بين الأعوام ٤٥٠٠٠ و٣٥٠٠٠ قبل التاريخ المدون وتتركب من عناصر ثقافية شديدة التباين. هذه الفترة تسبق رسوخ تقاليد الفترة الأورينياكية المهيمنة فى الأعوام ٣٨٠٠٠ و٢٨٠٠٠ قبل التاريخ المدون وتلك الخاصة بالفترة الجرافيتية gravettien السائدة فى الأعوام ٢٩٠٠٠ و٢٢٠٠٠ قبل التاريخ المدون تلت هذه المراحل مرحلة جديدة من التفتت الثقافى يميزها انقسام وتوزع جغرافى حدث بين الفترة السوليترية solutréen والفترة البادجولية Badegoulien وفترة ما فوق الجرافيتية Epigravettien اللاحقتين لها وذلك نتيجة الظروف المناخية القاسية للعصر الجليدى الأخير (٢٢٠٠٠ – ١٧٠٠٠ قبل التاريخ المدون).

نلاحظ بعد ذلك نوعًا من التجانس ناتجًا عن استقرار ثقافات غازية مثل الثقافة المجدلينية خلال الأعوام (١٧٠٠٠ – ١٢٠٠٠ قبل التاريخ المدون) فى أغلب مناطق غرب أوروبا ووسطها، بينما واصلت الثقافة الفوق جرافيتية تطورها فى الشرق والجنوب الشرقي، ويعد تفتت الثقافة المجدلينية خلال المراحل المتقدمة من العصر الجليدى المتأخر مرادفًا لحلقة تقسيم جديدة (١٢٠٠٠ – ١٠٠٠٠ ق.م) تتزامن مع فترة ما فوق العصر الحجرى القديم قبل أن تدخل أوروبا فى العصر الميزوليثى.

ولكن أليس وجود مثل هذه المراحل المرتكز جزئيًا على التعبيرات الثقافية سرابًا؟ كيف يتسنى تفسير احترام المراحل التى تبدو أكثر استقرارًا للتقسيمات الأولى فى بنية العصر الحجرى القديم الأعلى (الأورينياكى والمجدلينى الكلاسيكى)؟.

---

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة:

Djindjian, François, Kozlowski, Janusz et Otte, Marcel, Le Paléolithique supérieur en Europe, op.cit..

ربما لأن هذه المراحل الثقافية ثابتة ومستقرة كان من السهل اكتشافها والاستدلال عليها وكانت من أول ما تبدى لمن قاموا بأعمال التنقيب قبل الحرب وربما لأن هذه الأبحاث اللاحقة قد ارتكزت على التعريفات الأولى واصطبغت بها فقد عملت على هوامشها الزمنية والجغرافية بدون التشكك فى كمالها وتمامها.

بعبارة أخرى، الأمر لا يعنى إعادة النقاش فى مدى ملاءمة ومناسبة الأطر المستقرة وإنما تحسين تقسيماتها الداخلية. مما لا شك فيه أن الحقيقة تقع بين هذين المسلكين. على كل حال، لن نختلف فى كون بعض الثقافات أيسر من غيرها فى التناول إما لطول بقائها أو لانتشارها الجغرافى. حقيقى أن تعريف العديد من التعبيرات الثقافية يجيب الدعوة إلى تبيان مدى تعقد أحداث العصر الحجرى القديم، غير أن مسألة تفسير الآليات التطورية الدائرة بين هذه المجتمعات بقيت على حالها. والسؤال المطروح هنا هو: إذا كانت الرغبة فى تحديد إيقاع التغييرات التى حدثت على مدى العصر الحجرى القديم مطمحًا محمودًا فهل يجوى اللجوء إلى مفهوم "الثقافة" لتبيانه شركًا وفخًا؟.

كلما ازدادت دقة التعريفات المتعلقة بالنواحى الزمنية والجغرافية كلما أوصلتنا هذه المحاولة لتقسيم الكيانات الثقافية للعصر الحجرى القديم الأعلى إلى تحديد ليس للتيارات الثقافية بالمعنى الواسع للكلمة ولكن ما يمكن أن يشبه الأعراق بالمعنى الدقيق لها. وسواء أكان ذلك مطلوبًا أم لا فإنه يظهر خلف كلمات مثل: "الأوريناكية" Aurignacien و"البادجولية" "Badegoulien" و"اللابورية" "Laborien شعوب وإثنيات مساراتها تتعارض وتتصادم فى الأذهان.

من هنا فبدلاً من أن تكون هذه الشعوب ترجمة لوجود تطورات متدرجة ديناميكية بتجسيد مرحلة أو أخرى، نجدنا وجهًا لوجه مع تركيبة من شعوب خليطة يعين على معرفة بعضها من بعضها الآخر، سمت أو آخر من سلوكهم التقنى.

منهم من يرقب بشك كبير الرمح القصير الذى يحمله جاره، وآخر يرمق بنظرة شرسة عقدًا من الأصداف أو أداة من الصوان يملكهما آخر، وكل باق فى محيط تعريفه.

ينتظر كل زوار متاحف عصور "ما قبل التاريخ" وروادها عددًا لا نهائيًا من الواجهات الزجاجية تحفظ أدق تفاصيل الحياة فى العصر الحجرى القديم بثقافاته المتعددة لأنه فى عرفهم يحمل سمات ما نراه حاليًا فى أنفسنا.

هذه الرؤية بلا شك هزلية وتشى معظم السيناريوهات بنفوذية الشعوب للتأثيرات الخارجية. لن يثير دهشتنا بالتالى وجود شىء من "الطراز السوليترى" فى سياق عصر ما فوق الجرافيتى Epigravettien المعاصر، ولا رؤية شىء من الطراز "الأزيلى" azilien فى سياق عصر سابق عليه مثل المجدلينى magdalénien، وغالبًا ما يتم الاستناد إلى مثل هذه الشواهد كأدلة داعمة لفكرة وجود تغييرات طرأت على الأزمنة والأمكنة.

لترجمة هذا المطمح طور علماء ما قبل التاريخ مفهوم "الانتقال" الذى سبق ذكره فى الحديث عن المرور من العصر الحجرى القديم الوسيط إلى العصر الحجرى القديم الأعلى. يبدو من ذلك كله أن علم ما قبل التاريخ قد تقبل وجود "نقلة" دلفت بين ثقافتين متاخمتين لبعضهما البعض كالمفصل الذى ييسر ويضمن سهولة الحركة بين عظام الهيكل الزمنى. بعض النقلات على شاكلة تلك التى يبدأ بها العصر الحجرى القديم الأعلى، تأخذ شكلاً رسميًا فى التتابع الزمنى مما يجعل الحلقات التى تتألف منها عصور ما قبل التاريخ تنتظم فى سرد أكثر حيوية. ولكن أيًا ما كان الأمر فإن كل ثقافة تستمر فى التعبير عن نفسها ومحاولة الظهور بشكل "نقى".

من هنا فإنه من الصعب فى الإحداث قبول "الحقيقة متعددة الأبعاد التى تتسم بالسلاسة والغموض"[١] والقبول بفكرة تغيرها تغيرًا عميقًا. يسمح انتشار الأفكار بتبين التحركات والانتقالات التى تمت خفية غير أنه عندما تتسع الشقة بين ثقافتين تصبح الهجرات هى السبيل الوحيد لتفسير تقارب هذه الشعوب مكانيًا وزمنيًا لما يلاحظ عليها من عدم تجانس ظاهرى.

من هنا يمكننا القول إننا كلما تمكنا من عزل الثقافات كلما برزت صعوبات الربط بينها فى سيرورة تطورية.

يتم اللجوء ضمنيًا إلى موضوع الهجرة على حساب التفكير والتأمل فى آليات التغيير ويجدر الالتفات إلى أن علم ما قبل التاريخ الثرى بتعبيراته الثقافية يبدو غالبًا خالى الوفاض عندما يتطلب منه الأمر عرض نماذج موضحة للديناميات التطورية الدائرة بين المجتمعات الإنسانية التى استوطنت سطح الكرة الأرضية لآلاف السنين. لأنه أيًا ما كانت الجماعات الإنسانية هل يستطيع دورانها وتنقلها فى ربوع الأرض وحده تفسير تغيير الإنسان لسلوكياته بهذه المعدلات؟

إن التكيف الدائم مع الأوساط الطبيعية الجديدة – المفترض وجوده مع هذه الانتقالات – والتأقلم مع سياقات ثقافية جديدة، مثل هذة التحركات تفضى بالضرورة إلى وجود علاقات بين جماعات مختلفة، فهل يشكل محركًا لتطور المجتمعات الإنسانية؟ ذلك، وصف شديد الدقة لآلياتهما وفهم لدوافعهما لا الاكتفاء بتسجيل الملاحظة. وبالتالى يتوجب إيجاد طرق وأساليب ملائمة وصولاً إلى ذلك والاحتفاظ بمسافة محسوبة من الأمر للتعامل بموضوعية.

---

(1) Valentin, Boris, Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs...op.cit., p.70.

أندريه لوروا – جورهان: الإنسان وتطور التقنيات

لو استطعنا على شاشة، عرض تحركات البشر مرتبة ترتيبًا زمنيًا وبشكل موازٍ عرض إبداعاتهم التقنية لنحونا إلى التفكير فى أن الجماعات من مختلف الأجناس كانت تنتقل من مكان إلى آخر حاملة أدواتها وآلاتها يطارد بعضها البعض ويقضى بعضها على البعض الآخر. لن يفضى بنا الأمر إلى شيء ذى قيمة.. مجرد ومضة كتلك التى يحدثها انعكاس الضوء على طبقة نفطية رقيقة تعلو سطح الماء.

يحمل الزمن البشر على التنقل كما يحمل الماء بقعة النفط ويغير من شكلها، ما تدركه العين من ذلك لمعة لا تطال، تومض فوق جزيئات، فى حقيقة الأمر، لا تحرك ساكنًا.

يوضح هذا القول المقتبس من أحد أهم أعمال أندريه لوروا – جورهان André leroi – Gourhan والذى يحمل عنوان "الإنسان والمادة" "L'Homme et la Matiène" (الجزء الأول من مصنف من جزأين بعنوان التطور والتقنيات (1) Evolution et Techniques) الموقف النقدى الذى يتخذه الكاتب من الاستخدام – السطحى فى نظره لسيناريوهات الهجرات بدلاً من التحليل الأكثر عمقًا للآليات. كرس هذا العالم جزءًا كبيرًا من أعماله لاكتشاف أسباب هذه "الومضة" لدى الجماعات الإنسانية، وقد استطاع شحن الهمم واكتشاف جديد وتعريف ساحات فكرية أورثها لكافة مدارس "علم ما قبل التاريخ" على الأقل الأوروبية.

---

(1) Leroi-Gourhan. André, Evolution et Techniques, t. I. L'Homme et la Matière. Paris, Albin Michel, «Sciences d'aujourd'hui», 1943, 3e éd. revue et corrigée, 1971 ; id., Evolution et Techniques, t. II, Milieu et Techniques, Paris, Albin Michel, «Sciences d'aujourd'hui», 1945, 3e éd. revue et corrigée, 1973.
تم اقتباس هذا القول من كتاب Id. L'Homme et la Matière, op.cit..p11

يعد فكر أندريه لوروا – جورهان واحدًا من أكثر أنواع الفكر تـــأثيرًا فـــى النصف الثانى من القرن العشرين، فليس هناك مجال فى علم ما قبل التـــاريخ لـــم يتطرق إليه إنتاجه العلمى الغزير من الناحيتين النظرية والمنهجية سواء تعلق الأمر بإعادة النظر فى تطور التقنيات بتجديد تحليل أنماط السكنى والمعيشة، باســتكمال دراسة فن العصر الحجرى القديم التى كان بروى Breuil قد بدأها أو بدراسة البعد الأنثروبولوجى للإنسان.

ونرى هنا أنه بصدد مشروع فكرى بهذا الاتساع من الصعب تكوين رؤيـــة شمولية أو عمل وصف ملخص ذى ملامح واضحة(١).

نزيد على ذلك أن لوروا – جورهان قد عُرف من خلال مجال علم ما قبل التاريخ، وحظى بعرفان مؤسسى ورغم ذلك لم يقدم نفسه قط كعالم ما قبل التاريخ، بـــأكثر مما قدم نفسه كعالم إثنولوجيا – مجال دراسته الأصلية – درس على أيدى الكثيرين منهم بصفة خاصة مارسيل موس Marcel Mauss.

---

(١) من الدراسات التى تم تكريسها لإنتاجه ولتحليل كافة ما أورثه نذكر Audouze, Françoise et Schlanger, Nathan (dir.), Autour de l'homme. Contexte et actualité d'André Leroi-Gourhan, Antibes, APDCA, 2004; Groenen, Marc, Leroi-Gourhan. Essence et contingence dans la destinée humaine, Bruxelles, De Boek Université, «Le point philosophique», 1996.

يمكننا الاسترشاد بالمؤلف الذى يجمع لقاءات وأحاديث أندريه لوروا – جورهان والمقال الذى يستعرض مشواره العلمى:

retiens avec Claude HenriEnt .Les Racines du monde ,Gourhan André-Leroi – ١٩١١ .Gourhan-ioreL érdnA» ,Gilles ,Gaucher ; ١٩٨٢ ,Belfond ,Paris ,Rocquet Bulletin de la Société ,Gourhan»-ioreL érdnA à FPS al ed egammoH» ,«١٩٨٦ .٣١٥ – ٣٠٢ .p ,١٩٨٧ ,١٢-١٠ .fasc ,LXXXIV .vol ,préhistorique française

لكل الأسباب المذكورة عاليه ليس هناك منّ شك فى أن الملاحظة التى قدم بها مارك جرونان Marc Groenen لكتابه تنطبق تمامًا على منهجنا:

"من كان ينتوى أن يستعيد فكر لوروا – جورهان فى بضعة فقرات أو بعض الأقوال المأثورة لن يتمكن إلا من تجفيف نسق قيمته وتفرده فى الفروق الدقيقة والدرجات التى نتبينها فيه".

من ناحية أخرى فإن لوروا – جورهان الزميل القديم لكلود ليفى – شتروس Claude lévi – Strauss كان قد درس اللسانيات واحتفظ على مدى سنوات عمره بشغف شديد بعلم الحفريات، مما لا شك فيه أن فى هذه الدراسات أحد مفاتيح التجديد الذى استطاع إضافته إلى دراسات علم ما قبل التاريخ، مساهمًا بذلك فى إعادة تشكيل العلاقات بين هذا العلم والإثنولوجيا كما يتضح من مصطلح: "إثنولوجيا علم ما قبل التاريخ" الذى أطلقه على مدرسته الفكرية[1]، من هنا فإن ميراث لوروا – جورهان يمكن عن حق الاستعانة به فى قضايا فكرية متباينة.

ومن الملفت أن هذا الرجل الذى يجمع الناس على اعتباره واحدًا من أهم مؤسسى علم ما قبل التاريخ الحديث، يجسد آخر وجوه الأنثروبولوجى "الكامل" كما حلم به القرن التاسع عشر، يجمع بين يديه مجموعة العلوم الإنسانية دامجًا معًا الإنسان البيولوجى والإنسان الاجتماعى معًا بدون فواصل زمنية أو عوائق جغرافية.

يعطى التحليل العميق لأنماط الحياة والسكنى الخاصة بجماعات العصر الحجرى القديم صورة صادقة من أعماله حتى ولو لم تشر، كما سنرى، إلا إلى جزء مما يغطيه مصطلح "إثنولوجيا ما قبل التاريخ". فى وقت مبكر اتجه مساره إلى تناول جديد للمواقع الخاصة بعصور ما قبل التاريخ، وانصرف عن التحليل الزمنى – الطبقاتى الوحيد المستخدم حتى هذه الآونة – مفضلاً تطوير طرق التنقيب الأفقية التى تعيد تكوين أماكن السكنى لأقرب شكل لها والتركيز على العلاقات التى تجمع الشواهد المادية لتفسير البنية الكلية[2]. بدأ لوروا – جورهان

---

(١) هذا المصطلح المستقى من أعمال لوروا – جورهان ألحق باسم كرسى علم ما قبل التاريخ فى الكوليج دى فرانس Collège de France الذى شغله بدءًا من عام ١٩٦٩، بقى هذا المصطلح ملتصقًا بالمختبر الذى أنشأه فى CNRS عام ١٩٦٧.

(٢) عرف "علم ما قبل التاريخ" خلال الأعوام ١٩٤٠ – ١٩٥٠ منحنى عظيمًا فى مجالات البحث والتحقق والتحرى وعنده الوعى الكامل بأن الأثرى لتكوين مصادره يدمر بالضرورة المواقع التى يعمل بها. ولا يبقى منها بعد الانتهاء من أبحاثه إلا وثائقه وسجلاته والأشياء التى رفعها

فى تجريب هذه الطريقة فى مغارة رين دارسى – سير – كـــور Renne d'Arcy-sur-Cure فى إقليم بورجونى Bourgogne أما تطبيقها بـــشكل كامـــل فكـــان فـــى المعسكر المجدلينى فى منطقة بنسوفون Pincevent. أصبح هذا الموقع المفتوح بدءًا من ١٩٦٤ مدرسة يتجه صوبها طلاب من جميع أنحـــاء العـــالم، كمـــا أضـــحت المطبوعات الصادرة لتغطية ما يتم فيه "منشورات" ذات تأثير نافذ(١).

اعتبارًا من هذه الفترة أصبح تحليل الأراضى المخصصة لبناء المـــساكن بمقارنة مخلفاتها مادة جديدة فى مقررات دراسة عصور ما قبل التاريخ. يمكننا منذ النصف الأول من القرن العشرين العثور على سوابق لهذا الاتجاه خاصة من خلال المدرسة الأثرية السوفيتية التى كانت قد اشتهرت لاستخراجها ووصفها "لأكـــواخ" ذات حجم كبير مصنوعة من عظام الماموث فى السهول الطميية الروسية، غير أن لوروا – جورهان هو من حدد طرق البحث والطموحات المرجوة من ورائها على ضفاف نهر السين(٢).

من المواقع. ويعد ذلك بشكل ما انتقالاً من مفهوم "البئر" إلى مفهوم الموقع. وتتطلب الرغبـــة فى الاحتفاظ بأثر أفضل للموقع إعمال نسق ملاحظة للفضاء المحيط لاكتشاف كل العلامـــات الأثرية التى تسمح لاحقًا بإعادة تكوين الموقع على هيئته الأولى.

من الأسماء التى تبنت هذا النهج نذكر: لـــوى ميـــروك louis Méroc – جـــورج لابـــلاس georges Laplace – فرنسوا بورد François Bordes وأندريه لوروا – جورهان André leroi-Gourhan الذى كتب مؤلفًا موجزًا طغى نجاحه على ما عداه.

(1) Leroi-Gourhan, André et Brézillon, Michel, «L'habitation magdalénienne n° 1 de Pincevent, près de Montereau (Seine-et-Marne)», Gallia-Préhistoire, vol. IX, fasc.2, p. 263 – 385.

(٢) لمزيد من المعلومات عن تاريخ الأبحاث المتخصصة فى سكنى إنسان عصور ما قبل التاريخ يمكن مراجعة:

Desbrosse, René et Kozlowski, Janusz, Les Habitats préhistoriques. Des Australopithèques aux premiers agriculteurs, Paris, CTHS, 2001.

فى استهلاله لمحاضراته بالكوليج دى فرانس أكد لوروا على أهمية هذا المنعطف الفكرى فى علم ما قبل التاريخ وعقد مقارنة قابل فيها التناول التصنيفى والطبقاتى الذى كان هدفه الوحيد تحديد تقسيمات زمنية لعصور ما قبل التاريخ، بالتناول الإثنولوجى الذى يهتم بإعادة تكوين أنماط المعيشة والسلوكيات على هيئتها السالفة. يمكننا بيسر شديد إدراك المسافة التى أراد الاحتفاظ بها بينه وبين "بروى" Breuil الذى كان قد أنشأ عام ١٩٢٩ كرسى علم ما قبل التاريخ:

ترتبط إثنولوجيا عصور ما قبل التاريخ من ناحيتها بملمح أو سمت للأشياء لا يرتبط فقط بأشكالها وإنما أيضًا بوظائفها[1]. وبذلك أوجد رؤية جديدة تجاه إنسان عصور ما قبل التاريخ ومنتجاته. ذلك أن وظائف الأشياء تثير فى الذهن الطريقة التى تلبى بها الاحتياجات، ومن هنا فقد دخلت الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للجماعات البشرية فى دائرة اهتمامات علماء ما قبل التاريخ عن طريق منهج "تقنى ثقافى" يعد لوروا – جورهان أحد مؤسسيه.

هذا المنهج يحاول فك شفرة القيم الخفية المحفزة على تبنى جماعة بشرية لملمح تقنى ما.

فالأشياء ليست فقط دلالة زمنية أو "حفريات مرشدة" وإنما شواهد على نشاط ثرى بالمعانى الاجتماعية والاقتصادية.

كانت أنماط المعيشة والسلوكيات فى السابق، تقع فى آخر قائمة الانشغالات والاهتمامات العلمية، تراود الأذهان كلوحات منمطة قريبة من "مشاهد" العصر الحجرى القديم. لم يكن الباحثون يترددون فى استعارة صفات الأقوام والجماعات "البدائية" فى الزمن الحالى وإطلاقها على إنسان عصور ما قبل التاريخ. وقد سخر

---

(١) نشر نص هذه المحاضرة فى Leroi-Gourhan, André, Les Racines du monde, op.cit., p. 262 – 284.

لوروا – جورهان من هذا "المعطف متعدد الرقــع" الــذى يــستبيح صــور علــم الإثنولوجيا بدلاً من أن يستوحى بعضنا من طرق ومناهج البحث فيه(١).

وإذا كان لوروا – جورهان ينتقد الالتجاء إلى الإثنولوجيا باعتبارها مخزنًا للصور الجاهزة فهو يدافع عن فكرة أن معظم علوم الإنسان يمكنها الالتقاء حــول مشروع مشترك يرتكز على حقل مماثل. ومن هنا فقد أشار إلى وجود مقابل لجميع الموضوعات الرئيسية فى علم الإثنولوجيا الحديثة فى مجال علم ما قبل التــاريخ. وبالتالى يمكن للحوار المتوقف بين هذين العلمين، على الأقل على مستوى فرنــسا، أن يتواصل.

ولكن إذا كان على علم ما قبل التــاريخ أن يجــدد فــى طريقــة تناولــه للمجتمعات فى العصر الحجرى القديم فهل ذلك بهدف وثائقى بحت، بغية الوصول إلى مزيد من الدقة وإظهار صورة أكثر اكتمالاً لإنسان ما قبل التاريخ؟.

وفقًا لما رآه لوروا – جورهان فإنه:

"لعلم ما قبل التاريخ فائدة علمية ثلاثية: فهو يجتهد لوضــع إطــار زمنــى للتطور البشرى [هذا هو بعده الجيولوجى] كما كرس هذا العلم نفسه أيضًا لتعريف التطور الطبيعى لــ anthropiens وللثدييات التى تتابع وجودها على هــذه الأرض عبر العصور [وهو ما يمثل البعد الحفرى] وقد وضع لنفسه هدف البرهنــة علــى

---

(١) هكذا كان لوروا – جورهان يرى الأمر فيما يتعلق بالدين لدى إنسان ما قبل التاريخ ويقــول فى هذا الصدد:

"يبدو ضروريًا القيام بجرد لما نعرفه وما أضافه الأستراليون والــ fuégiens وأن نحل القطع المتلاصقة فى المعطف فنفصل السحر عن الأسلاف الملقحين ورقصات المسارة عن الطوطمية لنرى إذا ما سقط المعطف هل يبقى شىء من الإنسان المفكر الحى، أم يبقى كــوم مــن العظــام المبعثرة.

Id., Les Religions de la Préhistoire (Paléolithique), Paris, PUF, Quadrige, «Mythes et religions» 1964, p.4.

التطور الثقافى للبشرية عبر مراحل تطورها المادى ودرجات ما يمكن أن يكون فى مقدورنا حتى الآن إدراكه من تطور أنشطته الفكرية(١).

وقد ابتعد بشكل محسوب عما سبقه من مناهج مع الإقرار بأنه تشغله جزئيا الاهتمامات ذاتها:

من هنا يمكن النظر للتطور الثقافى من زاويتين مختلفتين تبعًا لتقديرنا لدور الوثائق، هل ينظر إليها كحفريات مميزة لحقبة ما، أو كشواهد على طريقة حياة ومنهج معيشة(٢).

وبالتالى فإن المشروع الفكرى لإنثولوجيا عصور ما قبل التاريخ الذى طرحه لوروا – جورهان يرتكز على طريقة أخرى لتناول الوقائع الأثرية طبقًا لمجالات بحث، وتحقق مختلفة، غير أنه يبحث دومًا عن استعادة خطوط القوة فى تطور الإنسان. ويعد مجلدا "التطور والتقنيات" ركيزتين لفكرة سيسعى وراءها طيلة حياته وتصل إلى قمة نضجها فى مؤلفه: الحركة والكلمة(٣).

ويتسم مشروع لوروا بالوضوح، فعلى غرار ما يحدث فى علم الحفريات يحاول إيجاد تصنيف عمومى شمولى للمظاهر الإنسانية يعكس الترتيب المنطقى لظهور واختفاء الأمور التقنية. ويجسد اتساق هذا الترتيب المراحل الرئيسية فى تطور الإنسان. أورد لوروا واحدًا من عدة أوجه للتوازى والتشابه بين علم الحفريات وعمله كخبير فى التكنولوجيا وفى اعتقاد هذا العالم:

---

(١) أولى محاضراته فى علم ما قبل التاريخ فى الكوليج دى فرانس.

«Leçon inaugurale de la chaire de préhistoire au Collège de France», in Leroi-Gourhan, André, Les Racines du monde, op.cit., p.263 – 264.

(٢) ذات المرجع ص ٢٦٤.

(٣) مؤلف من جزأين:

Id., Le Geste et la Parole, t.I, Technique et Langage, Paris, Albin Michel, «Sciences d'aujourd'hui», 1964, t.II, La Mémoire et les Rythmes, Paris, Albin Michel, «Sciences d'aujourd'hui», 1965.

"أنه كما لا يمكننا الفصل بين أكثر الجياد كمالاً وأشكال أسلافه من الخيليات لا يمكننا القول بانفصام الصلة بين ما يصنعه الإنسان؛ فالأدوات والآلات تتصل فيما بينها زمنيًا وفق ترتيب يبدو فى خطوطه العريضة منطقيًا ومرتبًا تاريخيًا فى آن واحد"(١)

ما هى أسانيد مثل هذا التسلسل؟ ما هى القوى الداعمة لمثل هذا المنطق فى التطور والتقدم؟ طبقًا للوروا يتسم الإنسان بميل إلى تطوير وتغيير وسائل تعامله مع المادة، ونهجه فى ذلك "من الممكن توقعه ولا يمكن تفاديه أو المواربة فيه"(٢). وقد أطلق لوروا على هذا الميل مصطلح "مشروع التطور"(٣) وعرفه بكونه التحسين المتواصل لسيطرة الإنسان على البيئة الخارجية. وهو أمر يجمع بين أبعاد الإنسان البيولوجية والثقافية بدون أدنى تناقض ويجعل الأمور التقنية امتدادًا منطقيًا لقدرات واستعدادات فسيولوجية.

يرى لوروا – جورهان Leroi – Gourhan أن التقدم البطيء لهذه الاستعدادات يقع فى نطاق التطور السابق على ظهور الأشكال التى توصف تشريحيًا بالبشرية، وأنه عندما اتضحت معالم السلالة البشرية – بوقوف الإنسان على قائمتيه واعتدال قامته – بدأت الترجمة البيولوجية والتقنية لهذه الاستعدادات

---

(١) راجع Id., L'Homme et la Matière..., op.cit., p.24.
... مرجع سبق ذكره ص ٢٤
يشير لوروا إلى ذات الإرث مذكرًا بأنه فى القرن الثامن عشر "بعيدًا عن أى مفهوم لتطور الحيوانات المنقرضة، وضع علم الحيوان إطارًا منطقيًا لنفسه يتدرج من اللا فقاريات إلى الأسماك إلى البرمائيات فالزواحف والطيور ليصل إلى الثدييات والإنسان. أعطى علم الحفريات لاحقًا لعلم الحيوان رصيدًا هائلاً من الكائنات المرتبة لا منطقيًا ولكن تاريخيًا من الطبقات الأرضية الأعمق التى ترجع للعصور الأولى وحتى سطح الأرض.
وقد وجد أن التطور التاريخى لهذه الكائنات يتبع تصنيفها المنطقى. فاللا فقاريات تسبق الأسماك والبرمائيات عرفت قبل الزواحف ولم تظهر الطيور والثدييات إلا متأخرًا، وكان الإنسان آخر القادمين".
(٢) ذات المرجع ص ٣٥ – ٣٦
ذات المرجع ص ٢٧
(٣) راجع Id., Milieu et Techniques...op.cit., p.338... مرجع سبق ذكره ص ٣٣٨

تتآزر بشكل تبادلى مع انطلاقة المخ واليد والفكر والآلة، وقد صاحب ظهور الإنسان العاقل تفوق واضح للثانية على الأولى مما جعل لوروا يعزو كل تطور إلى هذا المعنى الأخير.

من هنا يمكن القول بأن لوروا – جورهان بالإضافة إلى كونه عالمًا حريصًا على قراءة دقيقة للوقائع، تدعيمًا لرؤية كاملة ومتعددة الجوانب للإنسان ومجتمعاته، هو مفكر كبير من مفكرى التطورية أقرب من كثيرين من معاصريه ولاحقيه من علماء علم ما قبل التاريخ من برجسون Bergson وتيلارد دو شاردان. فالعالم التطورى يمكن أن يكون "روحانيًا" أكثر منه "ماديًا" وهذا على النقيض مما كان عليه مورتييه Mortillet(١).

أيًا ما كان الأمر فعند تحليلنا لما أورثنا إياه، من المهم ملاحظة أن مفهوم الميل هذا قد اقتطعت منه أحيانًا أبعاده الغائية، لصالح رؤية حتمية بالدرجة الأولى.

عبر ببساطة عن فكرة محدودية الحلول المتاحة أمام الإنسان نظرًا لوجود قيود فيزيائية وكيميائية خاصة بالمواد. فالتعاملات الأساسية "بالقطع" أو "الكشط" مملاة من خواص المادة العامة مما يؤدى إلى وجود أوجه شبه تكوينية وتشكيلية الآلات المتعلقة بها.

---

(١) ليس باليسير تقييم تأثير هنرى برجسون Heni Bergson وبيير تيلارد دو شاردان Pierre Teilhard de chardin وفى ذات الوقت استعادة ما للركائز التطورية لفكر لوروا – جورهان من درجات وفروق دقيقة. من هنا فإنه يبدو أحيانًا غير راغب فى حسم الأمر بين الرؤية التى ترى فى التطور علامة انطلاق وبحث عام عن الضمير وتصب فى الإنسان العاقل – وهى رؤية أقرب ما يكون إلى الفلسفة البرجسونية والتيلاردينية، وبين طموح محصور فى تحقيق وبحث عميق يدور حول "الحقبة التى توصل إلى أشكال حية تتأقلم أكثر فأكثر مع دوافع استغلال المادة" والتى يعد الإنسان العاقل بالتأكيد تجسيدًا لها وليس بالضرورة المشروع.

Id., Le Geste et la Parole, t. I, op.cit., p. 85-86.

أفرد مارك جرونان Marc Groenen صفحات وصفحات لهذا الملمح من فكر لوروا – جورهان فى كتابه عنه وخلص إلى الميل إلى البعد اللا ماركى أكثر من الداروينى الذى يصبغ رؤيته بحتمية غائية.

Groenen, Marc, Leroi-Gourhan...op.cit, en particulier p. 61-90.

"فالقطع" تعامل شائع والآلات التى تستخدم لإنجازه تحترم قواعد محددة منها أن يكون جزء منها فعالاً به المواصفات المطلوبة لأداء المهمة المنشودة، وجزء آخر قابلاً للإمساك يتناسب وشكل اليد. هذان الجزءان مصنوعان بشكل لا يجعل سكينًا على سبيل المثال يصبح من الممكن الاختلاف عليه مهما تباينت الثقافات. غير أنه بالنسبة للوروا – جورهان لا يقتصر "الميل" الذى قام بتعريفه على تحديد التحديات التى تضغط على صناعة معينة من الأدوات؛ بل يعبر عن الطرق التى يتم انتهاجها على مدار التطور التقنى كرد على المشروع الذى يعلى من الكائنات.

بعبارة أخرى "الميل" ليس مجموع الضغوط والفرص التى تسمح بها البيئة المحيطة وإنما آلية معاكسة، حركة تتم من خلال الإنسان وبيئته الداخلية يمكن قراءتها فى الغزو المتدرج للبيئة الخارجية الخاصة به.

هذا البعد الفلسفى لمؤلفات لوروا – جورهان لم يبق طويلاً بعده، وليس مؤكدًا أن علم ما قبل التاريخ قد احتفظ أو أخذ به. لم تبق إثنولوجيا ما قبل التاريخ التى تومض بها الدراسات حاليًا، على هذه الشعلة التطورية رغم مساهمتها الفعالة فى تجديد هذا الخط التفسيرى فى الخمسينيات، مثلها فى ذلك مثل أعمال لابلاس laplace التى سبقت الإشارة إليها فى الفصل الثانى. غير أن المعاصرة التى اتسم بها لوروا – جورهان تكمن فى شىء مختلف.

ما أورثنا إياه بعيدًا عن بعض الاتجاهات فى الموضوعات وطرق البحث، خاصة تلك التى تجعل من دراسة السكنى مجالاً مميزًا لإدراك السلوكيات البشرية، يرتكز أساسًا على ترسانة فكرية سخرت لتحليل آليات التغييرات التقنية.

كثير من المفاهيم وطرق البحث التى قام لوروا – جورهان بصياغتها فى هذا الصدد تم استخراجها من "رؤيته البيولوجية للظاهرة الاجتماعية"[1] وإدراجها فى التصور الغائى لتطور الإنسان.

---

(1) Leroi-Gourhan, André, Le Geste et la Parole, t. II, op.cit, p.290.

فهو عندما يدرج فى مقرر "علم ما قبل التاريخ" تقـدم "التقنيـة الثقافيـة" لا يكتفى بمد جسور نظرية بين هذا العلم وعلم الإثنولوجيا – أى لا يقتصر الأمر لديه على الإشارة إلى أن التقنية تنبئ عن ظواهر اجتماعية واقتصادية – وإنمـا يـزود هذين العلمين بأدوات تحليل تساعد على اكتشاف ذلك. الشيء الأساسى بالنسبة لـه هو مفهوم "السلسلة المفصلة Chaine، opératoire" الذى يوضح مشهد الحركـات اللازمة لصناعة الآلة. هذه الطريقة رغم بساطتها تحمل فى طياتها قدرة هائلة على الحل: بتطبيقها على سبيل المثال على الصناعات الحجرية نجدها تسمح بتبيان نوايا القائم على صقل الحجر وتحليل ما للتقاليد من وزن فى عرفه وتفسير اسـتعداداته النفسية الحركية مع أخذ الضرورات الاقتصادية الخاصة به فى الاعتبار (البحـث عن المواد الخام القابلة للاستغلال من الأحجار والمواد الأولية القابلة للتشكيل بالآلة الحجرية بعد تنفيذها) ومعرفة البعد الاجتماعى للنشاط الـذى يتناسـب و"السلـسلة المفصلة" المعنية.

من هنا تصبح استعادة سلسلة الحركات أداة لوصف التقاليد التقنية إلى جانب تفسير القيم المعرفية والاجتماعية والاقتصادية اللصيقة بأنشطة تغيير المـادة التـى يقوم بها الإنسان وتحويلها. غير أن الأمر يتطلب قبول فكرة ارتكابنا لخطأ علومى: هذا التعريف ليس بذلك الذى صاغه لوروا – جورهان لهذا المفهوم وإنما هو ذلـك الذى أثرى بالتطبيقات التى قام بها آخرون له[١].

---

(١) – لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع يمكن مراجعة:

*Schlanger, Nathan, «"Suivre les gestes, éclat par éclat". La chaîne opératoire d'André Leroi-Gourhan», in Audouze, Françoise et Schlanger, Nathan (dir.), Autour de l'homme...op.cit., p. 127 – 147

*Karlin, Claudine, Bodu, Pierre et Pelegrin, Jacques, «Processus technique et chaînes opératoires. Comment les préhistoriens s'approprient un concept élaboré par les ethnologues», in Balfet, Hélène (dir.), Observer l'action technique. Des chaînes opératoires, pour quoi faire? Paris, CNRS, 1991, p. 101 – 117.

أدرك لوروا – جورهان أن هذه الدراسة للتقنيات تسمح بالوصول إلى ديناميات أكثر عمومية للمجتمعات الإنسانية مثل تلك التى تتعلق بالتجديد والانتشار والنقل أو الاقتباس والتى تفضى إلى معرفة العلاقات بين الجماعات الإنسانية. إزاء هذا الأمر كان لوروا من ناحية يحذر من قدرتنا على الإحاطة الكاملة بأقوام محددى النطاق بواسطة الوثائق التقنية فقط، ومن ناحية أخرى كان متشككًا للغاية من اللجوء المتكرر إلى موضوع الهجرة لتبرير ما يحدث من تغيرات فى المجتمعات الإنسانية(١).

اتجه تفضيل لوروا إلى التفكير الطموح فى آليات التجديد والانتشار لا للبشر أو الشعوب وإنما للأفكار:

كانت جماعات صيادى الماموث أو الفقمة من الرُحل ولكن فى داخل نطاق حدودهم. وقد لعبت الهجرات إلى الأماكن النائية دورًا ولكن أقل أهمية مما قد نتخيله. أما أشياؤهم أو الفكرة عن وجودها فقد انتقلت من جماعة إلى أخرى ووصلت فى بعض الأحيان إلى أطراف القارات(٢).

---

(١) هناك استشهاد يلخص التكامل الذى يراه فى وجهتى النظر التاليتين:

هاجس علماء ما قبل التاريخ الضمنى كان دوما الاختلاف الإثنى. لما كان كل شىء فى التاريخ يجرى بين شعوب فقد أصبح هؤلاء العلماء لا شعوريًا تحت تأثير التعامل مع الأشوليين والأورينياكيين والبريجورديين وغيرهم باعتبارهم كيانات إثنية حقيقية وربما أحيانًا كيانات إثنية وأنثروبولوجية فى آن واحد.

يتضح منهم هذا السلوك بصفة خاصة عندما يتبلور حول بعض الأشياء الواضحة التى يسهل التعرف عليها مثل "أوراق الغار السوليترية".

بيسر شديد يصبح حينئذ السوليتريون شعبًا وربما جنسًا طبقًا لما جاء بالدراسات وأعمال التنقيب يجوب أوروبا بل والعالم فى جميع الاتجاهات الرسمية. إلا أن السوليترية ليست بشرًا وإنما طريقة لصنع الأشياء وبشكل أوسع هى طراز تشكيل لحجر الصوان [...] ويمكننا فى المستقبل حين يتقدم علم ما قبل التاريخ إظهار تقدم الفكرة السوليترية عبر أوروبا عام ١٥٠٠٠ ق. م تقريبًا كما يمكننا حاليًا عمل خريطة توزيع لأجهزة التلفاز فى الأوساط الريفية بأوروبا الغربية.

Leroi-Gourhan. André. Le Geste et la Parole. t.I. op.cit., p. 201 – 202.

(2) Id., L'Homme et la Matière...op.cit., p.11

يذهب لوروا إلى أن آلية التجديد يحكمها "الميل" الذى يتم التعبير عنه وفقًا للتقاليد الخاصة بكل مجموعة إنسانية والخواص والضغوط الخاصة بمحيطها الخارجى وتتجسد فى أحداث ووقائع معينة(١).

إذا كانت "لكل جماعة على هذا النحو شخصية مطلقة(٢)" منعكسة فى تجهيزاتها الثقافية فهناك ثوابت من القوة بحيث توجد اختراعات مماثلة، وإن لم تكن متطابقة تمامًا، قادرة على الظهور إلى الوجود بشكل مستقل تمامًا. تعلم لوروا من ذلك كيف يميز التقارب التقنى فى "ظاهرة الانتشار"(٣).

أضاف لوروا إلى ذلك ملمحًا مهمًا يوضح ما لتقاليد كل جماعة من ثقل فى كل ابتكار تقنى: "حتى تتقدم وتتطور التقنية يجب أن يرتبط الاقتناء بشىء سابق عليه حتى ولو كان ذلك منذ مدة بعيدة أو كان مما لا يمكن تصديقه"(٤).

وقد وصف لوروا بالإضافة إلى ذلك أنماط انتشار الأفكار التقنية من جماعة إلى أخرى قائلاً:

"حتى يقود الاقتباس إلى إيجاد مجموعة دائمة من الأشياء يجب أن يستوفى بعض الشروط. عليه فى البداية أن يلبى احتياجًا سابقًا عليه وأن يشبعه أو أن يخلق

---

(١) "على نقيض "الميل" نجد أن الحدث متفرد وغير متوقع. وهو بذات القدر نتاج التقاء الميل مع العديد من مصادفات المحيط البيئى أى الاختراع والاقتباس من شعب آخر. ويتميز الفعل بكونه متفردًا وغير قابل للامتداد وهو حل وسط أو تسوية بين الميول والبيئة المحيطة".

(2) Id., Milieu et Technique...op.cit, p. 335

(٣) أخذ لوروا مثلاً أداة نجدها فى عدة قارات وهى القاقمة [بليطة حادة معقوفة تشبه خطم حيوان القاقم] وتساءل: "لم يندر وجود ما يشابهها [...] بمعنى أشكال مبتكرة تقنيًا وحلول غير مسبوقة لمشاكل القوة والمادة؟

ألا نميل للاعتقاد كإجابة أن هناك حتمية تقنية تشبه الحتمية البيولوجية لها استثناءاتها وما يشذ عنها بالطبع؟ وخلص إلى أن إثبات القاقمة هذه هى تجسيد لميل ما إلى النجارة فى بيئة تقنية معينة هو بشكل أو آخر مساو لتحديد المراكز التى يمكن أن توجد بها هذه الآلة".

(4) Id., Milieu et Techniques..., op.cit., p. 344

احتياجًا جديدًا يتناسب وحياة الجماعة القائمة؛ بعبارة أخرى يجب أن تكون هناك بيئة مواتيه للشيء المقتبس. وعادة ما يتسم الشيء المقتبس بعد استيعابه بسمتين: أولاهما، أنه يحمل طابع الجماعة المقتبس عنها.

وثانيهما، أنه اكتسب بصمة محلية وأصبح خاضعًا لمتطلبات المواد لخام المتوفرة فى مكان استقراره"[١].

"من هنا نرى أنه سواء ابتكرت الجماعة فكرة تقنية غير مسبوقة أو اقتبستها من جيرانها فإن قواعد نقل التقنيات بين المجتمعات الإنسانية لا تتغير. ما يهم بالفعل طبقًا لما يرى لوروا هو أن تكون الجماعة مهيأة للتبنى أو الاختراع إذا لم يتسنى لها إيجاد ما تحتاجه"[٢].

سمح اقتران الحتمية البيولوجية الخاصة بالإنسان العاقل بفكرة "الميل" مطبقة على التقدم التقنى بإعادة النظر فى التجديدات الصناعية الكبرى التى تميز العصر الحجرى القديم الأعلى خاصة ما كان من صناعة النصال بدلاً من التشظية.

وقد رأى لوروا أن تقنية النصال تضمن استغلالاً أفضل للبيئة المحيطة – كرد فعل لميل قوى؛ للتقدم التقنى – باعتبار أنها تسمح بالحصول على أفضل مردود من المادة. لإثبات ذلك ذكر أنه بكمية مماثلة من حجر الصوان من الممكن الحصول عند تقطيع النصال على أطوال نصال أكثر منها بالتشظية (وهى التقنية السائدة فى العصر الحجرى القديم الوسيط) فى حين أن هذه التقنية الأخيرة كانت تزيد الكمية بنحت الفأس اليدوية (وهى التقنية السائدة فى العصر الحجرى القديم

---

(١) ذات المرجع ص٣٥٩
(٢) ذات المرجع ص٣٣

الأدنى) من ناحية أخرى فإن النصل يمكنه أكثر من الشطفة التحول إلى مكون في مجموعة كبيرة من الآلات المتخصصة (السكاكين والمكاشط والأزاميل والمثاقب) وفقًا للرتوش التي يتم إجراؤها له(١).

يضيف لوروا أن الإنسان بطبيعته ليس كائنًا متخصصًا، فهو ينوع في غذائه على سبيل المثال، مما يضمن له قدرة كبيرة على التأقلم. إذا استطاع كائن بهذه الشمولية بواسطة التقنيات، ممارسة وتطوير أنشطة متخصصة، فهذا دليل على التطور الذي تم وتحقق وضمان لإمكانية سيطرته على البيئة المحيطة به.

اكتسب النصل فعالية أكبر بعد تزويده بمقبض يزيد من طوله ويبعده عند الاستعمال عن اليد غير أن ذلك لم يدفع لوروا – جورهان إلى القول بأن الأداة قد ساهمت في ظاهرة تجسيد التقنية فقد رأى أنها ميل واضح للتطور(٢).

غير أنه اقترح رؤية أعراض ظاهرة "التجسيد" هذه، في أشياء أخرى ظهرت في العصر الحجري القديم الأعلى، منها على وجه الخصوص، المقذاف Propulseur(٣).

---

(١) عندما كان لوروا – جورهان يبلور فكرة كان هناك اعتقاد سائد بأن قطع الأنصال يرجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى. تلى ذلك اكتشاف بأن هذه التقنية قد عرفت في تواريخ سابقة وأن العصر الحجري القديم الأعلى يمثل التوقيت الذي ثبتت فيه هذه التقنية ضمن التقاليد التقنية لعصور ما قبل التاريخ. وقد استمرت إلى ما بعد هذا العصر وحتى ظهور المعادن.

(٢) يسعى التطور الإنساني إلى جعل كل ما يتعلق بالتأقلم في محيط الإنسان وليس بداخله كما هو الحال في باقي عالم الحيوان. الحدث المادي الأكثر لفتا للانتباه هو بلا شك "تحرير" الأداة.

(3) . Id., Le Geste et la Parole, t.II., op.cit., p.34.

المقذاف: آلة تسمح بزيادة قدرة المقذوف، وهي من الناحية الميكانيكية تعمل كما لو أن القاذف يملك مقطعًا إضافيًا في ذراعه بالإضافة إلى كتفه ومرفقه وكفه. وهو عبارة عن عصا تمسك راحة اليد بأحد طرفيها أما طرفها الآخر فمزود بخطاف يستخدم في دفع الرمح القصير. ويسمح هذا الشكل بأن تكون عملية القذف بعيدة عن اليد وبواسطة آلة تزيد من الطاقة الحركية مثل العتلة أو النونشاكو الياباني.

وتوضح التقنيات التى تنسب للعصر الحجرى القديم الأعلى أن هناك "ثــورة " حتى وإن كانت بداية هذه التقنيات ترجع إلى العصر الحجرى القديم الوسـيط. ركــز لوروا – جورهان بهذه الطريقة على البعد الأنثروبولوجى لهذه الظواهر، ومن هنـا فقد عرض رؤية كلاسيكية تقليدية لآخر فترات العصر الحجـرى القـديم: فمقـدمها يشكل بالنسبة له انفصالاً وبعدًا عن التطور البيولوجى والسلوكى. وتفـسير ذلـك أن التقنيات كانت تتقدم فى السابق بشكل جماعى يتسم بالبطء والاستمرارية معًا. بقـدوم الإنسان العاقل حدثت طفرة بيولوجية صاحبتها انطلاقة فكرية هائلة استمرت بعد ذلك رغم ثبات التطور البيولوجى. ويعزو لوروا هذه الطفرة إلــى حتميـة بيولوجيـة – صفات تشريحية خاصة بمخ الإنســان العاقــل – اســتخدم لإدراكهــا المعطيــات الفسيولوجية العصبية الخاصة بعصره خاصة ما تعلق منها بالمنطقة الجبهية للمخ(١).

سمح هذا التفكير للوروا بوضع حد فاصل بين إنــسان النيانــدر والإنــسان العاقل. هذا الحد كان من الوضوح والحسم بحيث انتهى به الأمــر إلــى اللجــوء لفرضية الهجرة لتفسير وصول الإنسان العاقل إلى أوروبــا فــى مطلــع العــصر الحجرى القديم الأعلى(٢). قد يبدو فكر لوروا شديد الالتصاق بالنماذج السائدة فــى علم ما قبل التاريخ إلا أنه فى واقع الأمر قد أثراها بتجديد تفسير الآليات الموصلة إلى هذه الطفرة السلوكية التى ربطها بتطور اللغة، أداة انطلاق الفكر الرمزى.

---

(١) يفرد لوروا عدة صفحات فى كتابه Le geste et La Parole لتبيان هذا الملمح مشيرًا إلــى أن هذه المنطقة تملى على الإنسان استعداداته للتحكم والتنبؤ والوعى. ويــضيف أن دور قــشرة الدماغ قبل الجبهية – مهما كان آنذاك مجهولاً – كأداة لضبط الانفعالات والتحكم والتقييم يبدو كدور أساسى. وبالتالى فإنه اعتبارًا من الفترة التى أصبح له فيها أهمية واضحة يمكننا إدراج مفهومى الذكاء والتفكير بالمعنى الإنسانى لهما.

Id., Le Geste et la Parole, t.I, op.cit., p.186.

(2) Id., Les Chasseurs de la Préhistoire, Paris, Métailié, «Traversées», 1983.

كان فيما سبق قد وضع فرضية مختلفة. ففى الستينيات كان مثل غيره من الباحثين قد اعتبــر أن الإنسان العاقل امتداد لإنسان النياندر (على عكس بول Boule).

"إذا كانت الذاكرة الجماعية منذ فجر الإنسانية تسجل وتحتفظ بما يحدث فإنها لا تخترع. من هنا فإنه حتى اللحظة التى بدأ فيها الذكاء الفردى التعامل بحرية مع الرموز والعلاقات التى تربط بينها، بقيت طرق الإثراء الملموس مرتبطة ببناء الذهن. ويبدو أنه بقدوم الإنسان العاقل قد تم تجاوز هذا الخط، وأن العلاقات المجردة تضمن لتركيبة اللغة الرمزية قيمتها ليس فقط كأداة اتصال وحفظ للذاكرة الجماعية وإنما كأداة تفكير بناء ومجدد. اعتبارًا من هذه الفترة يمكن القول بأنه قد تم الانفصال بين التطور البيولوجى والتقدم السلوكى. مهما كانت درجة قرب إنسان النياندر منّا إلا أنه يبدو أنه بالكاد قد بدأ هذا الانفصال الذى لم يتصدر الصورة ويصبح فعالاً إلا فى العصر الحجرى القديم الأعلى.

وتعد أكثر العلامات وضوحًا هو تطور المظاهر الجمالية والدينية التى تخلق عالمًا من الرموز منفصلاً عن العالم البيولوجى الملموس(١).

نتج عن هذه الظاهرة "تكون متدرج لوحدات ثقافية أضحى ظهورها شيئًا فشيئًا بارزًا"(٢) مما يفسر فى ذات المرحلة نمو "ثقافات" العصر الحجرى القديم الأعلى.

ورغم ذلك لم يتحول لوروا عن تشككه فى قدرتنا على الإحاطة بأمانة بنطاقها. هذا التنوع فى الثقافات، هو نتاج التقدم الذى حققته الإنسانية طيلة العصر الحجرى القديم وهى تضمن بتعددها سيادة أفضل على المحيط البيئى، وتتزود بابتكارات واقتباسات عديدة لتتمكن من ذلك. أصبح "التنوع الثقافى المنظم أساسًا

---

(1) Id., «L'évolution et le progrès», in Leroi-Gourhan, André, Bailloud, Gérard, Chavaillon, Jean et Laming-Emperaire, Annette (dir.), La Préhistoire, Paris, PUF, «Nouvelle Clio», 1966, p. 321.

يمكننا فيما يخص دور اللغة إكمال الاستشهاد المذكور عاليه والذى يوضح فيه "لوروا" أن تجسيد الآلة ظاهرة حاسمة فى التطور البشرى غير أن "الحدث الأساسى هو تحرير اللغة وهذه الخاصية الفريدة التى يمتلكها الإنسان بجعل ذاكرته تتعدى كيانه لتصبح فى الجسم الاجتماعى".

Leroi-Gourhan, André, Le Geste et la Parole, t.II, op.cit., p.34.

(٢) ذات المرجع.

للتطور على مستوى الإنسان العاقل"[1] مما يجعلنا نشهد بدءًا من العصر الحجرى القديم الأعلى "المرور من الإنسان الحيوانى إلى الإنسان الإثنى"[2].

مرة أخرى يختفى الإنسان الحفرى تاركًا المكان للإنسان البدائى الحديث.

يمكننا إذن القول بأن لوروا – جورهان يلقى بعدة أضواء تكميلية على واحدة من نقاط هذا الفصل الرئيسية: هل مشروع عالم ما قبل التاريخ "بتيسير قراءة أكبر كم من" ثقافات عصور ما قبل التاريخ الإطار الأفضل والأكثر ملاءمة لتفسير الديناميات التطورية لمجتمعات العصور الحجرية القديمة؟

وهو يوضح من ناحية أن هناك لبسًا بين "الثقافات" والتيارات الصناعية، مميزًا بين شعوب متباينة بدلاً من البنية المركبة للمراحل والفصول الثقافية، ومن ناحية أخرى يؤكد أن نية تبيان التفتيت الإثنى يجب أن تخدم رؤية أعم وأشمل على المستوى التطورى.

بعبارة أخرى، إذا كانت هناك رغبة فى دراسة أسباب "تألق" المجتمعات الإنسانية، وإذا لم يكن هناك "علم ما قبل التاريخ" جيد لا يستند إلى وصف دقيق للأحداث والوقائع فإنه على المشاهد أن يقف على مسافة مناسبة حتى لا تزل قدمه فى بقعة الزيت. من ناحية أخرى فإنه بعيدًا عن الجانب الغائى فى فكره، يمكننا القول بأن لوروا – جورهان قد أورث علم ما قبل التاريخ مفاهيم ومناهج بحث يحدد بها تناوله.

(١) ذات المرجع .Id., Le Geste et la Parole, t.I, op.cit., p. 204
(٢) ذات المرجع ص ٢٢١.

على درب لوروا – جورهان

انطلاقة الدراسات التقنية ومضامينها

تعزيزًا لجهاز إحصائي متزايد القوة، عرفت المعالجات التصنيفية للصناعات(١) خلال الستينيات انطلاقة علمية وأكاديمية براقة، وذلك في خط مواز للنشاط الذي كان يبذله لوروا ومعاونوه. تعددت الدراسات الموصلة إلى توصيفات أفضل لمجموعات الآلات وزادت دقتها في وصف أشكالها(٢).

رغم ذلك فإنه منذ ذلك الحين اعترضت هذا المنهج الذي يطمح إلى تحديد الحدود المكانية والزمنية "لثقافات عصور ما قبل التاريخ" أزمات عدة. وقد أوصلتنا دقة التحليلات إلى نتائج مهمة غير أنها ما زالت غير قابلة للاستغلال ولاحت شكوك اتحدت واتفقت مع اتجاه تشخيص لوروا – جورهان، وهنا ثار تساؤل عن كيفية تفسير هذه المنمنمات الثقافية التي ظهرت شيئًا فشيئًا(٣).

---

(١) راجع الفصل الثاني خاصة ما تعلق فيه بأعمال بورد Bordes ومدرسته.

(٢) من أهم الأعمال التي تعطي فكرة عن هذا المنهج كتاب لأحد معاوني لوروا – جورهان.

Brézillon, Michel, La Dénomination des objets de pierre taillée. Matériaux pour un vocabulaire des préhistoriens de langue française, Paris, CNRS, «Gallia Préhistoire», suppl. 4, 1968.

(٣) ذكرت دينيز دو سونيفيل – وبرود في خاتمة مقالها "أن طرق التصنيف الوصفي لا تسمح بوجود تفسير زمني أو إثنولوجي قديم".

Sonneville-Bordes, Denise de, «Les listes-types. Observations et méthode», Quaternaria, n° 18, 1974, p. 9 – 43 (citation p. 36).:

استشهاد هذا التفكير حول الأهداف وطريق البحث في علم آثار عصور ما قبل التاريخ بعد إعادة النظر فيها خلال ذات الفترة يشكل أساس المؤلف التالي:

,approche épistémologique'Essai d .éArchéologie et Réalit ,Henri ,Delporte ١٩٨٤ ,Picard ,Paris

لم يكن تصنيف أشكال الشيء، أداة الوصف الفعالة التى أورثتنا إياها تقاليد الطبيعيين، بقادر على تحديد طريقة استعمالها في الصناعة. استطاعت هذه الطريقة فيما مضى حل مشكلة الأطر الزمنية وتحديد أهم التقسيمات الجغرافية فى داخل حقبة ما، غير أنه تبين عجزها عن إعطاء المزيد من التفاصيل عن مجتمعات عصور ما قبل التاريخ. عندئذ ظهرت المعالجة التقنية إلى جانب بعض مناهج البحث التى تهدف أخيرًا إلى تحديد وظيفة الآلات(١).

تزعّم هذه المبادرة غير لوروا – جورهان، بعض "أساتذة" التصنيف البارعين فيه ومنهم بصفة خاصة بورد Bordes الذى مارس بنفسه عملية تقطيع الصخور الصلبة حتى يتمكن من معرفة الآلات المستخدمة. تحولت هذه التجارب تدريجيًا إلى نظم تجريب حقيقية احتلت مكانًا بارزًا فى انطلاقة التقنيات(٢) التى أصبح من أهدافها المتعددة ترسيخ تعريف "الوحدات الثقافية" التى توصلت إليها الحاجات التصنيفية، وهو المنهج التقنى الذى يحاول الرد على تساؤلات هذا العلم التقليدية.

---

(١) تهدف هذه المعالجة إلى تحديد وظيفة الآلات عن طريق تحليل البقايا العينية والمجهرية التى تحملها وقد ابتدعها الباحث الروسى سيرجى أريستار خافيش سمونوف Sergei Aristar .khavich Semenov

لهذا الباحث مؤلف يعد من المراجع الأساسية فى علم الـ Tracéologie يرجع إلى ١٩٥٧. لدى نشره باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٤ لقى هذا الكتاب عالميًا صدى واسعًا. وهناك طبعة له باللغة الأسبانية هى التى استخدمناها هنا.

de las Estudios .ricaóa prehisti¡Tecnolog ,Sergei Aristarkhavich ,Semenov ١٩٨١ ,Akal ,Madrid ,herramientas y objetos antiguos a través de las huellas de uso .(١٩٥٧ ,russe .re éd١)

(٢) تعد ممارسة التشذيب عمليًا أمرًا ليس بالجديد فهى قديمة قدم دراسات عصور ما قبل التاريخ. وإذا كان المجربون والممارسون العصريون لها يرون عن حق فى بورد Bordes "السلف المؤسس" لهذا الاتجاه حاليًا فإن هناك كثيرين سبقوه فى هذا المجال وفى مقدمتهم بروى Breuil. وأيًا ما كان الأمر فإنه يرد ذكر اللقاء الذى تم تنظيمه عام ١٩٦٤ فى إيزى دو تاياك Eyzies – de – Tayac وجمع فرنسوا بورد Francois Bordes والأمريكى دونا كرابترى Don Grabtree وجاك تيكسييه Jacques Tixier كوثيقة تأسيس لهذا المنهج.

يفسر هذا الأمر وجود مبحث خاص بطرق إنتاج هذه الآلات ملحق بوصفها. وسرعان ما لن يكتفى بإثراء تعريف الثقافات بما تستخدمه من طرق تقنية، ويتطرق الأمر إلى الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية المحيطة بهذه الطرق مع محاولة تحديد ليست الكيفية التى تعمل بها فقط وإنما أيضًا الأسباب الكامنة وراء اختيارها.

ستتطلب هذه الانطلاقة التقنية، كما سنرى لاحقًا، ابتداعًا متمهلاً لطرق تتثبت تدريجيًا من مدى وقيمة طموحاتها. بعض من المفاهيم المعمول بها، يرجع إلى أعمال لوروا – جورهان ومنه "السلسلة المفصلة" التى ساهمت فى توجيه خطواتهم(١). ونجد نتيجة لذلك أن مجموعة الدراسات التى تمت فيما بين الأعوام ١٩٧٠ و١٩٩٠ قد ساعدت فى جعل أدوات هذه المعالجة للصناعات أكثر فعالية فى أكثر من اتجاه تكميلى مع مساهمة فى صياغة ما يلزمها من مفردات.

فرض هذا المنهج نفسه تدريجيًا واستطاع التوصل إلى بعض القيم الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بتنفيذ الآلات الحجرية كما أمكنه تفصيل وصف بعض التقاليد التقنية التى لم يكن قد تم الاستدلال عليها حتى هذا الحين إلا من خلال الشكل "الجامد" للآلات.

---

(١) يقودنا سياق هذا الفصل إلى القيام بعمليات حذف لأمور مهمة: فبعد الإشارة فى أعمال لوروا – جورهان إلى نقطة البداية فى ظهور بعض المفاهيم وطرق البحث الخاصة بالمعالجة التقنية، سنشرع في تحليل تطبيقاتها فى العديد من طرق المعالجة الحديثة. بسلوكنا هذا المسلك نسقط جيلاً كاملاً من الأعمال والدراسات التى تمت فيما بين منتصف الستينيات ونهاية الثمانيات وساهمت فى ترسيخ المفاهيم التى كان لوروا قد أشار بالكاد إليها (مثل السلسلة المفصلة La chaine opératoire) وفى صياغة مفاهيم جديدة (مثل مفهوم "النسق التقنى" systeme technique). يتوجب علينا هنا ذكر اسم جاك تيكسييه Jacques Tixier أحد الدعاة إلى إعادة تعريف.. طموحات وطرق بحث هذه المعالجة. وقد كون هذا العالم فريق بحث يسير على نهجه تحت اسم "عصور ما قبل التاريخ والتقنية".

راجع:

25 Ans d'études technologiques en Préhistoire. Bilan singulier et perspectives, Actes des Xie rencontres internationales d'archéologie et d'histoire d'Antibes (18-20 octobre 1990), Juan-Les-Pins, APDCA, 1991.

خلال هذه المرحلة لم يفض تقدم الدراسات التقنية إلى الاختفاء الفورى للمعالجات التصنيفية الأكثر تقليدية. فقد استمرت هذه الأخيرة بتؤدة شديدة فى تدقيق عملية التأريخ - (مفضلة لإنجاز ذلك: الدراسة الطبقاتية التى امتلأت بها المغارات) فى حين كانت طرق المعالجة التقنية تعطى علم ما قبل التاريخ طابعًا محسوسًا (خاصة فى معسكرات الهواء الطلق) حيث ظهرت سمات اجتماعية مثل سمة "التعلم" وأخرى اقتصادية مثل سمة "إدارة الموارد". تم هذا الظهور فى إطار وصف أدق وأعمق للتقاليد التقنية. ابتعدت الدراسات التقنية المنشغلة آنذاك بصياغة طرق بحثها وتجميع أدواتها عن استخلاص نتائج وعمل تجميعات خاصة بالتطور العام لمجتمعات عصور ما قبل التاريخ وصناعاتها. فهذا المجال رغم صلته الوثيقة بتكون "إثنولوجيا عصور ما قبل التاريخ" التى نادى بها لوروا - جورهان بقى لفترة طويلة حكرًا على الدراسات التصنيفية[1] ولم تلتفت إليه المعالجات التقنية إلا فى نهاية الثمانينيات.

الجدير بالذكر أنها حين التفتت إليه واكب هذا الالتفات تغير طفيف فى مضمون الكلمات التالية: "التطور" و"الميل" و"التقدم" هذا إذا لم يكن قد تم محوها من سجلات الفكر.

فى أثناء ذلك طالب تيار وتحديدًا فى مجال الإثنولوجيا، بالوعى لذاتية السلوكيات البشرية على مستوى الزمان والمكان، الأمر الذى يستتبع "فقدان الكليات" أو على الأقل نقدها.

أعيد النظر فى فكرتى مواصلة التقدم والبحث المضنى عن الفعالية التقنية. فبالقرب من الإثنولوجيين والمؤرخين أدرك علماء ما قبل التاريخ أن هذه المفاهيم قد قيست وربطت بقيم شديدة التباين من مجتمع لآخر:

---

(١) على الأقل فى التقليد والعرف الفرنسى لأنه فى ذات الوقت كانت المدارس الأنجلوسكسونية بطرقها الفرضية الاستنباطية تواصل اكتشافها لهذا المجال. راجع على سبيل المثال:

Clark, Grahame, World Prehistory in New Perspective, New York, Cambridge University Press, 1977

"انقيادًا لتصورات اجتماعية لا علاقة لا بالتقنيات نجد أن المجتمعات لا تتردد فى اجتناب حتمية الطبيعة [. ..] [من هنا] فإننا حين نعد الثقافة المادية لمجتمع أثرى كحلقة فى سلسلة تدرج تطورى، يتوجب علينا أن نتذكر أنها بالنسبة لمن أوجدوها ومن أخذوها عنهم، من عاشوها ومن فرضت عليهم، لم تكن إلا معطى يوميًا لا وزن يذكر للميل فيه وقد تكون لأجيال كاملة أمرًا اعتباطيًا تسلل إلى أفعالنا."(١)

مثل هذه النسبية قد تصيبنا بالدوار. هل قدر علينا وصف الأمور التقنية بدون أن نعى معناها العميق – الاجتماعى والرمزى – نظرًا لكونه أوسع من توقعاتنا؟ يمكننا القول إنه حتى إذا كان لمفهوم التقدم التقنى بعض الفضل على مستوى تاريخ الإنسانية – وإن كانت خيبة ظن عالمنا الحالى والمجتمعات التى تطلق على نفسها "بعد حديثة" تثير الشك فى معنى هذه العبارة – ماذا عن دراسة مجموعة من الحصى المشذبة؟

لم يكن عالم ما قبل التاريخ وعالم الإثنولوجيا فى القرن التاسع عشر ليبادلا مكتبيهما بكوخ لأن التقدم كان واضح المعالم أمامهما ولائحًا منه المزيد فى الأفق. أما من لحقوا بهما فى نهاية القرن العشرين فكانوا يستشعرون وحشة لهذه الأزمنة السحيقة وهذه المساحات المهجورة. ولكن أيًا ما كان الأمر فإن موضوع تطور الإنسان وسلوكياته باق بل ويقترح المجتمع على عالم ما قبل التاريخ أن "يستعيد" مرة أخرى الكلمة. ما هى الحداثة السلوكية؟ متى ظهرت؟ جعلت المعالجات التقنية هذه التساؤلات تطفو مرة أخرى على السطح.

(1) Lemonnier, Pierre, «De la culture matérielle à la culture? Ethnologie des techniques et Préhistoire», in 25 Ans d'études technologiques en Préhistoire...,op.cit., p. 15 – 20.

هناك عرض آخر لتغير الرؤية. لنلاحظ عرضًا أنه فى هذا النص تم التعامل مع مفهوم الميل كما يحدث تمامًا مع حتمية قوانين الطبيعة والمادة، وأن البعد الغائى الذى كان لوروا – جورهان قد كلفه بتجسيده قد اختفى تمامًا. (voir supra)

لا يتسنى هنا عمل بانوراما عامة للدراسات التقنية لذا نعرض ببساطة عينة معقولة من الأبحاث. اخترنا منها بعضًا مستوحى من إسهامات التقنيـة الحجريـة وهو المنشور الذى نتبناه مؤقتًا. بعض هذه الأبحاث يعاود الاهتمام بالحتميات فـى التطور العام لتقنيات عصور"ما قبل التاريخ". والبعض الآخـر خـاص بدراسـات لحالات اختير لها أن تكون محصورة ومحدودة حلاً لمشكلة انتقال التقنيـات التـى طرأت فى الكثير من مراحل العصر الحجرى القديم الأعلى.

وقد أدى تناول هذا النوع الأخير من خلال علم الإثنولوجيا القديمة إلى إظهار العلاقات الوثيقة بين البنية الاجتماعية الاقتصادية للجماعات البشرية وتقنياتها.

يضطلع بعض من هذه الدراسات بإيضاح أسباب تطور النصال التى يعـد البحث فيها بحثًا عن طابع شخصانى لصناعات المراحل الحديثة للعصر الحجـرى القديم فى أوروبا والشرق الأدنى. وقد جاوز صدى ضخامة هذه الطفـرة التقنيـة الحدود الجغرافية وطال قارات أخرى مثل أفريقيا التى يرتكز فيها أيـضًا تعريـف العصر الحجرى المتأخر على انتشار التقنيات النصالية بشكل يتزامن مع مثيلاتهـا فى العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا. مثلما رأينا من قبل، حظى النـصل باهتمام بالغ حتى أن بعض الكتاب قد اقترحوا وصف هذه الحقبة "بالحقبة الحجرية الدقيقة" "Leptolithique"، وأسبابهم فى ذلك، كما بدت فى مطلع القرن العـشرين هى "دقة" و"خفة" و"أناقة" هذه المنتجات، وهى أسباب لا تكفى فى حد ذاتها للتفسير. وقد تطلب الأمر الاعتداد برأى لوروا – جورهان الـذى أبـرز أهميـة العامـل الاقتصادى؛ فقد كان العائد المادى من المنتجات على صورتها هـذه أعلـى. وقـد سمحت المعالجات التقنية الحديثة برؤية عوامل أخرى مؤثرة فى الأمر.

لنتذكر معًا كبداية بعض الإيضاحات المتعلقة بمعايير قراءة القطـع الحجريـة وتفسيرها حتى نتمكن من تبيان الكيفية التى يمكن بها معرفة نوايا من قام بتـشذيبها، ففهم وإدراك هذا الأمر هو أساس المنهج التقنى. تقوم عملية تشذيب الحجـر علـى تشكيل المادة الغفل (كتلة واحدة أو عدة كتل متغيرة) لتحويلها إلى آلة (كما يحدث فى حالة الفأس اليدوية biface) أو على شطفها؛ أى فصل شـطفات تـستخدم كـآلات. ويطلق فى هذه الحالة أسم لب أو نواة (nucléus) على الكتلة التى يتم تشكيلها وتكون الشطفات أول المنتجات بينما فى العملية الأولى يتعلق الأمر بشظيات التشكيل.

ويلاحظ أن الأمر قد يحتاج فى الحالة الأولى كما فى الثانيـة إلـى بعـض الرتوش التى تهدف بصقل الحواف إلى إعطاء الشىء المصنوع خواص معينة على ضوء الغاية المرجوة منه (زاوية أكثر أو أقل انفراجًا أو حافة ذات شكل خاص).

هناك حالات يكون فيها استخدام المنتج على حالته الأولى الفجة كأن يتصف بالحدة ولا يحتاج إلى رتوش أو يحتاج إلى تدخل طفيـف لإحيـاء هـذه الـصفة الأصيلة. يخضع الشىء الذى تظهر الحاجة إليه لبعض الضوابط والمعايير (أكثرها بداهة أن يكون حادًا قاطعًا) إلا أن شكله العام قد لا يشى بالضبط بالغاية المرجـوة منه. من هنا فقد لا يستهدف التشكيل إلا الجزء المؤدى فيه للغرض، وقد يخـضع تشكيله لنموذج ذهنى مسبق. وقد يقتصر التدخل البشرى على عمل شطفات بـدون شكل أو مقاييس متفق عليها أو على العكس من ذلك يتم تنفيذ الشىء وفقًـا لـشكل محدد سلفًا.

يمكننا القول إنه فى كل الأحوال تعالج الرتوش أو لمسات التحـسين نقـصًا فيما يتوقع من الآلة أو ينمقها.

كيف يمكن مسبقًا تحديد شكل شطفة؟ يرجع الأمر إلى اثنين من الثوابـت الأساسية: أولاهما نسب الزوايا ومدى العمق بين السطح الذى يلامس أداة الطرق

(الذى يعرف باسم الرصيف) وذلك الذى تنفصل عنه الشطفة (سطح الاستخراج أو الاستغلال فى حالة القطع) علمًا بأن شكل سطح الاستخراج يتحكم فى شكل الشطفة (فالشطفة العريضة يمكن الحصول عليها من سطح واسع) ويلاحظ هنا أن الأجزاء الناقصة نتيجة عمليات القطع الأولى ترشد فى عمليات القطع التالية. هناك عوامل أخرى لها أدوار حاسمة نذكر منها: نوعية المادة المختارة للاستغلال ونوعية الأداة المستخدمة فى الطرق والتشكيل وطريقة استخدام القوى المتاحة (مباشرة أم غير مباشرة بالضغط أو الدق) للحصول على منتج ذى شكل محدد سلفًا. يجب أن يكون للنواة أو اللب nucléus مواصفات شكلية مواتية وتكوين ذى صلابة مناسبة وبالتالى ينبغى اختيار كتلة عقدية ذات شكل طبيعى ملائم للغرض. إذا لم يتأتّى ذلك كما يحدث غالبًا يتم تقريبها إلى الشكل المطلوب بالتعامل مع الأسطح. يمنحنا القطع بالشطف مثالاً طيبًا ويضع الأسس الموضوعية لمفهوم المردود الاقتصادى الذى أشار إليه لوروا - جورهان فى حديثه عن مفهوم التكرار الأكثر تقنية: تعدل كل شطفة حجم النواة وتمنحها مواصفات جديدة تصبح بدورها شروطًا للشطفة التالية.. إلخ. إذا ما رغبنا فى الحصول على مجموعة من الشطفات المتماثلة توجب الحرص على أن تحفظ كل شطفة للنواة ذات الخواص المحجامية بدلاً من إتلافها.

وذلك ما يحققه النصل لأن كل شطفة تترك على النواة تعريقتين طوليتين متوازيتين ترشد للشطفة التالية. على النقيض من ذلك نجد أن الشكل الهندسى للتشظية غير منتظم وهى تترك على النواة نتيجة ذلك آثارًا تعدل من خواصها المحجامية. نستخلص من ذلك أن القطع بالشطف هو الطريقة الوحيدة للحصول على مجموعة متماثلة (مفهوم المردود) من المنتجات ودرجة التطابق بينها تعتمد على إمكانية تقليص حجم النواة بدون الحيد عن الثوابت (مبدأ التكرار).

خصصت نيكول بيجو Nicole Pigeot أطروحتها لتحليل الصناعات الحجرية فى معسكر "إيتيول" "Etiolles" المجدلينى الواقع فى منطقة إيسون Essonne على ضفاف نهر السين والذى تم التنقيب فيه عقب أعمال الحفر فى بنسفون Pincevent تحت إشرافها مع فريق مكون من أيفيت تابوران Yvette Taborin ومونيك أوليف Monique Olive.[1] جاءت دراستها بواحد من أوائل العروض الأمينة لتقنية الشطف فى العصر الحجرى القديم الأعلى حتى أن الإنتاج المجدلينى استخدم طويلاً كنموذج نوعى للحقبة بكاملها.

من ناحية أخرى كانت هذه الدراسة واحدة من أوائل الدراسات التى تبنت معالجة اجتماعية للتقنية من خلال شهادات على قيام إنسان عصور ما قبل التاريخ على تعلم قطع وتشذيب الأحجار.

من الدلائل الملموسة على نقل المعرفة فى هذه المجتمعات[2] وجود مراكز للقطع فى أماكن السكنى التى يرتادها قاطعو الأحجار مع إمكانية توزيع المنتجات وترويجها فى المساحة التى يشغلها المعسكر.

أى تعليم أفضل لعالم – ما قبل التاريخ – من متابعة، حركة بعد أخرى، اجتهاد فرد فى اكتساب بعض أوجه حضارته؟ واصلت نيكول بيجو الاهتمام بهذه المسألة فى دراساتها اللاحقة ولكن بإعادة توجيهها على النحو التالى:

---

(1) Pigeot, Nicole, Magdaléniens d'Etoiles. Economie de débitage et organisation sociale, Paris, CNRS, «Gallia Préhistoire», suppl. 25, 1987.

(٢) إعادة التركيب هى إعادة التكوين المادى وليس الافتراضى لعملية قطع مع تجميع للقطع المكونة لها. درست نيكول بيجو مرور القطع التى تكون كتلة انتقالها تم تقطيـ فى فضاء السكنى المجدلينية. وقد سمح لها ذلك باستعادة بعض عناصر "الحوار التقنى" ـى تجمع عدة أشخاص نتابع بهذا الشكل مسار النواة إبان مرورها بين أيدى قاطعين من ذوى المهارات المتباينة ويمثلون عمليات التعلم الفعلية والملموسة.

ألا ينسينا "الكل الثقافى" المسخر للتعريف بالتقاليد التقنية البعد التالى فى الأهمية للتعبير السلوكى مثل قطع الصخور؟ بالإضافة إلى ما يسمو فوق كل هذه الثقافات ويتعلق بالحتميات المعرفية؟[١]

طبقًا لما ارتأته نيكول، فإن الآلات "ليست الانعكاس البسيط لتقاليد ثقافية وإنما محصلة قوى تكون أحيانًا متعارضة، [. ..] حل وسط أو تسوية بين تعبير النوايا البشرية عن نفسها وسط كم الضغوط وما يمكن تحقيقه"[٢]

بعبارة أخرى لا شك هناك فى أن مرجع سمات الصناعات هو الثقافة الخاصة بالجماعة غير أنها تدين أيضًا بالكثير للوسط الطبيعى الذى تنمو فيه وإلى القدرات العصبية الحركية للقائمين عليها. بهذا المعنى تصبح الآلة نتاج استعداد فكرى ما لا مجرد اتجاه ثقافى"[٣]. أولت نيكول اهتمامًا خاصًا لهذا الاستعداد الفكرى.

من هنا يمكننا القول بأن اكتساب المعارف الذى جددت العلوم المعرفية معالجته وتناوله مؤخرًا قد وضع فى منظور نسالى "Phylogenique" وليس فقط تطورى "ontogénique".

فالتقنية الحجرية مثلها فى ذلك مثل الطفل الذى يجتاز المراحل المعرفية المختلفة على مدى نموه، يمكنها أن تسمح برؤية المراحل التى شهدت انطلاقة هذه القدرات المعرفية على مدى التطور البـ لوجى للبشر.

وإذا كانت هناك علوم عديدة تهتم بوصف استعدادات "الإنسان العاقل" ولديها الأدوات اللازمة لتبينها فإن علم ما قبل التاريخ هو الوحيد القادر على تناولها من زاوية الحفريات الآدمية.

---

(1) Pigeot, Nicole, «Réflexions sur l'histoire technique de l'homme: de l'évolution cognitive à l'évolution culturelle», Paléo, n° 3, 1991, p.167 – 200.

(٢) ذات المرجع صـ ١٧١.

(٣) ذات المرجع صـ ١٧٨.

واقع الأمر أن الإنجازات التقنية لجماعات عصور ما قبل التاريخ قادرة على تقديم عرض أكثر نبضًا بالحياة عن قدراتهم الفكرية من مجرد مقارنة تشريح جماجمهم.

من هنا يمكننا القول إن ما تشي به قطعة من حجر الصوان يفوق بكثير ما يتاح لنا معرفته من كتلة عظمية مهما بلغت درجة تناسقها.

يمكننا قياسًا على ذلك استعادة الصورة الذهنية التى كانت هذه الجماعات تكونها عن مشروع تقنى ما وطرح التساؤلات عن قدراتها على التجريد وعن إدراكها للواقع.(١)

رغبت نيكول بيجو فى تتبع التقدم البطىء لبعض الاستعدادات الفكرية من خلال مقارنة الصناعات الممتدة على مدى مليونى عام بدءًا من الحصى المدبب الأفريقى فى العصر الحجرى القديم السحيق إلى صناعة النصال فى العصر الحجرى القديم الأعلى مرورًا بتشكيل الفئوس اليدوية الصغيرة وطريقة الشطف الليفالوازية فى العصرين الحجريين القديمين الأدنى والوسيط. وحاولت من خلال تتبعها هذا، تحديد إذا ما كان تصنيع آلة ما يسبقه تفكير فى مفهوم شكلها أم أن الأمر يقتصر على البحث عن خواص معينة بغض النظر عن الشكل العام. بعبارة أخرى هل الصورة الذهنية لدى القائم على قطع الحجر هى صورة لشكل ما أم هى صورة خاصية مادة؟ – مثال ذلك البحث عن قطعة حجر ذات حافة حادة. ما فكرة هذا القاطع عن الأحجام؟ هل فى بحثه عن حجر حاد يعنى أن الحافة القاطعة هى التقاء لسطحين أم أنه يبحث عن أسطح متعددة فى حجم ثلاثى الأبعاد؟

---

(١) حين نتعامل مع شىء ينتمى إلى العصرين الحجريين القديمين السحيق والأدنى يتوجب علينا إدراك أنه قد صمم بواسطة إنسان لم يكن يملك ذات القدرات النفسية – الحركية التى نملكها. الإنسان العاقل هو أحد أسباب حيرة علم ما قبل التاريخ، فهو يمثل درجة من الغيرية تجهلها كل العلوم الإنسانية الأخرى.

قدمت نيكول بيجو براهينها وانتهت إلى وجوب التمييز بين ثلاث مراحل معرفية: أولاها تجسدها "الحصى المطروقة" التى ظهرت فى العصر الحجرى السحيق وتمثل "السيطرة على الزوايا". أما ثانيها فنلمحه فى تقنيات الفأس اليدوية وطريقة القطع الليفالوازى فى العصرين الحجريين الأدنى فالوسيط وقد اكتشف الإنسان فيها "السطوح". آخر هذه المراحل زاخرة بتقنيات النصال كما عرفت فى العصر الحجرى القديم الأعلى وأكتشف الإنسان فيها "البعد الثالث والحجم".

بعد اجتياز هذه المرحلة لا يصبح هناك ما يبرر وجود مراحل معرفية أخرى وقد لاحظت نيكول أن "كل الوقفات التالية ذات طبيعة ثقافية فقط: اجتماعية واقتصادية وأيديولوجية"(١). لقناعتها الشديدة بهذه الملاحظات عقدت نيكول مقارنة بين انطلاقة هذه التصورات المختلفة عن العمل واستعمال الحجر مع أهم مراحل سلالة البشر فى العصر الحجرى القديم وبذلك وافقت لوروا - جورهان الرأى فيما يتعلق بالحتمية البيولوجية.

ترجع تقنيات المرحلة الأولى إلى البشر الأوائل الذين مارسوا القطع خاصة إنسان هابيل Homo habilis، أما تقنيات المرحلة الثانية فهى مخلفات إنسان إرجاستر Homo ergaster وبعض من نسله، خاصة ما كان منها على النمط النياندرتالى. والمرحلة الثالثة والأخيرة هى التى اجتازها الإنسان العاقل.

أثارت هذه المساهمة كثيرًا من المناقشات. وقد أصر كثير من الكتاب ولهم كل الحق فى ذلك - على كون التقنيات النصلية التى لم يعد فى وسعنا نسبها للعصر الحجرى القديم الأعلى قد ظهرت فى تاريخ سابق على ظهور الهيئة التشريحية للإنسان العاقل خاصة فى الشرق الأدنى بل واستخدمت بواسطة مجتمعات مكونة من إنسان النياندر أثناء العصر الحجرى القديم الوسيط فى أوروبا.

---

(1) Pigeot, Nicole. «Réflexions sur l'histoire technique de l'homme...», op.cit., p.191.

هذه الملاحظات تناقض النتائج التى توصلت لها نيكول بيجو خاصة ما تعلق منها بالحدود المعرفية أو الإدراكية التى أقامتها بين إنسان النياندر والإنسان العاقل استنادًا لهذه المعايير.

لا جدال حول حدوث هذا التطور، وحول تشكيل الحصى المطروقة وتصنيع الفأس اليدوية والقطع على الطريقة الليفالوازية والطريقة النصلية لمراحل انطلاقة القدرات الإدراكية أو المعرفية.

إذا لم نستطع مطابقتها على التقسيمات النسالية التى أشارت إليها نيكول بيجو فإن مسالة الانعكاسات البيولوجية التى حدثت إبان العصر الحجرى القديم تبقى - إلا إذا تصورنا أن قاطعى الأحجار الأوائل كانوا يملكون منذ البداية كل الملكات والقدرات الضرورية لتحقيق مجموعة الأنشطة التقنية التى تم ابتكارها بعد ذلك. فى هذه الحالة يكون قد ثبت أن التطور البيولوجى كان أسرع من التطور التقنى وأن الإنسان هابيل Homo Habilis لضيق الوقت لم يعرف قطع النصال وهو ما يسمح لنا بالتشكك. فى نهاية الأمر، فإن تتابع هذه المراحل الإدراكية أو المعرفية كما صاغته نيكول بيجو، إذا كان يتسم بالمعقولية، فهو يكشف مراحل تطورية سابقة على ظهور الهيئة التشريحية لإنسان النياندر والإنسان العاقل، اللذين فى أغلب الظن قد ورثا عنها.

ما نتوقف أمامه هنا أنه فى الحالة الراهنة للأبحاث، استنادًا على الأقل للمعايير المستخدمة من قبل نيكول بيجو، لا توجد فروق بين الصناعات الحجرية التى عرفها كل من إنسان النياندر والإنسان العاقل يمكن بسهولة ويسر تفسيرها من وجهة النظر المعرفية أو الإدراكية. ولا يبدو أن التطور فى الصناعات النصلية إبان فترة الانتقال بين العصرين الحجريين الوسيط والأعلى حدث بمثل هذه الحتمية.

شرع إيريك بوايدا Eric Boëda من ناحيته في التفكير بشأن تطور الصناعات على مدى عصور ما قبل التاريخ كلها، فوضع جانبًا مسألة الحتمية البيولوجية وتساءل عن الخواص اللصيقة بالتقنية والقابلة للتطور في بعض الاتجاهات طبقًا لقوانينها الخاصة[١]. كل جهد تقني ينشأ لإشباع حاجة مملاة من وسط ثقافي معين وبالتالي فالحلول المعروضة تكون للحصول على شيء يؤدي هذا الغرض في ضوء الموارد المتاحة في هذا الوسط.

طبقًا لرؤية إيريك بوايدا Eric Boëda فإن هذا الإنجاز التقني محكوم قبل كل شيء بمكوناته الخاصة في إطار قوانينه الخاصة. من هنا فقاطع الحجر مثلاً مرغم على احترام خواص الحجم الخاصة بكل نواة، يمكنه بالطبع تطوير بعض السمات ولكن في نطاق الخواص اللصيقة بالتقنية المختارة. بهذا المنطق يكون تطوير وتحويل أي مجموعة متجانسة من الأشياء الخاضعة لنفس القانون التقني ليس وليد الصدفة: فهو في ذلك يتبع مراحل منطقية مجسدًا تدريجيًا سلالة تقنية وفق تطور متدرج "في التحويل إلى أشياء محسوسة"[٢] ويعد هذا أساس مفهوم "الدورة التطورية" الذي يشي بوجود قصد أو غاية بكل معنى الكلمة: فكل تقنية يجب أن تصل إلى نتيجة معينة تنبئ عن انتهاء المرجو منها وأغلب الظن وجوب الانصراف عنها. لأنه، على عكس ما يمكن أن يذهب إليه الذهن، كلما تطورت تقنية ما بين يدي صانعها كلما أدرك خواصها وقلت قدراته على تحويلها.

---

(1) Boëda, Eric, «Paléo-technologie ou anthropologie des techniques?», Arob@se, vol. I, 2005, p. 46-64 (http://www.uni-rouen.fr/arobase).

(٢) كثير من المفاهيم التي استخدمها إيريك بوايدا Eric Boëda مستوحاة من كتاب الفيلسوف جيلبير Simondon, Gilbert, Du mode d'existence des objets techniques, Paris. Aubier, 1958.

خاصة ما يتعلق "بمفهوم التطور المتدرج إلى المحسوس" الذي يحول الشكل المجرد للشيء إلى شكل ملموس بمعنى شكل كائن لا يمكن لمكون من مكوناته أن يستبعد بدون أن يفقد معناه.

من الشواهد التي أخذها إيريك بوايدا عن سيموندون وذكرها في كتابه:

Papeo – techologie ou anthropologic des techniques?", op,cit. p47.

يمكننا إذن القول بأنه كلما كانت بنية النواة قابلة للاستغلال فى صنع شىء تتحسن أشكاله يومًا بعد يوم، كلما وصلت إلى مستوى فعالية تقنية متميز يلبى تمامًا طموحات ونوايا الإنسان، يزيد يومًا بعد يوم التوافق بين الشكل والوظيفة المرجوة من الشيء وبالتالى يزيد إنتاج الأشياء الخاضعة لضوابط محددة سلفًا.

غير أن هذا الشيء لا ينأى ولا يحيد عن المسار الذى تحددها له خواصه وهو يصل إلى نقطة لا عودة تمنعه من الاستجابة لأى احتياج يجاوز خواصه. هنا يمكننا القول إن الضغوط التقنية أصبحت بالغة الشدة.

واقع الأمر أن هناك علاقة متعادلة بين الخواص والضغوط. كلما أخذت الأولى شكلاً محسوسًا لحقت بها الثانية آليًا. نخلص هنا إلى أنه كلما كانت تقنية فعالة فى سياق معين كلما زادت هشاشتها عندما يطرأ تغيير أيًا كانت طبيعته وهذه هى ضريبة "التخصص". مثل هذه الملاحظة سبق للوروا - جورهان إبداؤها: يرتكز نجاح الإنسان فى التكيف على خواصه "العامة" من وجهة النظر البيولوجية بينما نجده يلجأ إلى أساليب عمل أكثر تخصصًا فى التعامل مع بيئته وهذه الأساليب يتم "إظهارها وتجسيدها" بالتقنيات.

ألقى هذا المفهوم للتطور التقنى ضوءًا جديدا على مسألة "الفواصل" التقنية ودفع إيريك بوايدا إلى إعادة تفسير النقلة بين العصرين الحجريين القديمين الوسيط والأعلى الذى سجل اختفاءه القطع الليفالوازى لصالح النصال.[1] يرى هذا العالم أن القطع الليفالوازى هو آخر هذه السلالة التقنية؛ نظرًا لكونه قد وصل إلى توافق وتطابق تام بين الشكل والوظيفة بإنتاج شطفات وشظيات ذات خواص مقننة. غير

(١) شكل تحليل القطع الليفالوازى محور أول أعمال إيريك بوايدا الذى ندين له بالمرجع القيم التالى:
Boëda, Eric, Le Concept Levallois. Variabilité des méthodes, Paris, CNRS, «Monographies du CRA», 1994.

أن هذه التقنية ثبتت عدم قدرتها على التكيف مع الحاجة الملحة الجديدة وهى النصل: لم تستطع الوصول إلى استغلال أمثل لسطحيها الأملسين نظرًا لبلوغها أقصى مدى تقنى لها.(١)

لاحظ إيريك بوايدا Eric Boeda:

"لتلبية الحاجة الجديدة للنصال [...] كانت هناك استجابات تقنية شديدة التباين من جماعة إلى أخرى، نمت طبقًا لتقاليد كل منها. ذهب البعض إلى محاولة تعديل أسس الإنتاج الليفالوازى لسد هذا الاحتياج الجديد، وجمع البعض الآخر بين طريقتى القطع.

أما البعض الثالث فقد خطا نهائيًا خطوة التثاقف Acculturation وتبنى خططًا جديدة فى القطع النصلى مُنحيًا إلى الأبد القطع الليفالوازى"(٢).

وتبدو حجته ملائمة تمامًا لشرح تنوع الحلول التقنية المتبناة طوال هذه الفترة الانتقالية مع بيان مصير التقنية الليفالوازية التى كانت قد استقرت أمدًا طويلاً. برر إيريك بوايدا اختيار النصل لا وفق حتمية وظيفية ولكن وفق الحركة التى تصاحب استخدامه. إذا ما التقت الأشياء المصنوعة بالشظفات مع الأشياء المصنوعة بالنصال فى الوظائف فإنها تختلف فى طريقة الإمساك بها.

ويعد ما جاء به إيريك امتدادًا لفكر لوروا – جورهان بشأن، "ما تجسده" الآلة، فبينما يتم إمساك الشظفة فى راحة اليد نجد أن النصل مثبت فى الجزء القاطع بعيدًا عن اليد. وهذا الطرف هو محط كل انتباه واهتمام.(٣)

---

(١) انظر ما سبق.

(2) Id., «Paléo-technologie ou anthropologie des techniques?», op.cit., p.57.

(٣) أوضح إيريك بوايدا Enric Boeda أن تبنى طريقة جديدة للإمساك تحرر الحركة. بإظهار الجزء الفاعل من الآلة من اليد وإبعاده عنها تم تحرير حركة اليد والساعد والذراع بل والكتف. والنصل باعتباره جزءًا داعمًا لآلات مختلفة مثل المكشط والمثقاب والأزاميل

ملخص القول أن إيريك بوايدا Eric Boëda جدد الرؤيــة للحتميــات العاملــة خلال النقلة إلى العصر الحجرى القديم الأعلى. فطبقًا لما جاء به، لا يجب أن نعــزو الأمر لا إلى أسباب بيولوجية ولا إلى علل اجتماعية – اقتصادية ولكن نبين أن هــذه الفترة تمثل محصلة بين سلالتين من التقنيات تتمحى إحداهما لتبقى الأخــرى. ذكــر إيريك عوامل أخرى متعددة، نتوقف هنا أمام الدور الذى يسنده إلى البيئة، ولنرى هنا أنه إذا كان قد أقر بوجود "تطور بنائى خــاص بالتقنيــات يــسيطر علــى المكــان والزمان"[١] فهذا لا يعنى أن المحيط البيئى فاقد للأهمية. "فالطريق المــسدودة" التــى تمثلها أوروبا الغربية تقدم لنا عينة كاملة نسبيًا من أنماط الإنتاج التى نلقاها فى بقــاع مختلفة من العالم [...] وترجع جزئيًا إلى تنوع المدى الجغرافى وهو "البيئات المواتية لتوسع كل جماعة والمهيئة لها فرص الاختراع والتجديد والانتشار"[٢].

هدف إيريك من معالجته، تجاوز التباين النظرى بين ما يطلق عليه اختــراع وما يسمى بالانتشار، ومحاولة التمييز بشكل عملى ومن خلال التجــانس الجــوهرى بين السلالات التقنية، ما نشأ عن التقارب وما يرجع إلى الانتشار. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن الشيء الذى يمثل المراحل الأولى من سلالة تقنية، غالبًا ما يكون مــن اختراع مواطنى المكان. وقد بدا لهذا العالم أنه فى مطلع العــصر الحجــرى القــديم الأعلى، كانت ظاهرة الانتشار أغلب، خاصة على مستوى الأفكار، وقد عــزا ذلــك جزئيًا إلى الزيادة السكانية والتقدم الواضح فى سبل الانتقال المترتب عليها.

والسكين... إلخ يستجيب تمامًا للحركة الجديدة. من هنا ظهرت آلات أخرى يبتعد فها الجــزء القاطع كثيرًا عن اليد [...]. ويمكن القول فى نهاية الأمر إن هذا الاستقلال بين يــد الإنــسان والجزء الفاعل القاطع فى الآلة سيتجسد لاحقًا فى آلة سيبتعد جسم الإنسان عنها كليًا ليــصبح رقيبًا عليها لا أن يقوم بتشغيلها.

(١) ذات المرجع صـــ ٤٧.

(٢) ذات المرجع صـــ ٤٩.

وتجدر ملاحظة أن إيريك بوايدا Eric Boëda لم يشر إلى أى فارق فى القدرات الفكرية بين إنسان النياندر والإنسان العاقل. أما بين البيولوجيا والسلوك التقنى، فقد قلب المنظور وأنكر وجود أى غائية فى التطور الأنثروبولوجى للإنسان:

"يبتكر الإنسان التقنية، والتقنية بقوانينها الخاصة فى التطور – أى بمكونها البنائى التطورى – تؤثر فى الإنسان. هذا التطور المشترك على عكس ما نتخيله فى علم ما قبل التاريخ ليس خطيًا وليست الغاية منه الوصول إلى ما نحن عليه"(١).

التقنية فى محك النقلات الثقافية:

تتناقض الحتمية المعرفية أو الإدراكية التى ذهبت إليها نيكول بيجو Nicole Pigeot مع الحتمية التقنية التى نادى بها إيريك بوايدا Boëda(٢)، إلا أن الاثنين يتفقان فى ضعف ما تمثله الآليات الاجتماعية الاقتصادية التى تحيط ببدايات أى تقنية فى تفسير تطورها، فالتطور يهيمن على كل السياقات التى تظهر فيها.

---

(١) ذات المرجع صـــ٦٣.

(٢) لا نرى عدلاً فى عدم الإشارة إلى أحدث كتابات نيكول بيجو Nicole Pigeot والتى لم تنشر بعد (وهذا سبب عدم الإفاضة فى الحديث عنها هنا) فقد ضمنتها ما رأته بشأن الحتمية التقنية مقارنة بالثوابت الأخرى ومطابقة إياها على نشأة وتطور النصال "النصل"، ظاهرة عارضة تقنيًا، اقتصاديًا، ثقافيًا ومعرفيًا (بحث مقدم فى المائدة المستديرة التى نظمها كل من آن دولانى Anne Delogncs ونيكولا تيساندييه Nicolas Teyssandier بعنوان:

"الظاهرة النصالية فى العصر الحجرى القديم الوسيط والأعلى فى أوراسيا"

«Le phénomène laminaire au Paléolihtique moyen et supérieur en Eurasie, Les Eyzies – de – Tayac, avril2006»

جدير بالذكر أن إيريك بوايدا قد اعترض على مفهوم الحتمية "déterminisme" فى عملها (ذات المرجع ص ٤٦-٤٧). ولا يبدو لنا أن فى استعماله ما ينقص منها (ربما بمعنى يختلف عما يضفيه هو عليه) لأنه كيف يتأتى لها أن تكون غائية finaliste (وهو ما يطلبها به) بدون أن تحتاج هذا المنهج الفكرى شيئًا من الحتمية على الأقل فى داخل التقنية ذاتها؟ بعبارة أخرى إذا كان من الممكن تبنى رؤية حتمية ليس بها شيء من الغاية فإن العكس صعب الاستيعاب.

على النقيض منهما استند جاك بيلوجران Jacques Pelegrin [فى تفكيره] إلى وجوب وضع الظروف الاجتماعية – الاقتصادية فى الحسبان لتفسير وشرح انطلاقة التقنيات الجديدة. أسند جاك إلى مفهوم الحاجة دورًا مرجحًا، وبذا أعطى مرة أخرى إلى نية "الآلة" دورًا محركًا فى التطور التقنى. غير أن تفكيره دار حول مسائل تعاقبية محدودة أكثر من الأعمال التى سبقت الإشارة إليها. فقد اقتصر على عالية وسافلة العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا الغربية. ونرى هنا أنه إذا كان لم يبغ تعميم وجهة نظره، فذلك لأن التحديات التى يشير إليها تتجسد فى تركيبة غير مستقرة من المواقف التى لا يمكن من خلالها تكوين نموذج شامل للتطور.

من هذا المنطلق يكون كل من نيكول بيجو Nicole Pigeot وإيريك بوايدا Eric Boëda أكثر قربًا من "إثنولوجيا عصور ما قبل التاريخ" على النحو الذى صاغ لوروا – جورهان Leroi – Gourhan به أهدافها التطورية، فى حين يبقى فكر جاك بيلوجران Jacques Pelegrin فى إطار إعادة التعريف الجزئى الذى كان قد تم عمله والخاص بعلم الإثنولوجيا القديمة فى نطاق السلوكيات وأنماط المعيشة.(١)

تم تحقيق واحدة من المراحل الأولى لمنهج جاك بيلوجران فى إطار الدراسة التى خصصها للصناعات الحجرية الشاتلبيرونية.(٢) وقد اقترح عام ١٩٨٨ مخططًا لشرح أصول المهارات الشاتلبيرونية يسهم فى إدخال التقنية الحجرية فى منظور تحقيق تعاقبى.(٣)

---

(١) يتوجب أيضًا فيما يخصه، ذكر تأثير "البيئة الثقافية" الأنجلوسكسونية (راجع الفصل الخامس).

(2) Pelegrin, Jacques, Technologie lithique, Le Châtelperronien de Roc-de-Combe (Lot) et de La Côte (Dordogne), CNRS, «Cahiers du Quaternaire», 1995 (version actualisée d'une thèse soutenue en 1986).

(3) Id., «Observations technologiques sur quelques séries du Châtelperronien et du MTAB du Sud -3 Ouest de la France. Une hypothèse d'évolution» in Farizy, Catherine (dir.), Paléolithique moyen récent et Paléolithique supérieur ancien en Europe. Ruptures et transitions: examen critique des documents archéologiques,

يمثل الأسلوب الشاتلبيرونى Chatelperronien منذ زمن بعيد[1] البعد "الوطنى" للنقلة بين العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى على عكس الأسلوب الأورنياكى Aurignacien الذى يمثل الواجهة الغازية. كانت أعمال بورد Bordes بصفة خاصة قد رأت وجود استمرارية وتسلسل بين الأسلوبين الموستيرى Moustérien والشاتلبيرونى Chatelperronien (الذى ظل يطلق عليه بعد بيرونى Peyrony "البريجوردى الأدنى" "Périgordien inférieur")[2].

ورغم أننا نجد أولهما متجذرًا فى تقاليد العصر الحجرى القديم الوسيط – كما فى القطع الليفالوازى والفئوس اليدوية – فقد وجد بورد Bordes بينهما بعض التطابق خاصة ما تعلق منها "بالمدى" التى تصنع من الشظفات الفجة وهو شكل أولى يسبق ظهور "منحت شاتلبيرون". هذا المنحت هو نوع من الأزاميل ذو حافة مقوسة بمعنى أن إحدى حافتيه تم تشذيبها لتصبح مرهفة وحادة بينما الحافة الأخرى على شكل قوس[3]. أوضح جاك بيلوجرين Jacques Pelegrin بعد تحليل للصناعات الشاتلبيرونية التى عثر عليها فى موقعى دوردونى Dordogne موقع روك دوكومب وموقع لاكوت، أن نية إنتاج دعامات لأزاميل شاتلبيرون تحكمت فى مجمل أعمال الشطف ووجهت تقنية المحجر إلى صناعة نصال خفيفة مستقيمة الشكل يتراوح طولها بين ٤ و١٠سم.

Actes du Colloque international de Nemours (1988), Nemours, APRAIF, «Mémoire du musée de Préhistoire d'Ile-de-France», 1990, p. 195 – 201.

(١) راجع الفصل الثانى.

(٢) نعنى هنا بدقة أكبر "الموستيرى ذا التقاليد الآشولية من الطراز B".

(٣) نجد على النقيض من ذلك أن المدية الموستيرية ذات التقاليد الآشولية لها حافة طبيعية؛ أى غير مشذبة.

ويلاحظ أنه لم تكن هناك أنماط أخرى للقطع (ما عدا الشطفات) غير أن "السلسلة المفصلة" بها أيضًا "منتجات ثانوية" مثل الشظيات التى تساعد فى التشكيل أو فى الإمساك بالنواة. هذه الشظيات كان من الممكن استخدامها هى الأخرى بعد إجراء بعض التدخلات غير أنها غالبًا ما لا تتناسب تمامًا مع النية السابقة على عملية القطع.

ونلاحظ أن التضاد بين هذه الصناعة والصناعة الموستيرية ذات التقاليد الآشولية (MTA) كبير فى غياب كل أشكال القطع بالتشظية المستقل وخاصة الليفالوازى. على أننا إذا قبلنا فكرة أن "المدية ذات الظهر" الموستيرية ذات التقاليد الآشولية (MTA) تنبئ عن نية مماثلة لتلك التى أوجدت " الإزميل الشاتلبيرونى" يصبح التطور التقنى لإحدهما فى اتجاه الآخر ذا معنى. واقع الأمر أن الصناعة الشاتلبيرونية تركز على الحصول على منتجات قابلة للتحول بهذه الطريقة وتبلور طريقة قطع يمكن النظر إليها باعتبارها "توليفة أو تركيبة جديدة لمعارف سبق اكتسابها"[(١)] وشأن ذلك شأن البنية المحجامية للنواة أو اللب القابلة للشطف والموجودة فى الصناعة الموستيرية ذات التقاليد الآشولية MTA.[(٢)] كان هذا النوع من النواة يتم التعامل معه واستغلاله بواسطة مطرقة ثقيلة، وقد أدى استخدام المطارق الخفيفة بواسطة الشاتلبيرونيين إلى تعديل ثابتة أساسية وذلك بالحصول على شطفات أقل سمكًا[(٣)].

---

(1) Pelegrin, Jacques, «Observations technologiques sur quelques séries du Châtelperronien...», op.cit., p.200.

(٢) أضافت نيكول بيجو Nicole Pigeot فى هذا الصدد أن القطع بطريقة الشطف الشاتلبيرونى الذى وصفه جاك بيلوجرين Jacques Pelegrin [يبقى حتى وإن بدا "كطريقة انتقالية فى الاتجاه المحجامى للنواة"] ومن الناحية التصورية يبقى مرتكزًا على ذات العادات الذهنية التى ارتكز عليها القطع الليفالوازى.

Pigeot, Nicole, «Réflexions sur l'histoire technique de l'homme...», op.cit., p.188.

(٣) طبيعة المطرقة واحدة من أهم المتغيرات التى تحدد سمك الشطفات فإذا رغبنا فى الحصول على شطفات رقيقة يجب الطرق بالقرب من الأطراف مما يحد من عنف الطرقة التى استخدمت فيها مطرقة ثقيلة. لنوضح أنه منذ أن كتب جاك بيلوجرين مؤلفه هذا أصبح الانقسام

إلا أن اللجوء إلى مطرقة خفيفة ليس بجديد – فمنذ زمن بعيد وخواصها معروفة ومستخدمة فى صنع الفأس اليدوية.

خلص جاك بيلوجرين إذن إلى أن محرك التطور بين الصناعة ذات المعالم الموستيرية المؤكدة والصناعة الأخرى البادئة هو البحث على شيء بمثابة السندان يصلح مع أزاميل شاتلبيرون. هذه الحركة ترتكز على الميل الوظيفى لهذا الشيء خاصة ما تعلق بتثبيت منحات أو إزميل حجرى على طرف مقبض. قد يلبى هذا الشكل الاحتياج إلى سكين قصاب ولكنه أغلب الظن يلبى أكثر احتياجهم إلى أسلحة متقدمة فى شكل مسنونات مدببة تثبت كرؤوس حراب أو سهام من الخشب.

"لا شك أن قدرة هذا السلاح على الجرح أفضل وفى حالة إخفاق الرمية يكون التلف الذى يصيب رأس قناة الرمح أقل خطورة مما لو كانت غير مزودة بسلاح أو فى حاجة إلى إعادة سَن"(١).

إلا أن عملية تصنيع قناة الرمح خاصة فى بيئة طبيعية يندر فيها أغلب الظن وجود نباتات لا شك أمر بالغ التكلفة من ناحية الوقت والجهد أكثر من أى جزء آخر فى هذا السلاح. خلاصة القول أن اقتراح جاك بيلوجرين يبين أن المكانة الجديدة التى تحتلها أسلحة الصيد فى التجهيزات الحجرية للجماعات هى المحرك

بين المطرقة الخفيفة والمواد العضوية من ناحية والمطرقة الثقيلة والمواد المعدنية من ناحية أخرى به كثير من الفروق وقابل للتأويل بعد أن عرفت خصائص الأحجار اللينة مثل الرملى والجيرى، للمزيد من المعلومات يرجى مراجعة:

Pelegrin, Jacques, «Les techniques de débitage laminaire au Tardiglaciare: critères de diagnose et quelques réflexions», in Valentin, Boris, Bodu, Pierre et Christensen, Marianne (d :). L'Europe centrale et septentrionale au Tardiglaciaire, Actes du Colloque international de Nemours (1997), Nemours, APRAIF, «Mémoire du musée de Préhistoire d'Ile-de-France», 2000, p.73-86.

(1) Id., «Observations technologiques sur quelques séries du Châtelperronien..» op.cit., p. 199-200.

الأساسى للانتقال من الموستيرى Mousterien – الذى يخلو تمامًا من هذا المكـــون أو يحوى شكلاً بدائيًا له – إلى الشاتلبيرونى Chatelperronien الذى تشكل هذه النية تحديدًا هويته التقنية.

هناك إذن بعد اجتماعى اقتصادى – وهو دور الـــصيد وأهميـــة تجهيزاتـــه ومعداته فى أصل التطور التقنى من صناعة العصر الحجرى القديم الوســيط إلـــى صناعة العصر الحجرى القديم الأعلى.

حظيت المعالجة التقنية فى التسعينيات بمكانة عالية فـــى منـــاهج التحقيـــق التعاقبى والمثال الواضح على ذلك نجده فى النقلـــة بـــين الأســـلوبين الجرافيتـــى Gravettien والسوليترى Solutreen هذه المرحلة الوسطى فى العـــصر الحجـــرى القديم الأعلى شهدت تنوعًا فى صناعاتها يعقـــد فهمهـــا. فالـــصناعات الجرافيتيـــة gravettiennes فى بعض أجزاء أوروبا (المنطقة الشرقية وشبه الجزيرة الإيطالية) استمرت فى شكل "ما فوق الجرافيتى" Epigravettien. أما فى المنطقـــة الغربيـــة وبصفة خاصة الأطلنطية فقد أفسحت المكان لتقاليد تقنية متعددة.

ويمكننا فيما بين عامى ١٩٣٠ و١٩٤٠ وتحت سطوة بيرونى Peyrony أن نعزو هذا الوضع إلى حركة الكثير من الجماعات:

فقد كان هناك بعض الأورينياكيين المتأخرين الذين يطلـــق علـــيهم مـــسمى ("Aurignacien V") وقت ظهور أول موجة مجدلينية (Protomagdalénien) وذلك قبل أن يترك الجميع المكان للسوليتريين ليتصدروا المشهد بشكل مؤقت وذلك لحين عودة المجدلينيين مرة أخرى.

بحلول العقد الواقع بين ١٩٦٠ و١٩٧٠ اختفت أغلب هـــذه الـــسيناريوهات وترتب على ذلك أن اعتبر الـــ Protomagdalenien الهيئـــة النهائيـــة والختاميـــة

للجرافيتى الأطلنطى وانفصلت جماعة الأورينياكيين المعروفة باسم "Aurignacien V" عن الأورينياكية[١]. من موجات المد والجزر التاريخية هذه، بقى بعض الحطام.

استمر ما عرف بأسلوب "Aurignacien V" الواقع بين الجرافيتى gravettien والسوليترى Solutreen فى إثارة الكثير من التساؤلات. فقد كانت تنسب إليه صناعات متباينة يصعب القياس عليها، غير يسيرة التصنيف والترتيب وذلك لأن تعريفه كأسلوب يرتكز على معايير سلبية منها: غياب "الأزاميل ذات الظهر" التى قد تتقارب فى كثير أو قليل من الصفات، مع أزاميل ومناحت "جرافيت" Gravette وغياب رؤوس الحراب (المسنونات أو المدببات) التى كانت تصنع على شكل ورق الغار والخاصة بالأسلوب السوليترى، إلى جانب وجود "المكاشط الانسيابية" التى تم الاستناد إليها فى نسبه إلى "الأورينياكى". شكك كل من جوا زيلاوه Joao Zillao وتييرى أوبرى Thierry Aubry وفرانشسكو الميديا Francisco Almedia فى هوية الـ"Aurignacien V" وعرضوا حل مشكلة أصول السوليترى وحسم واحدة من العقد والمصاعب التاريخية الخاصة بالعصر الحجرى القديم الأعلى[٢]. كان ظهور

---

(١) يرجع هذا التوصيف بالـ "Protomagdalénien" إلى دونيز دو سونفيل – بورد Denise de Sonnevilles – Bordes وفرانسوا بورد Francois – Bordes بعد مواصلة هذا الأخير عمليات التنقيب فى لوجيرى هوت عام ١٩٥٨ Laugerie – Haute أما الـ "Aurignacien V" فسيكون عليه من ناحيته انتظار عام ١٩٨٢ حتى تقوم دونيز دو سونيفيل – بورد بفصله عن الأورينياكى.

ونذكر هنا أنه خلال العقود الثلاثة الواقعة بين عامى ١٩٥٠ و١٩٨٠ سيتم التخلى عن مصطلح "البريجوردى الأعلى" "Perigordien superieur" واستخدام مصطلح "جرافيتى" "Gravettien" بدلاً منه.

غير أنه احترامًا لما أورثه بيرونى Peyrony من علم فقد استمر استعماله فى حدود ضيقة لوصف الجماعات الأطلنطية المنتمية لهذا الكيان الكبير.

(2) Zilhão, João, Aubry, Thierry et Almedia, Francisco, «Un modèle technologique pour le passage du Gravettien au Solutréen dans le Sud-Ouest de l'Europe», in Sacchi, Dominique (dir.), Les Faciès leptolithiques du Nord-Ouest méditeranéen. Milieux naturels et culturels, Actes du XXIVe congrès préhistorique de France,

هذه الثقافة التى ينظر إليها كتغيير عنيف ومفاجىء فى تجهيزات ومعدات الجماعات المستوطنة للهدب الغربى لأوروبا، بمثابة مثال كامل لهجرة الجماعات وذلك منذ مجيء بروى (Breuil).

ثم وضع عدة فرضيات بشأن أصول هذه الثقافة الجغرافية، غير أن الفصم الإثنى بين صناع السوليترى وممثلى الثقافات السابقة عليه فى المنطقة لم يتطرق إليه الشك قط. وقد ساندت أعمال فيليب سميث PhilipSmith ذلك وأصبحت مرجعًا لهذا الموضوع(1).

طبقًا لآراء جوا زيلاوه Joao Zillao ومعاونيه فإن الفصم والفصل بين الجرافيتى Le Gravettien والسوليترى Solutreen تقل حدته إذا ما أعدنا النظر فى صناعات الفترة الأوريناكية الخامسة "L'Aurignacien V"(2).

Carcassonne (septembre 1994), Paris, Société préhistorique française, 1999, p.165 - 183.

(1) mith, Philip E.L., Le Solutréen en France, Bordeaux, Delmas, «Mémoire de l'Institut de préhistoire de l'université de Bordeaux», 1966.

نذكر هنا أن لابلاس Laplace وحده هو من دافع عن فرضية ثبات وغرس "السوليترى" فى "البريجوردى" (alias Grauettien)

(٢) مساهمة أخرى حول موضوع النقلة الجرافيتية – السوليترية فى فترة لاحقة قام بها/ برونو بوسلين Bosselin, Bruno وفرنسوا جنجيان Bosselin, Bruno, Djindjian et, François, «L'Aurignacien tardif: un faciès de transition du Gravettien au Solutréen», Préhistoire européenne, n° ١٠, ١٩٩٧, p.١٠٧-١٢٥;

تسلح المؤلفان بطرق بحث تصنيفية وإحصائية ووصلا إلى ذات المحصلة: وهى وجود تسلسل بين الجرافيتى والسوليترى عن طريق الصناعات التى سبق نسبها إلى المرحلة الأخيرة فى الدور الأوريناكى.

راجع أيضًا أعمال باتريسا جيلرمان Patricia Cuillermin وكارولين رينار Caroline Renard والأطروحة المقدمة من مارك تيفاجوم Marc Tiffagom,. «De la pierre à l'homme Essai sur une paléoanthropologie solutréenne», Liège, «ERAUL», n° 113, 2006.

Zilhão, João et al., «Un modèle technologique pour le passage du Gravettien au Solutréen...», op.cit p.165.

يبين منهج هذه المجموعة مرة أخرى أهمية التغييرات التقنية التـي طـرأت على أدوات الصيد. واقع الأمر أنهم يصفون "تطورًا متدرجًا لإحلال رؤوس السهام المصنوعة من الحجارة المدببة ونصال فـال كمبريـدو Val Comprido القزميـة (بروتوسوليترى Protosolutreen)[1] محل السهام ذات الخطاطيف المصنوعة مـن القـرون" (الجرافيتـي Gravettien النهـائي أو المـصنوعة البروتـو مجـدليني Protomagdalenien).

بعبارة أخرى يشكل المرور من رؤوس السهام الصنوعة من قرون الأيايـل إلى رؤوس السهام المصنوعة من الحجر أحد مفاتيح النقلة بين هاتين المرحلتين.

أدى البحث عن نصال "فال كمبريدو" القزمية إلى تحمل نسق كامل للإنتـاج الحجرى لعواقب جسيمة. فقد دافع زلاوه Zilhoo ومعاونوه عن فرضـية التطـور الجرافيتي، وانتقدوا نماذج الهجرة وبصورة أشمل إرادة التحديد الـدقيق لأصـول الشعوب كما يتم تحديد أصول الأفكار. وقد ذكروا بأنه ربما كانت هناك "شـبكات اتصال قد وجدت وسمحت بنشر لحظى وفورى للمعلومة بين جماعات البـشر"[2] وهذا ما يطلق عليه "تضمينات أو مضامين علم السلالات القديمة" ويعنـي نـسيج العلاقات التى جمعت شعوب عصور ما قبل التاريخ الموزعـة علـى مـساحات شاسعة وفسرت التبنى الجماعى لبعض التطورات التى تبدو أساسية.

سياق ثالث يشهد بصحة مـا يـسوقونه هـو أن النقلـة بـين المجـدليني Magdalenien والأزيلي L'Azilien توضح دور أسلحة الصيد فى شرح التغييـرات العميقة التى طرأت على صناعات هاتين الثقافتين. طرح كل من جاك بيلـوجرين Jacques Pelegrin وبوريس فالنتين Boris Valentin نموذجًا يستعيد مـرة أخـرى المبادئ الميثودولوجية والاختيارات التفسيرية المتقدمـة بـشأن أصـل الأسـلوب

---

(١) الخطاطيف المذكورة فى هذا الاستشهاد هى النصال المجزوعة عند أطرافها التى نراها فـى الجرافيتى النهائى فى حين اختفت أزاميل الـ Gravette.

(٢) ذات المرجع صــ١٦٧.

الشاتلبيرونى Chatelperronien؛ أى يعطى أولوية وأسبقية للبنية الاجتماعية الاقتصادية للجماعات البشرية لشرح التغييرات التقنية. يتوفر هذا البعد هنا فى صورة أكثر تحديدًا مما هو عليه فيما يخص الشاتلبيرونى مع الأخذ فى الإعتبار أن المعلومات المتوفرة لدينا عن tardiglaciaire أكثر غزارة. فالترتيب الزمنى للظواهر المستند إليها أكثر تفصيلاً ووجهة النظر الخاصة بالصناعات مرتكزة على عدد أكبر من الدراسات طبق معظمها على سياقات موثوقة المرجعية مثل أماكن السكنى المقامة فى الهواء الطلق والكائنة فى منطقة الحوض الباريسى Bassin parisien وتحديدًا فى (بنسفون Pincevent وإتيول Etiolles).

ويمكننا فى النهاية القول بأنه يمكن مقاربة هذه الصناعات بنوعيات القنيصة التى كانت هذه الجماعات التى عاشت فى أواخر العصور الجليدية تقوم بصيدها.(١)

مصادر التاريخ القديم

إذا كان علينا تجنب وصف الجماعات المجدلينية بصائدى حيوان الرنة – فأنواع أخرى من القنيصة ساهمت فى اقتصادهم – إلا أن هذا الحيوان يحتل مكانة مهمة. بالإضافة إلى ذلك فإن أغلب الأجناس والفصائل التى يتم أسرها على الأقل

---

(١) نظرًا لكبر عدد المؤلفات التى تناولت النقلة بين المجدلينى والأزيلى لن نورد هنا إلا المصادر المعنية بشكل مباشر. ويجدر بنا هنا إلحاق هذا التعاون الفكرى بين العالمين المشار إليهما بأسماء أخرى نذكر منها بصفة خاصة:

Valentin, Boris, «Techniques et cultures: les chasseurs-cueilleurs de la fin du Tardiglaciaire au sud du Bassin Parisien», in Bintz, Pierre et Thévenin, André (dir.), L'Europe des derniers chasseurs. Epipaléolithique et Mésolithique, Actes de la commission XII du Ve congrès de l' UISPP (Grenoble, 1995), Paris, CTHS, 1999, p.201 – 212; Pelegrin, Jacques, «Les techniques de débitage laminaire au Tardiglaciaire...», op.cit., ; Valentin, Boris, Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs...op.cit.

من قبل جماعات شمال فرنسا تعيش بشكل جماعى، هذا يعنى أن الصيادين المجدلينيين يمكنهم فى بعض أوقات السنة التركيز على حيوانات تتحرك فى قطعان مثل الرنة والخيول[1].

طبقًا لما يسوقه جاك بيلوجرين Jacques Pelegrin فإن أدواتهم فى الصيد تظهر أنهم قد ألفوا الذبح الجماعى للقنيصة التى يعرفون جيدًا عاداتها وأماكن مرورها، مما لا شك فيه أن الرماح الثقيلة التى يتم تسديدها بواسطة القاذفة تكون أكثر فعالية إذا ما أحاط الصائدون بشكل جماعى بالقطيع وأمطروه بوابل من رمياتهم. وسواء أجادوا التصويب أم لا، فإن فرصهم فى إصابة هدفهم تكون كبيرة قبل أن تفر الحيوانات هاربة، ويستطيع الجمع بمجرد سقوط القنيصة التعامل معها واسترداد رماحهم. وغالبًا ما تكون هذه الرماح مزودة برؤوس مصنوعة من قرون حيوان الرنة ومزودة بشطفات عرضية تم غرسها بطول سن أو قناة الرمح. وتسهل رؤوس السهام والحراب المصنوعة من قرون حيوان الرنة اختراق القذيفة لجسم الحيوان وتمزيقها إياه مما يشل أطرافه أما الشطفات فإنها تستنزف دماءه.

تتطلب هذه المسنونات والمدببات عملاً طويلاً واستثمارًا اقتصاديًا ثقيلاً منه جمع قرون حيوان الرنة إلى جانب جهد تقنى يتمثل فى مهارة الصنع. غير أن لكل هذا مردودًا يزيد بزيادة الفعالية المكتسبة.

وقد لوحظ أن الشطفات من ناحيتها تشكل هدف إحدى سلاسل الإنتاج الحجرى التى أظهرتها بوضوح المواقع المجدلينية ويسهل تمييزها عن سلاسل إنتاج النصال.

---

(١) راجع فى هذا الصدد المناقشة التى أثارها بوريس فالنتين حول نتائج درلسات علم "آثار الحيوان" التى قام بها أوليفييه بينيون Olivier Bignon على الحيوانات التى كان المجدلينيون يقومون بصيدها فى الحوض الباريسى. ذات المرجع ص ٩٦ – ٩٧

يرتكز الإنتاج الحجرى المجدلينى على "سلسلتين مفصلتين" أساسيتين تلبيان هدفين متكاملين: إنتاج الشظفات المخصصة لتصنيع أسلحة الصيد وإنتاج النصال للحصول على أدوات "منزلية" مثل المكاشط والأزاميل والمدى. ..إلخ. ويتم أحياناً الحصول على الشظفات من ذات النواة التى تستخدم فى صناعة النصال، غير أن ذلك لا يحدث بشكل نظامى.

من هنا يمكننا القول إن آلات الاكتساب والاقتناء (أسلحة الصيد) وآلات التحويل (آلات التعامل مع جسم الحيوان وسلخ وحك الجلود) تحتل مكانة تحكمها قواعد تصنيع التجهيزات التقنية الخاصة بالجماعات المجدلينية لدرجة أنه قد أمكن التعرف، فى كثير من الأحيان، على "سلاسل مفصلة" واضحة.

أما الإنتاج الأزيلى فيقدم لنا صورة مخالفة: فالتسليح، على الأقل فى الشمال يتكون من مقذوفات مزودة برؤوس حجرية. اختفى السلاح مزدوج الوظيفة المصنوع من قرون الرنة والشظفات[1]، وبالتالى يمكننا القول إن نسق الإنتاج الحجرى مختلف تمامًا: بقيت "سلسلة مفصلة" واحدة وظيفتها الأساسية تنفيذ المكاشط الطرفية الحجرية - المعروفة بالمكاشط الأزيلية - وهى ذات حافة مستديرة وقاعدة حادة أو غير حادة. هذه "المنتجات الثانوية" (الشظفات المستخدمة فى تشكيل وتنظيف النواة، والأنصال لم تكن صالحة لعمل أزاميل أو مكاشط) كانت على شاكلة الأسلوب الشاتلبيرونى تستخدم كدعائم أو حوامل للأدوات المنزلية.

الواقع أن هذا الاتجاه إلى الإزميل أو المنحت قد يرجع ظهوره إلى الصناعات الحديثة فى الفترة المجدلينية[2] غير أن الأمر حينذاك لم يكن إلا لارتباطه بهذه الصناعات.

---

(١) كان الأزيلى الجنوبى خاصة فى منطقتى (Aquitaine et pyrérées) قريبًا من وجهة نظر صناعاته الحجرية وقد ملك مستلزمات منزلية أكثر مصنوعة من قرون الأيايل خاصة ما عرف منها بالهاربون. وقد انتشرت هذه الأداة حتى طالت فى الجنوب أطراف الحوض الباريسى.

(2)1. Valentin, Boris, Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs..., op.cit.

شكّل الوصول إلى الأسلوب الأزيلى L'Azilien انقلابًا فى أولويات عمليات القطع[1] كيف يتأتى لنا تفسير مثل هذا التقلب الحاد؟

رأى جاك بيلوجرين Jacques Pelegrin ملخصًا آراء العديد من المؤلفين – وبصفة خاصة بوريس فالنتين – أن "ثورة التسليح هذه ليست نتاج صرعة ولكنها دلالة على تغيير مهم فى ظروف استخدام الأسلحة؛ أى تغيير فى ظروف عملية الصيد ذاتها"[2]، فلم يعد الصياد الأزيلى يطارد الحيوانات السائرة فى قطعان أو جماعات كبيرة وإنما تلك التى يجدها منفردة والتى فى سلوكياتها وطباعها تختلف كليًا عن حيوان الرنة مثل الآيل الذى تكاثر نتيجة الظروف المناخية المميزة لهذه الحقبة. إلا أنه طبقًا لتأكيدات بوريس فالنتين Boris Valentin ينبغى توخى الحذر فى الربط الآلى بين هذه التبديلات البيئية وبين التغيير الذى طرأ على المعدات. دليل ذلك ظهور الأزاميل الحجرية فى الزمن المجدلينى فى توقيت لم يكن فيه حيوان الرنة قد فر بعد من الحوض الباريسى أو فقد مكانته كقنيصة.

أيًا ما كان الأمر فعمليات الصيد الأزيلية أصبحت بلا شك أقل جماعية عن ذى قبل نظرًا لتبعثر القنائص، وبالتالى فإن المعدات لا يمكن استخدامها بذات الطريقة. على الصياد أن يوقع بفريسة تسير بمعزل عن القطيع واستعادة سلاحه وإصلاحه إذا استدعى الأمر فى ذات الموقع، فليس فى مقدوره حمل عدد كبير من الأسلحة، فى ظروف كهذه يصبح تصنيع مسنونات من قرون الأيايل مكلفًا للغاية. تمت بالتالى الاستعاضة عن حيوان الرنة الذى بدت ندرته بالأيايل التى تملك هى الأخرى قرونًا صالحة لذات الغرض. غير أن الاستثمار فى سلاح، احتمالات ضياعه وفقدانه عالية، وعمليات إصلاحه تستغرق وقتًا طويلاً كان مكلفًا. من هنا

---

(1) Pelegrin, Jacques, «Les techniques de débitage laminaire au Tardiglaciaire...», op.cit., p. 82.

(٢) ذات المرجع.

كان الحل الفعال هو تثبيت بعض الرؤوس الحجرية المسنونة السهل إعدادها على طرف قناة الرمح(١).

كان لهذا التغيير أصداء فى مجمل الإنتاج الحجرى فلم يحدث تعديلاً جذريًا فى الأسلحة فحسب، وإنما جر وراءه كل المعدات الحجرية بدءًا من الآلات المنزلية فى الصناعات المجدلينية. كانت هذه الآلات تصنع من شطفات كبيرة منتظمة، أما فى السياق الأزيلى فقد تم تصنيعها من الشطفات الثانوية. وأمر كهذا لا ينبغى الاستهانة به:

فالشطفات الكبيرة فى الأسلوب المجدلينى كانت تسمح بالحصول على آلات ذات معايير ثابتة وتطيل أبعادها من زمن استعمالها، أما الأزيليون فلهم منظور مختلف بشأن أدواتهم الأقل التزامًا بمعايير وضوابط ثابتة.

يلاحظ أن أبعاد هذه الأدوات صغيرة للغاية، من هنا يمكن القول "بأنه منذ الفترة الأزيلية انخفضت بشكل واضح متانة وطول مدة استعمال هذه الأدوات"(٢).

صاحب الانتقال إلى طريقة الصناعة الأزيلية طابع آخر يفرقها عما عداها وهو نوع المطرقة المستخدمة فى عمل الشطفات. فبينما اتجه تفضيل المجدلينيين إلى المطارق المصنوعة من المواد العضوية (كالنبات وقرون الأيايل) نحا

---

(١) هذا ما يلخصه جاك بيلوجرين Jacques Pelegrin فى سطوره:
نقترح الالتفات إلى ارتفاع نسبة قتل الحيوانات المدرة للألبان وهو ارتفاع ناتج عن تطور فى طرق الصيد وهو عامل قد يكون رئيسيًا فى تحول أدوات الصيد. نرى هذا التحول ممثلاً فى استبدال رؤوس السهام والرماح المصنوعة من العظام وقرون الأيايل والمزودة بنصال صغيرة برؤوس حجرية بسيطة لها شطفة بعرض الحافة أو نوع من الفرضة. (ذات المرجع ص ٨٣)
أما فيما يتعلق بسرعة تركيب رؤوس المقذوفات فيجدر بنا تذكر المادة اللاصقة المستخدمة والتى تحتاج إلى تسخين وبالتالى تتطلب وقتًا للإعداد (هذا غير الوقت والجهد اللازمين لجمع مكونات المادة الصمغية النباتية) وبالتالى فاستخدام عملية الربط أسرع كثيرًا فى التنفيذ.
(٢) راجع الفصل السادس Valentin, Boris, Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs..., op.cit., p.165.

الأزيليون إلى المطارق المصنوعة من الحجر الخفيف (الرملى أو الجيري) الـذى تختلف مواصفاتها اختلافًا بينًا. وكان جاك بيلوجرين Jacques Pelegrin قد أشـار إلى أنه من الأيسر نقل ملامح أداة بإضافة بعض اللمسات بدلاً من إبـداع طريقـة قطع وشطف للحصول على الشكل المطلوب بطريقة مباشرة.

وينطبق المنطق ذاته على ما حدث من تغيير فى المطارق: ففيه دلالـة علـى تعديل جذرى فى المهارات وبالتالى تغيير فى حركات الصانع وفى التعامل مع المادة.

ونشير هنا إلى صعوبة تحديد الجزء الذى يساهم به كل عامل فـى التغييـر فهذه عملية دقيقة للغاية نظرًا لتعدد التداخلات الممكنة بين هذه المساهمات. وقد نوه جاك بيلوجرين Jacques Pelegrin إلى أنه "يتم التفكير بالطبع فى تعـديل المحـيط البيئى الخارجى بنوعيه النباتى والحيوانى" وقد أضاف عاملاً آخر فى رأيه ذا صلة وثيقة بالأمر وهو "البنية الديموجرافية للجماعات البشرية"(1) أما بـوريس فـالنتين Boris Valentin فقد بحث من ناحيته فكرة يتم دومًا طرحها وهى تغيير السلاح:

"خلال الفترة الأزيلية القديمة كان من الممكن أن يؤدى تعميم استخدام القسى إلى تدعيم نجاح استخدام رؤوس السهام الحجرية الخفيفـة والنـدرة الـشديدة فـى رؤوس الرماح المصنوعة من المواد العظيمة، على الأقل ما كان منها ثقيل الوزن"(٢).

والجدير بالذكر أنه قد تم التحقق من استخدام القاذف خلال الفترة المجدلينية وقد تم العثور على نماذج منه. هذا غير أن ثقل وزن الرماح الذى أشرنا إليه آنفـا

---

(1) Pelegrin, Jacques, «Les techniques de débitage laminaire au Tardiglaciare...», op.cit., p.84.

يمكننا إلحاق هذه الملحوظة ببعض محاولات التفسير المشار إليها فى الفصل الثالث.

(2) Valentin, Boris, Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs..., op.cit., p.167.

سنتطرق بشكل مطول لموضوع بدء استخدام القسى فى الفصل الخامس.

يجعل من الصعب إطلاقها بغير هذه الآلة. غير أننا في المقابل يمكننا القول إن سلاح الأزيليين الذي يميزهم عن غيرهم ما زال مجهولاً وإن كانت فرضية كونه القوس قابلة للتصديق، فهي تتفق مع الحيز الضيق الذي تحتله المسنونات الحجرية في صناعاتها.

ويرتكز هذا الاقتراح على ما أكتشف في موقع (أهرنسبورجيا – ستيلمور في شمال ألمانيا) وهو موقع قريب في الترتيب الزمني رغم حداثته، من مقذوفات من المرجح أنها لسهام استنادًا لما احتفظت به من قرون.

هذه الفرضية التي كثيرًا ما يتم طرحها ترتكز كما يوضح بوريس فالنتين Boris Valentin على "معتقد راسخ بوجود علاقة بين استعمال القسي وكثافة الغطاء النباتي" حتى إذا "أشارت تقارير إثنوجرافية حديثة وبالغة العمق أن القسي يمكن استخدامها في كافة أنواع البيئات وأن القاذف وحده هو الوحيد الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنظم البيئوية المفتوحة"[1]. سبب ذلك أنه من الأيسر التحرك في الغابات مع حمل قوس وسهام. من ناحية أخرى نجد أن هذه الأسلحة تسمح بالتصويب من بعيد، الأمر الذي يتفق ونوعية القنيصة التي يتم صيدها ونوعية الخطط الموضوعة لهذا الغرض. بالإضافة إلى ذلك فإن خفة وزن هذا السلاح تتيح للصياد حمل المزيد منه وهو ما يتفق مع فرضية ارتفاع العائد بالنسبة للصياد الذي يصيد وحده، التي قال بها جاك بيلوجران Jacques Pelegrin. في هذه الحالة يعوض عدد المقذوفات المتاحة ما كان يجنيه الصياد من الصيد الجماعي. إلا أن كل ذلك يجعلنا نقول بوجود معادلة ملزمة بين نوعية الأسلحة والبيئة. والقسي بصفة خاصة تبدو أكثر من القاذف، سلاحًا موجودًا في آن واحد في كل مكان.

(١) ذات المرجع ص ١٤١.

من هنا يمكننا القول إنه إذا كان المجدلينيون قد استخدموا القسى فى الأماكن المفتوحة التى يعيشون بها فمن المنطقى أن يترك الأزيليون القاذف ويتمسكوا بـه حين نمت الغابات وكثرت القنيصة فى أرجائها. نضيف إلى ذلك أنه من المحتمل أن تكون القسى قد نافست القاذف فى فترة سابقة. ويذكرنا بوريس فالنتين Boris Valentin بأن ذلك أمر وارد بالنسبة للفترة المجدلينية نظرًا لقلة وجود المسنونات العظمية وبحثهم الدقيق عن رؤوس سهام حجرية خفيفة.(١)

نخلص من ذلك إلى أن التفاعل مع البيئة هو واحد من المفاتيح الممكنة أن لم تكن المحتملة لبعض التعديلات التقنية بما فى ذلك أكثرها تأثرًا.

بدأت إذن تدريجيًا تتضح رؤية عصر قديم أعلى افتتاحيته (ظهور الشاتلبيرونى) وخاتمته (المرور من المجدلينى إلى الأزيلى) وكلتاهما تشيران إلى تغييرات تقنية مرتبطة بمعاهدات الصيد. وقد تكرر الأمر فى النقلة بين الجرافيتى والسوليترى.

مما لا شك فيه أن ما حدث يرجع إلى كون مجال النشاط هذا مركز التقاء عدة نقاط مشتركة: بين الإنسان وبيئته الطبيعية بين اقتصاديات الصيد ونمط عيش هذه الجماعات وفى داخل هذه الجماعات ذاتها بين الأفراد الذين ينتمون إليها حول موضوع تقسيم العمل.

يعد مثل هذا التناول المشروع الأمثل لمحاولة إعادة تصور جماعات عصور "ما قبل التاريخ" من خلال علم الإثنولوجيا القديمة. كما نعرف كلنا، بعض هذه الموضوعات قد تمت معالجتها فى بدايات دراسات علم ما قبل التاريخ إلا أن طموحًا واضحًا من قبل علم السلالات القديمة قد ظهر خلال العقود الأخيرة لتناولها وذلك

---

(١) سنرى فى الفصل القادم أن ظهورها ربما كان قبل ذلك أيضًا: كل ما يمكننا قوله هنا أنها سابقة على Gravettien.

بفضل لوروا – جورهان Leroi – Gourhan ، على الأقل فى فرنسا. ونشير هنا إلى ندرة تناول هذه الموضوعات بمنظور تعاقبى رغم كون هذا الأمر تحديدًا هدف لوروا – جورهان. والحقيقة أن هذه النظرة الإثنولوجية للأقوام السالفة قد صاحبتها للمجتمعات الحالية العقبات ذاتها التى تلقاها الدراسات الإثنولوجية للمجتمعات الحالية من الصيادين جامعى الثمار التى ينظر إليها على وجه السرعة باعتبارها "شعوبًا بلا تاريخ". يرجع ذلك إلى صعوبة رؤية بنياتهم المركبة التى تمت استعادتها بجهد بالغ وهى تتحول. بالإضافة إلى ذلك هناك تخوف من انزلاق، يأخذ هيئة العودة إلى الوراء، بين التحول والتطور وبين التطور والتطورية ورغم ذلك فإن استخلاص قوانين عامة للتطور يبقى واحدًا من رهانات علم ما قبل التاريخ.

ويلاحظ أنه فى وقتنا هذا، وتحديدًا فيما يخص ظروف بداية العصر الحجرى القديم الأعلى هناك محاولات لتقليل دور البنية الاجتماعية – الاقتصادية للجماعات البشرية لصالح مجموعة حتميات، ينظر إليها باعتبارها سابقة لها فى الأهمية أو على الأقل مساوية لها (المعرفية – التقنية)، إلا أننا حاولنا أن نبين كيفية مواجهة التحول فى السلوكيات البشرية.

بمنظور إثنولوجى قديم مع إعطاء الأحداث الاجتماعية والاقتصادية مكانة راجحة(١). غذت هذه الفكرة أعمال جاك بيلوجران Jacques Pelegrin وبوريس فالنتين Boris Valentin. وقد استعار هذا الأخير المصطلح وصاغ طموحات

---

(١) من الخطأ اعتبار أن الباحثين الذين أخذوا بهذا المنهج قد أداروا ظهورهم للمنهج السابق إيضاحه والعكس بالعكس مثل نيكول بيجو Nicole Pigeot التى تجمع بينهما. غير أنها تعمل بمستويات مختلفة: مستوى فترة "ما قبل التاريخ" بكل امتدادها الزمنى لاستخلاص قوانين عامة للتطور التقنى تسمو فوق السياقات الخاصة. مستوى العصر الجليدى المتأخر بكل دقته الاجتماعية الاقتصادية وذلك لاستكمال برنامج الدراسات الإثنولوجية القديمة والمسألة التى نثيرها الآن هى تطابق هذه المستويات المتباينة ليس فقط من ناحية التسلسل الزمنى ولكن أيضًا من وجهة النظر التصورية.

"التاريخ الإحاني"،لتبيان ذلك بغية وصف التغييرات التى حدثت فى عصور "ما قبل التاريخ" مستخدمًا معالجة إثنولوجية قديمة.

وقد تمكن بهذه الطريقة من الرد على كاترين برليس Catherine Perlès التى كتبت عام ١٩٨٧ تقول: "على الرغم من وجود كتابات عديدة أكدت على وجود تغييرات متعاقبة فى الصناعات الحجرية إلا أنه من الصعب إيجاد إطار تصورى لتناول مشكلة تفسيرها"[١]. وقد عرض بوريس فالنتين Boris Valentin توضيح:

"أنه بواسطة هذه الوسائل الاثنوجرافية القديمة – وبالتالى التقنية – تتأسس تدريجيًا شروط الخروج من تاريخ مجتمعات عصور "ما قبل التاريخ" الذى اختصر طويلاً فى نوع من سلسلة أنساب المراحل بدون أن تكون هناك أدوات حقيقية تحلل آليات تتابعها "[٢]

وقد أولى مكانة مهمة لطبيعة هذه التغييرات التى تتم دراستها من خلال التقنيات وبإيقاعها.

"بطيئًا كان أم سريعًا، هادئًا كان أم صاخبًا، يبقى الإيقاع المتغير لتاريخ ما قبل عصور التاريخ أمرًا يستوجب القياس بدقة أكبر، وتبقى ملابسات قفزاته الفجائية جديرة بالتفسير. هذا ما ترمى إليه طموحات التاريخ القديم حين تساندها وتشد من أزرها الإثنولوجيا القديمة"[٣]

يبقى العصر الجليدى المتأخر Tardiglaciaire الحقل الملائم لهذه التجربة المثيودولوجية فهو يمثل المرحلة الوحيدة فى العصر الحجرى القديم الفاخر

---

(١) استشهاد أورده بوريس فالنتين.

Boris Valentine. Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs ..., op. cit. p 275

(٢) ذات المرجع ص ٢٩.

(٣) ذات المرجع ص ١٦.

بمرجعية إثنولوجية قديمة منطقية وبإطار زمنى يسمح بقياس المدى التاريخى للنتائج التى يتم التوصل إليها بشىء كبير من الدقة. لقاء هذا المقابل وحده، يمكننا المجازفة بتحويل اتجاه عام إلى نسيج من الأحداث الواقعية.

استغرقت النقلة بين الفترة المجدلينية والفترة الأزيلية نحو خمسمائة عام وذلك منذ اثنى عشر ألف سنة قبل التاريخ المدون. ونجد هنا من باب المقارنة أن النموذج الذى يطرحه جاك بيلوجرين Jacques Pelegrin وهو يصف التطور من الموستيرى Moustérien (MTA) إلى الشاتلبيرونى Châtelperronien يتخذ كنطاق زمنى للتفسير مدة تمتد من ثلاثة إلى خمسة آلاف عام قبل التاريخ المدون (B.P.). تترتب على هذا الفارق فى التحديد عواقب كثيرة أقلها ما تعلق بإمكانية مطابقة هذه الظواهر "التاريخية" مع متغيرات البيئة. وقد دافع بوريس فالنتين Boris Valentin عن لجوئه إلى علم التاريخ الإحاثى قائلاً: "نقترح هنا تقسيمًا تاريخيًا جديدًا؛ فهناك ما يتوجب وضعه بين عصور ما قبل التاريخ والمرحلة القبتاريخية ونراه ضرورة سنسعى لبلورتها فى حقل دراسات عصور "ما قبل التاريخ".[(١)]

واقع الأمر أن ما يشير إليه يجسد تمامًا واحدة من طموحات علم ما قبل التاريخ الحالى: فمناهج البحث التعاقبى والإثنولوجيا القديمة تتجه معًا إلى تأسيس "أنثروبولوجيا تاريخية قديمة" حقيقية (بوريس فالنتين Boris Valentin).

غير أنه بمجرد ضمهما معًا يظهر صدع آخر. فالعلوم جميعها محكومة بمصادرها (الشفاهية والمكتوبة والمادية) وبكيفية تعاملها معها وبالتالى فإن منهجًا يتطلب منطقًا زمنيًا أبعد مما فى أيدينا لمجمل عصور "ما قبل التاريخ"، يشكل شرخًا أو خللاً فى الأمر.

---

(١) ذات المرجع ص ٢٨ – ٢٩.

من الآن فصاعدًا يمكننا استعادة العصر الجليدى المتأخر وفق تقويم تاريخى – وهذا سبب اختراق عيسى المسيح منتصف الألفية الثالثة عشرة قبل ميلاده – فالمراحل السابقة على العصر الحجرى القديم يمكن التأريخ لها بتقويم ما قبل التاريخ (B.P. before. présent).

وهو ما لا يمكن تغييره وفق التقويم الميلادى؛ نظرًا لوجود بعض التذبذب فى تسلسلهما. ويوضح هذا التعاقب فى المقاييس ودلالات المراجع التأريخية الخلل الموجود من بداية العصر الحجرى القديم الأعلى إلى نهايته من ناحيه نوعية الوثائق المتاحة لنا وبالتالى نوعية التفسيرات التى يمكننا القيام بها.(١)

غير أن هذا لا يمنع أن العصر الجليدى المتأخر Tardiglaciaire، موضوع هذا التحقيق المثيودولوجى، أداة رائعة لعلم الآثار المقارن؛ فهو يسمح بصفة خاصة بتقييم التوقيع الأثرى للتغيرات المنسوبة للبنيات الاجتماعية – الاقتصادية للجماعات البشرية. إلا أنه يجب تكييف النتائج فى صورة نماذج قابلة للنقل إلى علم ما قبل التاريخ بشكل عام؛ حتى لا نرى هذه "الواحة" التسجيلية والوثائقية وقد تحولت إلى "سراب".

فى ضوء هذا المنهج، نتابع الفصول اللاحقة بهدف قياس مدى أهمية أن يتضمن علم ما قبل التاريخ من ناحية خطابًا مخصصًا للتطور عبر الأزمان يرتكز بشكل أساسى حول أخذ العوامل المستقلة للبنية الاجتماعية الاقتصادية للجماعات البشرية فى الاعتبار، وأن يتضمن من ناحية أخرى ما يستعيد به أهمية هذه البنية بعد تنقيتها بشكل أكثر دقة من ناحيتى التسلسل الزمنى والإثنولوجيا القديمة. فى إطار هذه المساحة التفسيرية سنحاول جاهدين أن يكون حديثنا.

---

(١) يقترح بعض الباحثين رغم الصعوبة الميثودولوجية فى تغيير التواريخ بقياس كمية الكربون المشع ١٤ (B.P.) على مقياس تاريخى (قبل الميلاد) للفترات السابقة على الأخير Pléniglaciaire (نحو ٢٠.٠٠٠ عام قبل التاريخ المدون) بأن نؤخر حده إلى بداية العصر الحجرى القديم الأعلى (فى عام ٤٠.٠٠٠ قبل التاريخ المدون. وهم يؤخرون إذن التفاوت بين استعادة الأحداث جيولوجيًا وسلسلتها التاريخية إلى المفصلة بين العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى، بين نهاية النياندرتال ومقدم الإنسان العاقل فى أوروبا).



الفصل الخامس

دواليب التغيير (٢)

تحولات الصياد

لا تزال المعدات التقنية – من أسلحة وأدوات قام بصنعها صائدو الحيوانات وجامعو الثمار – واحدة من أهم مصادر المعلومات لعالم قبل التاريخ؛ فهى تسمح له بعقد المقارنات عبر الزمان المكان. فهذه المعدات، فى أغلب الأحوال، هى العناصر الوحيدة الدالة على الحقبة الزمنية محل البحث خاصة ما كان منها مصنوعًا من الحجر نظرًا لما تمثله من صلابة.

أما المظاهر المادية الأخرى الدالة على وجود ممارسات أو أنشطة ما، كاختيار نوع القنيصة أو نمط الدور المعدة للسكنى أو طرق دفن الموتى أو الزينة أو طرق تجسيد الخيال فالحفاظ عليها ضرب من ضروب الصدفة. هذه الأشياء التى تم انتقاؤها فى المراحل الأولى من عصور "ما قبل التاريخ" لتمثل الحقبة البدائية من حياة الإنسان إبان العصر الحجرى، ما زالت حتى يومنا هذا، تلعب دور المرشد الهادى لجمع المعلومات المبعثرة والنادرة التى بحوزتنا. وهذا ما يجعل طبيعة هذه الأسلحة وهذه الأدوات همزة وصل ثابتة بين ما تحويه التقسيمات الرئيسية التى قام العلماء بعملها (العصر الحجرى القديم الأدنى والوسيط والأعلى) وفى داخل هذه التقسيمات الزمنية بين ثقافات "ما قبل التاريخ". بالإضافة إلى ذلك تسمح هذه الأشياء بوضع الإنسان فى بيئته الطبيعية وبالتالى المعدنية، كما تعد منبعًا للفرضيات التى يتم وضعها بشأن تطور مجتمعات "ما قبل التاريخ" أيًا ما كانت الحتمية المستند إليها والتفاعلات المتبادلة المفترضة بين هذه المجتمعات: تقنية، معرفية، بيئية أو اجتماعية اقتصادية.

نذكر جميعًا أن هذه الصورة المألوفة والمتكررة لتفسير مقدم العصر الحجرى القديم الأعلى الأوروبى هى نسبه إلى الديناميات التطورية التى باشرت عملها فى أقوام النياندر والتى كان فى مقدورها تبديل تقاليدهم الموستيرية moustériennes قبل أن تختفى من الوجود. ويسوق لنا هذا التفسير من ناحية أخرى الطاقة الغازية للأقوام والجماعات الحديثة الجالبة للمد الأورين‍اكى العالى. وهو مد منشؤه سهول آسيا الوسطى أو سواحل شرق البحر الأبيض المتوسط.

ينقسم المؤلفون إلى فريقين: فريق يدافع عن استقلالية التغيرات والتحولات التى قامت بها مجموعات النياندرتاليين، وفريق آخر يرى أن مسلكهم كان بتأثير من القادمين الجدد وهو ما يعد نموذجًا للمثاقفة acculturation[١]. لحسم الأمر بين هاتين الفرضيتين بذلت جهود مضنية لمعرفة ما إذا كانت الصناعات المنسوبة لفترة الانتقال مثل "الشاتلبيرونية" لدى بعض الموستيريين الكائنين بطول الواجهة الأطلنطية قد بدأت قبل قدوم الإنسان الحديث إلى أوروبا. واقع الأمر أن عدم إمكانية حسم وتحديد التواريخ الفيزيائية - الكيميائية بدقة فيما يتعلق بهذه الفترات الزمنية يفتح الباب لتفسيرات مختلفة بل ومتناقضة.[٢]

---

(١) راجع الفصل الثانى.

(٢) راجع على سبيل المثال التعارض بين المؤلفات التالية:

. Mellars, Paul, «Neanderthals and the modern human colonization of Europe», op.cit., ; Zilhão, João, d'Errico Francesco (dir.), The Chronology of the Aurignacian and of the Transitional Technocomplexes. Dating, Stratigraphies, Cultural Implication, Lisbonne, Instituto português de arqueologia, «Trabalhos de Arqueologia», n° 33, 2003.

فى هذا المجلد الأخير، راجع بصفة خاصة ما يتعلق بالوضع الدقيق للمعاصرة بين الشاتلبيرونى، الأورين‍اكى فى المشاركة التالية:

أما فيما يتعلق بتطوير التقنيات فهناك ميل إلى الاعتقاد بأن جماعات النياندرتاليين حاولت بدون جدوى تذكر، أقلمة أعرافها وتقاليدها الموستيرية أمام هجمة الإنسان العاقل المزودة بتجهيزات "مطورة" مختلفة كل الاختلاف. ترتكز هذه الرؤى على التباين الشديد الملاحظ بين صناعات الفترة الانتقالية، ثمرة جهد آخر أقوام النياندر والممارسات الأورينياكية.

فالواقع أن الأورينياكيين يملكون مهارات ومعارف أكثر تطورًا فى التعامل مع المواد الحيوانية الصلبة التى يحصلون منها على رؤوس رماحهم القصيرة بينما يستخدمون فى تقنيات الحجر شطفات غير معروفة لصناعات فترة الانتقال.

ونشير هنا إلى جانب آخر مهم، وهو أن هذه الجماعات الغازية قد أتت بثورة فكرية يجسدها ما مارسوه من فنون وما ابتدعوه من أدوات للزينة.

هذا الفصل الحاد يستحق منا الفحص والتمحيص من زوايا عدة ووفق أكثر من نقطة انطلاق ثابتة. نلاحظ بادئ ذى بدء أن التسلسل الزمنى الداخلى الأورينياكى يبدو فى شكله النهائى أكثر تركيبًا وتعقيدًا مما يظهره لنا النموذج الشائع عنه. ونلفت النظر هنا بصفة خاصة، أنه قد ثبت أن ما يطلق عليه فى هذا التسلسل تعبير "كلاسيك" ليس أول مراحله وإنما تسبقه مرحلة طويلة لها عدة مسميات لا تمايز بينها؛ فهى توصف "بالبدائية" و"الأساسية" و"الأولية"[1]. كما أن الصناعات

Bordes, Jean-Guillaume, «Châtelperronian / Aurignacian Interstratification at Roc-de-Combe and Le Piage (Lot, France): lithic taphonomy, stratigraphic reevaluation and archaeological implications», p. 223 – 244.

(١) خضع "لقب أورينياكى" Protoaurignacien الذى اكتشفه لابلاس Georges Laplace لإعادة تعريف جزئية فى الفترة الأخيرة. لمعرفة الأصل التاريخى للأمر راجع:

Bon, François, Maíllo Fernández, José Manuel, Ortega Cobos, David (dir.), «En torno a los conceptos de Protoauriñaciense, Auriñaciense arcaico, inicial y antiguo» (unidad y variabilidad de los comportamientos tecnológicos de los primeros grupos de humanos modernos en el sur de Francia y norte de España), Actes de la table

الخاصة بهذه المرحلة البدائية لديها قابلية أعلى لاستمداد أصولها من التقاليد التقنية الخاصة بالشرق الأدنى من الصناعات الأورينياكية التقليدية التى أعقبتها.

واقع الأمر أنه فى هذه البقعة من أوراسيا تحديدًا ظهرت مبكرًا صناعات الشطف والتشظية التى تبدو ثمرة تطور محلى. وتظهر هذه الصناعات أوجه شبه عديدة مع مهارات صانعى الفترة الأورينياكية القديمة(١).

إذا كانت هذه حقيقة بدايتها، ففى ذلك تأكيد لنموذج الهجرة هذا غير أنه من ناحية أخرى تدعم طبيعة الدور الأورينياكى البدائى بالحجج فكرة المثاقفة acculturation التى تلازم دومًا فرضية الهجرة:

نكرر هنا أن هذه الثقافة تشى – أكثر من الأورينياكى التقليدى – بوجود تقارب مع صناعات فترة الانتقال وبصفة خاصة الشاتلبيرونية فى عدة أمور منها على سبيل المثال نسق الإنتاج الحجرى.

---

ronde de Toulouse (2003). Espacio, Tiempo y Forma, Serie I, «Prehistoria y Arqueología», vol. XV, 2002.

(١) تطورت صناعات الشطف والتشظية الموزعة فيما بين النجف وجبال إيران مرورًا بسوريا والأناضول وأفضلها وصفًا "الأحمرية" وذلك أربعين ألف عام قبل التاريخ المدون. اتجه الإنتاج الحجرى "الأحمرى" إلى الحصول على شطفات طويلة مستقيمة لتحويلها غالبًا إلى أزاميل "الواد" "Elwad" راجع فى هذا الصدد:

Goring-Morris, A. Nigel et Belfer-Cohen, Anna (dir.), More than meets the Eye. Studies on Upper palaeolithic Diversity in the Near East, Oxbow Books, 2003

فى أوروبا الشرقية وجدت أوجه شبه كثيرة بين صناعات الشطف والتشظية بها وبين الأسلوبين "الأحمرى" و"الأورينياكى البدائى وظهر ذلك فى شكل "الكوزرنيكا".

Tsanova, Tsenka, «Les débuts du Paléolithique supérieur dans l'Est des Balkans. Réflexions à partir de l'étude taphonomique et techno-économique des ensembles lithiques des sites de Bacho Kiro (couche 11), Temnata (couches VI et 4) et Kozarnika (niveau VII)», thèse, université de Bordeaux I, 2006.

استنادًا إلى ذلك، هل يمكننا القول بأن ظهور الشاتلبيرونى كان نتيجة تـأثير هؤلاء الأورينياكيين القدماء على الجماعات الموستيرية mousteriennes فـى هـذا الجزء من أوروبا؟

واقع الأمر أن كل معطيات علم الطبقات تقول بعكس ذلـك: فلـدى بدايـة الأورينياكى البدائى فى غرب أوروبا كان الشاتلبيرونى قد تطور منذ فترة. وإذا كان هناك تقارب ما بينهما فيتوجب البحث عنه فى نسبة الثانى إلـى الأول. مـن هنـا يجدر بنا التساؤل عن طريقة الجمع بين هذا التقارب بين الـصناعة الـشاتلبيرونية الناشئة عن ركيزة الصفات الموستيرية والمستقرة بشكل حصرى بطول الواجهـة الأطلنطية وبين الثقافة الأورينياكية الأوروبية التى تمتد بعض جذورها إلى الـشرق الأدنى. ولنذكر هنا أن ذلك قد تسبب فى قدر كبير من اللبس حول الطريقـة التـى وصل بها الإنسان الحديث المنتمى إلى الأورينياكية إلى أوروبا.

أولت صناعات الأورينياكيين اهتمامًا كبيرًا لصناعة الأسلحة حتى أن بعـض المؤلفين مالوا إلى الاعتراف بتفوقهم على جماعات النياندرتاليين. وقد احتـل هـذا النشاط بالفعل مكانة مميزة فى تعاملهم مع المواد الحيوانية الصلبة ومع الأحجـار. وبالتالى فى إنتاج الشطفات. جمعت هذه المجموعات المختلفة من الأشـياء بعـض الخطوط الرئيسية فى تطور الصناعات الأورينياكية بشكل عام.

تتميز المرحلة "القديمة" بمحاولة الحصول على شـطفات مـستقيمة طويلـة (يطلق عليها نصال دوفور Lamelles Dufour). بعض من هذه الشطفات كان مـن الممكن تثبيتها أعلى المقذوفات منتصبة الشكل أو بمحاذاة قصبة الرمح. وقـد تـم تعميم الحل الثانى أثناء المرحلة القديمة باستعمال شطفات أقل طولاً. أما المسنونات المصنوعة من مواد حيوانية صلبة والتى ندر وجودها فى المرحلـة القديمـة فقـد رجحت كفتها (رماح قصيرة ذات قاعدة مشقوقة) استمر هذا التوازن طيلة المرحلة

الحديثة وقد تعدلت خلالها أشكال المسنونات العظمية وأشكال النصال ومعها التقنيات التى كانت تسمح بالحصول عليها.(١)

تشهد كل هذه العناصر أن المهارة التقنية للجماعات الأورينياكية تتمحور بشكل كبير حول الصيد.

إلا أن هذا الأمر ليس بالجديد: فالشاتلبيرونيون كانوا هم أيضًا يكرسون جزءًا كبيرًا من نشاطهم التقنى لصنع الأسلحة وإن كان تفضيلهم مختلفًا فقد كانوا يحبذون (المسنونات والمدببات الحجرية)(٢). وفى غير مجال الأسلحة تستحق اختياراتهم فى باقى معداتهم خاصة ما تعلق منها بالأدوات المنزلية أن تكون محل مقارنة. نتذكر جيدًا أن الأدوات الشاتلبيرونية كانت تصنع من المنتجات الثانوية "لسلسلة الشطف والتشظية المفصلة" والتى وضعت هدفًا أساسيًا لها إنتاج مسنونات شاتلبيرون، وهذا ما لم يكن يحدث على الإطلاق فى المرحلتين القديمة والحديثة من الفترة الأورينياكية فالآلات خلال هذه الفترة كان يتم الحصول عليها من سلسلة شطف مفصلة منفصلة تمامًا عن سلسلة إنتاج النصال. وقد تفرعت تقنية الأحجار لديهم إلى سلسلتين مفصلتين أساسيتين إحداهما لإنتاج النصال الخاصة بالتسليح والأخرى خاصة بالشطفات المستخدمة فى الأدوات المنزلية. ونسجل هنا أن الأسلوب الأورينياكى قد توصل إلى حل مزدوج: إذا أمكن الحصول على النصال

---

(١) أتاح ذلك ظهور "النصال القزمية" من نوع من اللب "محدب الأطراف" بدلاً من النصال ذات الحافتين المتوازيتين التى عرفتها الفترة الأورينياكية القديمة والتى كانت تشطف من نواة انسيابية ذات مقدمة عريضة. الحق أننا هنا نبسط تصنيفًا تفاصيله دقيقة. راجع فى هذا الصدد:

Le Brun-Ricalens, Foni, Bordes, Jean-Guillaume et Bon, François (dir.). «Productions lamellaires attribuées à l'Aurignacien. Chaînes opératoires et perspectives techno-culturelles», Actes du XIVe congrès de l'UISPP (Liège, 2001), Arccháologiques, n° 1, 2005.

(٢) راجع الفصل الرابع.

ومن ذات النواة بعد ذلك على شطفات مستقلة وقائمة بذاتها، حينئذ تكون هناك سلسلة مفصلة تلبى كل الاحتياجات معًا، كما هو الحال لدى الشاتلبيرونيين هنا يمكن تسجيل تطور تم من الأسلوب الشاتلبيرونى إلى الأسلوب الأورينياكى: انسلخت الآلات تدريجيًا عن إنتاج الأسلحة نتيجة اتجاه هذا الأخير إلى النصال الحجرية القزمية فى صورة شطفات تقلص حجمها بشكل متواز مع المضى قدمًا فى الفترة الأورينياكية.

ازداد الفارق بين الشطفات والنصال بذات القدر.[١] ولوحظ أن ذات الظاهرة قد حدثت فيما يتعلق بالغاية الوظيفية من الأشياء المشار إليها: فبينما خصصت بعض المسنونات الشاتلبيرونية وشطفات الفترة الأورينياكية القديمة لعمل مقذوفات والبعض الآخر لصناعة نصال سكاكين نجد أن شطفات وتشظيات الفترة الأورينياكية القديمة والحديثة تبدو أكثر تخصصًا فى صنع الأسلحة وحدها. ويتوجب هنا الالتفات إلى أن طرق القطع النصالية وطرق القطع بالشطف والتشظية الخاصة بالأورينياكيين القدماء تشبه إلى حد كبير الطرق ذاتها لدى الشاتلبيرونيين.[٢]

---

(١) نستثنى هنا مرحلته الأخيرة.

Analyse comparée .senneittevarg sétéicos serèimerp seL» ,Damien ,Pesesse ,thèse ,Aurignacien aux débuts du Gravettien»'des systèmes lithiques de la fin de l .٢٠٠٨ ,Provence-en-Aix'université d

راجع أيضًا الأطروحة المقدمة من ألكسندر ميشيل.

(2) Bordes, Jean-Guillaume, «News from the West: a reevaluation of the classical Aurignacian sequence of the Perigord», in Bar-Yosef, Ofer et Zilhão, João (dir.), Towards a Definition of the Aurignacian, Actes de la table ronde de Lisbonne (2002), Lisbonne, Instituto português de arqueologia / American School of Prehistoric Research, «Trabalhos de Arqueologia», n° 45, 2006, p. 147 – 171.

راجع أيضًا الأطروحة المقدمة من فرنسوا باشلرى.

لا نعنى بذلك أن الصناعات الأورينياكية مستمدة بشكل مباشر من صناعات الفترة الشاتلبيرونية، غير أن هناك مسارات تطورية مشتركة يمكن تبينها لديهما. من أكثر هذه المسارات دلالة المكان الذى تحتله أسلحة الصيد فى مجمل معداتهما، وهذا ما يميزهما معًا عن الشطر الأكبر من صناعات العصر الحجرى القديم الوسيط فى أوروبا، خاصة المتوجه منها إلى صناعة الأدوات المنزلية مثل المكاشط وغيرها. بعبارة أخرى إذا كانت بعض تقنيات الفترة الشاتلبيرونية تتشابه مع سابقاتها من الدور الموستيرى فإن اهتماماتها وانشغالاتها تأخذ وجهة جديدة تشترك فيها مع الأسلوب الأورينياكى. هذا المثال ليس بمعزل عن غيره وهذه الظاهرة ذاتها تبدو منطبقة على صناعات انتقالية أخرى.

واقع الأمر أنه إذا كان أغلب هذه الصناعات البادية فى التركيبة المعقدة التى تميز أوروبا فيما بين الأعوام ٤٥٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ قبل التاريخ المدون يشارك فى الاغتراف مما خلفه العصر الحجرى القديم الوسيط – ويكون ذلك أحيانًا بشكل بالغ المباشرة كأن يحتفظ على سبيل المثال بطريقة القطع اللفالوازية أو بطريقة تصنيع الفأس اليدوية. وتمحور أغلب هذه الصناعات اهتماماتها حول البحث عن المسنونات الحجرية. ونسوق مثالاً على ذلك المجمع المسمى "لينكومبيان – رانيزيان جرزمانويسيان" Lincombien- Ranisien- Jermanowicien (L.R.J.) الذى يحتل بدءًا من عام ٣٧٠٠٠ قبل التاريخ المدون جزءًا من شمال أوروبا، وتحديدًا فى المنطقة الواقعة بين الجزر البريطانية وبولندا عن طريق الجزء الشمالى من ألمانيا.

و قد أوضح دميان فلاس Damien Flas فى هذا السياق الجغرافى أن البحث عن نمط جديد من الأشياء على غرار "مسنون جرزمانويس" الذى تم صنعه من

النصال، يفسر انقلاب "الصناعات الموستيرية" [فى هذا الجزء من أوروبا] [...] إلى تقنية من تقنيات "العصر الحجرى القديم الأعلى".[١]

نلاحظ من كل ذلك أن الحلول التقنية متباينة إلا أن هذه الصناعات التى تعد إلى حد ما متزامنة وموزعة فى جميع أنحاء أوروبا – البوهونيسيان الموارفى Bohunicien morave والباكو – كريان البلغارى Bacho- kirien والنيرونى رودانى Néronien rhodanien تبحث كلها عن منتجات متشظية انطلاقًا من تقنيات تمت بصلات وثيقة باللفالوازى أكثر منها بالشاتلبيرونى وبتقنية مجمع (L.R.J).

ارتبطت طرق القطع بالشطف اعتبارًا من هذه الفترة ببحثهم الدؤوب عن المسنونات.[٢]

(١) أوصلت التحليلات دميان فلاس Damien Flas إلى عرض سيناريو قريب إلى حد ما مما عرضه جاك بيلوجرين Jacques Pelegrin بشأن نشأة الشاتلبيرونى: فبعد أن أوضح أن السياقات الصناعية فى نهاية العصر الحجرى القديم الوسيط فى هذا الجزء من أوروبا ملائمة لتبنى تقنية L.R.J لكونها "التجميع الجديد لممارسات قائمة بالفعل" أكد على أن "الانتقال إلى استعمال مسنون جرزمانويس والإنتاج الملائم له من الشطفات الداعمة" هما اللذان يشرحان كيفية انقلاب الصناعات الموستيرية إلى تقنية من تقنيات العصر الحجرى القديم الأعلى.

Flas, Damien, «La transition du Paléolithique moyen au supérieur dans la plaine septentrionale de l'Europe. Les problématiques du Lincombien-Ranisien-Jerzmanowicien», thèse, université de Liège, 2006, t. I, p. 315-316.

ظهر الـ L.R.J فى عام ٣٧٠٠٠ قبل التاريخ المدون واستمر عدة أعوام بعد ذلك إلى نحو عام ٣٠.٠٠٠ قبل التاريخ المدون وربما بعد ذلك بقليل.

(2) Teyssandier, Nicolas, En route vers l'Ouest. Les débuts de l'Aurignacien en Europe, Oxford, British Archaeological Series (BAR International Series, 1638), 2007; Tsanova, Tsenka, «Les débuts du Paléolithique supérieur dans l'Est des Balkans...», op.cit. ; Slimak, Ludovic, «Le Néronien et la structure historique du basculement du Paléolithique moyen au Paléolithique supérieur en France méridionale», C.R. Palevol, 2007, vol.VI, n°4, p. 301 – 309; Skrdla, Petr, «The Bohunician reduction strategy», Quaternaria nova, vol.VI, 1996, p. 93 – 107

هل يتوجب علينا أن نرى دومًا فى كلمة "مسنونات" نوعًا من الأسلحة؟

وإذا كان الأمر كذلك فأى نوع من الأسلحة هو؟

واقع الأمر أننا فيما يخص الأسلوبين الشاتلبيرونى والأورينياكى قد استعملنا لفظ "قنيفة" لأن الأبعاد المتقلصة لأسلحتهم تدل على أن الأمر عندهم لا يتعلق فقط بالأسلحة الطويلة الرفيعة (الرماح) وإنما أيضًا بالحراب الأخف وزنًا. وبالنسبة للصناعات الأخرى المشار إليها فإن المسنونات المختلفة التى تستخدم بالفعل فى تزويد معدات الصيد بالسلاح غير واردة رغم أن هذه الفرضية هى الأقرب إلى المنطق فى سياقات متعددة – وذلك بدون استبعاد أية استخدامات إضافية لها بوصفها سكاكين.

من ناحية أخرى فإن نوع الأسلحة التى كان من الممكن أن تلائمها هذه المسنونات من غير الممكن تحديده حتى الآن. ويلاحظ أنه فى بعض السياقات تتقدم الفرضية الخاص بالأسلحة الطويلة والرفيعة على فرضية القذائف، من هنا فمن الممكن أن تكون مسنونات جرزمانويس الصلبة قد استخدمت فى تسليح الرماح القصيرة لا الحراب.

استنادًا لهذه المعطيات ولهذه الفرضيات نكون بصدد نموذج لتطور الصناعات[1]، يحاول التمييز بين الانشغال الجمعى أو الاهتمام المشترك وبين الحلول

---

(١) هذه الصناعات ونعنى هنا الباكوكيرى (عام ٤٠,٠٠٠ قبل التاريخ المدون) والبوهونيسى (خلال الأعوام من ٤٢٠٠٠ إلى ٣٤٠٠٠ قبل التاريخ المدون) والنيرونى (خلال الأعوام ٠٠٠ و٣٨٠٠٠) لديها عامل مشترك هو إنتاج النصال التي يتم الحصول عليها بالمطرقة الثقيلة (نستثنى هنا بعض النسخ فى البوهونيسى) وهو ما يشكل فارقًا واضحًا مع عمليات القطع الشاتلبيرونى وقطع الـ L.R.J ونسجل هنا كثرة وجود النصال والأزاميل القزمية فى النيرونى.

Bon, François, «A brief overview of Aurigncian cutures in the context of Middle-to-Upper transitional industries», in Bar-Yosef, Ofer et Zilhão, João (dir.), Towards a Definition of the Aurignacian, op.cit., p. 133-144 ; Teyssandier, Nicolas, En route vers l'Ouest..., op.cit

المتباينة. وهو بشكل خاص لا يفترض تتابعًا أحادى الشكل بين صناعة وأخرى غير أنه يعتبرها كلها كمراحل لتطور متدرج شامل ذى ثلاثة أطوار. يتميز الطور الأول منها بإنتاج مسنونات لمعدات الصيد وهو اهتمام انتشر فى الشرق الأدنى وفى أوروبا بدءًا من العام ٤٥٠٠٠ من التاريخ غير المدون. وقد استتبع هذا الطور تحويل أنساق الإنتاج الحجرى وربما بدء استعمال للمسنونات المصنوعة من المواد الحيوانية الصلبة. هذا البحث الجماعى يظهر الفروق بين جماعات العصر الحجرى القديم الوسيط طبقًا للحلول المصاغة من قبل كل واحدة منها، كما يظهر بدء تكون[١] تركيبة ثقافية. هذا الطور هو طور ثقافات المرحلة الانتقالية.

فى ذات التوقيت ظهرت فى الشرق الأدنى حلول الشطف والتشظية الأولى التى ستزداد أهميتها إبان الطور الثانى للتطور المتدرج: بدءًا من الأعوام ٣٨٠٠٠ و ٣٧٠٠٠ من التاريخ غير المدون بدأ تصغير الأسلحة الحجرية وتقليص حجمها فى شكل شطفات، يروج بين الجماعات أو ينتشر بينها أثناء انتقالها وترحالها وتقليص الحجم ليس بالجديد، ما استجد هو تطبيق ذلك فى مجال الصيد[٢].

هل استمدت صناعة الشطف هذه جذورها من سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث ظهرت؟

الواضح أنه سيقع على كاهل ما يستجد من دراسات عبء التحقق من هذه الفرضية. ولكن أيًا ما كان الأمر فإن النجاح الواضح لهذا الحل الذى تم التوصل إليه بالجمع بين اتجاهين تطوريين هما إنتاج الأسلحة وتقليص حجم الصناعات الحجرية – يجسد فى أوروبا الدور الأورينياكى الأركى L'Aurignacien archaique.

---

(١) كما يوضح فنسان مور Vincent Mourre (فى مداخلته الشفهية) يتوجب علينا أن نذكر كم هو يسير تبين هذا التنوع الإقليمى طيلة العصر الحجرى القديم الوسيط الحديث. على هذا التنوع يرتكز جزئيًا تعريف بعض أوجه الموستيرى وكذلك تميزه بمجموعة من الصناعات الشرق أوروبية المنشأ والمعروفة باسم "Micoquien Oriental".

(٢) ربما كان لهذه الفكرة بعض السوابق، مثال ذلك الأزاميل الصغيرة للغاية فى شاتلبيرون والأزاميل القزمية النيرونية.

من نتائج هذه الظاهرة "تخليص" المعدات التى تم تصميمها من النصال، من التسليح الحجرى تدريجيًا نظرًا لاعتمادها اعتبارًا من هذه الفترة على الشطفات، وقد قاد التطور المتدرج إلى ظهور الدور الأورينياكى القديم L'Aurignacien ancien [١].

ظهر هذا الدور فى غرب أوروبا ٣٥٠٠٠ عام قبل التاريخ المدون B.P. كما أوضحت أعمال نيكولا تيساندييه Nicolas Teyssandier[٢] التى أولت المواد الصلبة الحيوانية مكانًا متميزًا فى صناعة الأسلحة. هذه المواد، وبصفة خاصة قرون الرنة، كان يتم استخدامها فى صناعة رؤوس القذائف (مثل الرماح القصيرة ذات القاعدة المشقوقة) أما الشطفات فقد خصصت لتدعيم خاصية القطع فى السلاح وذلك بإضافة حافة جانبية حادة.

هذا النموذج يبدو محترمًا لمتطلبات الترتيب الزمنى للأحداث بشكل كبير يماثل الكيفية التى كانت عليها الفرضيات السابقة بشأن مقدم العصر الحجرى القديم الأعلى. غير أنه بالمخالفة مع هذه الفرضيات يدافع هذا النموذج عن البحث عن استمرارية عامة بين هذه الحقبة والعصر الحجرى القديم الوسيط فيما يخص التغيرات التقنية الخاصة بإنتاج الأسلحة. وفق هذا النموذج فإن اختيار النصل ثم الشطفة له تفسير منطقى على أساس وظيفى – تلبى منطقيًا الغرض المتوقع منها – غير أنه قبل أن تظهر إلى الوجود هذه التقنيات المجمعة مثل تقنية الدور الأورينياكى، يوضح هذا النموذج ما استخدم من حلول بديلة أكثر رسوخًا فى تقاليد العصر الحجرى القديم الوسيط.

يوضح هذا الاهتمام الجمعى وتباين الحلول المتاحة أسباب وأشكال ظهور العصر الحجرى القديم الأعلى الذى تميزه تركيبة تعبيرات تقنية.

---

(١) هذا الموضوع تناولته الأطروحة المقدمة من لورا إيزنبيرج Laura Eizenberg

(2) Teyssandier, Nicolas, En route vers l'Ouest ..., op. cit.

ويمكننا القول بعبارة أخرى إن النصل أو بالأحرى الشطفة لا تعد أشياء غير مسبوقة، الجديد فيهما يكون فى الميل أو النزعة اللذين يجسدها كل منهما أو كلاهما طبقًا للسياقات. من هنا فإن الأسلوب الأورينياكى بتطبيق الطريقة ذاتها، لا يُعَدّ على المستوى التقنى الاتجاه الذى يمثل العصر الحجرى القديم الأعلى وإنما يبدو ببساطة كواحد من تقسيمات تطور مدرج بدايته تقع قبل مجيء هذا العصر بزمن طويل، أو التحركات المحتملة للجماعات، خاصة خلال الفترة الأورينياكية المبكرة.

واقع الأمر أن الحصول على النصال والشطفات معًا لم يستطع فى أوروبا أن يطغى على كل الحلول الأخرى إلا فى مرحلة لاحقة وبعد مقاومة متفاوتة القدر من إقليم إلى آخر. وبذا تم التأكيد على المكانة التى تحتلها الأسلحة فى معدات وتجهيزات جماعات العصور الحجرية القديمة.

ويؤكد النموذج الذى نحن بصدده على أهمية انتشار الأفكار وفى مرحلة أكثر تقدمًا على التفاعلات القوية بين جماعات العصر الحجرى القديم اعتبارًا من نهاية العصر الحجرى القديم الوسيط على مستوى أوروبا والشرق الأدنى معًا. بهذا المعنى يبتعد النموذج عن الفرضيات السابقة مستبدلاً استقلالية النياندرتاليين والغزو المهيمن للإنسان العاقل بتفاعل عام بين جماعات هذه الحقبة، الأمر الذى تؤكده اهتماماتهم المشتركة.

هذه الدعوة إلى التحقق من تجوال البشر والأفكار فى المكان سيتم تناولها فى الفصل التالى. ستصبح حينذاك الفرصة سانحة لرؤية سبب تبنى بعض الحلول بشكل واسع خاصة ما يتعلق منها بتفضيل صنع الأسلحة بواسطة الشطفات الذى أصبح لاحقًا واحدًا من المعالم الصناعية المهيمنة ليس فقط خلال الفترة الأورينياكية ولكن خلال العصر الحجرى القديم فى مجمله، وذلك رغم العودة المتكررة للنصل ضمن معدات الصياد.

هذا تحديدًا ما ستكون عليه الحلول التقنية المختلفة التى سنتناولها حاليًا على مدى التسلسل الزمنى لهذه الحقبة.

نبذة عن معدات الصيد فى العصر الحجرى القديم الأعلى:

تمدنا الحلول التقنية المختلفة التى تم تبنيها فى الفترة من عام ٤٥٠٠٠ إلى عام ٣٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون "بالمكونات" الرئيسية التى ورد ذكرها طوال العصر الحجرى القديم الأعلى ويمكننا تلخيص خواص معظم الأسلحة – الحراب أو القذائف – التى تتمحور حول الثوابت التالية: القابلية للثقب والتمزيق والأسر[١] والأخيرتان لا تتمان بطبيعة الحال إلا بعد حدوث الأولى. فتمزيق لحم القنيصة حتى تنزف والحرص على أن يخترق رأس السلاح جسم الحيوان، لا سبيل إليهما إلا برشق السلاح فيه. ولكن على خلاف ما يعتقده الكثيرون فالثقب والاختراق عملية لا قبل لكل الأسلحة بها؛ فبعضها يستعمل لصعق الإنسان أو الحيوان بضربة قوية على الرأس حفاظًا على فرائه أو ريشه.

فى العصر الحجرى القديم الأعلى كانت كل الأسلحة تخترق الأجسام[٢]، أما التمزيق والأسر فقد كانت لهما أشكال متعددة. ويبدو أنهم آنذاك قد حاولوا الجمع بين خاصيتى الاختراق والتمزيق وقد تراءت لهم وصولاً لهذا الدمج حلول كثيرة منها صنع أداة تجمع بينهما، وهو ما تم بالفعل فى كل المسنونات الحجرية. وكانت عملية التمزيق تختلف باختلاف طرق تثبيت هذه الرؤوس المدببة.

أما الحل الثانى فكان يتمثل فى الفصل بين الخاصيتين عن طريق وضع شطفات جانبية حادة من الحجر[٣] بين رؤوس السلاح العظمية.

---

(١) رغم عدم امتلاكنا لأى دليل يشهد بما كان فى العصر الحجرى القديم الأعلى إلا أننا نرى وجوب إضافة خاصية رابعة إلى الأسلحة وهى إمكانية نشر السم فى جسم القنيصة.

(٢) سنتطرق لاحقًا للقصبة المستخدمة فى القذف، وسيفضى بنا الحديث عندئذ إلى مشاكل حفظ القنيصة.

(٣) ترجع فرضية إضافة شطفات إلى "الرماح القصيرة المتثلمة" إلى تاريخ بعيد قبل أن يتم التثبت منها باكتشافات عدة ترجع فى معظمها إلى العصر الجليدى المتأخر، ونشير هنا تحديدًا إلى رأس الرمح القصير المصنوعة من قرون الرنة التى عثر عليها فى بنسوفون Pincevent وبها شطفات حجرية كثيرة مضافة.

لكل من هذين الحلين توابعه الاجتماعية والاقتصادية؛ فرؤوس السهام والرماح المصنوعة من قرون الأيايل أو العاج أكثر صلابة من المسنونات الحجرية غير أنها تتطلب جهدًا أكبر فى البحث عن المواد المناسبة لصنعها، وبصفة عامة وقتًا أطول فى تنفيذها وبالطبع يضاف إلى ذلك جهد أكبر إذا رؤى وضع شطفات حجرية جانبية إضافية.

أما خاصية الأسر فلم يستدل بشكل مؤكد على وجودها فى صناعات العصر الحجرى القديم الأعلى إلا عن طريق الرؤوس المسنونة من قرون الأيايل أو العظام التى تحولت إلى "هاربون" عن طريق إضافة صف من الخطاطيف على طول أحد جانبيها أو كلا الجانبين.

وقد ظهر هذا الحل فى الألفيات الأخيرة من هذه الحقبة مع مقدم الفترة المجدلينية الحديثة واستمر خلال الفترة الأزيلية وربما بعد ذلك فى سياقات ميزوليثية عديدة.(١)

---

(١) راجع:
Bleed, Peter, «The optimal design of hunting weapons: maintanability or reliability», American antiquity, 1986, vol.LI, n°4, p. 737-747; Valentin, Boris, Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs..., op.cit.

نلاحظ أن انطلاقة خواص الأسر جاءت مصاحبة لاهتمامهم بصيد البحر (انظر لاحقًا)، غير أنه لا يبدو أن استعمال الهاربون قد اقتصر على هذا النشاط، وهذا من ناحية أخرى لا يعنى أنه لم تكن هناك أدوات صيد من البحر قبل ذلك فى صورة سنانير مستقيمة إذ يندر وجود الشكل الخطافى.

Cleyet-Merle, Jean-Jacques, La Préhistoire de la pêche, Paris, Errance, 1990; Pétillon, Jean-Marc, «Des barbelures pour quoi faire? Réflexions préliminaires sur la fonction des pointes barbelées du Magdalénien supérieur / What are these barbs for? Preliminary reflections on the function of the Upper Magdalenian barbed weapon tips», in Pétillon, Jean-Marc, Dias-Meirinho, Marie-Hélène, Cattelain, Pierre, Honegger, Matthieu, Normand, Christian et Valdeyron, Nicolas (dir.), «Etat des recherches sur les armatures de projectile. Des débuts du Paléolithique supérieur à la fin du Néolithique», Actes du XVe congrès de l'UISPP (Lisbonne, septembre 2006), Palethnology, n°1, 2008, p. 69-102.

ليس بمستبعد أن تكون لهذه الدعامات الحجرية الجانبية بخلاف قدرتها على التمزيق قدرة على الأسر. فتجميع هذه العناصر الجانبية الصغيرة وتركيبها، وإن كان مجهولاً لنا حتى يومنا هذا، بالقطع ليس ذا طريقة استخدام واحدة. أيا ما كان الأمر فإن هذه المعايير تسمح بترتيب الصناعات الرئيسية فى العصر الحجرى القديم الأعلى على النحو التالى. لم تكن عملية دمج خاصيتى الثقب والتمزيق فى أداة واحدة بهدف تكاملهما وازعًا لتفضيل هذا النوع من الأدوات مما جعلها أقل استعمالاً. والشكل الشائع لها كان عبارة عن مسنونات حجرية تصنع من نصال خفيفة وأحيانًا من شطفات. وقد انتشر الأخذ بهذا الحل فى العالم الجرافيتى والسوليترى والأزيلى وبشكل أعم فى صناعات العصر الجليدى المتأخر.[(١)]

فى كثير من هذه الفترات كان الحل البديل يتمثل فى إنتاج مسنونات قذائف من الخشب أو العظام أو العاج مطعمة بعناصر حجرية غالبًا ما تكون جانبية وفى شكل شطفات. ولكن نادرًا ما كانت تستخدم وحدها باستثناء بعض الفترات القصيرة زمنيًا المتناثرة هنا وهناك. لا يمكن القول بأنه قد تم اللجوء إلى هذا الحل بتوسع إلا فى الدورين الأورينياكى والمجدلينى[(٢)]، أما خاصية الأسر وكل ما يتعلق بها فلا يبدو أنها تطورت قبل نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى فقد ازدهرت فى العصر الميزوليثى.

ستسمح لنا هذه الملاحظات من الآن فصاعدًا باستنتاج معطيات عديدة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية. غير أن هناك الكثير من التساؤلات التى تبقى

---

(١) يعد ضربًا من المستحيل أن نقوم هنا بعمل قائمة تحصر كل المسنونات الحجرية التى تجسد هذا الحل, فهناك أشياء فى هذه الصناعات قد أضيف إلى شكلها العام المتداول ما يميزها، فقد كانت هناك إضافات متباينة للقصبة (فرضة أو نتوء أو ذنيب) كما تشير بذلك قواعدها.

(٢) فى المراحل "الكلاسيكية" من هذه الفترة أو تلك, لمزيد من المعلومات عن المجدلينى راجع:

Langlais, Mathieu, "Dynamiques culturelles des sociétés magdaléniennes dans leurs cadres environnementaux: enquête sur sept mille ans d'évolution de leurs industries lithiques entre Rhône et Ebre".

أطروحة قدمت فى جامعتى تولوز – لو ميراى Toulouse- le Mirail وبرشلونة Barcelone ٢٠٠٧.

تنتظر فى الأفق عن نوع السلاح والقنيصة التى يستخدم فـى صـيدها والخطـط الموضوعة للإيقاع بها.

يقتضى الأمر أولاً التمييز بين أسلحة كالسيوف والقذائف، أى بين الأسـلحة التى تتطلبها معركة، المسافة بين المتقاتلين فيها قصيرة، وتلك التى تحفظ المسافة بين الصياد وفريسته. رأينا من قبل فى بعض صناعات الفترة الانتقالية، أنـه قـد اقترح استخدام الحراب بسبب صلابة رؤوسها الحجرية. غير أنه منذ تلك الحقبـة، رجحت طبيعة رؤوس الأسلحة وأبعادها التى تم تقليصها كافة استعمالها كـرؤوس مقذوفات. ويمكننا أن نميز فى هذه النوعية الأخيرة بين مجموعتين: مجموعة يـتم قذفها باليد ومجموعة أخرى تستدعى استعمال قاذفة الحراب. المجموعـة الأولـى تضم القصبات والمزاريق والرماح والحراب. (إذا كانت القصبات قد وجدت آنذاك، فقد صنعت من الخشب ولا سبيل للعثور على أثر لها). ونـذكر هنـا الاكتـشاف الاستثنائى لأداة من العاج أشبه ما تكون بالمرتدة (سلاح قذفى يرتد إلى مطلقـه إذا لم يصب الهدف) وجدت فى موقع أولوزوا البولندى. ومن معـدات الـصيد التـى تستخدم كمقذوفات بواسطة أداة يمكننا ذكر الرماح القصيرة والسهام التـى تطلـق باستخدام القسى.

حتى يمكننا تحديد نوع السلاح الذى نسب له رأس المقذوف لا يمكننا الاستناد إلا إلى وزنها وقطرها، فمن خلالهما يمكن إلى حد ما استنتاج وزن القصبة وقطرها. وتكمـن الـصعوبة الحقيقيـة فـى ممـال كميـة المتـشكل الأرضـى gradient morphométrique المحتمل وجوده بين الرماح التى تقذف باليد والحـراب القـصيرة والسهام التى تستخدم القاذفة فى إطلاقها. ومن الطبيعى أن تكون السهام أخف وزنـا من الرماح، أما الحراب القصيرة التى تتوسط النوعين[1] فتتداخل مع كليهما.

(١) راجع الفصل الرابع.

أيًا ما كان الأمر، فقد استطاعت دراسات عديدة، استنادًا إلى هذه المعايير، أن تخلص إلى وجود قاذفة بين معدات الصيد في النصف الأول من العصر الحجرى القديم الأعلى. ونجد أنه بذات الطريقة يتم عرض فرضية القسى وإرجاعها للدورين الجرافيتى – على الأقل فى مرحلته النهائية – والسوليترى. وتاريخيًا يعود خطاف القاذف الأقدم إلى عام ٢٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون. أما السهام فتعود بدايتها إلى ما فوق العصر الحجرى القديم. ولا يتطرق إلينا الشك فى أن قاذفة الحراب لم تكن بمجهولة طيلة العصر الحجرى القديم الأعلى وأن ظهور القسى قد واكبها خلال الفترة ذاتها.(١)

أتيحت لنا رؤية نماذج من الرماح متمايزة من عدة أوجه: فى موقع سانجير Sungir الروسى تم اكتشاف بقايا لرفات طفلين فى السابعة والثالثة عشرة من العمر ومعها عدة أشياء من العاج أشبه ما تكون بالرماح. هذه الأشياء تشهد بقدرة فائقة على تطويع المادة: أطولها يصل ارتفاعه إلى نحو مترين ونصف المتر أما أقصرها فيجاوز المتر ونصف المتر بقليل.

صحبت الرماح "حرابًا" و"خناجر" هى الأخرى من العاج وقد لوحظ أن الرماح كانت مزودة ببعض الشطفات الصغيرة من حجر الصوان على جانبيها مما سمح باستنتاج وجود رمح ثالث من الخشب بقيت منه العناصر الحجرية مع قطعة من العاج دائرية الشكل غالبًا ما كانت توضع حول الجعبة.(٢)

---

(١) راجع بصفة خاصة:

Soriano, Sylvain, «Les microgravettes du Périgordien de Rabier à Lanquais (Dordogne). Analyse technologique et fonctionnelle», Gallia Préhistoire, n° 41, 1998, p. 75-94.

(2) Anikovitch, Mihail V., «About character of hunting implements in the sites of the Kostenki-Streletskaya culture», in Bellier, Claire, Cattelain, Pierre et Otte,

ترجع هذه الأشياء على ما يبدو إلى المرحلة الأخيرة من الـ strélétien التي توافق في سانجير sungir الفترة ما بين الأعوام ٢٤٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠ قبل التاريخ المدون، المعاصرة للدور الجرافيتي الذي ينسب له المؤلفون هذه البقايا المذهلة.

وهنا تظهر كل صعوبة المهمة: فرغم وجود عدة دراسات وأبحاث تناولت كلها الموضوع - بتحليل أثرى أركيولوجي ومنهج تجريبي ومرجعيات إثنوجرافية، إلا أنه يتبقى الكثير لمعرفة أفضل، بأسلحة صيادي العصر الحجري القديم الأعلى[١]، غير أن هذه الأسلحة في مجملها تشهد بمعرفة أكثر من طريقة للقذف.

Marcel (dir.), La chasse dans la Préhistoire, Actes du colloque international de Treignes (1990), Bruxelles, Société royale belge d'anthropologie et de préhistoire («Anthropologie et Préhistoire», n°111) / université de Liège («ERAUL», n° 51) / CEDARC («Artefacts», n°8), 2000, p. 38-43; Maureille, Bruno, Les Premières Sépultures, Paris, Le Pommier / Cité des sciences et de l'industrie, «Les origines de la culture», 2004.

(١) بالإضافة إلى المراجع التي سبق ذكرها يمكن مراجعة:

. Knecht, Heidi (dir.), Projectile Technology, New York, Plenum Press, 1997; Fisher, Anders, Hansen Vemming, Peter et Rasmussen, Peter, «Macro and microwear traces on lithic projectile points: experimental results and prehistoric examples», Journal of Danish Archeology, n°3, 1984, p. 19-46; Plisson, Hugues et Geneste, Jean-Michel, «Analyse technologique des pointes à cran solutréennes du Placard (Charente), du Fourneau du Diable, du Pech de la Boissière et de Combe Saunière (Dordogne)», Paléo, n°1, 1989, p. 65-106; O'Farrell, Magen, «Les pointes de la Gravette de Corbiac (Dordogne) et considérations sur la chasse au Paléolithique supérieur ancien», in Bodu, Pierre et Constantin, Claude (dir.), Approches fonctionnelles en Préhistoire, Actes du XXVe congrès préhistorique de France, Nanterre (2000), Paris, SPF,2004, p. 121-138; Philibert, Sylvie, Les Derniers «Sauvages». Territoires économiques et systèmes techno-fonctionnels mésolithiques, Oxford, British Archaeological Series (BAR International Series, 1069), 2002; Pétillon, Jean-Marc, Des Magdaléniens en armes. Technologie des armatures de projectiles en bois de cervidés du Magdalénien supérieur de la grotte d'Isturitz (Pyrénées-Atlantiques), Treignes, CEDARC, «Artefacts», 2006; Goutas, Nejma, «Caractérisation et évolution du Gravettien en France par l'approche techno-économique des industries en matières dures animales», thèse, université de Paris I, 2004.

وإذا احتكمنا المسنونات التى كانت تعلوها يمكننا القول بأنها قد أوليت قدرًا كبيرًا من الاهتمام والعناية.

وبوسعنا إذا ما أخذنا فى الاعتبار "المآثر التقنية" لبعض المسنونات ورؤوس الأسلحة أو على الأقل ما تمثله من استثمار أن نتفهم بشكل أفضل لماذا استخدمت هذه العناصر – سواء أصابوا فى اعتبارها رؤوس قذائف أم أخطئوا فى ذلك – للتعريف بالـ "وحدات الثقافية"، خاصة وأنه خلف هذا الاستثمار التقنى يظهر المدى الاجتماعى والاقتصادى الكامل لنشاط الصيد ويمكننا القول إن بعض التطورات التقنية الأساسية التى حدثت خلال هذه الحقبة تتمحور حول هذه الأشياء. فنظرًا لكون هذه المعدات أكثرها خضوعًا للمعايير فهى أكثرها قابلية أيضًا للتحول والتغير عبر الزمان.

حتى نعمق هذه الرؤية ونزن تعريف الاستثمار الخاص بالأسلحة، يجدر بنا الالتفات إلى المكونات الأخرى للتجهيزات؛ أى باقى الأدوات. جدير بالملاحظة أن تعريفها الوظيفى ليس بوضوح تعريف الأسلحة. إذا كان يمكننا بسهولة تصور. بعض الأنشطة المنزلية (صناعة هياكل أبنية السكنى – وصناعة الملابس) فإن ترجمتها فى شكل آثار تؤول إلينا صعب. أما أكثر نشاط يمكننا فهمه وتناوله فهو معالجة الجلود للحصول على ثياب وأغطية، فهو الذى أوجد أنواعًا كثيرة من "المكاشط" ومن الأدوات الحجرية الحادة (الفجة أو المعدلة) مثل "المصقال" و"المثقاب" وإبر الحياكة المثقوبة وغير المثقوبة.(١)

والتعامل مع المواد الحيوانية الصلبة بادٍ وظاهر بوضوح من خلال الآلات الحجرية خاصة "الأزاميل" والنصال المعدلة "المثاقب" وكذلك الحال بالنسبة للأخشاب. غير أن التجهيزات والمعدات المتعلقة بتصنيعها، يصعب التعرف عليها

---

(١) تحظى الصناعات القائمة على العظام فى مرحلة ما قبل التاريخ بمجموعة مراجع متميزة نشرت فى صورة بطاقات تصنيفية قام بعملها أعضاء المجموعة البحثية التى أسستها وأشرفت عليها لعدة سنوات هنرييت كامب – فابرر. Henriette Camps- Fabrer.

بغير دراسة لما خلفته وراءها من آثـــار Etude tracéologique [(١)]، ويمكننـــا هنـــا التساؤل بشكل عام عن درجة الاستثمار التقنى والاقتصادى التى تحيلنا إليها هـــذه الأشياء، إلا أن ذلك يتوجب فيه الحذر من تبسيط الأمر واختزاله فى مقابلـــة بـــين التعقيد التقنى الذى قد نوليه اهتمامًا اجتماعيًا واقتصاديًا كبيرًا وبين العناصر الأقـــل جاهزية التى قد نسارع فى الحكم عليها بتدنى الأهمية.

واقع الأمر أنه كلما كانت مراحل التصنيع أو ما يعرف بالسلاسل المفـــصلة "المركبة" تجمع على إرسال إشارة أحادية المعنى كلما صعب تفسيرها؛ فالاستثمار التقنى أو الاقتصادى القوى له قيمة إيجابية والعكس غير صحيح. وطبقًا للـــسياقات يمكن أن تكون الحركة "البسيطة" ترجمة لقيمة سلبية أو عكسها.[(٢)]

ويلاحظ أن هناك تشيعًا من قطاع نشاط لآخر؛ ففى عملية قطع النصال علـــى سبيل المثال سنحاول تحديد المنتجات المستهدفة أولاً من هذا النشاط ثـــم المنتجـــات الثانوية المستخدمة فى أغراض أخرى. وقد ظهر أنه حينما يمكـــن الحـــصول مـــن "سلسلة مفصلة" واحدة على أسلحة وأدوات أخرى فإن النوع الأول تكون له الأولوية، هذا الاتجاه الذى لوحظ فى الفترتين الشاتلبيرونية والأزيلية وجد على مدار العـــصر الحجرى القديم الأعلى وبصفة خاصة فى السياقات الجرافيتية والسوليترية.

من ناحية أخرى فإنه فى داخل هذه السياقات نفسها حين تكون هناك "سلاسل مفصلة" منفصلة ومستقلة مخصصة لعمل دعائم لأدوات فغالبًا ما يصحبها أســـاليب بسيطة، سواء تعلق الأمر بقطع نصال أو شظفات.

---

(١) راجع الفصل الرابع.

(2) Astruc, Laurence, Bon, François, Léa, Vanessa, Milcent, Pierre-Yves et Philibert, Sylvie (dir.), Normes techniques et pratiques sociales. De la simplicité des outillages pré- et protohistorique, Actes des XXVIe rencontres internationales d'archéologie et d'histoire d'Antibes (2005), Juan-les-Pins, APDCA, 2006.

أما عملية قطع النصال بهدف الحصول على دعائم أسلحة حجرية، فهي بصفة عامة من الأهمية حتى أن القائم بعملية القطع ذاتها يدرك أنه سيحصل على إنتاج متميز لصنع معداته. والحصول فى نهاية عملية القطع على نصال سميكة يمكن أن يصبح ميزة تقنية واقتصادية، فعدم انتظامها يمكن مداواته ببعض لمسات التحسين وبالتالى فحتى لو كان هناك ترتيب تقنى فى الأهمية بين الأسلحة والأدوات فإنه يمكن للآلات المستخدمة فى الإنتاج الالتزام بمعايير محددة يسهل تطبيقها باستعمال قطع أو دعائم ذات مواصفات محددة قبل عملية القطع ذاتها.

غير أنه بالنسبة لقاطعى الأحجار، هذا الاختيار لم يكن كافيًا وبالتالى كان تفضيلهم لإنتاج تلقائى لدعائم الأدوات طبقًا لعمليات إنتاج متتالية "سلسلة مفصلة مرتبة". وهذا ما كان بشأن عمليات قطع النصال فى الفترتين الأورينياكية والمجدلينية ولدى بعض الجماعات التى لوحظ وجودها فى الفترة الجرافيتية (Rayssien و Protomagdalénien).[1] فى هذه السياقات المختلفة من الممكن القول إن الجزء الأكبر من المعدات يشي بوجود "سلاسل مفصلة" مستقلة تستند كلها إلى مهارات غير مسبوقة تتسم بالكثير من التشدد.

من هنا فإن التفرقة بين "السلاسل المفصلة" أو عمليات الإنتاج المخصصة لإنتاج الأسلحة والأدوات من زاوية الأسلحة ينبغى أن يقابله تناول آخر يتبنى

---

(1) Klaric, Laurent, «L'unité technique des industries à burins du Raysse dans leur contexte diachronique: réflexions sur la diversité culturelle au Gravettien à partir des données de la Picardie, d'Arcy-sur-Cure, de Brassempouy et du Cirque de la Patrie», thèse, université de Paris I, 2003.

أطروحة مقدمة إلى جامعة باريس ٢٠٠١.

أما بشأن الفترة ما قبل المجدلينية فهناك أطروحة جارى الانتهاء منها لبتريسيا جيلرمان Patricia Guillermin.

زاوية الأدوات، فمن تقابل الزاويتين وطريقتي التناول، يمكن تبين الفروق والاختلافات الهيكلية بين العديد من الصناعات فى العصر الحجرى القديم الأعلى وبينها وبين صناعات العصر الحجرى القديم الوسيط والميزوليثى.

على درب الصياد:

ما هى صورة الصياد الموستيرى سواء كان نياندرتاليًا أو إنسانًا عاقلاً "أركيًا" منظورًا إليه فى أوروبا (بالنسبة للأول) وفى الشرق الأدنى (بالنسبة لكليهما)؟

على نقيض ما تم تصوره لزمن طويل، ندرك الآن أن اقتصاده لا يرتكز بشكل أساسى على جمع الحيوانات النافقة وإنما على الصيد (فهو قادر على التصدى لأغلب فصائل الحيوانات التى قد تعترض طريقه) خاصة ما كان منها من آكلى العشب مثل الرنة والثور البرى والأيل والخيول والبيسون والجمال وحيدة السنام طبقًا للمحيط البيئى، إلى جانب بعض آكلى اللحوم التى تتسم بالقوة مثل الدب البنى[1]. من هنا فقد امتلك أسلحة مصنوعة، استنادًا لما تم من اكتشافات نادرة من أخشاب طبيعية ومزودة بروؤس حراب أو رماح من الأحجار المسنونة.[2]

---

(١) القارئ الراغب فى مزيد من المعلومات والمراجع المتعمقة عن إنسان العصر الحجرى القديم الوسيط وتصرفاته يمكنه مراجعة:

- Otte, Marcel, Le Paléolithique inférieur et moyen en Europe, Paris, Armand colin, «Civilisations U», 1996; Jaubert, Jacques, Chasseurs et Artisans du Moustérien, Paris, La Maison des roches, «Histoire de la France préhistorique», 1999.

(٢) أكثر الأمثلة شهرة على ذلك الحربة المصنوعة من شجرة "الإخسوس" ذات الرأس المدببة التى استخدمت النار فى تصنيعها والتى يصل طولها إلى ما يقرب من المترين وجدت فى موقع لهرنجن Lehringen الألمانى مغروسة فى جثة فيل اخترقتها شطفات ليفالوازية استخدمت فى تقطيعها.

كانت هناك اكتشافات مشابهة فى ألمانيا وإنجلترا فى موقعى شوننجن schöningen وكلاكتون أون سى clacton – on – sea، وقد بينت هذه الاكتشافات أن هذا النوع من الأسلحة معروف منذ مائتى وخمسين ألف عام قبل التاريخ المدون، أما الحراب ذات الرؤوس الحجرية فقد أثبتت

هذه الأسلحة تم بالفعل استخدامها طيلة العصر الحجرى القديم الأعلى، غير أن ما ميز هذه الحقبة بالفعل هو ازدهار صناعة المقـذوفات المرتبطـة بوجـود القاذفات التى لم يعرفها الصياد الموستيرى قط.

يمكننا ترتيبًا على ذلك تصور أن التعديلات التقنية التى طرأت بـين هـاتين الفترتين، ناتجة عن تضافر عاملين هما اختراع القاذفـة وانتـشارها. علـى ذات الشاكلة تمت النقلة بين تقنيات العصر الحجرى القديم الأعلـى، وتقنيـات العـصر الميزوليثى نتيجة تعميم استخدام القسى. ويمكن اعتبار النصيلة التى تم اسـتخدامها فى تسليح جعبة الحراب القصيرة قبل أن تعلو أطراف السهام، واحدة من الأعراض الرئيسية لكل من هذين التطورين.

وجودها دراسات وأعمال "جون شى" John shea التى أوضحت أن هذا النوع من الأدوات شـائع فى الصناعات الموستيرية فى الشرق الأدنى وأوروبا وهو على شاكلة الرأس الليفالوازيـة التـى وجدت فى ضلع حمار وحشى وجد فى موقع أم التلال الـسورى فيمـا بـين الأعـوام ٦٥٠٠٠ و ٥٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون.

هذا النوع من الأسلحة والتقنية المصاحبة له تسود القارات وقد وجدت آثار لها فـى العـصر الحجرى الأفريقى الوسيط، وطبقًا لما جاء به كل من جون شىء John shea وباولا فيلا poala Villa – فإنه حتى إذا كانت هناك رماح قد استخدمت مع الحراب فلا يوجد فى أى مكان أى دليل على وجود مقذوفات تستدعى استخدام قاذفة فى التقنيات السابقة على عام ٥٠٠٠٠ وربمـا ٤٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون.

Villa, Paola et Lenoir, Michel, «Hunting weapons of the Middle Stone Age and the Middle Palaeolithic spear points from Sibudu, Rose Cottage and Bouheben», Southern African Humanities, 2006, vol.XVIIIe, n°1, p. 89-122; Shea, John, «The origins of lithic projectile point technology: evidence from Africa, the Levant and Europe», Journal of Archaeological Science, vol.XXXIIIe, n°6, 2006, p. 823-846

هذه الدراسات تعارض الرأى القائل بأن الأسلحة المعقدة قد استعملت فى فتـرة مبكـرة مـن العصر الحجرى الأفريقى الوسيط.

Brooks, Alison S., Yellen, John E., Nevell, Lisa et Hartman, Gideon, «Projectile technologies of the African MSA: implications for modern human origins», in Hovers, Erella et Kuhn, Steven L. (dir.), Transitions before the Transition, New York, Springer, p. 233-256.

هذه الرؤية "البروميثيوسية" التى تجعل من اختراع سلاح سببًا فى تغيير متدرج – تدفع عالم ما قبل التاريخ إلى البحث عن محل نشأته وطرق انتشاره – تعد من وجهة نظرنا موجزًا سرديًا مختصرًا. وقد سبق للوروا – جورهان Leroi - Gourhan التأكيد على أهمية الظروف المحيطة بنشأة أى ملمح تقنى، وبالتالى من غير الممكن تصور أن اختراع سلاح ذى مواصفات مختلفة، أو تبنى استعماله، يمكنه أن يحدث تغييرًا فى التنظيم الاجتماعى والاقتصادى للجماعات التى تتبناه.

قد تجسد القاذفة تغييرًا ذا معنى ودلالة بين تقنيات العصرين الحجريين القديمين الوسيط والأعلى: مما لا شك فيه أن ذلك هو حال تعميم استعمال القسى فى مطلع العصر الميزوليثى. غير أن الجدير بالاهتمام هو القيم الاجتماعية التى طبقت على شروط فعالية السلاح الجديد. رأينا من قبل أن الجماعات فى الفترة الواقعة بين العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى قد محورت مهاراتها التقنية حول مجال الصيد. والواقع أننا نجهل إذا كانت هذه المكانة الجديدة للأسلحة الحجرية، التى سرعان ما تم الوصل بينها بقطع من العظم، تزامنت مع اختراع سلاح غير مسبوق مثل القاذفة أم أن هذا الاختراع قد نتج عن الانشغال المتزايد بهذا النشاط.

ولكن أيًا ما كان الأمر، فإن المدلول الاجتماعى لهذه المعايير – ونقصد هنا حقيقة أن يكون أو لا يكون الشغل الشاغل لصناعة هو البحث عن حلول تقنية لتصميم أسلحة ونوعية هذا السلاح – هو الذى يتوجب الالتفات إليه لتفهم اتجاه التغييرات الملاحظة.

تثبت تقنيات العصر الحجرى القديم الوسيط استخدام الأسلحة خلال هذه الحقبة، وهناك بالفعل جزء من المسنونات الحجرية التى تم تصنيعها استخدم كسلاح. هذا التوجه وجد فى "سلسلة مفصلة" تمنح إنتاج الأدوات الأخرى ذات

الأهمية، بل إن الاهتمام فيها قد يزيد بالأدوات المستخدمة فى عمليات التحويل، كالمكاشط التى يتم استعمالها فى التعامل مع خشب الأشجار وجلود الحيوانات.

وجدير بالذكر أنه خلال هذه الفترة لا ينبغى النظر إلى كل ابتكار فى طرق القطع والشطف(١) باعتباره سعيًا حثيثًا لإنتاج السلاح.(٢) نلاحظ من جهة أخرى أن مجمل الاحتياجات التى تسعى هذه التقنيات لتلبيتها وبدون ترتيب للأولوية بينها، متشابكة فى ذات "السلاسل المفصلة" أو مراحل التصنيع. وبالتالى يمكن القول إن طرق القطع خلال هذه الحقبة تعد الأفراد بتشكيلة منوعة من المنتجات وأن أى "سلسلة مفصلة" خاصة بالنحت والتشكيل قادرة ليس فقط على تصنيع أداة - غالبًا ما تكون متعددة الاستعمال كالفأس اليدوية - وإنما على الإمداد أيضًا بتشطيات وشطفات قابلة للاستخدام بطرق مختلفة. هذا التداخل فى الأهداف والغايات يوضح إلى حد كبير التناقض التالى: هناك فى العصر الحجرى القديم الوسيط طرق تقنية متعددة، غير أنه فى الوقت ذاته هناك صعوبة فى استخدامها لتحديد معالم "تقاليد" واضحة.

---

(١) لم نُشِرْ حتى الآن إلا إلى طريقة القطع الليفالوازية غير أن هناك طرقًا أخرى مثل القطع القرصانى (الذى يأخذ شكل القرص) والقطع على طريقة quina، هذه الطرق لاختلافها تنتج شطفات تتفق وأى تصميم مسبق تبعًا للسمك المختار والمواصفات المطلوبة منها كمسنونات أو نصال. (بعض طرق القطع الليفالوازية تسمح أيضًا بالحصول على كثير من هذه الأشكال التى تتفق وأنماط خاصة).

(٢) نشير هنا إلى معيار كثير العواقب والتبعات.

كان إنتاج النصال خلال هذه الحقبة على شاكلة ما كان من أنواع القطع فى العصر الحجرى القديم الوسيط يتم بواسطة مطرقة ثقيلة مما يستنتج منه أن السمك والثخانة التى كان يتم الحصول عليها عالية لم يتم استخدام المطرقة الخفيفة التى تسمح بالحصول على دعائم رقيقة إلا فى عام ٤٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون تقريبًا. وفى هذا الاستخدام دلالة على وجود تقنيات موجهة إلى إنتاج دعائم مسنونات. هذا الهدف يلعب دورًا كبيرًا فى تفسير هذا التغيير فى نوعية الطرق، ويمكن القول بالأحرى إن هذا النوع من المطارق سيكون ملازمًا لإنتاج النصال القزمية اللازمة للأسلحة فى صورة نصيلات.

انقلبت كل هذه المظاهر رأسًا على عقب بدءًا من عام ٤٥٠٠٠ قبل التاريخ المدون، حين بدأت القيم التقنية الخاصة بالعصر الحجرى القديم الأعلى فى إرساء دعائمها. بدأت حينذاك المطالبة بغايات تقنية واضحة، بل أكثر من ذلك، كانت هناك مطالبة "بسلاسل مفصلة أحادية التخصص". ظهر فى هذه الآونة ميل واضح للمسنونات المستخدمة فى صنع أسلحة، وحظى هذا الميل فى بعض السياقات بأولوية فى ترتيب الاحتياجات. وتجسد الحلول التى تم حينئذ التوصل إليها الانتشار المحتمل لأنواع جديدة من الأسلحة.

هذه الأنواع من الأسلحة من شأنها الإفصاح عن تغيرات اجتماعية واقتصادية محسوسة، كما أنها تعد ركيزة فى التعريف بالتقاليد التقنية التى يتيسر تحديدها نظرًا لوضوح غاياتها. غير أنه حدث انقلاب نتيجة هذه العلاقة الجديدة بين الأسلحة وباقى التجهيزات، الأمر الذى يعد فى نظرنا بالغ الأهمية.

ولكن الإفصاح عن غايات وأهداف محددة للتقاليد التقنية لا يعنى إمكانية ترتيبها وفقًا للأولويات. فأدوات العصر الحجرى القديم الأعلى تبدى من هذا الجانب مقاومة شديدة تجاه الأسلحة فى الصناعات الحجرية والعظمية.

فالأدوات غالبًا ما تتطلب خططًا اقتصادية خاصة بها ومهارات تقنية متقدمة مثال ذلك الفترة الأوريناكية بل والفترة المجدلينية.

هذا التوازن النسبى لا يختل طالما كان صنع النصال موجهًا لعمل أدوات وبشكل خاص حين يتم صنع الأسلحة من النصيلات أو حين، لصالح النوعين معًا، تستخدم مسنونات الحراب والسهام ومزاريق النصال كدعامة.

أما حين تتم صناعة رؤوس المقذوفات من النصيلات فقط، وتترك السلاسل المفصلة المستقلة بالنصال، سنجد أننا بصدد انقلاب آخر. غير أن الأمر هذه المرة لن يكون بسبب التمييز بين عالم الأسلحة وعالم الأدوات المنزلية وإنما بسبب

اعتماد وتكريس تفوق وسيادة الأولى على الثانية. هذه المرحلة تم اختبارها في العديد من طرق التعبير في العصر الحجرى القديم الأعلى ولم يتم بالفعل تجاوزها إلا بعد استقرار التقنيات الخاصة بالعصر الميزوليثى.

اعتبارًا من ذلك الحين ومن خلال عملية صنع "كل شىء من الشظفات" انصب اهتمام قاطعى الأحجار على صناعة السهام. والأداة التى ترمز لهذه الظاهرة هى "المكشط الحجرى القزمى" ويصنع من منتجات ثانوية ذات أبعاد صغيرة وهو أقل جودة من المكاشط النصالية التى عرفها العصر الحجرى القديم الأعلى. الأمر المؤكد هنا هو أن الجماعات الميزوليثية تولى اهتمامًا كبيرًا لآلاتها.

فالمكاشط الميزوليثية على سبيل المثال مزودة بمقابض، ويمكننا تصور أن هذا الجزء من الأداة تحديدًا هو ما استلفت الانتباه ربما أكثر من حافتها الحجرية الحادة. كانت هناك بالقطع آلات أخرى منها مجموعة كبيرة الحجم مصنوعة من أحجار أخرى غير حجر الصوان. ويرى كثير من المؤلفين أن هذه الآلات سمحت لهذه الجماعات بالتعامل مع خشب الأشجار[(١)]، وهى تحيلنا إلى جزء مهم من ثقافتها المادية التى لا نعرف عنها الكثير. والفارق الكبير بين الصناعات الحجرية فى العصر الحجرى القديم الأعلى والصناعات الميزوليثية لا يكمن فى درجة الاهتمام بتصنيع الأسلحة وإنما فى تقلص القيم التقنية المرتبطة بالأدوات المنزلية.

على مشارف العام ١٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون حلت الغابات بشكل نهائى محل السهب والتوندرا فى أغلب أنحاء أوروبا واختفت تدريجيًا حيوانات البلايستوسين العملاقة – مثل الماموث ووحيد القرن – فى مستنقعات وأخاديد سيبيريا. لدى استقبال القارة بنصالها القزمية العصر الميزوليثى شهدت أوروبا بأسرها حقبة اختلف فيها الزمن بشكل ملفت:

---

(١) نستند فى ذلك إلى الفرضيات التى وضعها بصفة خاصة هيوج بليسون Hugues Plisson وأوردها بوريس فالنتين Boris Valentin بشأن معول من الحجر الرملى Montmorencien.
Valentine, Boris, Jalon pour une paléohistoire ..., op. cit.

فبينما لم يجاوز العصر الميزوليثى فى بعض المناطق الجنوبية مثل اليونان ألفين وخمسمائة عامًا نجده يمتد لأكثر من ستة آلاف عام فى الكثير من الأقاليم الشمالية، أما الجزء الغربى من القارة فقد عرف مدى زمنيًا متوسطًا يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف عام.[1]

مثل هذه الفروق تكون مرتبطة بشكل مباشر بظاهرة قاطعة، حاسمة، تظهر فى ذات توقيت تعبير آخر صيادى العصر الميزوليثى: ونعنى هنا التقدم المتدرج للعصر الحجرى الحديث أو بالأحرى انتشارًا لا سبيل إلى الرجوع عنه لنمط إعاشة جديد روج له الفلاحون الأوائل. ظهر اقتصاد الإنتاج أول الأمر فى الشرق الأدنى وقت بداية دخول أوروبا فى العصر الميزوليثى[2]. واستوطن هذا الاقتصاد القائم على الزراعة والرعى بعد ذلك منطقة البلقان قبل أن يغشى القارة كلها عن طريق عدة سبل للاحتلال.

من هنا يمكننا القول إنه فى الشرق الأدنى وفى بقاع أخرى من العالم مثل (أمريكا الوسطى وآسيا. ..) هناك مرحلة انتقالية بين اقتصاديات القنص واقتصاديات الإنتاج يطلق عليها أحيانًا مصطلح "الميزوليثى".

غير أن ذلك لم يكن حال أوروبا، فالجماعات الميزوليثية الأوروبية جماعات صيادين ستتقلص المساحات أمامها نتيجة انتشار الاقتصاد الميزوليثى.

---

(١) كما ذكرنا من قبل، أغلب الأعمال التى تتناول هذه الحقبة تستخدم تأريخًا تقويميًا بفضل التعديلات الإصلاحية على التواريخ ("المعايرة") التى تتم على التواريخ المتحصل عليها من قياسات كمية الكربون المشع، ونحن ندرك تمامًا أن هناك فروقًا متفاوتة الصغر والكبر مع الأعمار الحقيقية، فتاريخ نحدده بقياس كمية الكربون المشع بالعام ١٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون يوافق فى حقيقة الأمر ٩٥٠٠ عامًا.

وقد حرصنا فى هذا النص، للاحتفاظ ببعض التماسك بين المعلومات الخاصة بالأحقاب السابقة التى يصعب فيها تطبيق القياس بكمية الكربون المشع، على اللجوء إلى التواريخ المحددة عن طريق نسب كربون مشع غير معايرة.

(٢) راجع الفصل الثالث.

ويمكننا على المدى الطويل أن نجد أن أكثر البلدان صمودًا ومقاومة قد طالها هذا التغيير مثال ذلك الأطراف الشمالية (اللابون) والشرقية (الحدود السيبيرية) التى ستزدهر فيها لاحقًا تربية حيوان الرنة بتطبيق كل سبل الرعى المدركة.

من هنا يمكننا القول بأن الميزوليثى فى مجمله، يجب أن ينظر إليه باعتباره المقدمة أو البديل الأوحد للمجتمعات الزراعية الرعوية فى العصر الحجرى الحديث.(١)

إذا كانت بعض الأقاليم قد بقيت بمعزل عن هذا التطور الصناعى، وبصفة خاصة المناطق الشرقية الواقعة بين شمال أوكرانيا وحدود جبال الأورال - فإن ولع أغلب الجماعات خلال هذه الحقبة بالنصال القزمية يعطى صبغة عامة وسائدة لصناعتها - أدى انتشار استعمال القسى إلى معاودة البحث عن بنيات صغيرة المقاييس والأبعاد. ويمكننا أن نرى خلف هذا التعريف النوعى لمعدات الصياد الميزوليثى اختيارات تقنية متعددة، وتصنيف لنوعيات بنيات غير قليلة.

وقد استند علماء ما قبل التاريخ إلى اختلاف المعدات وتنوعها فى وضعهم لحدود واضحة لوحدات زمنية وإقليمية وصولاً إلى تركيبة أكثر تعقيدًا من العصر الحجرى القديم الأعلى.

غير أننا وراء هذا التباين الثقافى الظاهر للجماعات الإنسانية الذى يشى بتنوع مهاراتها فى صنع رؤوس السهام، نلمس وجودًا مشتركًا لتطورات متدرجة عامة توضح اندراجها فى تيارات ثقافية أكبر تشمل وتجوب الجزء الأكبر من القارة. تتميز المرحلة الأولى من العصر الميزوليثى بالاتجاه إلى صنع مسنونات وأزاميل ومثلثات من الشظفات والنصيلات قابلة لتصغير أحجامها وتقليص أبعادها (بنيات أو هياكل

---

(١) Zvelebil, Marek, «Mesolithic prelude and Neolithic revolution», in Zvelebil, Marek (dir.), Hunters in Transition. Mesolithic Societies of Temperate Eurasia and their Transition to Farming, Cambridge University Press, 1986, p. 5-15.

قزمية وشديدة التقزم) فى مرحلة لاحقة وتحديدًا اعتبارًا من العام ٨٠٠٠ قبل التاريخ المدون، نلاحظ اتجاهًا إلى البنيات الكبيرة وخاصة "المربعات المنحرفة".(١)

نخلص من ذلك إلى أنه إذا كان يمكننا بين جماعات العصر الميزوليثى تبين وحدات إقليمية، فهذه الطرق فى التعبير مبنية على تيارات فكرية كبرى تشهد وتبرهن على قابلية صيادى الغابات للتأثر والتفاعل(٢).

تتبدى أهمية هذا التصرف من خلال تبنى نمط إعاشة جديد طبقًا لإيقاعات متباينة حين قدمت لهذه الجماعات أول اقتصاديات زراعية رعوية.

من جديد يتم تناول العصر الميزوليثى وصناعاته من زاوية الصيد؛ ذلك لأن الأسلحة تشكل فى واقع الأمر المعايير الرئيسية للتعريف بالوحدة الأساسية لهذه الحقبة.

إلا أن هناك مجالات يجدر أخذها فى الحسبان ونخص بالذكر هنا الأدوات المخصصة للتعامل مع خشب الأشجار مثل "الآلات الضخمة" التى يمكن أن ننسب لها بعض السياقات – مثل الماجلموزى فى شمال أوروبا – والفؤوس الحجرية التى تم العثور على بعض منها مصقولة.

---

(١) يجمع المراحل القديمة والوسيطة فى العصر الميزوليثى التى تتميز بصفة خاصة بانطلاقة المثلثات فى غرب أوروبا مصطلح "السوفتريون" Sauveterrien (وذلك فى الفترة الواقعة بين الأعوام ١٠٠٠ و٧٠٠٠ قبل التاريخ المدون). أما المرحلة الحديثة فيجسدها بشكل خاص "التاردينية" (Tardenoisien) و"الكاستانوفى" (Castenovien) (فيما بين الأعوام ٧٠٠٠ و٦٠٠٠ قبل التاريخ المدون)

ويمكن لمعرفة محصلة الأمر فى هذا الموضوع مراجعة مؤلف ميشيل باربازا الذى سبقت الإشارة إليه إلى جانب:

Valdeyron, Nicolas "The Mesolithic in France" in Bailey, Geoff et spikins, Penny (dir) Mesolithic Europe, New York, Cambridge university press, 2008, p 182 – 202.

(٢) راجع فى هذا الصدد المناقشات المثارة فى كتاب فالنتين بوريس الذى سبقت الإشارة إليه:

Valentin, Boris, Jalons pour une paléohistoire des derniers chasseurs...,op.cit.

راجع أيضًا:

Valdeyron, Nicolas, «The Mesolithic in France», op.cit.

ويتوجب التأكيد أيضًا على وجود قطع مصنوعة من العظام وقرون الآيايل في بعض السياقات الميزوليثية. كثير من هذه القطع عبارة عن مسنونات مقذوفات تحيلنا إلى عالم الصيد إلا أن هناك أدوات أخرى يمكنها التوافق معها. من هنا يمكننا القول إن تأثر هذا النشاط يجب أن يؤول من الناحية التقنية وبشكل أكبر من الناحية الاقتصادية.

ولصيد البحر أهمية متنامية فهو أكبر من أن يكون مجرد بديل للصيد البرى.

ويتميز العصر الميزوليثى بالإضافة إلى صيد الأسماك بتنوع كبير في نظامه الغذائى خاصة ما رجع منه إلى الموارد النباتية والفاكهة بوجه خاص (ثمار البندق والبلوط). هذا الميل لقطف الثمار يصاحبه ولع بجمع الرخويات مثل الحلزون والمحار البحرى الذين يتم جمعهما بكميات كبيرة كما تدل على ذلك حقول الحلزون القارية والأحجار الكلسية التى تضم الأصداف على طول بعض السواحل.

حظى العصر الميزوليثى بطقس معتدل أدى إلى نمو موارده الطبيعية مما عزز ظاهرة جمع الثمار والرخويات والأصداف. هذه الظاهرة سارت بالتوازى مع عمليات غزو لمساحات جديدة كانت قد بدأت فى العصر الجليدى المتأخر.

واقع الأمر أن المساحات المأهولة بالسكان أصبحت تغطى جزءًا كبيرًا من شمال أوروبا وأن استغلال مجموعة المرتفعات قد ازداد كثافة بينما بدا واضحًا أن السواحل قد اجتذبت بعض الجماعات.(١)

تسمح النماذج الإقليمية المستقرة فى الميزوليثى بوصف الكثير من السلوكيات: بعض الجماعات ظهر تفضيلها للاستقرار الدائم فى أماكن طبيعية تقع

---

(١) نشير إلى صعوبة مقارنة هذا الوضع مع أوضاع العصر الحجرى القديم الأعلى: غمرت المياه حدود السواحل المعاصرة لهذا الأخير، مما جعلنا نجهل مدى تردد السكان عليها خلال هذه الحقبة.

عندها ملتقى أكثر من مدى جغرافى بهدف استغلال عدة مجموعات من الموارد بدون الاضطرار لتغيير السكنى لمسافات طويلة.

فى أماكن أخرى نجد على نقيض ذلك، مسارات للرحل يهدف مختاروها على مدار الفصول الأربعة استغلال المواقع البيئية المختلفة موزعة على مساحات شاسعة. هذا ما نقله إلينا ميشيل بربازا وهو يشير إلى أنه فى بعض الأقاليم مثل إقليم "الألب"[(١)] هناك شبكة كاملة من المواقع المحددة الوظيفة لمحاصرة إمكانيات المكان بأفضل شكل ممكن. أيًا ما كان الأمر، فإنه اعتبارًا من هذه الحقبة ظهرت بين جماعات الصيادين جامعى الثمار بعض أشكال الإقامة والاستقرار الدائم.

ويمكننا القول إنه بشكل عام اكتسب اختيار استغلال الموارد السمكية أهمية كبيرة بالنسبة لاقتصاديات القنص التى اتجهت إلى الاستقرار: فصيد السمك ضمن أكثر من الصيد البرى دوامًا محليًا للموارد، خاصة إذا اقترن بممارسات حفظ بالتدخين أو التمليح.. إلخ؛ فالأمر هنا يرتبط بمفهوم أساسى وهو عمل مخزون غذائى.

أكد العديد من المؤلفين وبصفة خاصة ألان تستارت Alain Testart هذا الاتجاه إلى التخزين الذى نفترض وجوده فى سياقات مختلفة خلال هذه الحقبة وليس فقط فى نطاق نشاط الصيد البحرى والنهرى. (فقد أخذ شكل مخزون محاصيل) هو أحد مفاتيح التمييز بين اقتصاديات العصور الحجرية القديمة والعصور الميزوليثية.[(٢)]

خلاصة القول إن الصيد ليس أحد أوجه النشاط الاقتصادى لأغلب الجماعات الميزوليثية. وهذا هو السبب الذى من أجله أكد كثير من المؤلفين على الفروق

---

(1) Barbaza, Michel, Les Civilisations postglaciaires ..., op. cit. p 75

(2) Testart, Alain, Les Chasseurs-cueilleurs ou l'origine des inégalités, Paris, Société d'ethnographie, 1982.

مسألة التخزين تثير خلافًا بين الميزوليثيين وقد شكا بعض منهم من غياب الأدلة الملموسة.

العميقة بين هذه الحقبة وتلك الخاصة بصيادى البلايستوسين وهذا يغاير ما رآه جون – جورج روزوا Jean Georges Rozoy[١] من أن العصر الميزوليثى ليس إلا عصر ما فوق الحجرى القديم نظرًا لبقاء دور الصيد على أهميته.

وإذا كانت الجماعات الميزوليثية قد بقيت على ارتباطها باقتصاد القنص وهو ما يميزها عن الجماعات المثيلة فى العصر الحجرى الحديث ويقربها من أسلافها فى العصر الحجرى القديم، إلا أن بعضًا من اختياراتها تسمح بعدم تشبيهها بهذه الجماعات الأخيرة. هذا لا يعنى بالطبع أن جماعات العصر الحجرى القديم لم تكن تمارس بعض أنشطة العصر الميزوليثى مثل صيد البحر – الذى ثبتت ممارسته اعتبارًا من بدايات العصر الحجرى القديم الأعلى بل وتطوره فى عدة سياقات خلال العصر الجليدى المتأخر[٢] – ولم تكن تستغل البيئة النباتية.

غير أن الفقر النسبى لهذه البيئة النباتية بالتناقض مع الأعداد المتزايدة من القنيصة فى البرارى يفسر هيمنة اللحوم على الغذاء فى هذه الحقبة.

والأمر على العكس من ذلك، فالبيئة النباتية للجماعات الميزوليثية أثرت على بعض من توجهاتها الاقتصادية[٣] ثم على بنياتها الاجتماعية وعالمهما

(1) Rozoy, Jean-Georges, «Les derniers chasseurs...», op.cit..

(2) – Cleyet-Merle, Jean-Jacques, La Préhistoire de la pêche, op.cit.

-Le Gall, Olivier, L'Ichtyofaune d'eau douce dans les sites préhistoriques. Ostéologie, paléoécologie, Paris, CNRS, 1984.

(٣) طبقًا لتصنيف النظم البيئوية الطبيعية فإن الغابة تعد النموذج المثالى للنظام البيئى "المعمم" أى الذى يتصف بوجود أنواع وأجناس عديدة يمثل كل منها عددًا محدودًا من الأفراد وهو بذلك يتعارض مع النظم البيئوية "المتخصصة" فى الأماكن المفتوحة التى لا يظهر فيها إلا عدد محدود من الأجناس والفصائل ينتمى إلى كل منها عدد كبير جدًا من الأفراد. هذا التناقص يبدو جذريًا لسياقاتنا قبل التاريخية يعبر إلى حد ما جيدًا وإن كان بشكل مبسط . للغاية عن الفروق الأساسية التى ربما كانت موجودة بين أطر الحياة فى نهاية العصر الحجرى القديم والعصر "الميزوليثى".

Barbaza, Michel. Les Civilisations postglaciaires...,op.cit., p. 30-31.

الرمزى. ورغم ذلك فجمع الثمار نشاط للأسف لا يعرف عنه الكثير، مما جعل الصيد ومعداته أفضل تصور مادى للصلة بين الإنسان وبيئته.

ذكرنا من قبل أن انطلاقة البيئة الغابية استطاعت فى مطلع هذه الحقبة التهيئة لتعميم القسى ومن ثم عمل تنظيم اجتماعى مختلف للصيد. ركز ميشيل بربازا Michel Barbaza على فكرة أن التغيرات الملاحظة ليست مرتبطة فقط بالتعديلات البيئية وخلص إلى أن:

"اختفاء القطعان الكبيرة من آكلى العشب والذى لم يعوض عنه الأيايل والخنازير البرية فى الغابات المعتدلة الأوروبية بعد العصر الجليدى قد أنهت عمليات الصيد الكبرى: غير أنه أعلى من قيمة المهارة والحنكة الفردية وقرب الصياد من قنيصته التى أضحت من الناحية التقنية صعبة المنال."[١]

أفضى به هذا التحليل، على المستوى الاجتماعى إلى القول بأنه نتيجة لذلك:

"وضع التجديد العميق للنظم البيئوية بعد العصر الجليدى نهاية للتجمعات الكبرى وذلك لبعض الوقت فى أوروبا الغربية المحيطية. ويدا أنه يتجه بتفصيلاته إلى الوحدة الاجتماعية الأكثر تكيفًا وملاءمة وهى العائلة النواة أو البسيطة".[٢]

خلاصة القول أنه وبفرض عدم وجوب قصر تناولنا للجماعات الميزوليثية على مجال الصيد، يجدر بنا أن نعرف أنه كان مجالاً يحتل حيزًا مهمًا فى هويتها على المستوى التقنى وفى نطاق سمات تنظيمها الاجتماعى. كان الوضع على هذه الشاكلة رغم أن الوزن الاقتصادى لهذا النشاط أقل أهمية منه عند جماعات العصر الحجرى القديم.

(1) Id., «Du Paléolithique moyen à L'Epipaléolithique dans l'ancien monde», in Guilaine, Jean (dir.), La Préhistoire d'un continent à l'autre, Paris, Larousse, «Essentiels», 1989, p. 66-87, p. 72-73.

(٢) ذات المرجع ص ٧١.

من هنا تظهر معالم مسار تطورى ما: فمكانة أدوات التغيير وآلاته متميزة فى تكوين وإعداد تقنيات العصر الحجرى القديم الوسيط. أما فى العصر الحجرى القديم الأعلى فهى تحاول إيجاد توازن مع الأسلحة التى تحظى بالاهتمام والانشغال الأكبر، فى حين أنها خلال العصر الميزوليثى تخبو فى ظل الأسلحة. يمكننا القول إذن إن مكانة الأسلحة ترتفع على مدار الزمن مما يزيد هيمنتها على تقنيات ما قبل التاريخ.

مما لا شك فيه أن تقديم تطور السلوكيات المرتبطة بالصيد منذ العصر الحجرى القديم الوسيط بهذا الشكل، يضفى عليه مسحة كاريكاتورية. واقع الأمر أننا لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أنه إذا كانت هناك أنشطة تتطلب أكثر من غيرها صناعة معدات خاصة بها، فهذا لا يعنى أن ذلك يضفى عليها قيمة إضافية أعلى.

تعقيبًا على ذلك يمكننا الرد بأنه لدى أى جماعة ميزوليثية تأخذ صناعة سلة من لحاء الشجر لجمع الحلزون أو ثمار البندق من العناية ما تأخذه صناعة قوس أو بالأحرى رأس سهم من الصوان من عناية.

غير أنه فى أعيننا كل شيء يتعلق بترتيب معدات الصيد بشكل واضح فى السياق الصناعى للعصر الحجرى القديم الوسيط يناقض مثيله فى العصر الميزوليثى – ويكتنف المدلول الاجتماعى لهذا الاختلاف الكثير من الغموض.

معدات الصيد والتنظيم الاجتماعى

نماذج إثنولوجية:

ذهب ألان تستار Alain Testart إلى أنه "توجد علاقة عكسية بين أهمية التعاون فى عملية الصيد وأهمية الأسلحة".[1] برأيه هذا، يسير تستار فى ركب كثير

(1) Testart, Alain, Le Communisme primitif, t.I, Economie et idéologie, Paris. Maison des sciences de l'homme, 1985, p. 143.

من علماء ما قبل التاريخ وتفسيراتهم، وهو يقترح تحليل التطور التقنى الذى حدث بين المراحل القديمة فى العصر الحجرى القديم والعصر الميزوليثى باعتباره تقدمًا بطيئًا لمعدات الصيد يعزز شيئًا فشيئًا سلوكًا أكثر فردية. بعبارة أخرى فإن درجة التقنية المتزايدة للأسلحة تسمح بممارسة الصيد بشكل فردى، بدلاً من مطاردة القنيصة بشكل جماعى نحو الفخ أو الشباك الذى يستدعى وجود أفراد أكثر من الجماعة.

إذا ما تبينا هذه الرؤية فإن العصر الحجرى القديم الذى تطورت خلاله أسلحة القذف يبدو كحلقة تكوين فى هذا المدرج، سابقة على الميزوليثى الذى سمح فيه القوس بالتعبير بوضوح عن هذا الاتجاه "الفردانى". طبقًا لما ذكره ألان تستار Alain Testart فإنه بدءًا من الحقبة الميزوليثية "لم يكن الإبقاء على الصيد الجماعى إلا باعتباره نوعًا من الصيد المتخصص يتم اللجوء إليه فى حالتى تعقيد آلات الصيد أو استدعاء طبيعة القنيصة لوجود أكثر من صياد، وبالتالى فإن التعاون لم يعد هو الشكل أو النمط السائد".(١)

هذا التطور فى علم ما قبل التاريخ له ما يوازيه فى علم الإثنولوجيا المعاصرة، فبينما أولت أغلبية جماعات الصيادين جامعى الثمار المعاصرة أهمية خاصة لحيازة معدات تتيح الصيد بشكل منفرد أو بشكل جماعى محدود، نجد أن هناك آخرين يفضلون الطابع الجمعى لهذا النشاط. هذه هى حالة سكان أستراليا الأصليين الذين كانوا لا يعرفون القسي ويميلون إلى استعمال الرماح والحراب القصيرة التى يستعمل القاذف فى إطلاقها: لدى هؤلاء "يطغى التعاون على التجهيز والمعدات"(٢).

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٩.
عندما كتب ألان تستار Alain Testart هذه السطور لم تكن فرضية استعمال القسى فى العصر الحجرى القديم الأعلى قد طرحت بعد, وبالتالى كان القوس امتيازًا للعصر الميزوليثى.
هذه الملحوظة لا تنال من القيمة العامة للمعلومات التى يمكننا الحصول عليها من الكتاب.

(٢) راجع ص ١٢٩.

أما لدى جماعات البوشمن فى أفريقيا الجنوبية على سبيل المثال فيحدث العكس تمامًا.

ويرينا ألان تستار Alain Testart أن الطابع الشبه جماعى للصيد هو مردود لمسألة ملكية القنيصة وقواعد تقسيمها. من هنا، وباستثناء السياق الأسترالى نجد أن القنيصة التى يتم صيدها تكون ملكًا لأحد أعضاء الجماعة وعليه مهمة تقسيمها. أما الجماعات الأسترالية فالقنيصة لديها تبقى ملكية جماعية.(١)

هذه الملحوظات المتباينة توضح وتبرز العلاقة الوثيقة بين التقنية والاقتصاد والبنيات الاجتماعية. فى داخل هذا التحليل يكمن ما تم ارتضاؤه كمكانة للفرد وطبيعة علاقاته مع أعضاء الجماعة الآخرين.

التقسيم فى جميع مجتمعات الصيادين جامعى الثمار المعاصرة عملية ضرورية لممارسة اقتصاد الإعاشة، وهى فى شطرها الأعظم صدفوية ارتجالية. غير أننا لا يجب أن نخلص من هذا إلى الحكم بهشاشة هذه المجتمعات، فقد أوضح مارشال سهلينز Marshall Sahlins أن اقتصاد الصيادين جامعى الثمار المعاصرين ليس اقتصاد بؤس: ففى أغلب الحالات، يكفى الصياد ثلاث أو أربع ساعات فى المتوسط يوميًا ليضمن إعاشة نفسه وأسرته أو جزء من جماعته. فإذا لم يوفق فى الصيد، أصابه نصيب من تقسيم غيره. من هنا فهو إذا لم يبحث عن جلب المزيد من الغذاء فذلك لأنه ليس فى حاجة إلى ذلك فى عالمه.(٢)

---

(١) أوضح ألان تستار Alain Testart أن القنيصة ليست بالضرورة ملكًا لمن قام باصطيادها وصرعها: لدى بعض جماعات الـ Inuist تصبح القنيصة ملكًا لأول من لمحها. أما جماعات البوشمن Bushmen فتمنحها لمن صنع السلاح المستخدم فى اقتناصها. إلا أن كل صياد من البوشمن يحمل فى جعبته عدة سهام صنعها عدة أشخاص ويملك وحده قرار الاختيار بينها. وتكون القنيصة فى النهاية لصانع السهم المختار. أيًا ما كان من اختلاف بين هذه الطرق فى الحصول على القنيصة فإن هذه الأخيرة ستكون فى نهاية الأمر لفرد أو أسرة يقيم أود من يمتون إليه بصلة بعد تقسيمها. وإذا كان التقسيم يخضع لقواعد اجتماعية صارمة وملزمة فالملكية يعترف بها للشخص أو المجموعة المانحة.

(٢) فى المقدمة التى كتبها بيير كلاستر Pierre Clastres لأحد أهم مؤلفات هذا الكاتب بعنوان Age de pierre âge d'abondance لخص الأمر على النحو التالى خلافًا لما أورده Epinal من

يرى مارشال سهلينز Marshall Sahlins أن انتفاء الإنتاج الزائد عن الحاجة عند هذه الجماعات، هو أقرب ما يكون لانتفاء وجود الاقتصاد. فالاقتصاد ليس إلا إنتاجًا بوفرة تزيد عن الحاجة وتفيض حتى يمكن المبادلة. سار ألان تستار على ذات النهج فى التفكير، غير أنه حاد عنه بتميز، عندما حلل الوظيفة الاجتماعية لمثل هذا السلوك. فى أول الأمر وقياسًا على مقارنة بين عدة سياقات، أوضح تستار بالمخالفة مع رأى مارشال سهلينز أنه ثبت وجود فائض إنتاج لدى بعض جماعات جامعى الثمار.

محصلة الأمر أن هذا الشكل من مجتمعات الوفرة غير متوافر فى بعض السياقات فقط ومنها الأسترالية وهذه الوفرة ليست مملاة من ضغوط اقتصادية (بمعنى سبيل أولى أو وسيلة أولية للإعاشة) ولها قبل كل شيء دور اجتماعى. فهى قاسم فى العلاقات الزوجية التى تتحكم فى هذه المجتمعات خاصة فيما يتعلق "بثمن الخطيبة".(١)

هذه الجماعات من الصيادين جامعى الثمار تملك إذن بعض الثروات التى تساعد على الوفاء ببعض الالتزامات الاجتماعية وبصورة خاصة بالمهور المقدمة لأسرة العروس المختارة.

صور سابقة تصف الإنسان البدائى وقد طحنه محيطه البيئى تتهدده المجاعات ويساوره قلق دائم من تعريض ذويه للهلاك جوعًا (ص١٣).

"إن الرأى المثبت إثنولوجيًا القائل بأن الاقتصاديات البدائية من ناحية قليلة الإنتاج (فبعض أفرادها فقط يعمل لفترات قصيرة وبكثافة ضعيفة) ومن ناحية أخرى أنها تفى دومًا باحتياجات المجتمع (حاجات محددة من قبل المجتمع ذاته وليس من قبل أمر خارجى ملح) مثل هذا الرأى بما فيه من تناقض يفرض فكرة أن المجتمع البدائى مجتمع وفرة (قد يكون الأول من نوعه والأخير) ما دامت كل الحاجات فيه مشبعة" (ص ١٩).

Sahlins, Marshall Age de pierre, âge d'abondance (1972), Paris, Gallimard "Bibliothèque des Sciences humaines" 1976, preface de pierre clastres.

(١) هذا المفهوم مشروح بالتفصيل فى مؤلف أكثر حداثة:

Testart, Alain. Eléments de classification des socétés, Paris, Errance, 2005.

طبقًا لما أورده ألان تستار Alain Testart فإنه فى الجماعات التى ليست بها مثل هذه الممارسات والتى يكون فيها تجميع الثروات غير مجدٍ، نجد عادات أخرى تقوم بوظائف مماثلة فى شكل خدمات زوجية "كاضطلاع الخطيب بخدمة الخطيبة"[1]، فى مثل هذه الحالة لا تكون ضرورة اكتساب الثروات والاحتفاظ بها عديمة الفائدة فقط، بل ومخالفة للأعراف والقواعد المنظمة للمجتمع.

من هنا فامتلاك الثروات أو عدم امتلاكها والسعى للحصول على وفرة فى الإنتاج أو التقاعس عن ذلك يلبى أساسًا متطلبات اجتماعية رئيسية تجعل الاقتصاد والاختيارات الاقتصادية فى مكانة أعلى من مجرد الإعاشة الغذائية وتوفير القوت الضرورى.

وبالتالى فالمثال الأسترالى يوضح أن درجة تقنية الأسلحة بها دلالة على السلوك الجماعى المصاحب لاستخدامها، وأن قواعد ملكية القنيصة واقتسامها بها أيضًا أصداء لذلك. ترتيبًا على ذلك فإن طبيعة الأسلحة الأسترالية تصبح معيارًا لتحليل البنية الاجتماعية والاقتصادية التى تعد طبقًا لألان تستار Alain Testart واحدة من أندر نماذج "الشيوعية البدائية". وهو يرى أننا إذا ضممنا كل هذه المعايير معًا، فإن المجتمعات الأسترالية تصبح قريبة الشبه من جماعات العصور الحجرية القديمة التى تعزف عن كل أشكال الثراء وتعلى من تفضيلها للسلوكيات الجماعية.

على العكس من ذلك تمامًا، نجد أنه خلال العصر الميزوليثى كان الميل إلى تخزين الطعام عرضًا ودليلاً على نزوعهم للاكتناز، وهو ما يتفق ودرجة التقنية التى كانت تصنع بها معدات الصيد الفردية. ويعكس كل ذلك معًا وجود قواعد اجتماعية مختلفة جذريًا.[2]

---

(١) هذا المصطلح يقصد به مجمل المهام المحددة سلفًا التى ينبغى على المتقدم للزواج القيام بها لعائلة العروس تمهيدًا لعقد الزواج بها.

(٢) نذكر هنا بالمناقشات الدائرة حول ممارسة التخزين خلال هذه الحقبة.

فالواقع أن القوس يتيح ممارسة الصيد بشكل منفرد. أما تخزين الطعام بتقليله للمخاطر، فيقوى استقلالية الصياد وأسرته عن الجماعة. مجمل الأمر أنه بالنسبة لألان تستار فإن التخزين أحد أعراض التغير الاجتماعى الذى يؤكد التطور من العصر الحجرى القديم (حيث لا وجود له) إلى العصر الميزوليثى (حيث ينمو ويزيد) والعصر الحجرى الحديث (الذى ننتقل فيه من حفظ الموارد البدائية الأولية إلى إنتاج المواد الغذائية). من هنا فقد ذهب ألان تستار إلى إمكانية وجود قدر من الفروق الاجتماعية بين الصيادين جامعى الثمار فى العصر الحجرى القديم أو الأستراليين الذين يمثلون "الشيوعية البدائية" وجماعات الصيادين جامعى الثمار المعاصرين المقبلين على التخزين وهم الميزوليثيون، أكبر من الفروق الممكن وجودها بين هذه المجموعة الأخيرة وأمثالهم من مزارعى العصر الحجرى الحديث.[1]

---

(١) يميز ألان تستار بين ثلاثة مستويات من النمو فى مجتمعات الصيادين جامعى الثمار: المستوى الذى يتفق والعصر الحجرى القديم والذى أمكنه مشاهدته فى أستراليا المعاصرة وهو ما أطلق عليه "الشيوعية البدائية" حيث يسود السلوك الجماعى، والمستوى الذى يتميز من الناحية التقنية بوجود أسلحة أكثر تقدمًا تسمح للفرد بشىء من الاستقلالية عن مجموعته كما يتميز بالترحال للتكيف مع تغييرات الموارد الموسمية. وأخيرًا مستوى يتسم باستخدام المخزون الغذائى، الأمر الذى يعد مرادف لدرجة متقدمة من الاعتماد على الذات. هذا المستوى بإلغائه لضرورة التنقل يسمح للصيادين جامعى الثمار الذين تبنوا فكرة التخزين بالاستقرار الدائم أو شبه الدائم وبالوصول إلى درجة من الحضارة أعلى مما وصل إليه الصيادون جامعو الثمار الرحل.

وأكد تستار على فكرة أن التعريف بهذه المستويات لا يهدف إلى عمل جدول تطورى لنمو الإنتاج المادى وإنما العكس تمامًا. فالمراد هو تبيان أن هذا التطور يتم وفق هياكل موضوعة مسبقًا منها هياكل اقتصادية لمنتجات محددة بعلاقات فى الإنتاج.

Testart, Alain, Le Communisme primitif...op.cit., p. 172-173.

للتفكير فى هذا الموضوع بشكل أشمل. راجع:

id., Les Chasseurs-cueilleurs ou l'origine des inégalités...op.cit.

هذا المنطق فى التفكير يضفى مزيدًا من الإيضاح على المناقـشات الـدائرة حول مكانة أسلحة الصيد بين تجهيزات جماعات عصور "ما قبل التاريخ"، وبالتالى حول إحكام وسيطرة هذه المعدات عبر الزمان على تقنيات هذه الحقبة.

من هنا تم إقران القراءات التقنية بالقراءات الاجتماعية والاقتصادية لإعـادة النظر فى بعض الافتراضات:

باعتبار الإنسان قناصًا فالصيد فى عصور "ما قبل التاريخ" ينظر إليـه فـى بعده الوراثى. من هنا فتميز هذا النشاط طبيعى فهو ثمرة ميراث ترجع جذوره إلى أزمنة عصور "ما قبل التاريخ" البعيدة. يدعم هذه الرؤية ما هو شائع عمله وتداوله بين جماعات الصيادين جامعى الثمار المعاصرين الذين نقرأ بدائيتهم المفترضة من خلال نشاط الصيد هذا، غير أنه استنادًا لاستعدادات الإنسان الجسمانية يرى تستار أن الصيد:

"لا يكون ممكنًا إلا بفضل وسيلة مصطنعة ليست من المعطيـات الطبيعيـة الرئيسيات (أرقى من الثدييات)، [أول هذه الوسائل] فى غيـاب الأسـلحة المتقنـة الصنع هو إمكانية أن يتعاون الرجال لتحقيق هدف مشترك.(١)

وبعبارة أخرى:

"من غير الممكن أن يكون الصيد نشاطًا طبيعيًا للجنس البـشرى، ولنقـل حتى أنه لم يصبح ممكنًا إلا من خلال هذه العادة الاجتماعية فـى العمـل، وهـى التعاون مع الغير".

---

(1) I. Id., Le Communisme primitif...op.cit., p. 165.

من هنا فالصيد من وجهة نظره لم يؤد إلى التعاون وإنما العكس صحيح: فقد أدت الأهمية الكبرى التى أعطيت للتعاون فى نشأة السلوك الإنسانى، إلى تهيئة الأمر للقنص دون أنشطة الإعاشة الأخرى فى أول مراحل عصور "ما قبل التاريخ". لم يحدث إلا بعد ذلك بوقت طويل، وفى بعض السياقات فقط، إحلال تقنية الأسلحة تدريجيًا محل ضرورات هذا الاتجاه الجماعى.

تتناقض هذه المفاهيم مع فكرة أن التطور التقنى لمعدات الصيد يتلخص فى المزيد من فعالية السلاح بدون الاستناد الحقيقى للتغيير الضيق فى السلوكيات الاجتماعية. الواقع أن الأمر يتعلق هنا بالفردية فى الصيد والفردية عند الصياد: الطابع الجماعى للصيد ودرجة الفردية لدى الصياد.

هذه التطورات المشتركة مرادفة لتغيرات اجتماعية عميقة حدثت على مر الزمان.[1]

يمكننا بهذه الطريقة القول بأن درجة التقنية التى تسمح للصياد المنفرد بالابتعاد من المخيم مع أول خيوط الفجر حاملاً قوسه وجعبة سهامه وأن فكرة احتلال الأسلحة لمكانة متميزة فى الثقافة المادية، طبقًا للمعايير التى تسهم فى التعريف بهذا الصياد، هما ثمرة تغيير بطىء فى المجتمعات. وقد فرضت بدون شك هذه الصورة نفسها إبان الألفيات الأخيرة من عصور "ما قبل التاريخ".

---

(١) ذات المرجع ص ١٨٤.

تتعارض أهمية التعاون تمامًا مع فكرة قائمة على رؤية خاصة للصيد وتأثيره فى نشأة الطبيعة الإنسانية. وفقًا لهذه الفكرة "فإن الإنسان ذئب بالنسبة لأخيه الإنسان" ومن الواضح أنها استوحيت من أصل فاشستى. عارض ألان تستار Alain Testart ما جاءت به فى سطوره:

"التعاون والذكاء والآلات": تلك هى العناصر الثلاثة التى نتبينها فى أصل البشر. من المؤكد أنه يتوجب البحث عن سر ظهور الإنسانية إلى الوجود من خلال هذه العناصر وتداخلها وليس من خلال إعادة التكوين الفرضى لغرائز أو ميول احتمالية لم تترك أثرًا أركيولوجيًا واحدًا ومن الممكن أن تتسبب فى أسوأ أنواع التفكير بشأن الطبيعة النفسية والبيولوجية لإنسان ما قبل التاريخ.

بعبارة أخرى يجب تصحيح الصورة الساذجة لسلسلة طويلة إنسانية تمتد من عصور "ما قبل التاريخ"، أجيال متتابعة محبة للسعى والعمل وقوية الإرادة تابعت بدون كلل بحثها عن فعالية تقنية أفضل فى وقت بقيت فيه بنياتها الاجتماعية بطيئة التطور. جاء الصيادون جامعو الثمار المنتمون للماضى القريب والحاليون من مجتمعات تغيرت بعمق على مر السنين. تغيروا حتى أنه بات ضروريًا نقد الفكرة القائلة بأن ما تم من تعديلات يتلخص ببساطة فى التعقيدات المتزايدة لتنظيماتهم الأصلية على شاكلة نمو خلايا الجسم الحى. كما لو أن بنياتهم الحالية إذا ما نقيناها وما أبقينا منها إلا "أساس صفاتهم" أمكنها إمدادنا بالصورة الأصلية لنقائهم الأولى. ذلك أنه بتوالى التغييرات، ظهرت مجتمعات ذات بنيات مختلفة جذريًا وليس بها تعديلات طفيفة على بنية واحدة أساسية.

التأصيل التاريخى لتقسيم العمل وفقًا للجنس:

يحيلنا هذا النقاش الدائر حول وضع الصيد والصياد بالضرورة إلى مسألة تقسيم العمل فى هذه المجتمعات وبشكل خاص إلى تكامل أدوار الرجال والنساء. ما من شك أن خلف كلمة "صياد" تكمن الصورة الذكورية الأكثر شيوعًا فى هذا النوع من النشاط.

قد تكون الصورة التى رسمها إبينال Epinal كاريكاتورية بعض الشيء إلا أنها ترتكز فى أصولها على حقيقة إثنولوجية مفادها:

أنه عبر العالم تحتفظ الشعوب التى تمارس الصيد بهذا النشاط للرجل، أو لنقل أنها تميزه كنشاط ذى دلالة ذكورية. وفى المقابل نجد أن دور المرأة يتجسد فى جمع الثمار. خلال العقود الأخيرة تمت إعادة تقييم أهمية هذه العملية وبالتالى تم تصحيح تأثير النساء الاقتصادى. وقد أكد الأنثروبولوجيون من ناحية أخرى

على فكرة أنه عند مقارنة الصيد بجمع الثمار فإن تميز النشاط الأول يرتكز غالبًا على أفكار الملاحظ المسبقة أكثر منه على الحقيقة المعيشة من قبل القائمين بهذه الأنشطة فعليًا(١).

يلقى هذا النوع من إعادة التوازن الاقتصادى والرمزى ضوءًا جديدًا على التقسيم بين ما يقوم به الرجال وما تقوم به النساء، إلا أنه ينبغى تفسير الأساس الذى يقوم عليه هذا التقسيم.

هناك منذ زمن بعيد اهتمام بالقواعد الاجتماعية والأطر الأيديولوجية التى تحيط بتقسيم المهام بين الجنسين. غير أنه فى أغلب الأمر تعزى هذه القواعد الثقافية إلى طبيعة الأشياء ذاتها: فقوة الرجل - حتى لا نقول عدوانيته الخلقية - تتناقض وتختلف عن الاستعدادات الرقيقة للمرأة. هذا غير أن المرأة القائمة لشهور طويلة على رعاية الأطفال وإرضائهم لا يتسع وقتها للصيد بينما يمكنها القيام بجمع الثمار. من هنا وكما يقول لوروا - جورهان فإن كل مجتمع إنسانى بدائى قائم فى الأساس على علاقة تكليف وظيفى بين الرجل والمرأة وهو ما يطلق عليه "وحدة الإعاشة" أى "الخلية الأساسية المتماسكة والمرتبطة بالاحتياجات الغذائية". هذه الخلية تربطها بالخلايا المجاورة شبكة مبادلات وثيقة الصلة باحتياجاتها من التكاثر"(٢).

يتبنى كل عضو وضعًا مكملاً للآخر وفى ضوء استعداد كل منهما البيولوجى نجد أن الصيد يتبع بالمنطق الرجال ويصبح جمع الثمار من مهام المرأة.

---

(1) Endicott, Karen L., «Gender relations in hunter-gatherer societies», in Lee, Richard B. et Daly, Richard (dir.), The Cambridge Encyclopedia of Hunters and Gatherers, Cambridge, Cambridge University Press, 1999, p. 411-418.

(2). Leroi-Gourhan, André, Le Geste et la Parole, t.I, op.cit., p. 218-219.

هناك الكثير من العناصر التى تعارض هذه الحجج الفسيولوجية، أولها أن كثير من السياقات الإثنولوجية تسمح بإظهار فروق ودرجات فى مدى مشقة المهام الموكلة للرجل وصعوبتها فى مقابل المهام التى تضطلع بها المــرأة خاصـــة وأن النساء قد مارسن الصيد. غير أن الغريب أن هذه القواعد الفسيولوجية غير قابلـــة للتطبيق فى كل مكان، ففى الفلبين تتوقف نساء جماعات الــ Agta عــن ممارســة الصيد فى نهاية شهور الحمل وبضعة أشهر بعد ميلاد الطفل، أما فيما عــدا ذلــك فيمارسن الصيد أسوة بالرجال.(١)

هل هذا وضع استثنائى؟ الإجابة لا؛ لأن الاستثناء فى هذه الجماعة ليس فى أن تقوم المرأة بالصيد وإنما أن تستعمل فى ممارسته ذات الأسلحة التى يـستخدمها الرجل كالقوس على سبيل المثال. الحقيقة أن مشاركة المرأة فى الصيد أقل نــدرة مما يعتقد الكثيرون، وقد ذهب الكثير من المؤلفين مثل آلان تستار إلى أن المنع لا ينصب على الصيد وإنما على استعمال الأسلحة، وللدقة على استعمال البعض منها.

من هنا نرى فى كثير من الجماعات أنه من الممكــن للمــرأة مزاولـــة الـــصيد الجماعى أو الفردى باستعمال العصى أو الهراوات، أما استعمال القسى فهو أقل شيوعًا.

نتوقف هنا أمام سمة بالغة الأهمية. لِمَ لم تسخر التقنية المطبقـــة فـــى صـــناعة الأسلحة لجعل الصيد نشاطًا مشتركًا؛ أى لتمكين الأشخاص الأكثر ضعفًا من مزاولته؟

إذا كان اختراع بعض الأسلحة مثل القسى قد ساوى بين الرجال فى القـــدرة على الصيد مقللاً الفروق الجسمانية التى كانت تظهر جلية فى الهجوم بالحربة على ثور برى أو حيوان البيسون، فمثل هذا التطور لم يسر لصالح المرأة(٢).

---

(1) Endicott, Karen L. "Gender relations in hunter- gatherer societies", op. cit. p 411 – 418.

(٢) يثبت اللجوء إلى طرق أخرى للصيد فى العالم باستخدام السم على سبيل المثال وهو شائع، أن القوة البدنية التى قد تكون معيارًا للتفرقة بين الرجل والمرأة عير ذات بال أمام طرق أخـــرى كثيره للايقاع بالقنيصة.

كيف يمكننا قياسًا على ذلك تفسير استئصال أثداء نساء الأمازون؟ هل يترجم قانونًا فسيولوجيًا؟ أم أنه إثبات مجازى لقاعدة اجتماعية؟

بعبارة أخرى، التساؤل الحقيقى يدور حول سبب حظر الصيد بأنواع معينة من الأسلحة على المرأة. لاحظ ألان تستار بمقارنته لعدة سياقات إثنولوجية أن التابوهات التى تمنع المرأة من استعمال هذه الأسلحة تشترك كلها فى ذات المنظور للدم[1]. يهدف المنع عند العديد من الجماعات إلى الحيلولة دون تعامل المرأة مع دم الحيوان. وامتدادًا لذات المنطق منع ملامستها للأشياء المخصصة لإسالته. ويشير تستار هنا إلى تناقض غالبًا ما يتم الاستناد إليه بين دم الحيوان والدم الذى تفقده المرأة فى دورتها الشهرية وأثناء الولادة.

واصل تستار بحثه مفكرًا فى أيديولوجية الدم التى ترتكز عليها البنية الأساسية للمجتمعات الإنسانية البدائية. وبدت له هذه الأيديولوجية فى المجتمعات الأسترالية متجانسة مع تعريف "الشيوعية البدائية".

ففى هذه المجتمعات يختفى من يوقع بالقنيصة فى الصيد أمام الجماعة حتى أنه قد لا يكون له نصيب من لحمها عند تقسيمها، وفى هذه المجتمعات أيضًا يرغم المرء على اختيار زوجة من خارجها، ونظرًا لأن مدلول "أيديولوجية الدم" هو ضرورة أن تتصرف الأنا عن الذات وأن يقصى كل ما هو قريب "فإنه لا يمكن التغذى على ما تصيده اليد ولا معاشرة من ينتمى إلى ذات الجماعة جنسيًا"[2].

---

(1) Testart, Alain, Essai sur les fondements de la division sexuelle du travail chez les chasseurs-cueilleurs, Paris, Ecole des hautes études en sciences sociales, «Cahiers de l'homme (Ethnologie, Géographie, Linguistique)», nouvelle série XXV, 1986.

(٢) راجع: Id., Le Communisme primitif...op.cit., p. 452-453

ويرى تستار أن ذلك بالتالي يحدد "كيفية تقسيم العمل طبقًا للجنس كما نـراه عند الصيادين جامعي الثمار وكما استمرت بعد هذه المرحلة"[1]؛ ذلك لأن الدم بكل ما يرمز إليه محور حياة كل من الرجل والمرأة والعلاقات التي تجمع بينهما. فـدم القنيصة التي يتم الإيقاع بها (قضية ذكورية) ودم الولادة (قضية أنثوية).

"ونظرًا لأنه يتوجب الفصل بين الدماء فلا يمكن لذات المرء الاضطلاع بالقضيتين: وبما أن الولادة أمر يقتصر على المرأة تكون النتيجة الاجتماعية والأيديولوجية التي تأخـذ في اعتبارها التكوين الفسيولوجي أن يكون الرجل هو الصياد"[2].

"هذا ما يبرر الفصل الجذري بين عالم المرأة وعالم الرجل"[3] ويدفع بـألان تستار إلى الحد من هيمنة وسيادة الصيد لصالح الدور الحاسم للـولادة والإنجـاب، وقد سمح هذا التحليل "لأيديولوجية الدم" لتستار بإضاءة جوانب أخرى في موضوع تقسيم العمل، فهذا التابوه يشرح أيضًا توزيع الأنشطة والمهام، فـإذا كـان علـى الرجل صيد القنيصة وتقطيعها فإن على المرأة التعامل مع بعـض مـن أجزائهـا خاصة ما تعلق منها بالجلود.[4] من هنا يمكننا القول إن الرجال يتعاملون مع المواد المرتبطة مباشرة بالأنشطة المنوطة بهم. ولأن تقنياتها تقع في ذات حيز ما يقومون به من حركات؛ فقطع الحجار، على سبيل المثال، نشاط يقتصر على الرجال فـي أغلب السياقات الإثنولوجية التي كان يمارس فيها أو ما زال يمارس فيهـا حاليًـا.

---

(١) ذات المرجع صـــ٤٦٦.

(٢) ذات المرجع صـــ٤٧٠.

(٣) ذات المرجع.

(٤) ويفسر تستار هذا التوزيع للمهام على النحو التالي:

كلما تقدمنا في مراحل التعامل مع القنيصة كلما قل الاحتكاك بدمائها فإذا كان هناك دم يسيل أثنـاء التقطيع فهو دم حيوان ميت, كما أن مجال تحضير اللحم للحفظ وإعداد الجلود لا يفترض فيهما ملامسة لدماء. في كل هذه العمليات يفترض وجود تناقص في المخاطر يرتبط بطابع التعامل مع الـدم ومـدى المباشرة في التلامس كما يرتبط بالمدة الفاصلة بين موت القنيصة ومباشرة العمل في لحومها.

Id., Essai sur les fondements de la division sexuelle...op.cit., p. 49-50.

يستتبع ذلك أن يصمم الرجال المعدات التى يخصص جزء منها فى أغلب الأحيان لاستخدامات النساء فى التعامل مع الجلود (الملابس والأغطية...) والألياف النباتية (صناعة السلال .. إلخ). سمحت "أيديولوجية الدم" أيضًا لألان تستار بشرح عدم حظر الرجل من العمل فى جنى الثمار. فكثيرًا ما نراه يستبيح العمل فى هذا المجال بكل حرية. وغالبًا ما يرجع ذلك إلى البيئة المحيطة به وإلى الأهمية النسبية لجنى الثمار فى اقتصاديات جماعته.

وقد ينعكس الحال حين تكون السيادة والهيمنة الاقتصادية للصيد، ففى البيئات الباردة الثرية بالموارد الحيوانية تقل النباتات مما يجعل المرأة تشارك بدور أكبر فى الصيد ولكن ذلك يتم دومًا فى نطاق قواعد "أيديولوجية الدم" فقد يقتصر الأمر على مطاردة القنيصة فى عمليات الصيد الجماعى.

يستند ألان تستار إذن إلى بعض الأسس الفسيولوجية لشرح وتفسير تقسيم العمل على أساس الجنس، غير أنه يولى مكانة متميزة للتفسير الأيديولوجى للفروق البيولوجية بين الرجال والنساء.[(١)] ولكن هل بوسعنا تبين الآثار الأركيولوجية لمثل هذه البنيات الأيديولوجية على مر الزمان؟ نعرف بالتأكيد نهاية القصة ونعلم أنه فى المجتمعات الإنسانية الحالية أصبحت كل العلاقات بين النساء والرجال مقننة بشكل مفصل وكذلك أفعال كل منهما.

فى كل مكان نجد الأسرة النووية هى الوحدة الاجتماعية الأساسية التى تجسد هذا التكامل. ومن ثم فإن الصيد يبدو أكثر طرق التعبير وضوحًا فى تقسيم الأدوار بين طرفيها، والتساؤل هنا عن مدى أحقيتنا فى افتراض وجود هذه الصورة فى الماضى. كل ما يمكننا قوله هو أن الهوية التقنية للصيد وانفرادية الصياد قد

---

(١) لا يمكننا تفسير تقسيم العمل وفقًا للجنس استنادًا إلى للدم الذى تفقده المرأة شهريًا ولا إلى قدرتها الأقل على الحركة, يرتبط هذا التقسيم بأيديولوجية يصبح وفقًا لها لهذا الدم مدلول (بعبارة أخرى) لا يمكن فصل هذا التقسيم عن أيديولوجية لا تطاولها التفسيرات المقترحة لها فى التعقيد.

تعاضدنا بشكل تبادلى خلال العصر الحجرى القديم فى صورة توازن جديد بين معدات الصيد والتجهيزات المنزلية. يلحق بهذه الأخيرة أدوات تضمها السياقات الحديثة إلى دوائر الأنشطة النسائية مثل ما يخص التعامل مع الجلود.

ما مدلول هذا التطور؟

يمكننا القول فى نهاية الأمر إن هناك عدة تفسيرات ممكنة: إما أن تقسيم العمل وفقًا للجنس هو ملمح ينبع من المجتمعات الإنسانية والصيد فيه امتياز للرجل. من هنا يصبح لزامًا علينا ببساطة قبول فكرة أن الطابع الجماعى لهذا النشاط كان فى الماضى من القوة ـــ خاصة فى العصر الحجرى القديم الوسيط ـــ بحيث كان يتحكم فى القدر الضئيل من التقنية التى كان يستعملها آنذاك الرجال وحدهم.

هذا ليس كل شيء، ففى السلاسل المفصلة للإنتاج الحجرى (أى مجموعة العمليات المتتالية فى صناعته) نجد تداخلاً فى الوظائف يشى ليس فقط بالبعد الجماعى لمجمل الأنشطة الممارسة فى هذه المجتمعات وإنما بتداخلها الشديد فى بعضها البعض.

غير أننا يمكننا وضع فرضيات أخرى. فالطابع الجماعى والذى لا يعد إلى حد ما متميزًا تقنيًا للصيد يمكنه أن يعكس وجود بنيات اجتماعية لم يكن فيها تقسيم العمل مقننًا بشكل محسوم. افترض كل من ستيفن كون Steven Kuhn وماري ستينر Mary Stiener أن تقسيم العمل وفقًا للجنس لم يكن له شكل واضح خلال العصر الحجرى القديم الوسيط، وقد رأيا فى ذلك أحد معايير التمييز بين هذه الفترة والعصر الحجرى القديم الأعلى.(١)

---

(1) Kuhn, Steven L. et Stiner, Mary C., «What's a mother to do? The division of labour among Neandertals and Modern Humans in Eurasia», Current Anthropology, n°47/6, 2006, p. 953-980.

Sahlins, Marshall, Age de pierre, age d'abondance...op.,cit.2..

محصلة القول أنه يبدو مستحيلاً حسم الأمر بين هذه التفسيرات المتباينة. غير أن المعطيات التى بحوزتنا والرأى القبلى الذى كنا قد تبنيناه دفعانا إلى تصور مواقف تجاوز أكثر الصور شيوعًا لمجتمع إنسانى فى جوهره. ومعاودة تناول الأمر تقودنا إلى التساؤل عن مدى وجود هذه الوحدة الاجتماعية الأولية - اجتماع رجل وامرأة منظورًا إليه كجمع لمكونين رئيسيين "لوحدة إنتاج مستقلة" - الضرورية للتعبير عن المثل الأعلى للاكتفاء الذاتى للمجتمع البدائى وهو ما اقترحه مارشال سهلينز Marshall Sahlins.

هذه الخلية الأساسية تلحق بأسطورة أول زوجين فى الخليقة وصفات كل منهما وتعد نقطة بداية لكل التطورات اللاحقة.

لنبق حذرين فنحن لا نعرف على أى شكل كانت الأسرة أو الجماعة فى العصر الحجرى القديم، وبالتالى فنحن عاجزون عن تحديد البنيات الاجتماعية الفاعلة فى هذه الاحقاب البعيدة.

إلا أنه أثناء إجراء هذا التحقيق برزت بعض القيم، حتى وإن كان من الأوفق أن نبقى على عين الناقد؛ نظرًا لهشاشة الحجج الأركيولوجية. يجدر فى كل الأحوال إعادة النظر فى مكانة العصر الحجرى القديم الأعلى فى تطور السلوكيات البشرية. وحتى لو كان تحركنا يصاحبه جهل بالبنيات الاجتماعية المحددة التى كانت آنذاك، يمكننا تصور أن انطلاقة أسلحة الصيد وتقدمها طيلة هذه الفترة، التى تعد الأقوى تقنيًا، تفصح عن تعديلات وتغييرات مهمة.

إذا ما أعدنا هذا التطور المشار إليه إلى مكانه فى مجمل المدة، رأينا أن العصر الحجرى القديم الأعلى لا يشكل مجيئًا فجائيًا لإنسانية حديثة بمعنى الكلمة تناقض إنسانية العصر الحجرى القديم الوسيط. كذلك فالميزوليتى هو تتمة زمن عظيم هو العصر الحجرى القديم الأعلى الذى سادت فيه جماعات صيادين انفردت

بالهيمنة على الأرض دون منافس قبل أن يظهر إلى الوجـود العـصر الحجـرى الحديث لينازعها سيادتها.

خلاصة القول أن العصر الحجرى القديم الأعلى هو مفصلة بين عالمين. فى أنظارنا يجسد العصر الحجرى القديم الوسيط إنـسانية حفريـة لا علـى مـستوى القدرات الفكرية المسخرة لتصميم آلات هذه الفترة وإنمـا مـن ناحيـة المـدلول الاجتماعى لاختيارات الأفراد التقنية. فهذه الاختيارات تقتـرح الطـابع الجمـاعى للصيد وتظهر التداخل الغير مرتب لمجمل الأنشطة. على العكس من ذلك نجـد أن الميزوليثى هو الترجمة الأركية لمعظم المجتمعات "البدائية" من الصيادين جـامعى الثمار كما نعرفها من الناحية الإثنولوجية. فتقنية الميزوليثى، وهى تجـسد فرديـة الصياد، صدى لأساسات البناء الاجتماعى بأكمله.[1]

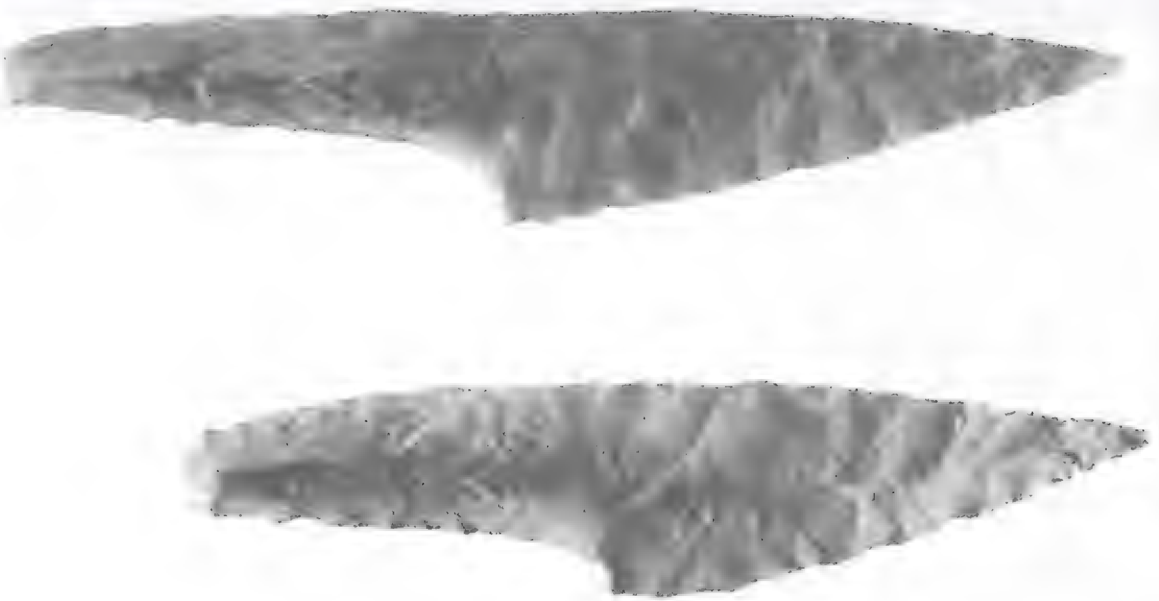
يمكننا التثبت بالطريقة ذاتها من بعض التوجهات الاقتصادية مثـل عمليـة التخزين، ولنفترض لتضافر كل هذه المظاهر أن جماعات الصيادين الميـزوليثيين تتسم بحداثة اجتماعية لا يدانيها فيها أمثالها من الرعاة والمزارعين. يفرد العـصر الحجرى القديم الأعلى كل ما لديه من فروق وقابلية للتأويل وهو يتبنى الانفراديـة فى الصيد ويولى الأسلحة كل الاهتمام ويزكى مكانة القادرين على استعمالها بدون الانصراف عن البعد الجماعى للصيد أو إنكار القيمة التقنية للأنشطة الأخرى.

بعض من ملامح هذا العصر تبدو مستقاة من ميراث العصر الحجرى القديم الوسيط، بينما تنبئ ملامح أخرى فيه عن مجيء العصر الميزوليثى. ويمكننا هنـا

---

(١) يسمح هذا التفكير بتجاوز الحدود الجغرافية التى حددها المقال لنفسه والتقنيات هنا يتم تناولها من ناحية مداها الاجتماعى. هذه التقنيات على ما تبدو عليه من تباين شديد - فلا شيء يجمع بين إنتاج الشطفات والنصال القزمية الأوراسية الأفريقية والفؤوس اليدوية الأمريكية تخـضع كلها لمنطق تطورى واحد: فالتفريد والترتيب المتدرج فى عالم الأسلحة معبر عنهمـا بـنفس الوضوح, ويتوجب مرة أخرى التفريق بين الانشغال الجماعى والحلول المتباينة.

القول إنه بين "communautarisme" "الاتجاه الجمعى" الذى تضفيه علـــى العـــصر الحجرى القديم الوسيط من ناحية و"التفردية" كما تبدو جلية فى العصر الميزوليثـــى من ناحية أخرى يمنحنا العصر الحجرى القديم الأعلى صورة قابلة لكل التأويلات. فجماعات هذا العصر ليست "حفرية" بالمعنى الكامل للكلمة، كما أنها ليست "بدائية" حديثة وإنما هى ممثلة لمرحلة حاسمة فى تطور متدرج لتغييـــرات فـــى القواعـــد الاجتماعية. شكلت إرهاصات لهذه التغيرات وليس تجسيدًا كاملاً لها مثلما ســـنرى فقط فى الفترة المفصلية بين البلايستوسين؛ وهو العهد الأحدث والدهر الهولوسينى؛ أى العهد الحديث كل الحداثة منذ نحو عشرة آلاف عام.



إزميل منحت سوليترية ذات فرضة من حجر الصوان تم جلبها من فورنو– دو– ديابل Fourneau- du-Diable (دوردونى Dordogn)

الفصل السادس
نبذة عن الجغرافيا البشرية
فى عصور ما قبل التاريخ

بيئة الصيادين ـ جامعو الثمار ومضامينها التقنية الاقتصادية:

خصص هذا الفصل لجمع كافة الموضوعات التى تتناول منظورنا للعلاقات القائمة بين جماعات العصر الحجرى القديم مع بيئاتها الطبيعية والبشرية.

ما هى أصداء الآليات التطورية التى تطرقنا إليها فى محيطها؟ سنبدأ فى معاودة تناول أسس مفهوم طالما تقدم المفاهيم الأخرى وهو تشيع جماعات الصيادين جامعى الثمار لبيئاتها الطبيعية.

الصورة الشائعة عن الصيادين جامعى الثمار هى صورة جماعات تعيش فى تناغم مع محيطها. كثير من النصوص الإثنولوجية تكرس جزءًا من تحقيقاتها للطريقة التى تتحكم بها بيئة جماعة أو أخرى فى تصرفاتها وسلوكياتها الاقتصادية والتقنية، فى معتقداتها وأيديولوجيتها ... إلخ

هذا التكيف يبدو جديرًا بالالتفات أكثر؛ نظرًا لأن معظم جماعات الصيادين جامعى الثمار الحاليين تستغل بيئات معروفة بضغوطها وصعوبة تطويعها. واقع الأمر أن هذه الجماعات قد دفعت تدريجيًا عبر آلاف من السنين إلى أطراف العالم فى ظروف غاية فى القسوة لم تستطع كلٌ من الزراعة والرعى أن تجد لها فى ظلها مكانًا، أو لنقل تمكنتا من ذلك فى وقت متأخر بدعم كبير من المهارات التقنية مثلما حدث مثلاً فى مجال الرى.

فى الصحارى الحارة والباردة حول قنوات بتاجونيا الرطبة، أينما يمكننا حتى يومنا هذا ملاحظتهم، استطاع الصيادون جامعو الثمار تنمية قدراتهم على التأقلم والتكييف التى أظهرتهم فى كامل بعدهم "البيئى". من هنا يمكننا القول إنه إذا كانت سلوكيات هذه الجماعات مملاة عليها من البيئة التى تعيش فيها كيف يمكن التفكير فى تطورها؟ كيف يمكن العودة إلى التغييرات التى أثرت فيها بمعزل عن العوامل الخارجية خاصة ما تعلق منها بالطقس؟ ونستثنى هذا التأثير شديد العنف غالبًا الذى يمكن أن يكون للاحتلال الحديث عليها.

هذه الملحوظات تبرر الفكر السائد بصفة خاصة فى العالم الأنجلوسكسونى الذى يولى البيئة الطبيعية أهمية بالغة. تسهم هذه الحتمية فى وضع نماذج إلى حد ما صالحة فى كل زمان ومكان، قائمة على أسس إثنولوجية. وقد تشيع الصيادون جامعو الثمار الذين استغلوا الموارد البرية فى طبيعة لا قبل لهم بالتحكم فيها لظروف بيئتهم. من هنا فسيصبح من الممكن تحديد تصنيف للردود السلوكية.

رأينا رغم كل ذلك أن هذا المنظور غير قادر على تفسير بعض التطورات من أكثرها وضوحًا إبان عصور "ما قبل التاريخ"، على سبيل المثال ما كان منها فى المجال التقنى.

ما يعد حقيقيًا على مستوى التغييرات التقنية الرئيسية - تعميم إنتاج الصناعات الشطفية والنصالية فى مجمل المنطقة الأوروبية الأفريقية Eurofricaine فى مطلع العصر الحجرى القديم الأعلى والعصر الحجرى المتأخر أو هندسة النصال القزمية فى نهاية الدهر البلايستوسينى ـ يثبت صدقه أيضًا عندما نحلل الأحداث على مستوى أقل زمنيًا وجغرافيًا.

الواقع أنه يبدو أن أغلب ثقافات العصر الحجرى القديم الأعلى الأوروبى قد سمحت للجماعات التى عاشت فى ظلها باستغلال مختلف النظم البيئوية أيًا ما كانت القيمة التى ينبغى إعطاؤها لمفهوم "ثقافة عصور ما قبل التاريخ". لنفكر على سبيل المثال فى تبنى بعض الملامح التقنية السائدة فى المرحلة الأورينياكية: هذه الملامح سواء تعلقت بالمنتجات الحجرية أم العظمية فإن علاقتها ببيئة محددة تبهت وتختفى أمام ظهور عوامل أخرى تشرح وحدها انتشارها الواسع عبر عدة نظم بيئوية.

حتى يتم تجاوز هذا التضاد حول دور البيئة ينبغى تحليل تأثيره على طرق التعبير عن السلوكيات البشرية بشكل أدق. من المؤكد أن موارد كل بيئة تتحكم فى بعض قواعد استغلالها. لنسق على سبيل المثال: إن الخواص الطبيعية وعادات الفصائل الحيوانية مضافًا إليها ظروف المشهد الطبيعى الذى تتطور فى ظله لها انعكاساتها على إستراتيجياتهم للإيقاع بالقنيصة؛ فمطاردة ثور برى تختلف بالقطع عن الجرى وراء أرنب. فى ذات السياق فإن نوعية دوام بعض الموارد ومداه لهما مردود مباشر على إخراج تقنية إلى الوجود ونجاحها. كل مجتمع يظهر بملامح تأقلمه مع بيئته غير أن هذا المفهوم يستحق التقييم بشكل صحيح: وهو يعنى، طبقًا لنا، التكيف مع ظروف طبيعية خاصة لامتيازات اجتماعية نابعة من دينامية داخلية.

بهذا المعنى فإن هذه الضغوط الطبيعية تعمل فوق القشرة السطحية للمجتمع وليست فى أعماقه، وبالتالى فإن فكرة تفضيل مسار أو منهج إلى حد ما جماعى فى مجال الصيد وتزكية التقنيات التى تمنح معدات الصيد مكانة متميزة، تستجيب لضرورات اجتماعية مستقلة عن ظروف البيئة الطبيعية. وبالطريقة ذاتها يمكن القول إن البيئة لا تفرض مطلقًا على جماعة بشرية الفلاحة أو الرعى وإنما يفرض ذلك تطور خاص بالإنسان ومجتمعاته. بالطبع يمكن للبيئة أن تشجع مثل هذا التحول السلوكى أو تعوق إتمامه غير أنها تفعل ذلك بشكل سلبى، بهذا الشكل تكون

البيئة وسيلة تطور وليست سببًا له. وطرق التعبير التقنية والاقتصادية الخاصة بثقافة ما، هى إذن خليط من المحددات الخارجية والتحديات الداخلية المستقلة تمامًا عن هذه الأخيرة.

لإعطاء هذه الرؤية طابعًا ملموسًا أكثر ينبغي إعادة تفسير كل أوجه أى نشاط بشرى بقيمة أى انخفاض طفيف فى التشيع لكل من البيئة المحددة والاختيارات الاجتماعية الفعلية فى آن واحد. ولتبيان هذا المنهج سنركز بداية على الأحجار والخطط الاقتصادية المأخوذ بها لاستغلالها قبل أن نتجه إلى الصناعات القائمة على العظم ثم نتناول بعد ذلك عملية الصيد. هذا البحث والتحقيق انتوينا عمله بمنظور تعاقبى تتابعى بدءًا من العصر الحجرى القديم الوسيط وحتى العصر الميزوليثى مرورًا بالعصر الحجرى القديم الأعلى.

التسبيق والتبعية:

الصورة الثابتة فى أذهاننا لجماعات العصر الحجرى القديم الوسيط بها قاطعو الأحجار يستغلون موارد معدنية متنوعة. وأغلب الظن أنهم كانوا يجلبونهم أفضل أنواع "الصوان" ويحسنون الاستفادة من أكثر المواد المتاحة جودة. غير أنه عرفت خلال هذه الفترة صناعات مذهلة من البلور الصخرى والسبج وهو حجر زجاجى أسود اللون واليشب – مما يثبت أنهم كانوا قادرين أيضًا على استخدام الصخور الأقل جودة.

بعد هذه الفترة بعشرات الآلاف من السنين لم يبد الميزوليثيون الذين جاءوا بعد هذه الفترة بعشرات الآلاف من السنين اهتمامًا بنوعية المواد التى يستخدمونها. كان حجر الصوان محل تفضيلهم بالتأكيد على خلاف سابقيهم الذين كانوا فى

العصر الحجرى القديم الوسيط يعتبرونه مثل غيره من الأحجار. غير أنه كانت هناك أنواع رديئة من الأحجار تحظى برضائهم[١].

أما العصر الحجرى القديم الأعلى فكانت متطلباته فى المواد المستخدمة أعلى بكثير. وقد نال الصوان خلال هذه الفترة مكانته المتميزة غير أن هذا لم يحل دون استخدام صخور أخرى مثل الكوارتز والحث الصوانى أو الكوارتزيت وحجر الجير الصوانى.

غير أنه بمقارنته بالعصر الحجرى القديم الوسيط نلحظ تغييرًا واضحًا فى الوضع؛ فقاطعو الأحجار فى العصر الحجرى القديم الأعلى ينتقون بعناية أنواع الصوان التى يستخدمونها. ورغم أن هذا النوع من الأحجار شائع فى بيئات وسياقات جغرافية عديدة فى أوروبا إلا أنهم كانوا دومًا يضعون خططًا لجلبه تضع فى حسبانها الانتقال إلى المنجم الذى يحوى أفضل النوعيات وحفظه ونقله فى صورة كتل خام أو أشياء مصنعة أو مخزون. لم يكن السوليتريون على سبيل المثال يترددون فى قطع مسافات طويلة للاستقرار بالقرب من المنجم الذى يحوى أفضل نوعيات الصوان التى تسمح لهم بإظهار أكمل مهارات العصر الحجرى القديم الأعلى.

حديثنا بالطبع هنا عن اتجاهات عامة يقابلها الكثير من الاستثناءات. فصناعات الثقافة "البادجولية" badegoulienne التى توسطت العصر الحجرى القديم الأعلى فى غرب أوروبا كانت غالبًا ما تعتمد على نوعيات رديئة من حجر الصوان، غير أنه حتى فى هذا السياق ثبت أنه كان يتم البحث عن صوان من نوعية جيدة لبعض العمليات التقنية.[٢]

---

(١) هذا النهج فى التفكير لم يدرج فى حسابه "الآلات كبيرة الحجم" المخصصة للتعامل مع الأخشاب الطبيعية والتى من المحتمل أن تتطلب فى صنعها بعض المواد الخاصة مثل الحجر الرملى.

(٢) راجع الأطروحة المقدمة من سيلفان دوكاس Sylvain Ducasse.

هناك تفسير لهذه التناقضات من الناحية التقنية: فعمليات القطع بالشطف فى العصر الحجرى القديم الوسيط سواء كانت ليفالوازية أم لا تجنح إلى استغلال مواد من نوعيات مختلفة ما دامت فى شكل كتل ضخمة بالقدر الكافى[1]. فى المقابل نجد أن عمليات القطع النصالية فى العصر الميزوليثى تتطلب أحجارًا ذات حبيبات دقيقة مثل الصوان ولا تتوقف طويلاً أمام الأبعاد أو انتظام شكل الكتل.

على النقيض من ذلك نجد أن تقنيات العصر الحجرى القديم الأعلى تتطلب أن تكون كل هذه المعايير مجتمعة حتى يمكن الحصول على منتجات تشظية ذات أبعاد كبيرة من أنواع من الصوان يسمح حجم حبيباتها وتجانسها بالحصول على حواف قاطعة حادة جدًا ومرهفة للغاية يسهل إعادة شحذها بشكل لا نهائى. عندما قل ثقل هذه الاختيارات التقنية والاقتصادية لصالح عودة الألق للقطع بالشطف أو التشظية، بدأت خطط اقتناء المواد تتطور بذات القدر. ويمكن القول إن هذا هو الحال فى التقاليد التقنية البادجولية.

تبلورت إذن عدة اتجاهات متعلقة بالموارد الطبيعية: أولها أن تقنيات العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الميزوليثى تبدو أكثر مرونة من تقنيات العصر الحجرى القديم الأعلى حتى وإن كان عدد كبير من صناعات هذه الفترة قائمًا على منتجات شطفية، وتعد الأنواع الجيدة من الصوان بالنسبة له أقل ضرورة. هذه المرونة تفسر قابليتها الشديدة للنقل للجزء الأكبر من البيئات الجيولوجية، بينما تفرض مهارات العصر الحجرى القديم الأعلى المزيد من الضغوط. بهذا المعنى فإن تقنيات الحجر خلال هذه الفترة أكثر تشيعًا للبيئة الطبيعية منها فى أى وقت آخر.

---

(١) لا ينبغى لنا هنا أن ننسى أن هناك مكونات نصالية فى بعض صناعات العصر الحجرى القديم الوسيط يمكنها الاكتفاء بكتل ذات أبعاد محدودة.

ما حقيقة الأمر؟

إذا ما سعينا إلى عمل ممالٍ للسلوكيات وفقًا للصناعات ولبعض من خواصها نلاحظ أن المنتجات الشطفية أكثر تبعية لموارد البيئة من قطع النصيلات.

والمنتجات النصلية فى العصر الحجرى القديم الأعلى مثل مثيلاتها فى العصر الميزوليثى قابلة للاكتفاء بمواد محدودة الأبعاد، سهلة المنال. وبالتالى فخطط الوصول إليها أكثر مرونة من تلك الموصلة إلى الكتل التى تخصص للإنتاج الشطفى.

من ناحية أخرى، يجب التأكيد أيضًا على التسبيق وتحديدًا على تخطيط الاحتياجات. فمع مجىء العصر الحجرى القديم الأعلى زاد تقسيم عمليات الإنتاج ومراحله وهو ما يعرف "بالسلاسل المفصلة" زمانيًا ومكانيًا، كما لوحظت زيادة فى حركة نقل الأشياء لمسافات تصل إلى عشرات بل مئات الكيلومترات.

جزء لا يستهان به من الأدوات التى وجدت متروكة فى العديد من المواقع والسياقات تمت صناعته من منتجات - شطفية على وجه الخصوص - تم الحصول عليها سلفًا من أماكن استقرار سابقة بالقرب من مناجم أحجار صوان تتصف بجودة عالية. هذه الأدوات كانت على ما يبدو فى حوزة جماعات من الرُحل دائمة الانتقال، يتضح ذلك من تبعثرها فى أماكن متفرقة على مساحات شاسعة تقطع منطقة طبيعية طولاً وعرضًا بل وقد تجاوز حدودها.[1]

(١) نجد فى الغرب على سبيل المثال أن الحدود بين حوض الأكتيان Bassin aquitain وإقليم اللانجدوك البحر متوسطى وحدرو منحدر جبال البرانس Pyrénées ما يتم اجتيازها بصحبة أدوات من الحجارة. لمزيد من المعلومات فى هذا الصدد يمكن مراجعة الأبحاث المجمعة فى الكتاب التالى:

- Jaubert. Jacques et Barbaza, Michel (dir.), Territoires, déplacements, mobilité, échanges durant la Préhistoire. Terres et hommes du Sud, Actes du CXXVIe congrès

بالإضافة إلى الدوافع التنظيمية والوظيفية التى أدت إلــى نجــاح صــناعة النصال يمكننا إضافة بعد اقتصادى خالص: الرغبة فـــى اقتنـــاء أدوات صـــالحة للاستعمال لمدة طويلة نظرًا لإمكانية شحذها إلى ما لا نهاية.(١)

من هنا نخلص إلى القول بأن الحاجة إلــى حيــازة أدوات ذات مواصـــفات معينة هو فى نهاية الأمر الدافع للتخطيط المتزايد للحاجات خاصة ما تعلــق منهــا بإطالة صلاحية الأداة.

ويندرج هنا مفهوم التشيع L'inféodation لمواصفات البيئة الــذى ســبقت الإشارة إليه فى ديالكتيكية ليس من اليسير تبينها: فالتقنيات الانتقائيـــة مـــن ناحيـــة المواد المستخدمة تبدو أكثر قدرة من غيرها على إنتاج أشياء ممتـــدة الــصلاحية وقابلة للنقل لمسافات طويلة.

تظهر لنا هنا طريقة لتجاوز الحدود بين بيئتين مختلفتين جيولوجيًا مغـــايرة لتلك التى تتم فيها مواءمة الآلات والتجهيزات مع الظروف المعدنية المتاحة.

يمكننا تطبيق المنهج ذاته فى التفكير على الصناعة العظمية، بعــض مـــن مكونات هذه الصناعة يتطلب خططًا حقيقية حتى يمكن الحصول عليها، مثال ذلــك العاج وقرون الأيايل. فالوقوع عليها بالطبع يكون وليد الصدفة – عثــور مفـــاجئ على هيكل عظمى لماموث يؤخذ منه النابان – أو بشكل منتظم.

---

national des sociétés historiques et scientifiques (Toulouse, 2001), Paris, CTHS, 2005; Féblot-Augustins, Jehanne, La Circulation des matières premières au Paléolithique. Synthèse des données et perspectives comportementales, Liège, «ERAUL», n° 75, 1997.

(١) تنطبق هذه الملاحظة بذات الطريقة على الصناعات التى تنتج النصال المستخدمة فى الآلات المنزلية (النفكر فى الدورين الأوريناكى والمجدلينى "الكلاسيكى") أو تلك التى تستخدم جـزءًا من هذه الدعائم لنفس الغرض بينما أخرى يتم تحويلها إلى أعمال التسليح (فى أغلب السياقات الجرافيتية والسوليترية على سبيل المثال، راجع الفصل الخامس).

إلا أنه لإقامة صناعة حقيقية ارتكازًا على هذه المواد، ينبغي ضمان التزود بها بشكل منتظم قائم إما على الصيد أو على جمع مخطط له كأن تتم على سبيل المثال مراقبة قطعان الرنة حين تفقد قرونها. أما الأدوات التى تستخدم فى صنعها عظام آكلى العشب بعد عملية الذبح فهى لا تتطلب تخطيطًا خاصًا للحصول على مكوناتها، فهى فى متناول اليد على مدار السنة عقب كل عمليات الصيد. من هنا يمكننا القول إن الأشياء التى يتم ضخها من العاج وقرون الأيايل والعظام لا تتفاوت فقط فى التشيع لظروف بيئية خاصة وإنما ترتكز مثلها فى ذلك مثل الأدوات الحجرية على مجموعة عريضة من ممارسات الاقتناء. وبالتالى يمكننا اعتبار أن بعض هذه الأشياء يصلح كدلالة بيئية ودلالة اقتصادية فى آن واحد بينما يكون البعض الآخر أحادى الدلالة.(١)

هنا أيضًا نجد أن الضغوط التى تفرضها طريقة جمع بعض المواد وخاصة قرون الأيايل تستحق أن تقيّم فى ضوء المعيار التالى:

تسمح خواص قرون الأيايل بالحصول على رؤوس مقذوفات يمكن استعمالها لفترات طويلة. هنا يعود بنا الحديث إلى فكرة التخطيط للاحتياجات التى لا يمكن فصلها عن مسألة علاقة الإنسان ببيئته. ونجد أن خلف الفكرة القائلة بأن بعض تقنيات العصر الحجرى القديم الأعلى أكثر تبعية وارتباطًا بموارد البيئة المحيطة بها من تقنيات العصر الحجرى القديم الوسيط، تختفى المشكلة الرئيسية الخاصة بتفعيل الاقتصاديات المخططة.

---

(١) راجع المثال الوارد فى كتاب:

Pétillon, Jean- Marc, "First evidence of a whale- bone industry in the western European Upper Paleolithic":

«Magdalenian artifacts from Isturitz (Pyrénées-Atlantiques, France)», Journal of Human Evolution, vol. LIV, n°5, 2008, p. 720-726.

هذا لا يعنى بالقطع أن مجتمعات العصر الحجرى القديم الوسيط لا صلة لها بأى شكل من التسبيق، بل يمكن القول بالعكس تمامًا فهذا المفهوم يظهر فى قدرة جماعات هذه الحقبة على الأخذ بحلول تقنية قابلة للتكيف مع ظروف متباينة. غير أن مرونة التأقلم التى يتسم بها العصر الحجرى القديم الوسيط والجهد المبذول فى التخطيط الذى يعرف عن العصر القديم الأعلى يجسدان وجهين متناقضين لمبدأ التسبيق الذى يطبقانه على موارد بيئاتهما.

ويجدر بنا من ناحية أخرى الاستفهام عن درجة التخصص الاقتصادى لجماعات الصيادين جامعى الثمار فى مجال القنيصة والموارد الغذائية الأخرى. قيل لزمن طويل إن اقتصاديات العصرين الحجرى القديم الأعلى والميزوليثى شديدة الارتباط بنوعيات معينة من الحيوانات حتى أن أولهما أطلق عليه "عصر الرنة". من هنا يمكننا القول بأننا بصدد اقتصاديات متخصصة على عكس العصر الحجرى القديم الوسيط الذى لم يعرف اقتصاده تخصصًا. نخلص من ذلك إلى أن الوضع قابل لأكثر من تأويل وكثير من أماكن سكنى العصر الحجرى القديم الوسيط تشهد بأنه كانت هناك تفضيلات لبعض أنواع القنيصة. أما مواقع العصرين الحجرى القديم الأعلى والميزوليثى التى مورس بها الصيد فتظهر أن الأمر كان أقل انتقائية حيال الموارد الطبيعية[1]. ولكن أيًا ما كان الأمر فإن هاتين الفترتين

---

(١) تناولت كثير من الكتابات هذا الموضوع نذكر منها:

Costamagno, Sandrine, «L'exploitation des ongulés au Magdalénien dans le Sud de la France», in Costamagno, Sandrine et Laroulandie, Véronique (dir.), Mode de vie au Magdalénien. Apports de l'archéozoologie, Oxford, Archaeopress, BAR International Series, 1144, 2003, p. 73-88; David, Francine et Enloe, James G., «L'exploitati[illegible] des animaux sauvages de la fin du Paléolithique moyen au Magdalénien[illegible] Desse, Jean et Audoin-Rouzeau, Frédérique (dir.), Exploitation des animaux sauvages à travers le temps, Actes des XIIIe rencontres internationales d'archéologie et d'histoire d'Antibes (1992), Juan-les Pins, APDCA, 1993, p.29-47;

الأخيرتين مالتا إلى الربط بشدة بين اقتصاد الجماعات، والنفادية الموسمية لبعض الموارد. أما فى العصر الحجرى القديم الوسيط فبدا الأمر أكثر ارتجالية.

فى نظر علماء ما قبل التاريخ يبدو دومًا الاقتصاد المتخصص أكثر عقلانية من التعامل مع المتاح وفق مجريات الأمور، غير أنه إذا كان المنحى الأول يقلل من العودة من رحلة الصيد بوفاض خال إلا أن للأمر وجهًا آخر. فاختيار الاقتصاد المتخصص للتعامل مع موارد البيئة يعنى إخضاع الفرد سلوكه لبعض الظروف الطبيعية الخاصة وهو ما يعرقل انتشار المنتج نظرًا لهشاشته حين تتبدل وتتغير البيئة المحيطة. وقد دفعت اقتصاديات العصر الحجرى القديم الأعلى التى بذلت جهدًا فى تنمية بعض أوجه التخصص ثمنًا لهذا الجهد.

أحد الأمثلة الأكثر رمزية فى هذا الصدد هو الدور المجدلينى.

ليس بوسعنا اختصار المنتمين إلى هذه الثقافة فى كونهم صيادين يطاردون فقط حيوان الرنة(١). فحتى فى المناطق التى يكثر فيها هذا النوع من القنيصة نجدهم يوقعون بحيوانات أخرى: خيول، بيسون، ظباء، أروس ... إلخ

Letourneux, Claire, «Quelle place pour le renne dans la subsistance aurignacienne? Réflexions à partir de quelques exemples de l'Aurignacien ancien», in Beyries, Sylvie et Vaté, Virginie (dir.), Les Civilisations du renne d'hier et d'aujourd'hui. Approches ethnohistoriques, archéologiques et anthropologiques, Actes des XXVIIe rencontres internationales d'archéologie et d'histoire d'Antibes (2006), Juan-les Pins, APDCA, 2007, p.345-361; Straus, Lawrence Guy, «A mosaic of change: the Middle-Upper Paleolithic transition as viewed from New Mexico and Iberia», Quaternary International, n°137, 2005, p. 47-67.

(١) راجع بصفة خاصة النقاش الثائر حول هذا الموضوع فى كتاب:

Sandrine. Costamagno, "l'exploition des angulés au Magdalénien dans le. Sud de la France", op. cit.

وجدير بالذكر أن الثقافة المجدلينية قد استطاعت الرمى بجذورها فى أقـــاليم أوروبية ليس بها حيوان الرنة مثل شبه جزيرة أيبريا، مما جعل الصيادين يتجهون إلى قنص حيوان الآيل. أيًا ما كان الأمر، فإن مطاردة الأيايل وخاصة الرنة تحتل كنشاط، بعدًا رئيسيًا فى الاقتصاد المخطط لبعض الجماعات المجدلينية. والأمر هنا لا يتعلق فقط بفكرة الحصول على غذاء دائم منتظم وإنمـــا علـــى مـــصدر لمـــواد ضرورية لعمل منتجات مادية مثل استخدام الجلود والقرون التى تحولت إلى واحدة من أثرى الصناعات العظمية فى العصر الحجرى القديم الأعلى.(١)

ونتذكر هنا التضمينات الاجتماعية المتصورة لمطاردة الحيوانات والإيقـــاع بها التى تأخذ شكل الممارسة الجماعية للصيد.

ندرك بشكل أفضل من كل ذلك أن الثقافة المجدلينية قد ارتجـــت واهتـــزت خلال العصر الجليدى المتأخر عندما ندر وجود هذا الحيوان ثم اختفى كليـــة مـــن أوروبا الغربية.

---

(١) وجدت فى كثير من مواقع الحوض الباريسى صور تمثل رحلات الصيد الموســمية لــصيد حيوان الرنة.

Julien, Michèle, «Activités saisonnières et déplacements des Magdaléniens dans le Bassin parisien», in Otte, Marcel (dir.), Le Magdalénien en Europe, Liège, «ERAUL», n°38, 1989, p. 177-192

كثير من الدراسات التى تناولت السياق البرانسى قد تحدثت عن الدرجة المتقدمة فى التخطيط فى مجال الصناعة العظمية وخاصة ما يخص أسلحة الحراب إلى جانب بعض معدات الصيد مثل المقذاف.

Averbouh, Aline, «Collecte du bois de renne et territoire d'exploitation chez les groupes magdaléniens des Pyrénées ariégeoises», in Vialou, Denis, Renault-Miskovsky, Josette et Patou-Mathis, Marylène (dir.), Comportements des hommes du Paléolithique moyen et supérieur en Europe. Territoires et milieux, Liège, «ERAUL», n° 111, 2005, p. 59-70; Pétillon, Jean-Marc, Des Magdaléniens en armes...op.cit.

ونسجل هنا أن واحدًا من أهم ملامح الثقافة المجدلينية يظهر جليًا فى الجهود المبذولة للوصول إلى تحكم وإدارة مخططة للموارد البيئية. لنأخذ مثالاً رمزيًا فى مجال المعدات الحجرية: يعد إنتاج الشطفات ذات الأبعاد والمقاييس الكبيرة، بل والكبيرة جدًا هو أساس وجوهر مهارات هذه الجماعات فى التخطيط لاحتياجاتها من المعدات الحجرية. ويستتبع الحصول على هذه الأشياء ضغوط اجتماعية تتمثل فى التعلم واقتصادية فى صورة إستراتيجيات غير يسيرة للتزود بحجر الصوان.(١)

هذه العناصر ستختفى تدريجيًا فى الألفيات الأخيرة من العصر الجليدى المتأخر ولا يصبح لها أثر فى مطلع الهولوسينى، مما أوجد حلولاً تقنية أكثر مرونة اتسمت بها خاتمة أغلب السياقات الميزوليثية. بدا الدور المجدلينى فى نهاية الأمر ككيان ضخم على أسس واهية مما جعل إستراتيجيات أخرى تفرض نفسها.

اعتبارًا من هذه الآونة بدأ إشباع الحاجات يرتكز أكثر فأكثر على مرونة التقنيات المأخوذ بها أكثر منه على إنتاج الأشياء ممتدة الصلاحية التى تستلزم الكثير من الناحيتين التقنية والاقتصاد. إلا أن تفهم دوافع هذا التغير يتطلب النظر بإمعان لتفاصيل الأحداث.

للتقنيات المجدلينية هى أيضًا خواص أكثر انفصالاً عن الظروف الخاصة بالبيئة المعدنية – نذكر منها على سبيل المثال منتجاتها النصالية – ويقودنا هذا إلى

---

(١) نتطرق هنا مرة أخرى إلى مؤلفات نيكول بيجو Nicole Pigeot التى سبقت الإشارة إليها فى الفصل الرابع. نذكر هنا أن القيمة الاقتصادية بل والاجتماعية للإنتاج الشطفى المجدلينى وبصفة خاصة خلال المرحلة الوسيطة من هذه الثقافة قد ظهرت فى سياقات ومواقع أقرب إلى الجنوب.

Simonnet, Robert, «Grandes lames de silex dans le Paléolithique supérieur des Pyrénées Centrales. Essai sur des documents marginaux», Bulletin de la Société préhistorique de l'Ariège, vol. XXXVII, 1982, p. 61-106; Langlais, Mathieu, Dynamiques culturelles des sociétés magdaléniennes...,op.cit., 2007

ملاحظة أن سجلات النشاطات المتماثلة تحوى مكونات ذات ردود أفعال متباينة تجاه تغيرات البيئة: نتوقف من بين الأوجه المختلفة لثقافتها المادية أمام رؤوس الحراب المجدلينية المصنوعة من قرون الأيايل والتى تعد من أكثرها اتفاقًا مع محيطها البيئى المحدد. أما النصال فأكثر تحررًا من هذا القيد.

فى مجال الأدوات "المنزلية" نشهد تبديلاً للمواد المعدنية وتطورات متلاحقة لها. نجد هذه المرة أن النصال هى أكثرها ارتباطًا وتبعية للبيئة بينما الأدوات المصنوعة من العظام (مصقال – مثقاب – إبر حياكة) أكثر مرونة حيال موارد البيئة. نلاحظ من خلال هذين المثالين أن الحلول التقنية الأقل التزامًا وحرصًا على طول مدة صلاحية الاستعمال هى الأقل تبعية للظروف الطبيعية.

شيء آخر يمكن اعتباره رمزًا ممثلاً لهذا التطور المتدرج ونقصد هنا به المسنونات الحجرية وتحديدًا رؤوس السهام والحراب. فى الدور المجدلينى الحديث تتنافس هذه الرؤوس الحجرية مع مثيلاتها من عظام القرون عندما تزيد أعداد حيوان الرنة وتأخذ مكانة متميزة حين تتراجع الصناعة العظمية. وهذا مما يعد أحد ملامح قوة التطور الأزيلى المتدرج الذى صاحب آخر ما عبر به العصر الحجرى القديم الأعلى عن نفسه.

هذا الشيء الذى يجسد المرونة التقنية والاقتصادية يسهل انتقاله فى البيئات الجيولوجية المختلفة – المأخذ الوحيد هو قصر مدة استعمال كل رأس.

تخبو أمام أنظارنا صورة إيبنال Epinal بجماعاتها البشرية فى صراعها مع الثلوج والبرودة، مع الطبيعة وتقلباتها: تصور هذه الأمثلة المتباينة مدى مساهمة هذه التقنيات وهذه الاقتصاديات التى تم اللجوء إليها فى مجتمعات ما قبل التاريخ فى وضع هذه الأخيرة فى علاقة ديالكتيكية مع الموارد المعدنية والحيوانية لبيئاتها.

بمضينا قدمًا وراء هذا المفهوم نجد أنه لزامًا علينا القيام بتحليل دقيق للتنظيم الزمكانى (الزمانى ــ المكانى) للأنشطة، وفقًا للاتجاهات التى مررنا بها مــرورًا عابرًا حتى الآن.

التنظيم الزمكانى (الزمانى ـ المكانى) للأنشطة ومضامينه الاجتماعية:

على العكس من الفكرة السائدة سلفًا، فإن جماعات الرحل لا تسير وتتنقــل منذ زمن بعيد كيفما اتفق الحال، وفق تقلبات الطقس والمتطلبات الوقتية للبقاء على قيد الحياة. وإذا كان اقتصاد أى جماعة من الصيادين جامعى الثمــار يفتــرض أن تنقلها يهدف إلى إشباع حاجاتها على مر الفصول فقد ثبت فى سياقات بيئية عديــدة أن ذلك يتم وفق إستراتيجية تنقل حقيقية. واقع الأمر أن التخطيط فى هذا النوع من الاقتصاد لا غنى عنه نظرًا لعدم ثبات الموارد الحيوانية والنباتية والمعدنية مكانيًا، وما لا يتطرق إليه الشك هو أن جماعات الصيادين جامعى الثمــار فــى العــصر الحجرى القديم كمثيلاتها فى الآونة الحاضرة مرتبطة بمكان تعرفه جيدًا، وتجــسد معرفتها هذه بعدًا أساسيًا فى هويتها، فهو مكان تعيش وتفكر فيه، تقطعــه طــرق وتحدده نقاط مستقرة فى الذاكرة الجماعية. ونشير هنا إلى أن المتطلبات الاقتصادية لا تعد وحدها سببًا كافيًا لتبرير هذا النمط المعيشى وتفسيره وإنه من المهم معرفــة الدوافع الاجتماعية الكامنة وراء هذا الترحال التقليدى.

تعلمنا الإثنولوجيا أن جماعات الرحل لها تكوين، ركيزته الهندسية تتطــور وفق دورات إلى حد ما سنوية. فهناك مراحل تفتت وانقسام للوحدات الاجتماعيــة غالبًا ما تعقب مراحل تجمع لها هذا إلى جانب مظاهر ارتباط متعددة تنسج بينهــا شبكة من العلاقات تبقى على مر الزمان وعبر المكان.

وقد سمحت سلوكيات جماعات الصيادين جامعى الثمار المعاصرين مثال ذلك جماعات الإينوى Iunits فى ألاسكا والبوشمان Bushmen فى كلهارى بصياغة نماذج متباينة للترحال والتنقل يرجع إليها علم ما قبل التاريخ.

غير أن علم الآثار يملك فى هذا الصدد شواهده: فعن طريق الدراسات العميقة للطبقات فى العديد من المواقع: فى الكهوف والمغارات وأحيانًا أيضًا فى الهواء الطلق وجد ما يثبت المجيء المتكرر للجماعات إلى ذات المكان على مدى أجيال وفق دورات تنقل تقليدية سنوية. ويؤكد هذه الرؤية للأمور من ناحية أخرى تحليل انتقال الأشياء وتفسيره - مثل العناصر الحجرية وأدوات الزينة. ..إلخ - وتحديد موسم احتلال موقع ارتكازًا على بعض مجموعات العظام الخاصة بقنيصة ثم الإيقاع بها لدى الوجود فيه.

من هنا يمكننا القول إن التنقل والارتحال هو تنظيم تقسيمات الأنشطة فى الزمان والمكان بشكل يجمع بين الضرورات التقنية والضغوط الاقتصادية والديناميات الاجتماعية. ويمكن تمييز هذا التوزيع للأنشطة وتبيّنه عن طريق وظيفة المواقع. والرؤية الشاملة للعصر الحجرى القديم الأعلى توضح أنه قد أمكن رصد مجموعة شديدة الثراء من المهام التكميلية. وقد وجد أن بعض الأماكن هى معسكرات متخصصة وأماكن للاستراحة من عمليات الصيد أو ورش لقطع حجر الصوان وصقله. بالإضافة إلى ذلك هناك سياقات أو مواقع مخصصة لممارسات رمزية وتشهد بذلك مغارات وكهوف عديدة حوائطها وأركانها مزينة ومزدانة وبمعزل إراديًا عن أماكن الشئون المنزلية، وهناك فى المقابل مواقع أخرى بها تجهيزات لأنشطة متفرقة. فى بعض من هذه المعسكرات المخصصة للإقامة تم إثراء مساحات الحياة اليومية بمراجع تشير إلى عالم رمزى فى صورة أعمال فنية متروكة بين الأماكن البارزة المخصصة لطهى الطعام ومخلفات أنشطة تقنية منوعة.

تدفع طبيعة هذه الملاحظات أحيانًا علماء ما قبل التاريخ إلى عمل تمييز وتفرقة جديدة بين هذه المعسكرات التي يوصف أميزها "بمواقع تجمع" تذكيرًا بما يوجد في بعض السياقات الإثنولوجية. ويتعلق الأمر غالبًا بأماكن تجمعات مشتركة.

يتم اللجوء إليها بشكل دوري في مقابل معسكرات أقل أهمية كان من الممكن في أوقات أخرى أن تقطنها وحدات اجتماعية أقل عددًا[١].

يوضح هذا التصنيف لأماكن سكنى الرحل، التنظيم الاقتصادي والهيكلة الاجتماعية للجماعات التي تمارس هذا النوع من الحياة. إذا ما التفتنا مرة أخرى إلى الإثنولوجية وجدنا لويس بينفورد[٢] Lewis Binford أحد قيادات مجموعة الـ New Archeology أو "علم الآثار الجديد" يقترح تمييز إستراتيجيتين رئيسيتين للاستغلال الإقليمي للموارد تفرق بين الصيادين جامعي الثمار الرحل الحفارين والجامعين، أحد أهم الاختلافات بين المجموعتين هو الاتجاه إلى تخزين الغذاء ونلقى هنا من جديد فكرة التخزين ولكن من زاوية مختلفة. وما يفرق عن حق وبصورة نهائية هذه المجموعات في نظر لويس بينفورد هو ميل الحفارين إلى إقامة معسكرهم المتنقل أقرب ما يكون من الموارد المتغيرة. وحين تقل هذه الموارد نجدهم ينقلون أماكن معيشتهم وفق مسار يهدف إلى زيادة عدد المعسكرات التي تضم أعضاء الجماعة على مر الفصول. بهذا الشكل كان وما زال يعيش أغلب البوشمن.

---

(1) Conkey, Margaret, «The identification of prehistoric hunter-gatherer aggregation sites: the case of Altamira», Current Anthropology, n° 21, 1980, p.609-630.

(2) Binford, Lewis R., «Willow smoke and dog's tails: hunter-gatherer settlement systems and archaeological site formation», American Antiquity (Journal of the Society for American Archaeology), vol. XLV, n° 1, 1980, p. 4-20.

على النقيض من هذا النمط، وهذه المرة نستند إلى قبائل الإينـــوى Iunits كمثال، نجد أن الجامعين يقيمون عامًا بعد عام عددًا أقل من معسكرات الإقامة. من هذه المعسكرات ينطلق بعض الأفراد إلى المساحات الشاسعة لجلب الغـــذاء لبـــاقى المقيمين. يطور الحفارون اقتصادهم على أساس نقل المستهلك إلـــى الغـــذاء، أمـــا الجامعون فيقومون بعمل العكس تمامًا، وهذا يفترض أن هناك مرحلة تخزين للغذاء قبل المضى به وتوصيله إلى المعسكرات التى يقيم بها باقى أفراد الجماعة(١).

كل هذه الاختلافات يتم تمييزها من زاوية تصنيف أماكن السكنى والآثار أو المخلفات المادية وهو ما يحظى باهتمام علم الآثار. وبينما نجد الحفـــارين أغلـــب الأمر فى معسكر إقامة أو فى المناطق المحيطة به نظرًا لعدم ابتعـــادهم عنـــه إلا لمهمات يومية، نجد أن الجامعين يقيمون بالتناوب بين معسكر أساســـى ومحطـــات ثانوية مقامة فى محيطه، تستخدم كمعسكرات صيد برى أو أمـــاكن صـــيد نهـــرى وبحرى أو أماكن المراقبة ونصب الفخـــاخ وتخـــزين اللحـــوم. إلا أن الحفـــارين يضطرون لنصب ما يشبه الخيمة يحتمون بها إذا ما ابتعدوا بعيدًا عن معـــسكرهم، وهذا ما يذكرنا باستراحات الجامعين للصيادين البرى والبحرى. هناك إذن هـــامش تتداخل فيه ممارسات المجموعتين وقد يعبر هذان النموذجان عن وضعين متطرفين لممال السلوكيات.

---

(١) "ينتقل الحفارون المستهلكون إلى المنتجات والسلع مما يزيد من انتقـــالاتهم، أمـــا الجـــامعون فينقلون البضائع إلى المستهلكين مما يقلل من ترحالهم". ذات المرجع صـــ١٥

جدير بالذكر أن المقصود بتخزين الأغذية هنا أمر مختلف عما تناولناه فى الفـــصل الـــسابق: فالأمر هنا لا يتعلق بتخزين أغذية فى معسكر الإقامة حتى يستهلكها كل أو بعض المقيمـــين مـــن الجماعة فيه خلال الموسم التالى وإنما حفظ ما تم صيده فى معسكرات صيد لنقله بعد ذلـــك إلـــى معسكرات الإقامة ليتم استهلاكه هناك. من هنا تظهر ضرورة ألا يعد اسم الجامعين الذى استخدمه لويس بينفورد Lewis Binford مرادفًا لعبارة "الصيادين جامعى الثمار الخازنين" التى نجدها فـــى سطور الكثير من علماء ما قبل التاريخ وعلماء الإثنولوجيا وبصفة خاصـــة ألان تـــستار Alain Testart.

قد يكون من المجدى تحديد قدر التزام مواقف العصور الحجرية القديمة بمجموعة سلوكيات متعارف عليها ومحددة طبقًا لهذه المعايير ثم تحديد الفروق الطفيفة التى قد توجد بينها. ما زال هناك الكثير مما يتوجب عمله فى هذا الصدد لأن كثيرًا من المواقف الأركيولوجية يصعب حتى وقتنا هذا تفسيرها.

يمكننا مع ذلك أن نلاحظ أنه فى أغلب سياقات العصر الحجرى القديم الوسيط وفى بعض فترات العصر الحجرى القديم الأعلى – الأورينياكية على سبيل المثال(١) – هناك رتابة وظيفية نسبية للمواقع – فكل واحد منها يمكن اعتباره معسكر إقامة تمارس فيه كثير من الأنشطة فى وقت واحد – وهى أنشطة إلى حد ما من المتعارف عليها وهو يشير إلى نمط انتقال منسوب للحفارين. هذا لا يعنى بالطبع أن المواقع المشار إليها متطابقة فهناك اختلافات وتغييرات من الممكن أن تظهر خاصة فيما يتعلق بنوعية الحيوانات التى يتم صيدها.

غير أن هذه المعطيات تتفق مع فكرة أن مجموع أعضاء الجماعة قد تواجدوا فى بيئة واحدة استغلوا مواردها قبل أن ينتقلوا إلى مكان آخر. وقد حدث العكس تمامًا خلال فترات من العصر الحجرى القديم الأعلى. فهناك جماعات قسمت ووزعت أنشطتها مكانيًا بين مقار إقامة طويلة المدى ومعسكرات أو استراحات إضافية أكثر تخصصًا فى الصيد. من هنا يمكننا القول على سبيل المثال إن الدورين الجرافيتى والسوليترى أكثر اقترابًا من نموذج الجامعين(٢).

---

(1) Bon, François, «Etre un ou plusieurs: quelles différences pour l'Aurignacien?», in Averbouh, Aline, Brun, Patrice, Karlin, Claudine, Mery, Sophie et Miroscchedji, Pierre de (dir.), «Spécialisation des tâches et sociétés», Techniques et Culture, n° 46-47, juillet 2005-juin 2006, p. 35-49.

(٢) لنأخذ كإطار الدور السوليترى فى المنطقة الأطلنطية، يعد البحث التالى أكثر ما قدم اكتمالاً فى هذا الموضوع.

تحول المعطيات المتاحة بيننا وبين سوق حجج قوية بالقدر الكافى لاختبار قيمة هذه النماذج المستوحاة من الإثنولوجيا.

بمقارنة هذه المعطيات بالمعطيات الأركية (الأثرية)، يبدو ممكنًا أن يكون العصر الحجرى القديم الأعلى فترة مليئة بالتناقضات من ناحية الإستراتيجيات المعمول بها لاستغلال إقليم ما. من ناحية أخرى، نجد أن الدلائل المؤكدة لنمو نمط حياة قريب من معيشة الجامعين، أكثر احتمالية خلال بعض مراحل هذه الفترة منها خلال الفترات السابقة فى العصر الحجرى القديم.

كيف يمكننا تفسير الظهور المفاجئ لممارسات قريبة الشبه من هذا النموذج خلال العصر الحجرى القديم الأعلى مع الاحتفاظ فى الوقت ذاته بتركيبة من المواقف المتناقضة؟

يرى لويس بينفورد Lewis Binford أن الأسباب الدافعة إلى تبنى واحدة أو أخرى من هذه الإستراتيجيات ترجع فى الأغلب إلى ظروف البيئة – وهو الأمر الأثير لدى المدارس الأنجلو – سكسونية. تجىء فى مقدمة الميل إلى طريقة أو أخرى فى إدارة مكان الإقامة أو الاستيطان، مدى التغيرات الفصلية ارتفاعًا وهبوطًا وطبيعة الموارد المتاحة.

Castel, Jean-Christophe, Chadelle, Jean-Pierre et Geneste, Jean-Michel, «Nouvelle approche des territoires solutréens du Sud-Ouest de la France», in Jaubert, Jacques et Barbaza, Michel (dir.), Territoires, déplacements, mobilité, échanges durant la Préhistoire. Terres et hommes du Sud. Actes du CXXVIe congrès national des sociétés historiques et scientifiques, Toulouse (2001), Paris, CTHS, 2005, p. 279-294;

Aurélien Simonet, «Les Gravettiens des Pyrénées. Des armes aux sociétés», thèse, université de Toulouse II-Le Mirail, 2009.

راجع أيضًا الدراسة التى أشرف عليها أوريليان سيمونيه Aurélien Simonet.

يبدو أنه بدون تجاهل تأثير المعايير النابعة من المحيط البيئى علينا أن نولى اهتمامًا لعوامل أخرى وأن نقيس البعد الاجتماعى لمثل هذه الحالات الاقتصادية. واقع الأمر أن تقسيم الأنشطة مكانيًا وهى إحدى أهم زوايا التناول بالتفسير فى رأى لويس بينفورد Lewis Binford يصحبه بالضرورة تقسيم اجتماعى للجماعة. يفترض وجود بعثات صيد تقود بعضًا من أفراد الجماعة إلى بعض المواقع، درجة من التفرد والاستقلالية لدى الصياد. إذا كان من الممكن تقسيم العمل بشكل مثالى بين جماعات الحفارين فمن هذه الفئة تحديدًا نتوقع عمليات الصيد الجماعى التى تشرك كافة أفراد الجماعة. أما نموذج الجامعين فيرسل من ناحيته إشارة أحادية المعنى لصالح الصيد الفردى مع بقاء باقى أفراد الجماعة بعيدًا عن محيط منطقة الصيد.

حاولنا فى الفصول السابقة تفسير البعد الاجتماعى المبطن للتطور التقنى الذى حدث فى الفترة الواقعة بين العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى[1]: التطور المتدرج للتفردية فى بعض الأنشطة مقارنة ببعضها أو لنقل تطورًا يقودنا إلى التأكيد على فردية الصياد وما يستعمله من معدات؛ فقد حلت القاذفة والقسى محل الرمح والحربة أو لنقل أضيفت إليهما، والسؤال الواجب طرحه هنا هو: هل كل انطلاقات التفسير هذه بها أصداء لفكرة أن الاستغلال بطريقة الجامعين نما بدءًا من العصر الحجرى القديم الأعلى، وأن الاستغلال على شاكلة الحفارين قد ساء خلال العصر الحجرى القديم الوسيط؟ واقع الأمر أنه شىء شديد الإغراء أن نعتبر أنفسنا فى نهاية الأمر أمام الظاهرة ذاتها معبرًا عنها هنا بمصطلحات خاصة بالإدارة الزمانية المكانية للأنشطة. من هنا يمكننا القول إن

---

(١) راجع الفصلين الرابع والخامس.

يرجع مجال البحث المشار إليه فى شطره الأكبر إلى أعمال لوروا – جورهان Leroi-Gourhan: الإثنولوجيا فى عصور ما قبل التاريخ فى خدمة تحليل وتفسير أماكن سكنى العصور الحجرية القديمة (راجع ما سبق فى الفصل الرابع).

مجموعة الاختيارات التقنية التى تم تسجيلها فى العصرين الحجريين الوسيط والأعلى تجد صدى إيجابيًا بين مجموعة اختيارات السلوكيات الاقتصادية المتعلقة بذات التطور المتدرج: تفردية الصياد.

إذا كانت الرؤية صائبة فلا يجب تلخيصها فى حركة "تحرر" أحادية الجانب من طرف الصياد. فالذى يقوم بتمييز شديد الوضوح بين أراضى الصيد والمساحات المخصصة للإقامة هو المجتمع بأسره. لا يوجد مكون إيجابى وهو الصيادون ومكون آخر سلبى بحجة أن هناك أفرادًا يبتعدون عن المعسكر فى حين أن الآخرين يبقون فيه: لكل أفراد الجماعة أدوار فى إعادة التعريف هذه، التى يتجسد فيها بشكل ما الوضع الاجتماعى لكل فرد، وإبراز الاختلاف الوظيفى لأماكن السكنى ليس كل شيء فهناك حجج أثرية تلقى بأضواء ذات دلالة قوية على هذا الموضوع مثل بنية وتنظيم هذه الأماكن نفسها.

بالإضافة إلى ظلمات ودياجير الكهوف، نتخيل غالبًا سكنى الرحل من الصيادين جامعى الثمار في العصور الحجرية القديمة فى شكل أكواخ سقوفها مغطاة بالجليد. هذه الأكواخ تتلاصق فى واد مهجور مشكلةً معسكرًا متواضعًا تتصاعد منه حلقات الدخان.

هذه الصورة تؤكدها معطيات فى حوزتنا عن العصر الحجرى القديم الأعلى الذى تم فيه جمع دلائل وآثار بقيت من هذه المعسكرات. أما الفترات السابقة على هذا العصر فصورتها باهتة. تبدو أغلب مواقع العصرين الحجريين الأدنى والوسيط سواء فى الكهوف أم فى الهواء الطلق فى صورة طبقات من البقايا والمخلفات – بقايا حجرية وعظمية تبعًا للسياقات والمواقع وظروف الحفظ – يصعب غالبًا من خلالها تحديد معالم السكنى بمعنى البنية أو الهيكل: هل كانت مجرد ساتر أم كوخ أم بناء آخر يجسد شكل الحيز الحياتى والمعيشى؟

ترجع الأمثلة[1] القليلة المعروفة إلى الألفيات الأخيرة فى العصر الحجرى القديم الوسيط، وعلى النقيض من ذلك نجد غزارة فى الشواهد بدءًا من العصر الحجرى الأعلى.

يتوجب بالطبع أن نأخذ فى الحسبان هشاشة المواد التى استخدمها هؤلاء المهندسون الرحل علمًا بأنه فى أغلب الأحوال لم تكن تصلنا من تجهيزاتهم إلا آثارًا واهية.

ولكن أيًا ما كان الأمر هناك مواقع كثيرة ترجع إلى ما بعد العام ٤٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون وتشهد بوجود هذه التكوينات. لنتخيل ما كان من الممكن أن تبدو عليه هندسة العصر الحجرى القديم، يكفى أن نستدعى إلى الذهن الأكواخ المصنوعة من عظام "الماموث" التى تم اكتشافها فى السهول الطبيعية بوسط وشرق أوروبا.[٢]

وتعد النار شاهدًا آخر فقد عرفتها البشرية وأفادت من خواصها منذ مئات الآلاف من السنين[٣] إلا أنه من الملفت ملاحظة أن استعمالها لا يبدو نظاميًا خلال

---

(١) المثال الذى تتم دومًا الإشارة إليه هو الهيكل الذى تم اكتشافه فى موقع مولودوفا الأوكرانى ويرجع إلى الدور الموستيرى فى العام ٤٤٠٠٠ قبل التاريخ المدون. راجع فى هذا الصدد:
Bourguignon, Laurence, Sellami, Farid, Deloze, Valérie, Sellier-Segard, Nathalie, Beyries, Sylvie et Emery-Barbier, Aline, «L'habitat moustérien de "La Folie" (Poitiers, Vienne): synthèse des premiers résultats», Paléo, n° 14, 2002, p. 29-48

لنظرة إجمالية فى موضوع السكنى فى العصر الحجرى القديم الوسيط راجع:
Jaubert, Jacques, Chasseurs et Artisans du Moustérien, op.cit.,1999

(٢) فى هذا الجزء من أوروبا حيث كانت جماعات الماموث أغزر منها فى المناطق الغربية وبالأحرى البحر متوسطية وحيث كانت الأخشاب الطبيعية عنصر ندرة استخدمت جماجم وأنياب وعظام الماموث الطويلة كمواد للبناء. أحد أهم الأمثلة المسوقة فى هذا الصدد والتى ترجع إلى عصر الحجرى القديم الوسيط هو كوخ "مولودوفا" الذى سبقت الإشارة إليه. غير أن أغلب هذه التكوينات المذهلة ترجع إلى مراحل مختلفة لاحقة للعصر الحجرى القديم الأعلى (وبصفة خاصة إلى الفترة الجرافيتية الشرقية وفوق الجرافيتية فى ذات المناطق).

(٣) فى أوروبا على سبيل المثال يرى البعض أنه قد أحسن استخدام النار منذ نحو أربعة أو خمسة آلاف عام.

العصرين الحجريين الأدنى ثم الوسيط، إذ لا يتم الالتجاء إليها إلا بشكل دقيق لإشباع وتلبية حاجات محددة (التدفئة – الإضاءة – أو طهى الأطعمة). استنادًا إلى المعطيات التى تم التوصل إليها فإن استعمال النار بكثرة لم يكن إلا فى النصف الثانى من العصر الحجرى القديم الوسيط؛ أى بعد مائة ألف عام تقريبًا أى أنها لم يكن لها تواجد دائم كما سيكون الأمر لاحقًا. واقع الأمر أنه اعتبارًا من العصر الحجرى القديم الأعلى فقط يمكننا أن نجد ارتباطًا بين تعريف السكنى ووجود النار: ويمكننا القول إنه باستثناءات نادرة توضح كل مواقع هذه الفترة، بالقدر الذى تتيحه ظروف الحفظ للملاحظة، أهمية النار ضمن التجهيزات المكانية. وعلى شاكلة السكنى التى تحمل دلالتى الحماية من تقلبات الطقس والتحديد المساحى للحياة المنزلية، نجد أن النار تتجاوز البعد الوظيفى لها لتكتسب معنى إضافيًا هو "البيت" بالمعنى الاجتماعى للكلمة.

من هنا يمكننا القول إن البنية المعدة للسكنى والاستعمالات المقترنة بالنار هما التجسيدان الماديان للتعريف الجديد لمفهوم سكنى الإنسان.

نجد فى ذات السياق أنه بينما لا تشى أغلب مواقع الفترة السابقة على الأعوام ٤٠٠٠٠ و٥٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون عما يصلح أن يكون شاهدًا على توزيع مكانى ومساحى دقيق للأنشطة فى أحد مقار العيش، نجد غالبًا آثارًا لأنشطة مثل القصابة وقطع الصوان شديدة التجاور أو موزعة بشكل ارتجالى مما يوضح أن هناك تطورًا فى الأمر اعتبارًا من هذه الفترة.

وجدير بالذكر أنه أثناء الألفيات الأخيرة من العصر الحجرى القديم الوسيط وتحديدًا اعتبارًا من مطلع العصر الحجرى القديم الأعلى أصبحت السكنى خاضعة لإدارة أكثر تحكمًا وتقنينًا للمكان. خلف هذا التوزيع للأنشطة الذى أصبح مقننًا على امتداد الموقع ورغم خفة المواد المستخدمة فى تصميم أماكن السكنى فى

مختلف المواقع، يمكننا تبين ثقل القيم الاجتماعية فى الحدود التى وضعها إنسان هذه الفترات فى أماكن معيشته.

هذا التقنين الذى يمكننا تمييزه بين العالمين الداخلى والخارجى بين المعيشة فى الإطار المنزلى والمعيشة فى مجملها داخل المعسكر، يستدعى إلى أذهاننا القواعد التى تطبق بشكل شامل على المكان بأكمله؛ فالمساحة الممتدة بنمط توزيع الأماكن المسكونة عليها أن تعبر عن تصورات نابعة من القيم ذاتها.

هذا هو سبب جاذبية محاولة قراءة هذا التوزيع لأماكن المعيشة كما بدا ونما فى العصر الحجرى القديم الأعلى ورؤية ما به من تجسيد لبعض التوجهات التى سبقت الإشارة إليها. فتوزيع الأنشطة فى المكان وقواعد ارتياده من قِبل أعضاء الجماعة هى القوانين التى تتحكم فى انتظام سير المجتمع.

هل نحن بصدد تربيع الدائرة؟ هل نواجه المستحيل؟

يمكننا النظر إلى أى ثقافة باعتبارها بوتقة تنصهر فيها معًا خطوط عدة ذات صلة وثيقة ببيئة ما – وقادرة على مدها بهويتها الأكثر تميزًا – ومكونات أكثر قدرة على مقاومة التغيرات البيئية.

لتفسير مثل تلك الظاهرة يتوجب علينا الالتفات مرة أخرى إلى دوافعها الاجتماعية، فوجود جزء من تجهيزات جماعة بمعزل عن الظروف الطبيعية يدفعنا إلى افتراض وجود سلطات اجتماعية أملت خاصية هذه الخطوط فى الانتشار مكانيًا والانتقال من مجموعات إلى مجموعات أخرى مؤكدة صلة ما بينها. ويبدو أن هذا وضع الصناعات الشطفية خلال العصر الحجرى القديم الأعلى التى غزت مساحات ومناطق شاسعة. نلاحظ فى هذا الخصوص أن هذه الأشياء لا تبدو فقط لصيقة بالارتحال ومهيئة الأمر للجماعات التى تستعملها أن تعمل بمنأى عن الظروف

الخاصة للبيئة المحيطة وأن تتنقل بين المناطق ذات الموارد المعدنية المنوعة مع الاحتفاظ بتجهيزات موحدة وإنما تتفق أيضًا وحلاً تقنيًا سهل الانتقال من إنسان لآخر. هذه الأشياء تصور إذن وجود شبكات تنتهى أحيانًا – كما هو الحال مع الدور الأوريناكى – بتجميع كل أوروبا وبالانتشار، ربما أبعد من ذلك.(١)

من هنا تصبح الأشياء بمثابة التوقيع التقنى لانشغال واهتمام مشترك لدى عدة جماعات موزعة بين مناطق ممتدة يتلخص فى التجرد من الظروف الخاصة بالبيئة الخاصة بكل منها. يمكننا بهذه الطريقة القول بأن بعض التطورات التقنية المحسوس بها أكثر من غيرها تقرأ قياسًا على قدرتها على التجرد من محيطها البيئى. وبالتالى فمحرك التطور المتدرج تغذيه الديناميات الاجتماعية الخاصة بالجماعات التى أوجدتها.

من المهم إذن تمييز العناصر التقنية والاقتصادية الخاصة بجماعة ما، التى تشهد بانغماسها فى بيئة محددة من البيئات لديها نزعة لتجاوز كافة النظم البيئوية، هذه المسائل، مثلها مثل كثير من الروافع التى تسمح بإثارة أسباب انتشار بعض الملامح التقنية والاقتصادية فى المكان، توضح أيضًا تحول وتغير السلوكيات الإنسانية التى يعد انتشارها أحد المحركات، ذلك أن ما ينتشر يفلت من مخالب التغيرات الإقليمية للبيئة وبالتالى لديه كل الفرص لتجاوز المكان بل والزمان.

هناك فكرة أخرى يجدر بنا تذكرها وهى أن المكونات التقنية فى العصر الحجرى القديم الأعلى بكونها الأكثر تشيعًا لمورد بعينه، هى التى توضح أكثر من

(1) Bon, François, «Little Big Tool. Enquête autour du succès de la lamelle», in Le Brun-Ricalens, Foni et al. (dir.), Productions lamellaires attribuées à l'Aurignacien...op.cit., 2005, p. 479-484; Elston, Robert G. et Kuhn, Steven L. (dir.), Thinking Small. Global Perspectives on Microlithization, «Archeological Papers of the American Anthropological Association», n° 12, 2002.

غيرها انطلاقة التخطيط الحقيقى للحاجات كما فى حالة بعض التقنيات الشطفية أو حالة التعامل مع قرون حيوان الرنة خلال هذه الفترة. وجدير هنا بالذكر أن الآلات المصنوعة من النصال مثلها مثل الأسلحة المصنوعة من قرون الأيايل، تتصف بطول صلاحية الاستعمال. وهى بالتالى تجسد طريقة أخرى لتجاوز المكان والتغييرات البيئية: هذه المرة لا يتطلب الأمر أقلمة التقنية مع هذه التغيرات وإنما السماح للآلات بعبور الحدود البيئية مع زيادة مدة صلاحية الاستعمال.

لهذا التوجه ثمن، فالملامح الثقافية هى أول ما تهدد حين كانت هناك انتقالات وتغيرات بيئية قوية هزت مجتمعات العصر الحجرى القديم الأعلى فى الفترة المفصلية بين الدهرين البلايستوسينى والهولوسينى. وقد أدت ندرة حيوان الرنة ثم اختفاؤه خلال هذه الفترة إلى إعادة صياغة بعض السلوكيات التقنية والاقتصادية التى ساهمت فى تكوين ملامح شخصية الثقافة المجدلينية. وقد تأثرت مجموعة الأشياء المصنوعة من قرون حيوان الرنة تأثرًا شديدًا بالتغيرات البيئية التى ترتبط ارتباطًا وثيقًا مما أظهر نسبيتها المكانية والزمانية.

يشير هذا المثال إلى انعطاف كبير فى السلوكيات الاقتصادية امتد إلى ما بعد العصر الحجرى القديم الأعلى. من هنا يمكننا القول إنه رغم اختفاء عناصر الثقافة المادية المجدلينية، التى جسدت على أفضل ما يكون، هذا الجهد فى التخطيط بتأثير هذا التغيير الكبير فى الظروف المناخية الذى ميز نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى، فقد بقى طويلاً بعدها هذا التوجه الاقتصادى، بل واستطاع إيجاد تطبيقات أخرى له مساهمًا بذلك فى تشكيل سلوكيات مجتمعات عصور ما قبل التاريخ خلال الفترة اللاحقة.

والسؤال المطروح هنا إذا كنا نفكر فى تخطيط الاحتياجات فى المواد الغذائية، ألم يكن التطور فى مجال استئناس النباتات والحيوانات على وشك البدء

فى الطرف الآخر للبحر الأبيض المتوسط، فى حين كان المجدلينيون على مطاردتهم لآخر فصائل الرنة؟

تساؤلات كثيرة بقيت دون إجابة. على خلاف العصرين الحجرى القديم الأعلى والميزوليثى أى قيم روجها الطابع "العمومى" لمعظم تقنيات العصر الحجرى القديم والوسيط؟[1] هل كان الأمر يتعلق بتيسير قدرتها على الانتشار مكانيًا وعلى نسج علاقات بين مختلف الجماعات؟ أم أن هناك فى هذا السياق تفسيرًا آخر يستحق الذكر؟

من وجهة نظرنا، توضح مثل هذه الظاهرة مدى ثقل التقاليد القديمة التى ترسخت على مهل باحتكاكها ببيئات منوعة باحثة عن توازنها لا بالتجرد والانعزال عن الظروف الخارجية وإنما بتبنى إستراتيجية تكيف قائمة على درجة مرونة عالية. وقد وجد لهذه الإستراتيجية أصداء لدى نظائرها فى المجال الغذائى خلال هذه الفترة.

وقد صاحب مثل هذه الإدارة للأنشطة والمرونة فى تنظيم المهام بعد جماعى اتصف به سير العمل فى هذه المجتمعات.

ويمكن ترجمة ذلك إما بنمط حياة الحفارين؛ أى بانتقال أفراد الجماعة إلى موارد مستغلة بشكل جماعى، أو بتنظيم مكانى غير محكم للسكنى أو بالميل إلى جعل الجزء الأكبر من مراحل الإنتاج الحجرى، وهو ما يطلق عليه (السلاسل المفصلة)، متعددة الوظائف.

---

(١) لا نقصد بهذا المصطلح أن هذه التقنيات كانت بالفعل عامة ولكن مقصدنا كان تبيان أنها صممت جزئيًا بالنظر إلى قدرتها على التوافق والتكيف مع أغلب البيئات الجيولوجية.

لنقم بقفزة زمنية لبضعة آلاف من السنوات، سنجد آنذاك وتحديدًا فى العصر الميزوليثى، تقنينًا مستقرًا للعلاقات الاجتماعية يرتكز على تسبيق للحاجات بفضل التخطيط المتزايد، خاصة إذا أبقينا فى الذهن فرضية نمو التخزين.(١) أيًا ما كان الأمر فالثقافة المادية لهذه الفترة تتسم بإدارة جديدة للموارد الطبيعية. فى مجال الصناعات الحجرية نلاحظ أن هناك ميلاً متزايدًا إلى التجرد من الظروف الخاصة بالبيئة حتى تتمكن من نقل القيم المشتركة بشكل أفضل بواسطة جماعات مستقرة فى مساحات شاسعة. هذه القيم تتجسد فى نشر بعض المعالم التقنية ذات المدلول الاجتماعى القوى (لنفكر هنا فى رؤوس السهام)، نصل هنا إلى نوع آخر من العمومية التقنية أساساتها مختلفة تمامًا عن تلك التى كانت سائدة فى العصر الحجرى القديم الوسيط: والملاحظ أن منطق التكيف الظرفى الخاص بالأولى يتناقض مع منطق الانتشار بين الجماعات وبعضها، الخاص بالثانية، ويمكننا القول إنه فى الحالتين يؤقلم الإنسان الطبيعة لضرورات اجتماعية، إذ أنه من الخطأ طبقًا لما نراه التفكير فى أن ذلك قاصرًا على المراحل الحديثة فقط من عصور ما قبل التاريخ. كل ما فى الأمر أن ضروراتها الاجتماعية مختلفة تمامًا وأن التيارات الفكرية الكبرى التى سادت فى العصر الميزوليثى تصور جانبًا يساهم فى تشكيل وصياغة مجتمعات هذه الفترة.(٢)

ظاهر الأمر أن أصول مجمل هذه التغيرات ترجع إلى العصر الحجرى القديم الأعلى، ذلك أنه خلال هذه الفترة شهدنا تكوين مجتمعات تشى ثقافاتها المادية بوجود تقنين أكثر صرامة للسلاسل المفصلة (للمراحل الإنتاج) وفقًا لحركة مصاحبة أشد دقة للأدوات الموزعة على كل أفراد الجماعة. يتضح ذلك بشكل خاص فى دور الصيد والصياد ويترك أثرًا جليًا فى إدارة المكان التى تدخل تجزئة اجتماعية

---

(١) يجدر هنا التذكير مرة أخرى بالتحفظات التى أبديت فى هذا الشأن (راجع الفصل الخامس).

(٢) راجع الفصل الخامس.

قريبة من نموذج الجامعين، فى كثير من سياقاته. هذا لا يمنع أن هناك جماعات يبدو عليها ميل أكبر للاحتفاظ بمنهج جماعى، وهو ما يلاحظ فى عدم استقرار مقار إقامتها وربما فى تجهيزاتها وخطط الصيد التى تميل إلى استعمالها. ولكن حتى فى ظل هذا الاحتمال نجد أن مساحات السكنى ليست أقل تقسيمًا وتنظيمًا تحت ضغط قيم اجتماعية جديدة.

بعبارة أخرى يمكن القول بأن الطرق المتباينة فى التعبير التى تتبناها الثقافة المادية لجماعات هذه الفترة تبدو مملاة من حصيلة دوافع متناغمة اقتصاديًا واجتماعيًا تشرع الجماعات فى تخطيط استغلال الموارد المحددة – من هنا تنشأ رؤية مقننة للبيئة ولموارد الإقليم – وفى التعبير عن هيكلها الخاص والتأكيد على هويتها فى مواجهة الآخرين مع دعم لشبكة واسعة من العلاقات بينها.

هذه الموضوعات تشير كلها إلى محاولة التقنين وإرساء القواعد التى تبدو أن المجتمعات قد بادرت بعملها مع مجىء العصر الحجرى القديم الأعلى. جزء آخر من مظاهر هذه المحاولة سيمكننا تناوله فى الفصل الأخير من هذا الكتاب وهو بعنوان:

المنطق الرمزى فى خدمة الخيال.



رسم منقول بيد هنرى بروى Henri Breuil لجدارية مجدلينية فى مغارة الإخوة الثلاثة Trois – Frères (مونتسكيو Montesquieu وأفنتيس Avantès وأرياج Ariège) يمثل "إله مقرن" أو "ساحر"

استخدم فى تنفيذه الجرافيت والقلم الأزرق على ورق الترسيم ١٩٢٠-١٩٣٣

المكتبة المركزية بمتحف التاريخ الطبيعى (باريس)

مجموعه بروى Breuil الأيقونية رقم ٥٤٤٦٥٣-١٥ و١٦ و١٧

الفصل السابع

الخيال

الإنسان البدائي والإنسان الحفرى وجهًا لوجه، الذى يعطى معنى ومغزى للعالم من حوله، والذى بقيت أمامه دروب الخيال والفكر الرمزى مغلقة. أول الاثنين اندثر إلى الأبد، أما الثانى فقد بقت انفعالاته عبر آلاف السنين وأكسبته نصيبه من الخلود.

هذا هو المعنى الذى أعطاه جورج باتاى Georges Bataille لجداريات لاسكو، ذلك الكهف الذى يرمز طبقًا له "لمحل ميلادنا" و"لبداية الإنسانية فى أوج كمالها"[1] شغل تحديد مثل هذه البداية دومًا أذهان علماء ما قبل التاريخ وتصدر تخطيط الحدود الزمنية فى داخل العصر الحجرى القديم محددًا أطر المرحلة الأعلى منه.[2] إلا أن الأعمال الفنية لعبت وما زالت تلعب دورًا حاسمًا فى هذه المحاولة. بعبارة أخرى، لنقل أن مطاردة هذا الإنسان الذى تملص من مخالب الطبيعة بل وحاول رمزيًا السيطرة عليها، مخالفًا قوانين التقدم وفارضًا عليها العبقرية الإنسانية اللا زمانية قد بدأت. ها هو يتحدى الزمان بابتداع لغات جديدة وابتكار أشكال غير مسبوقة من المذكرات، نحن وارثوها.

---

(1) Bataille, Georges, La Peinture préhistorique. Lascaux ou la naissance de l'art (1955), cité par Lorblanchet, Michel, «L'origine de l'art», in Kozlowski, Janusz et Sacchi, Dominique (dir.), «Naissance de la pensée symbolique et du langage», Diogène, n° 214, avril-juin 2006, p. 116-131.

(٢) راجع الفصل الأول.

توجه هذه الرؤية أغلب الخطب والأحاديث التى تتناول فن عصور ما قبل التاريخ والتى جاءت على لسان كثير من العلماء من لارتيه Lartet إلى بييت Piette ومن بروى Breuil إلى لوروا - جورهان Leroi - Gourhan كما تتحكم حتى يومنا هذا فى مجازفات دراسته.

وإذا كانت المصطلحات المنوط بها التعبير عن نتاج "الملكات المعرفية" الجديدة التى يعد الفن أكثر شهودها حيوية، قد تغيرت، فقد قرن دومًا هذا البعد السلوكى بمقدم "الإنسان العاقل" ذى الخلايا العصبية الثورية.

لا يوجد أدنى شك أن الإنتاج الرمزى هو تعبير عن خواص فكرية لمنح "أعلى" والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو: هل التعبير الرمزى قاصر على الإنسان العاقل؟ وهل الأشكال الإنسانية الأخرى مثل إنسان النياندر غير ذات صلة بالأمر؟

يفرق هذا النوع من النقاش بين جموع علماء ما قبل التاريخ منذ زمن بعيد[1] ويظهر الرغبة الدفينة فى إقامة حدود واضحة تؤسس لهويتنا المشتركة. يفسر هذا الانتظار النجاح الذى لاقته بعض النظريات التى ترى فى ظهور الفكر الرمزى أحد أهم أعراض وجود ثورة وراثية مفاجئة وعنيفة تمت منذ نحو خمسين ألف عام بين جماعات الإنسان العاقل فى أفريقيا الشرقية، باعتباره الشعب المختار للانتشار على سطح الكرة الأرضية[2]. ولهذه الفرضية معارضوها الذين يعدون انطلاقة هذه الملكات ثمرة تطور أكثر بطئًا وأكثر قدمًا فى الزمن.

---

(١) راجع على سبيل المثال:

D'Errico, Francesco, «L'origine de l'humanité et des cultures modernes», in Kozlowski, Janusz et Sacchi, Dominique (dir.), «Naissance de la pensée symbolique et du langage», op.cit., p. 147-159; Lorblanchet, Michel, «L'origine de l'art», ibid., p. 116-131.

يضم هذا المجلد إلى جانب هذين البحثين مجموعة من النصوص تسمح بعمل خلاصة للدراسات الحالية التى تتناول كثيرًا من التعقيدات التى أثيرت فى هذا الفصل، وسنعود إليه على التوالى.

(2) Klein, Richard G., The Human Career. Human biological and cultural Origins (1989), Chicago, University of Chicago Press, 1999.

وهم يرتكزون فى معارضتهم لا إلى جماعات وزمر البشر العقلاء الأفارقة المنتمين إلى العصر الحجرى الوسيط Middle Stone Age[١] فى مجمله فقط وإنما أيضًا إلى أمثالهم من النياندرتاليين فى العصر الحجرى الوسيط الأوروبى[٢] وبالأحرى فى الشرق الأدنى حيث تتعايش جنبًا إلى جنب كل هذه الأشكال الإنسانية المتباينة منذ وقت مبكر. هذه الآراء المتناقضة تتبع معايير تم الأخذ بها للتوصل إلى بدايات هذه الملكات.

ويمد الظهور المفاجئ والمتأخر للفن التصويرى أولى هذه الفرضيات بحجج داعمة. واقع الأمر أنه نما وتطور فقط بدءًا من العام ٣٥٠٠٠ قبل التاريخ المدون، كما أنه يقرن دومًا بالإنسان العاقل أيًا ما كانت المنطقة المتناولة. وهناك منطقتان فى العالم لا رابط بينهما تتنازعان بدايات هذا الفن، وهما أستراليا وأوروبا. غير أننا إذا أضفنا دلائل أقل جلاء للعين – مثل تزيين الأجسام بالأصداف والأصباغ أو قطع الصخور والعظام ذات النقوش الهندسية الغامضة – لرجعنا بالتاريخ إلى عشرات الألوف من السنين، وهذا بشكل خاص حال أفريقيا التى غصت مواقعها الجنوبية ببقايا ومخلفات ترجع إلى عام ٧٥٠٠٠ قبل التاريخ المدون تقريبًا.[٣]

من ناحية أخرى فإنه استنادًا لمراجع ترجع فى أصولها إلى الشرق الأدنى وأوروبا، شهدت مجتمعات العصر الحجرى القديم الوسيط بوجود ملكة لا يتمتع بها إلا البشر، وهى ملكة إدراك الموت والفناء والتى يمكن أن يؤكدها دفنهم للموتى. فالجثث القديمة التى اكتشفت فى كثير من المواقع فى الشرق الأدنى بها بقايا الإنسان العاقل الأركى وترجع تقريبًا إلى العام ١٠٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون.

---

(1) Mac Brearty, Sally et Brooks, Alison S., «The revolution that wasn't: a new interpretation of the origin of modern human behavior», Journal of Human Evolution, n° 39, 2000, p. 453-563.

(2) D'Errico, Francesco, «L'origine de l'humanité...», op.cit.

(٣) أكثرها شهرة هى بلومبوس Blombos وكلازى ريفر Klasies River وديبكلوف Diepkloof وتقع ثلاثتها فى جنوب أفريقيا.

تزايد عدد هذه القبور فى عام ٦٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون وتعلق الأمر فى أن واحد بالإنسان الحديث ومعاصريه من النياندرتاليين فى هذا الجزء من العالم كما فى أوروبا.(١)

من هنا فإن فرضية الظهور المتدرج لسلوكيات ذات طبيعة رمزية تبدو أكثر فأكثر متجانسة مع الوقائع التى تم رصدها فى العصر الحجرى الأفريقى الوسيط وفى العصر الحجرى القديم الوسيط فى أوروبا والشرق الأدنى. وهذه الرؤية رغم ذلك لا تتعارض مع فكرة "انفجار" هذه الملكات فى لحظة ما فى بعض من بقاع العالم، ليصبح فى نهاية الأمر طابعًا عامًا للإنسانية جمعاء. والأمر هنا يتعلق بواحد من معانى النقلة بين العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا فيما بين الأعوام ٤٥٠٠٠ و٣٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون. بالإضافة إلى ذلك فإنه إذا كان هذا الظهور المتدرج متعلقًا بأشكال الإنسانية المختلفة فإن مشعل ومؤجج الأمر يبقى الإنسان العاقل. حين يشعل فتيل الخيال فهو يكرس هيمنة هذا الشكل البيولوجى الأخير بين ممثلى سلالة طويلة من البشر.

أيًا ما كان تأثير البيولوجيا على هذا التطور فيمكننا أن نتساءل عن الآليات الاجتماعية التى سمحت بازدهار مثل هذه التعبيرات السلوكية؛ فتزيين الجسم وإبداع أشكال جديدة من اللغات بواسطة الفنون التخطيطية والموسيقى(٢) هى

(١) مواقع الشرق الأدنى التى زودتنا بأقدم القبور والجبانات المثبتة هى الكائنة فى مغارتى qafzeh, Skhul الإسرائيليتين. ونذكر من مغارات ومخابئ أوروبا التى تم العثور بها على مدافن نياندرتالية (معظمها فى شطرها الغربى):

مواقع: لاشل – أوسان Lachelle- auxsaints فى منطقة كوريز (Corrèze) موستييه Moustier ولا فيراسى La ferrassie فى منطقة دوردونى (Dordogne) وموقع سبى Spy فى بلجيكا.

راجع فى هذا الصدد: Maureille, Bruno, Les Premières Sépultures, op.cit.

(٢) الآلات الموسيقية الحقيقية التى تم الاستدلال عليها وبالأحرى الناى أو المزمار المصنوعان من العظم أو العاج يرجع تاريخها إلى الجزء الأول من العصر الحجرى القديم الأعلى (الأورينياكى والجرافيتى).

ابتكارات جماعات تسعى إلى التواصل وإلى أن تصيغ لنفسها كيانات باختيار علاقة مقننة بين أفرادها ومع الجماعات الأخرى والعالم المحيط بها. عناصر عدة تسهم فى إجراء تغييرات عميقة للسلوكيات الاجتماعية.

مدخل إلى فن العصر الحجرى القديم الأوروبى:

تماثيل لنساء ذات طابع شهوانى وصور لحيوانات تلعب على جدران المغارات، تحف بها أحيانًا علامات تجريدية تكون جداريات هائلة أو وحدات زخرفية منفردة، وتماثيل صغيرة لحيوانات منحوتة أو محفورة على العظام والعاج والأحجار وتشكل بدورها محبسًا كبيرًا للحيوانات.. هذه هى بعض منعطفات فن العصر الحجرى القديم الأعلى كما ازدهر فى أوروبا فيما بين الأعوام ٣٥٠٠٠ و١٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون تقريبًا. وهو فن على الرغم مما طرأ عليه من تغيرات عبر المكان والزمان يبدو محترمًا للتقاليد والأعراف الراسخة على مدى أكثر من عشرين ألف عام، مساهمًا بذلك فى تحرير أطول صفحات تاريخ الفن وأثراها، صفحة تطل منها آلاف الأشكال والوجوه تحيط بها الوحدات الهندسية والعديد من الأدوات والأشكال ذات الدلالات الرمزية. ويجدر بنا أن نضيف إلى ما سبق آلاف الأشياء المستخدمة فى الزينة من خرز وأصداف وأسنان محفورة وعناصر أخرى لا تخلو من الرمزية.

Buisson, Dominique, «Les flûtes paléolithiques d'Isturitz, Pyrénées-Atlantiques», Bulletin de la Société préhistorique française, vol. LXXXVII, fasc. 10-12, 1990, p. 420-433.

اعتاد علماء ما قبل التاريخ التمييز بين الفن الجدارى والفـن المنفـذ علـى حوامل متحركة سواء تعلق الأمر بأدوات مزخرفة أو بتماثيل صـغيرة بحوامـل وقواعد منقوشة أو بقطع من العظام والأحجار.(١)

والمقصود هنا بالفن الجدارى فى الكهوف هو الأعمال المحفورة أو المرسومة أو الملونة بالإضافة إلى المنحوتات البارزة على الأحجار الجيرية وما تمـت قولبتـه من أشكال خزفية، أما الفن المنقول فيقصد به المحفـورات والمنحوتـات والنقـوش الناتئة. هذا الزخم من وسائل التعبير تواجد خلال الفترة كلها غير أنه جغرافيًا لم يكن توزيعه متماثلاً فقد حالت بعض الحدود دون انتقاله. من هنا يمكن القول إنه إذا كـان الفن المنقول قد أثبت وجوده فى أغلب مناطق القارة فإن فن جداريات الكهـوف قـد تركز فى غرب أوروبا وتحديدًا فى فرنسا وشبه جزيرة أيبريا.

وتجدر هنا ملاحظة غياب الاستمرارية فى التوزيـع الزمنـى والجغرافـى لطرق التعبير الفنية المشار إليها، فأكبر "مراكز" الفن المنقول كانت فى إقليم Jura souabe الألمانى خلال الدور الأورينياكى، وفى أوروبا الوسطى والـشرقية خـلال الدورين الجرافيتى والمجدلينى الغربى.

أما فن الكهوف فيتركز حصريًا فى أوروبا الغربية مع ظهور متقطع يرجع إلى الدورين الأورينياكى والجرافيتى، ونشير هنا إلى مجموعات مـن الجـداريات المنحوتة تنسب إلى الدور السوليترى.

---

(١) بين الرسم الجدارى فى الكهوف والفن بمعنى الأثاث أو القطع المنقولة هناك نوع يطلق عليه "فن الكتل". وكما يوضح ألان روسو Alain Roussot معقبًا على ما جاءت به أنيت لامـنج – إمبرير Anneette Laming- Emperaire المقصود بهذا النوع هو الكتل الصخرية التى أمكن للبعض تحريكها ووضعها بطريقة معينة بدون أن تكون قاعدة لقطعة فنية أخرى.

Roussot, Alain, L'Art préhistorique, Bordeaux, Editions Sud-Ouest, «Sud-Ouest Université», 1994.

يعد هذا المرجع مدخلاً متميزًا للفن فى العصر الحجرى القديم.

أما الثقافة التى فرضت نفسها بثراء شواهدها التى لا تُدانى من قريب أو بعيد فهى الثقافة المجدلينية، وتعد فترتها الوسيطة التى تقع بين الأعوام ١٥٠٠٠ و١٣٠٠٠ قبل التاريخ المدون "عصرًا ذهبيًا" حقيقيًا للفن.

للتمييز بين "فن جداريات الكهوف" و"الفن المنقول" فى أذهان علماء ما قبل التاريخ توابعه، فهو يوحى ببعض التناقض بين فن مقدس يقترن بالكهوف التى تسمى أحيانًا "بالمحاريب" وفن دنيوى غير مقدس لتزيين الأشياء المستعملة فى الحياة اليومية. ويفسر هذا استناد كل النظريات التى تناولت هذا الفن على أيدى العلماء من بروى Breuil إلى لوروا – جورهان Leroi - Gourhan وحتى يومنا هذا مع جون كلوت Jean Clottes إلى مراجع فن الكهوف: فبها كل مفاتيح الرمزية الخاصة بالعصر الحجرى القديم.(١)

---

(1) – Breuil, Henri, Quatre Cents Siècles d'art pariétal. Les cavernes ornées de l'âge du renne, Montignac, Centre d'études et de documentation préhistorique, 1952; Leroi-Gourhan, André, Préhistoire de l'art occidental, Paris, Mazenod, 1965; Clottes, Jean et Lewis-Williams, David, Les Chamans de la préhistoire. Transe et magie dans les grottes ornées, Paris, Seuil, 1996.

فى مجال الفن المنقول هناك مرجع تم الاستناد إليه فيما يخص الفكر الرمزى وبمعنى آخر الدينى عند جماعات عصور ما قبل التاريخ والتماثيل التى أطلق عليهم اسم "فينوس" التى سنشير إليها لاحقًا، ويعد كتاب هنرى دلبورت أوسع وأشمل ما كتب فى هذا الصدد.

Delporte, Herri, L'Jmage de la femme dans l'art préhistorique [1979] paris, picard 1993.

و قد قام هذا المؤلف لاحقًا بمقارنة بين المنقول وفن الكهوف فى كتابه.

Delporte, Henri, L'Image de la femme dans l'art préhistorique (1979), Paris, Picard, 1990.

إلى جانب الأفكار الجذابة الخاصة بمؤلفه يحوى هذا الكتاب تأريخًا مميزًا للمعتقدات المرتبطة بفن عصور ما قبل التاريخ: راجع بصفة خاصة الفصل الذى يحمل عنوان: "الصياغة والتعليل فى فن الحيوان" ص ١٨٧ – ٢٤٢ والذى سنشير إليه تباعًا.

إلا أننا فى نهاية الأمر نتعرف هنا على تأثير علم ما قبل التاريخ فى هذا الصدد فقد ميز مبكرًا الفن المنقول – وهو فى أذهان رجالات القرن التاسع عشر فن بسيط للمشاهدة والملاحظة – وتأخر فى اكتشاف فن الكهوف الجدارى. سبب ذلك يرجع إلى أن قبول هذا الأخير يستلزم الاعتراف بوجود شكل من أشكال الروحانيات لدى إنسان ما قبل التاريخ وهو ما كان مبدئيًا ممنوعًا. وقد رأينا كيف أن ظهور فن الكهوف الجدارى قد عجل بوجود واحدة من أهم المفصلات النموذجية التى عرفتها عصور ما قبل التاريخ.(١)

ونلاحظ حاليًا أن هذه المرحلة، التى تم تجاوزها فى السنوات الأولى من القرن العشرين ما زال لها شىء من التأثير على نظرتنا لهذا الفن.

ترتيبًا على ما سبق فإننا ندين للقس بروى Breuil لتقديره ولرؤيته فن الكهوف الجدارى باعتباره فنًا لتزيين "المحاريب" التى يصفها "ببيوت الإله"(٢) فاصلاً إياها عن الخلاء المخصص للحياة اليومية.

تكرس إذن هذه الرؤية "لفن الكهوف" عملية الفصم والفصل بين فن غير مقدس معروض فى ساحات مكشوفة بجوار أماكن السكنى ومأوى فى مداخل الكهوف أو فى الهواء الطلق وبين فن مقدس مستقر فى أحشاء الأرض. دلائل كثيرة لحقيقة أكثر تركيبًا تم لفترة طويلة تجاهلها أو التقليل من شأنها؛ مثال ذلك استيطان الجماعات كهوفًا شديدة الظلمة للسكنى بالقرب من أعمال جدارية كما هو الحال فى سياقات ومواقع مجدلينية بجبال البرانس.

---

(١) راجع ما سبق فى الفصل الأول.

(2) Breuil, Henri, et Lantier Raymond, Les Hommes de la pierre ancienne (Paléolithique et Mésolithique), Paris, Payot, «Bibliothèque scientifique», 1951, p. 311.

من هنا وحتى وقت قريب كان نادرًا ما يتم القيام بأعمال تنقيب حقيقية في الأجزاء المزخرفة من الكهوف قبل إزالة الرواسب من فوقها لتأمل ما بها من فن مهما كانت توابع ذلك على كافة آثار الأنشطة الإنسانية الأخرى. وهذه إحدى مآسي كهوف "لاسكو" التى أزيلت منها بدون حرص طبقات أركيولوجية بالغة الثراء لتيسير دخول الزائرين الراغبين فى رؤية "كنيسة سستين عصور ما قبل التاريخ" كما أطلق بروى Breuil عليها.

وفى المقابل تم ولفترة طويلة تجاهل وجود فن منحوت فى الصخور ومتاح فى الهواء الطلق حتى اكتشفت "الصخور الموشومة" فى وادى كوا Coâ بالبرتغال منذ نحو عشر سنوات.[١]

تشير هذه المظاهر كلها إلى بعد مهم فى فن عصور ما قبل التاريخ: إذا كانت جماعات وزمر عصور ما قبل التاريخ قد اختارت تخصيص بعض الأماكن خاصة ما كان منها فى التجاويف العميقة لأنشطة بالأساس رمزية فهذا لا يعنى أن هذا البعد غائب فى الأماكن الأخرى مما يفسر الأهمية الواجب إعطاؤها للفن المنقول الذى غالبًا ما نجده فى داخل أماكن السكنى؛ وبالتالى فإنه يتوجب التفكير بشكل مماثل فى هذا الفن الذى تنتمى إليه أشياء كثيرة منها الرمزى بشكل حصرى كالتماثيل الصغيرة واللويحات المحفورة ومنها الأدوات المزخرفة كالقاذفات

---

(١) يزخر وادى كوا Coâ بنماذج وفيرة من فن النحت الصخرى تقترن بشكل مباشر بأماكن السكنى فى الهواء الطلق, للاطلاع على محصلة ما تم التوصل إليه فى هذا الموضوع راجع:

Sacchi, Dominique (dir.), L'Art paléolithique à l'air libre. Le paysage modifié par l'image, Actes du colloque de Tautavel-Campome (1999), Carcassonne / Paris, GAEP GEOPRE, 2002

والعصى ورؤوس الحراب.[1] هذا التقسيم لا يعنى بالمرة أن المجموعة الأولى فقط تتسم بشيء من "القدسية". ما يهم هنا هو ملاحظة كيف يخترق الرمز، عن طريق هذه الأشياء، العديد من الأنشطة التى تمارسها جماعات هذه الفترة – ويسمح ربما بالتعبير، فى داخل هذه الجماعات ذاتها عن وجود بعض التقسيمات الاجتماعية.

الموضوعات المختارة وطرق إخراجها:

يحظى الحيوان فى المجال الفنى بمكان الصدارة بل ويميز فن العصر الحجرى القديم، المنقول منه والجدارى، ثراؤه بالحيوانات؛ فتصوير الحيوانات بشكل كامل أو جزئى هو أحد الموضوعات المفضلة لفنانيه. وجدير بالذكر أن الأشكال الآدمية أقل بكثير ويتقدم فيها عدد ما يمثل النساء على ما يمثل الرجال، ناهيك عن الأشكال الإنسانية التى يصعب تحديد جنسها لعدم ظهور الأعضاء المميزة لها. هذا لا ينفى أن هذه الأعضاء تحديدًا واضحة فى كثير من الأعمال الفنية بل إن كيان المرأة كله قد يختصر تشريحيًا فى هذا الجزء من جسمها، والملفت أنه كثيرًا ما يكتفى فى الرسومات والمنحوتات باليد وبهذه الأعضاء لإضفاء الطابع الآدمى على الشكل الفنى. أما الرجل فكثيرًا ما يضاف إلى نصفه العلوى ورأسه ملامح حيوانية، هذا إذا لم يستعاض عنهما بأجزاء من الحيوانات ذاتها كرأس الأسد أو منقار العصفور. .. إلخ.

يضاف إلى كل ما سبق عالم من الأشكال الهندسية الشائعة الاستعمال تسمى فى مجال فن الكهوف الجدارى "علامات" ويطلق عليها فى فن المنقول "زخارف".

---

(١) "العصى المثقوبة" هى مقاطع مجهزة من قرون الأيايل يحمل كل منها فى طرفه ثقبًا والفرضية الأكثر طرحًا هى كونها أداة "لتقويم الحراب" يتم ذلك بوضعها فى فتحة لتقويم اعوجاجها بالضغط وقد تبين أن هذه الأدوات بالإضافة إلى القاذفات هى أكثرها ثراءً بالزخارف على الأقل فى السياق المجدلينى.

يأخذ الشطر الأكبر من هذه العلامات شكل وحدات زخرفية بالغة البساطة مكونة من نقاط وعصى صغيرة. أما باقى العلامات فيدخل فى تكوينات أكثر تعقيدًا يتكرر فيها استعمالها مما قد يشير إلى دلالة خاصة. والملاحظ أنه أحيانًا تتراجع الحدود بين "الأشكال" و"العلامات" وبالتالى تبدو هذه الأخيرة الصورة الكتابية المجردة للأولى.

يتبقى بعد كل ما سبق ما لا يظهره هذا الفن أو ما لا نستطيع نحن تبينه: مثال ذلك عدم وجود أثر لعالمى النبات والفلك فى هذه الأعمال. ويمكننا القول إنه بصورة عامة تتلاشى المناظر المؤثرة والمألوفة وتتوارى أمام أشكال تم تصويرها فى خلاء أو فضاء ليس ببعيد عن الواقع إنما لنقل خياليًا.. أو على الأقل يبدو لنا على هذا النحو.

إذا ما قمنا بتجميع مجمل الرسومات المعروفة فى جدول شامل سنرى أمام أعيننا عرضًا لخليط من الحيوانات كما لو أنه كان على فنانى عصور ما قبل التاريخ عمل جرد لكل الكائنات المنتمية للمملكة الحيوانية. فإلى جانب الأنواع والفصائل التى تم استخدامها كرموز، وهى غالبًا من الثدييات آكلة العشب (كالحصان والبيسون والثور البرى والماموث ووحيد القرن الموبر والرنة والأيل والعنز البرى) أو آكلة اللحوم (الدب والأسد وابن عرس)، هناك صور لنوعيات عديدة من أسماك البحار والأنهار وطيور الليل والنهار بالإضافة إلى الثعابين والحشرات (الحيات والجراد). هذا المنهج "الطبيعي" تدعمه مهارة فنية تتحرى الدقة فى نقل التفاصيل التشريحية لهذه الحيوانات بدقة مذهلة.

على أنه إذا كان هذا الوصف دقيقًا فنحن هنا بصدد رؤية خادعة للبصر: فقد تواجد "الفن الطبيعى" فى أوقات وأماكن مختلفة فى العصر الحجرى القديم الأعلى الأوروبى، غير أنه كان غالبًا ما يستعاض عنه بنقل للواقع طبقًا لصيغ تخطيطية

أكثر بعدًا عن الواقع. من ناحية أخرى نجد أن هذا "الفضول" لمعرفة العـالم سـمة مميزة للفترة المجدلينية. قبل هذه الفترة وفى مناطق أخرى كان اختيار الحيوانـات أكثر انتقائية وحتى إذا وجدنا استثناءات معروفة فإن الأعمال الفنية كانت أقل قربًا من "المذهب الطبيعى". يمكننا إذن تمييز اتجاهين: من ناحية نجد مجموعة حيوانات "بنائية" للفكر الرمزى الخاص بجماعات العصور الحجرية القديمة مرتكزة ومنظمة حول التصوير الغالب.

للحصان والبيسون وبمزيد من التنوعات الزمانية والمكانية للماموث والعنـز والثور البريين والأيايل والرنة والدببـة والأسـود وبقـدر أقـل لوحيـد القـرن وللميجاسيروس (وهو حيوان مجتر بائد)(١) بالإضافة لصور الطيور والأسماك التى غالبًا ما تكون بمعنى عام.

من ناحية أخرى نجد مجموعة حيوانات "ظرفية" خاصة بالدور المجـدلينى التى قد يضم الفنانون لها المزيد من الأنواع مع الاحتفاظ دومًا بالمكانـة المتميـزة "للخيول والبيسون والماموث والعنز البرى والأسود. ..إلخ". مـن مجموعـة هـذا الاتجاه الثانى نذكر: "الذئب والثعلب وابن عـرس والظبـى الأروس(٢) والحمـار والأرنب البرى والفقمة وأسماك التونة وموسى والجراد والكركـى والبلـشون. .. إلخ" ووجود أىٍّ منها فى العمل الفنى مرتبط فقط بظروف العمل. أما عن طريقـة تقديم هذه الحيوانات فالملاحظ أن الدور المجدلينى هو أفضل الفترات تعبيرًا عـن الرغبة فى الملاحظة ونقل الواقع وهو مسلك غير شائع فى تاريخ الفن وفى طريقة نظر الإنسان إلى العالم المحيط به.

---

(١) ويطلق عليه أيضًا الميجالوسيروس وقد انقرض هذا النوع من الأيايل منذ نحو تـسعة آلاف عام.

(٢) ينتشر الظبى الأروس والغلطون آكل اللحوم النهم فى مناطق الفيافى والسهب السيبيرية.

جدير بالذكر أنه فى بعض الحالات تخلو الأشكال من أى تعبير؛ فالحيوانات تكون ساكنة وقابعة على أرجل مشدودة متصلبة. غير أن هذا لا يمنع اهتمامهم بنقل كافة الأوضاع فهناك الحيوانات فى كافة تحركاتها وتلك التى تعدو وتقفز وتثب. هنا أيضًا يتميز الفنانون المجدليينيون فى نقل الحال التى تكون عليها أجسامها، وجدير بالملاحظة أنهم قد ورثوا نهج سابقيهم فى تصوير أغلب الحيوانات تصويرًا جانبيًا إلا أننا نجد لديهم تصويرًا للحيوان من الأمام والخلف وبزاوية تكشف عن ثلاثة أرباع الهيئة التى يكون عليها: ويبين هذا التعدد فى زوايا التناول أننا بصدد التعامل مع فنانين حريصين على نقل الواقع بكل تعقيداته. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا سواء ارتبطت هذه المهارة الفنية برغبة فى نقل الواقع التشريحى للحيوانات المصورة أو نقل حركتها هو: هل يوظف ذلك فى تكوينات سردية؟

بعبارة أخرى هل يمكن لمن يشاهد العمل الفنى أن يتبين بسهولة واقعة حقيقية أو جغرافية؟ للوهلة الأولى يبدو ذلك نادرًا. لننحِ جانبًا الأشكال الموحدة أو المتماثلة الإنسانية والحيوانية سواء انتمت إلى الفن المنقول أو فن الكهوف الجدارى؛ لأن هذه الموضوعات التى غالبًا ما تكون ساكنة نادرًا ما تفصح عن عناصر سردية واضحة. ورغم أن اجتماع عناصر فى عمل واحد يثير تساؤلات حول الروابط بينها ومدى احتمال وجود نص سردى يجمع بينها، إلا أنه يمكن القول إنه كان من غير الشائع أن يتم وضع العناصر بحيث توحى بواقعة واضحة، فغالبًا ما لا تتفاعل العناصر معًا.

من المؤكد أنه بين المشاهد المصورة للحيوانات مناظر المواجهات ومعارك بين حيوانين من فصائل وحيد القرن أو العنز البرى أو لمقدمات ما قبل موسم التزاوج بينهما. وقد يصور حيوان بالغ بصحبة صغيره تذكيرًا برابطة الأمومة.

ونضيف هنا فى النهاية أنه من المألوف أن يتم تصوير أنواع الحيوانات فى صورة مجموعة أو قطيع (صف من الأسود أو حيوانات الرنة). غير أنه فى أغلب الأوقات تبدو الحيوانات بمعزل عن أى مرجعية واضحة لسلوكياتها فى بيئاتها الطبيعية. وهذا لا يعنى أن الأشكال والوجوه فى الصورة الواحدة أو العمل الفنى الواحد لا علاقة لها ببعضها البعض فهناك على العكس من ذلك بحث وحرص دءوب على تناسق وسيمترية فى التكوين – حتى مع صعوبة تحديد فعل أو مواقف بعينها.

والوجوه أو الكيانات البشرية هى الأخرى نادرًا ما يتم تقديمها فى وضع حركى، أما تلك الخاصة بالصيد والتى يظهر بها فرد أو أكثر فى مواجهة حيوان فهى مستثناة وهى غالبًا ما تكون فى الفن المنقول شديدة التركيز. والواقع أننا نجهل إذا كانت تمثل بشكل مباشر هذا النشاط أو أنها مجرد مجاز. غير أن الجدير بالذكر أنها المشاهد الوحيدة التى تنقل لنا ملامح من الحياة اليومية لهذه الجماعات.

والصوَر الأخرى التى بها بشر فى وضع حركى وهى فى معظمها خاصة بالفن المنقول المجدلينى، أكثر غموضًا وأقل قابلية للتفسير. ورغم أنه أحيانًا يكون بها بعد سردى إلا أنها تغرقنا فى خيال لا نملك له قاعدة ولا قانونًا.

الزمان والمكان فى فن العصر الحجرى القديم:

هناك فيما يتعلق بمسألة السردية عدة مشاكل أهمها يتعلق بتعريف المكان الذى توضع فيه الوجوه والأشكال. فمن الصعب التفسير بشكل صحيح لفعل ما أو عمل يقوم به عدة أبطال إذا لم يكن هناك فهم واضح لوحدة الزمان وبصفة خاصة لوحدة المكان. وإذا كان هناك حرص من وسائل التعبير الفنية فى العصر الحجرى القديم على النقل الأمين لتفاصيل موضوع أو آخر فإننا نجدها لا تسعى بالضرورة إلى نقل المكان الذى يحدث فيه الموضوع بشكل واقعى. وبالتالى يمكن أن يتوافق

المكان مع تقاليد خاصة بهم ليس باليسير علينا معرفتها. فإذا وجدنا على سبيل المثال حيوانين موضوعين جنبًا إلى جنب أو أحدهما فوق الآخر .ومقاييسهما مختلفة يمكننا أن نتساءل إذا كانت المسألة مسألة منظور يتوافق والمفهوم التقليدى للمكان بمعناه الفيزيائى كما يتراءى لصاحب العمل مما يبقيه شديد التجريد بالنسبة لنا. هل أحد الحيوانين أكبر لوجوده فى المقدمة؟ أم أن عدم وجود التناسب يجسد قيمة رمزية؟ – أم أن الأمر خليط بين التفسيرين؟

مجمل القول أن أغلب الحيوانات المصورة تبدو كوحدات منفصلة عن كل مرجع أو أصل واضح فى الطبيعة التى تتم رؤيتها فيها مهما كانت درجة الدقة فى نقلها. فى الفنين المنقول والجدارى فى الكهوف نلاحظ أن التنظيم والتنسيق الرمزى يبدو دومًا، على الأقل فى نظرنا، ذا أولوية على الرغبة فى وصف مكان أو مساحة من منظور فيزيائى. هذه الملحوظة تعوق قدرتنا على تبين الأفعال التى تجمع شخصيات العمل الفنى.

والأمر لا يختلف فيما يتعلق بوحدة الزمن، والسؤال المطروح هنا هو:

هل الشكل أو الوجه الذى نلاحظه هو وحدة لا زمانية، أم عنصر سردى يرتبط به منظور زمنى يصعب تفسيره؟

لمسنا لتونا مشكلة خاصة بمنظورنا لوحدتى الزمان والمكان وأبرزنا جهلنا بالتقاليد التى قد تكون مرجع فنان العصر الحجرى القديم وهو ينجز عمله الفنى. وهناك طريقة أخرى لتناول الأمر، فقد لوحظ فى الأبحاث التى تم إجراؤها طوال القرن العشرين وحتى يومنا هذا أن المغارة خلاء أو مكان أيقونى فى مجمله، يلعب شكلها دورًا مهمًا فى تنفيذ ما يجمله. والأمر هنا لا يتعلق فقط بالجدران وإنما بالأرض والسقف والمسطحات والنتوءات والتجاويف والشقوق التى كان من الممكن تزيينها بالصور وغيرها من الأعمال الفنية. ليس لدينا المفاتيح اللازمة

لتمييز الأطر التى تضم الوحدات الأيقونية من النظرة الأولى. خلافًا للّوحات والجداريات الثابتة على المبانى لا تملك المغارة مساحات رسم وتصوير واضحة الأبعاد. ولا يتأتى تحديد المعايير التى يتم الاستناد إليها فى تنسيق الأعمال الفنية وتنظيمها إلا بتحليل عميق. إلا أن هذا التناول يجب أن يأخذ فى حسبانه أن المغارة مساحة كاملة تختلط فيها أحيانًا الأشكال والحوامل. من هنا ففى حالات كثيرة يكون تعريف "اللوحة" أو الوحدة لأيقونة ذات وجوه متعددة هو فى حد ذاته تفسير.

مشكلة أخرى نتناولها هى وحدة الزمان. ونشير هنا إلى أن تأريخ تنفيذ الأعمال الجدارية لا يمكن للرائى إدراكه للوهلة الأولى. إلا أنه يمكنه بفضل التحليلات والتفسيرات تحديد إلى أى مدى ينتمى جزء من العمل أو كل العمل إلى مشروع متماسك شرع فيه الفنان منذ اللمسة الأولى لريشته. حين يتطابق عملان يمكننا الجزم بأن تنفيذ الثانى لم يكن ليتم بدون معرفة بالأول. من الصعب أن يحدث العكس إلا إذا استعدنا بالتفصيل خطوات تنفيذ الجدارية ورأينا فى تسلسل مراحل التنفيذ قدرًا من التماسك[1]. من هنا يمكننا القول إن مفهوم "اللوحة" ومفهوم "الوحدة الأيقونية" هما نتاج منهج تحليلى به قدر من التفسير متعلق هذه المرة بمدة التنفيذ.

تزخر إذن دراسة فن الجداريات بالفخاخ: فحتى إذا كانت رؤية هذه الأعمال متيسرة – وهو ما لا يحدث كثيرًا نظرًا للحالة التى يكون عليها الجدار وحداثة الخطوط – فهى خادعة. من هنا تبدو دراسة الفن المنقول من عدة أوجه أكثر ضمانًا وتأكيدًا، فهى محل ثقة على مستوى التأريخ والتسلسل الزمنى فى تنفيذها كما أن كل عمل ينتمى لهذا الفن يحدد بنفسه مساحته الأيقونية.

---

(١) فى بعض الحالات من الممكن حشد الحجج التى تسمح بالقول بأنه قد مر بعض الوقت بين تنفيذ وجه وآخر أو شكل وآخر فى العمل الفنى منها: تلف أو تغير حال الجدار بين مرحلتى التنفيذ والتفاوت أو التعارض فى أسلوبى التنفيذ أو التأريخ بنسبة الكربون المشع. فى هذه الحالة يمكن القول إن المرحلة الأولى من العمل قد تم إنجازها بغض النظر عما كان سيطرأ عليها لاحقًا.

ولكن سرعان ما تتبدد هذه الثقة؛ فالجزء الأكبر من هذه الأعمال المنقولة وصل إلى أيدينا فى صورة أجزاء وقطع ليس قابلاً للتحليل فيها إلا جزءٌ قليل من زخرفها. من هنا توجب الاستعداد والتزود بمجموعة من المبادئ الميثودولوجية – خاصة ما تعلق منها بالرفع من مواقع التنقيب. يناظر ذلك فى مجال جدريات الكهوف "أركيولوجيا حقيقية للجدار"[١] – واتخاذ الكثير من الاحتياطات النظرية لشق طريق بين الوثائق الناقصة والغامضة.

تفسيرات فن العصر الحجرى القديم من بروى Breuil إلى لوروا ـ جورهان Leroi- Gourhan:

أى معلومات يمكن استنباطها من وسيلة تعبير فنى على هذه الدرجة من الرقة والهشاشة فى التناول وهذا الثراء والغموض فى مناحٍ كثيرة؟ تتعرض مسألة معنى العمل الفنى لكثير من المجادلات والمناقشات.

غير أنه يمكننا محاولة استعراض الفرضيات الأساسية المطروحة مع الاحتفاظ فى أذهاننا بمسألة مضامينها الاجتماعية.

"فى المجتمعات والحضارات محدودة التطور بشكل خاص لا يتسنى للفن البقاء والنمو إلا باندراجه فى أمور عالية الأهمية والضرورة بالنسبة لها"[٢] على هذا النحو حدد بروى Breuil الدوافع العميقة لهذا الفن الذى اعتبره مرتبطًا بممارسات السحر وهى أمور وثيقة الصلة بالمتطلبات الاجتماعية والاقتصادية للجماعات فى العصر الحجرى القديم. وقد أضاف أنه اعتبارًا من هذه الحقبة:

---

(١) استنادًا للمصطلح الذى استخدمه كل من روبير سيمونيه Robert Simonnet وميشيل بربازا Michel Barbaza.

(2) Breuil Henri et lantier, Raymond, Les Hommes de la pierre ancienne ..., op. cit. p 215.

"وجد رسامونا ونحاتونا بفضل معتقداتهم فى سحر الصيد والتكاثر والتدمير ما يبرر ممارسة فنهم وتنميته. فقد كانوا فى آن واحد فنانين وسحرة يرسمون حبًا فى الفن ويقومون بذلك أيضًا لكى تتكاثر القنيصة التى يفضلونها وتموت الحيوانات التى تتهددهم بشرورها ويوفقون فى الصيد".(١)

من هنا نرى أن الطابع النفعى لهذا الفن لا يتنافى مع بعده الجمالى وقد أظهر بروى Breuil بذلك دور "الساحر" مبدع الصور ومكانته. ساد طوال العقود الأولى من القرن العشرين هذا الرأى وكان أول من صرح به سالومون ريناك Salomon Reinach الذى دافع عام ١٩٠٣ عن فكرة أن الفن لا يمكن أن يكون "ترفًا أو لهوًا" مثلما هو الحال لدى "الشعوب المتحضرة" وإنما هو على العكس من ذلك تمامًا "تعبير عن ديانة بدائية تتسم بالشدة والحدة وتحوى كثيرًا من الممارسات السحرية التى لا تهدف إلا للحصول على القوت اليومى"(٢).

ومثل هذا القول يمكن تفهمه فى حقبة ترفض الإيمان بفكرة "الفن للفن" التى راجت من قبل لدوافع أيديولوجية(٣). اعتبارًا من هذه الفترة أصبح الفن أحد أهم أعراض الفكر الدينى الذى اعترف علماء ما قبل التاريخ بوجوده لدى جماعات العصر الحجرى القديم، وبذا كرسوا اللبس بين الدين والسحر. عارض بعض العلماء هذا الاتجاه إلا أن آخرين ومنهم بروى Breuil كرروا هذا الخلط، وقد تخيل هذا الأخير "رهبانًا" يقيمون قداسًا يبتهلون فيه "للروح التى تتحكم فى مسار جموع الحيوانات ودرجة التوفيق فى الصيد" ويتضرعون إليها.(٤)

---

(١) ذات المرجع.

(٢) ذكر هذا القول هنرى ديلبورت فى كتابه: Delport, Henri, L'image des animaux ...., op. cit. p 194.

(٣) راجع ما سبق خاصة ما جاء بالفصل الأول.

(4) Breuil, Henri et Lantier, Raymond, Les Hommes de la pierre ancienne..., op.cit., p.215.

. ونظرًا لأن القائم بهذه الطقوس يلج إلى أعماق هذه المحاريب – حيث يقيم الإله – فهو يقوم أمام أعضاء جماعته بتنفيذ بعض الأشكال ذات الدلالات وغالبًا ما تكون الحيوانات جريحة.(١) فى بعض الأحيان تأخذ هذه الأشكال هيئة خرافية فتكون لها أجسام آدمية بملامح حيوانية فتزخر الرسوم "بإنسان البيسون" و"إنسان الظبى" وهيئات أخرى تجسد الآلهة أو السحرة أنفسهم.

هذه الرابطة ذات الجوهر المشترك بين الصيد والفن تفسر ولو جزئيًا ظهور هذا الشكل من التعبير، فطبقًا لما يراه بروى Breuil لم يلتفت الإنسان إلى سطوة الصورة إلا من خلال تقنية الصيد التى تعرف بالتمويه والتستر، فمن خلالها ذاب الإنسان فى الطبيعة وأصبح شديد الاقتراب من قنيصته. هذه المرحلة من التفسير التى توثق الصلة بين الأسر والإمساك الفعلى بالحيوان والاحتفاظ الرمزى به كانت ضرورية حتى يدرك علماء ما قبل التاريخ بهدوء قدر روحانية العصر الحجرى القديم.

إلا أننا سنرى لاحقًا أن الملامح الهوميروسية لهذا النموذج والقول المتكرر بأن هذه ممارسات سحرية، وهو ما ليس قابلاً للإثبات، إلى جانب المقارنات والتشبيهات الإثنوجرافية التى استبدلها بروى Breuil جزئيًا، سيتم فيما بعد تصويبها.

ويعد لوروا – جورهان Leroi Gourhan(٢) من أهم نقاد هذه الرؤية فقد أنكر وجود أى علاقة واضحة بين الصيد والفن، وأثبت بصفة خاصة عدم التطابق بين الحيوانات المرسومة والقنيصة التى يتم استهلاكها. وكان ماكس رفائيل Max

---

(١) اهتم بروى مثله فى ذلك مثل الكونت هنرى بيجوين Le comte Henri Bégouèn بسحر الصيد ودرس طويلاً آثار الجروح التى رآها فى أجسام الحيوانات وتأثيراتها.

(٢) راجع بصفة خاصة:

Leroi-Gourhan, André, Les Religions de la Préhistoire...,op.cit.

سبق لنا فى الفصل الرابع التطرق إلى النقد الذى وجهه لوروا – جورهان لمقارنيه عاب عليهم شدة سطحيتهم.

Raphäel قبله بقليل قد ساهم فى تجديد تناول الفن. فعقب سفره إلى إيزى - دى - تاياك Eyzies - de - Tayac فى منتصف عام ١٩٣٠ انكب مؤرخ الفن هذا، على دراسة المغارات المزينة وتوصل إلى نتائج تختلف تمامًا عما جاء به كل من ريناك Reinach وبروى Breuil. ففن العصر الحجرى القديم بالنسبة له، ناتج عن تـأثير طوطمى: وأشكال الحيوانات ترمز إلى "عشائر وقبائل" تجسد طبيعتهـا، وطريقـة تنسيق مواضعها فى العمل، التحالف والتعارض الموجودين بين هـذه الجماعـات الإنسانية الحريصة على تحديد هويتها عن طريق الصورة.(١) وقوبل هذا التفسير بالكثير من الانتقادات وقد رأى فيه العلماء من بروى Breuil إلى لوروا - جورهان Leroi - Gourhan وكثيرون بعدهما، فريضة لا جـدوى مـن ورائهـا ولا دليـل يدعمها.

ويجدر بنا هنا التذكير ببعد آخر فى أعمال رفائيل الذى دخـل، سـعيًا وراء إثبات أفكاره، حقل تحقيقات غير مطروق من قبل وهو التوزيـع والتنظـيم العـام للأشكال فى خلاء المغارة. من المؤكد أن بروى Breuil ومعاصـريه كـانوا قـد حاولوا وصف بعض التكوينات غير أنه لم يتطرق أحد منهم من قبـل إلـى فكـر موسع حول الترتيب والبنية الأيقونية فى الجداريات.

لم يكن اللجوء إلى السحر فى التفسير فى حاجة إلى الارتباط بالتنسيق العـام للزخارف الجدارية؛ فقد تم تصميم كل شكل كإضافة دقيقة أثناء احتفال أو مناسـبة طبقًا لطبوغرافية المكان وقيمته المقدسة. أما بالنسبة لرفائيل Raphäel فإن طبيعـة المحتوى الرمزى لهذه الأعمال تتطلب الالتفات إلى تنسيقها وتنظيمها.(٢)

---

(1) Raphaël, Max, Prehistoric Cave Paintings, New York, Pantheon Books, 1945 (Trois Essais sur la signification et l'art pariétal paléolithique, 1986).

(2) Leroi-Gourhan, André, Les Religions de la Préhistoire..., op.cit., p.99.

وقد وجدت لاحقًا هذه الفكرة الخاصة "بإدراك الصورة المتماسكة ذات الدلالة لتنسيق زخارف الكهوف" فى أعمال آنيت لامنج - إمبرير، ولوروا - جورهان Annette Laming- Emperaire et Leroi- Gourhan. بدا فن العصر الحجرى القديم فى سطور كل منهما كلغة، على عالم ما قبل التاريخ فك شفرة بنيتها. ولفظة "بنية" هنا ليست عديمة القيمة فى سياق العلوم الإنسانية فى فترة ما بعد الحرب ويذهب تفكيرنا إلى تيار "البنيوية" كما بدأ ونما فى علوم الإنثولوجيا واللسانيات والتحليل النفسى. بتطبيق هذا المنهج على مجال أركيولوجيا عصور ما قبل التاريخ وبالأحرى على الشهادات الفنية لهذه الحقبة، يتم الاهتمام بالروابط بين الوحدات المختلفة لتبين الطريقة التى تساهم بها كل وحدة فى البنية الكلية أكثر من رؤيتها منفصلة أو رؤية كل مقطع منها على حدة.

شرع لوروا - جورهان Leroi – Gourhan بهذه الطريقة فى تحليل مدروس "للتشكيل الجدارى" محاولاً تبين كل موضوع مثل (حيوانات، بشر، علامات) ودرجة تشابكه مع الموضوعات الأخرى وموضعه فى المساحة الكلية للتجويف. تلى ذلك من جانبه تحليل إحصائى وصل به إلى النموذج التالى:

هناك ارتباط وثيق بين الأهمية العددية للموضوعات المختلفة المصورة ومواضعها فى داخل اللوحات المرئية وتوزيع هذه اللوحات فى مساحة المغارة. وقد أوضح بهذه الطريقة التباين بين الحيوانات "المهيمنة أو المسيطرة" (وهى الخيول والبقريات والبيسون والثور البرى) الأكثر شيوعًا وتواجدًا فى اللوحات ذات المواقع المتميزة فى صدر المغارة وبين صور البشر والحيوانات المفترسة التى تمثل خطورة (كوحيد القرن والدب والأسد) وهى أقل عددًا وتشغل مواقع هامشية أو تقع فى أعماق التجويف. بين النوعين هناك أشكال تحتل مكانة متوسطة من الناحيتين العددية

Laming-Emperaire, Annette, La Signification de l'art rupestre paléolithique, Paris, Picard, 1962 – Leroi-Gourhan, André, Préhistoire de l'art occidental. op.cit.

والمكانية مثل (الماعز البرى والماموث والأيايل). فى نهاية هذا التحليل وبدون إغفال لدور الحيوانات الأخرى توصل لوروا – جورهان Leroi – Gourhan إلى أن الخيول والبقريات هى "الشخصيات الرئيسية أو الشخصيات المناقـضة لهـا فـى اللوحـة التصويرية"(١) التى تتناثر حولها العناصر الأخرى.

يوضح لوروا – جورهان Leroi – Gourhan ولامنج – إمبريـر – Laming – Emperaire الذى كان قد توصل إلى النتائج ذاتها – أن توزيـع الـشخوص لـيس اعتباطيًا فى الزخارف الجدارية وهو يخضع على عكس ذلك تمامًا لتنظيم حقيقـى. ويدفعنا تكرار القواعد ذاتها إلى اكتشاف رمز فى كل وجه وشـكل يملـى معنـاه الوضع فى المكان. يمكننا إذن القبول بفكرة وجود لغة دقيقة أو على الأقل لـبعض ملامح تشى بوجود قواعد رمزية. من هنا يمكن القول إن العالمين قد حاولا طـرح نسق تفسيرى للإلمام بمثل هذا التنظيم مع توخى الحذر.

أدى ذلك بلوروا – جورهان إلى إدخال مجموعة أخـرى مـن الوحـدات الزخرفية، وهى العلامات، وقد وضع لها تـصنيفات يقـسمها مـن خلالـه إلـى مجموعتين رئيسيتين:

العلامات الممتلئة (وهى الأشكال الهندسية البيضاوية والمثلثة والمـستطيلة)، والعلامات "الطويلة" أو الرفيعة (عصوات، نقاط متتالية أو شُرط).

تعد المجموعة الأولى قياسًا على رأيه، رموزًا جنسية أنثوية أما المجموعـة الثانية فأمثالها من الجانب الذكورى. أوصلت طريقة تنسيق العلامـات واقترانهـا المتكرر بالحصان والبقريات "جورهان" إلى افتراض أن النسق الأيقونى فى العصر الحجرى القديم يظهر إلى السطح ازدواجية المبادئ الذكرية والأنثوية.

(1) Leroi-Gourhan, André, Les Religions de la préhistoire..., op.cit., p.101.

من هنا يمكننا القول إن الحصان رمز ذكورى وإن فى البقريات دلالة أنثوية. يرتكز جزء من استدلال "جورهان" على إعادة تفسير للأشكال التى رأى فيها بروى "حيوانات جريحة": فبدلاً من التوقف عند الأسلحة والجروح ذهب لوروا – جورهان إلى القول بأنها علامات ذات دلالات جنسية ذكرية وأنثوية. بل إنه حتى أمام الوحدات التى تصور بالفعل جروحًا لم يستبعد أن يكون هناك تماثل بين الرموز الجنسية والرموز الخاصة بالصيد؛ "فالحربة عضو ذكرى والجرح عضو أنثوى"(١).

إلا أن لوروا – جورهان بقى على حذره مؤكدًا أن أحد أهم مكتسبات عمله هو إبراز فكرة كون العصر الحجرى القديم يجسد "نسقًا غاية فى التعقيد والثراء بل ربما أكثر تعقيدًا وثراء مما كان متخيلاً حتى هذه اللحظة".

وقد رأى "أن هذا النسق صعب الاختراق: يتطلب الأمر ببساطة قبول فكرة أن الثبات غير العادى للتشكيل الرمزى دليل وجود أساطير تخدم فكرًا دينيًا يوضح ما فى أذهانهم من صور عن نظام الكون بأسره"(٢)

من هذه الصور ستظهر بالقطع الازدواجية الجنسية الأساسية فى الخليقة. فى دراسته الأولى، كان لامنج – إمبرير Laming – Emperaire قد شرع فى تقديم تفسير مماثل يصف تشكيلاً جذريًا يرتكز على التقابل الثنائى بين المبادئ الذكورية والأنثوية(٣). وابتعد بعد ذلك بتفسيره عن هذه الفكرة جازمًا فى نهاية الأمر أن "تنسيق وتنظيم الجداريات يرجع إلى بنية وصياغة أكثر تعقيدًا من تلك الخاصة بالازدواجية الجنسية"(٤).

---

(١) ذات المرجع ص ١٥٤

(٢) ذات المرجع ص ١٥٢-١٥٥

(٣) حتى لو كان الحصان والبقريات تجسد، على عكس ما جاء به لوروا – جورهان، رموزًا جنسية أنثوية وذكورية على التوالى بالنسبة لها.

(٤) ذكر هذا الرأى هنرى ديلبورت Delporte, Henri, L'Image des animaux...,op.cit., p.231.

وقد اختار لامنج – إمبرير عندئذ أن يبحث في المضمون الاجتماعي المحتمل لهذه الأعمال: هل يمكن لهذه الصور والرسومات أن تكون رموزًا لجماعات اجتماعية تمثل ملامح تنظيماتها، تحالفاتها المحتملة واختلافاتها؟

للوهلة الأولى يبدو هذا الاتجاه صدى لطوطمية رفائيل Raphael غير أن لامنج – إمبرير Laming – Emperaire يراه أكثر كتعبير أساطيري ميثولوجي فقد قال: "قد تمثل أساطير الأصول المتعلقة بالأسلاف الذين قد تكون مواقفهم وتحالفاتهم تجسيدًا مسبقًا لما عليه الجماعات الحالية" هذه الرؤية مستوحاة من مفاهيم مستعارة من علم الإثنولوجيا الذي تحتل فيه هياكل القرابة والتحالفات التي تجسدها المبادلات الزوجية مكانة شديدة الأهمية.

يتوجب أيضًا التضامن في الرأي مع لامنج – إمبرير Laming – Emperaire في قبول كون نصوص الأصول تعد شكلاً ميثولوجيًا شديد الانتشار بين التقاليد والأعراف التاريخية والإثنوجرافية التي توارثناها. وهي كثيرًا ما تنسج معًا عدة رسائل متداخلة بشكل قوي. تعطي هذه النصوص بطبيعتها تفسيرًا لأصل نشأة العالم وهي تساهم، بإبرازها زوجين من الأسلاف الأسطوريين يرتبط دومًا ظهورهما بخروج العالم إلى الوجود، في تجذير القرابة بين أعضاء المجموعة التي تعد نفسها خلفًا لهما.

ويمكننا القول إنه من خلال مراحل حياة الأسلاف ومهامهم تطمح هذه النصوص إلى وضع أسس لتوزيع الأدوار بين الرجل والمرأة.

هل علينا، استلهامًا من فكر لامنج – إمبرير وامتدادًا إلى حد ما لفكر لوروا – جورهان، أن نعد تصوير الازدواجية الجنسية في فن العصر الحجري القديم قائمة بذات الدور؟[1].

---

(1) Laming-Emperaire, Anneite, «Art rupestre et organisation sociale», Santander synposium, 1972, p.65-82.

أم يعنى الأمر على الأقل التعبير عن بنية ميثولوجية تساهم بدورها فى تجميع دوافع ميتافيزيقية واجتماعية بشىء من العمق؟ وقد رد لوروا - جورهان على هذه التساؤلات بقوله: "كل شكل هو انعكاس لموقف أيديولوجى يرتبط فيه ما هو دينى واجتماعى وجمالى ارتباطًا وثيقًا"(١)

على الرغم من أهمية ما تركه لنا لوروا - جورهان فإن نقاد منهجه قد تزايدوا على مدى الثلاثين عامًا المنصرمة. إذا استمر النظر إلى فن العصر الحجرى القديم باعتباره انعكاسًا لنسق ومنهج رمزى فإن الطريق الذى شقه لنا لامنج - إمبرير، ولوروا - جورهان قد قاد بعضًا من تابعيهما إلى تأويل تفسيرهما وحتى إلى معارضته. وقد اتضح بصفة خاصة أننا حين نضع ترتيبًا زمنيًا أدق للأعمال الفنية فإنما نستعيد صورة أكثر حركة للرسم الجدارى. بعض هذه الأعمال قد أخرج إلى النور تنويعات إقليمية وإن كان علينا الاعتراف أن لوروا - جورهان كان قد اهتم بوصف بعض الاختلافات الجغرافية. وقد بين وضع الفن الجدارى فى سياقه أن التجويف ذو دور لا يمكن تفاديه فيما يختار من زخارف - ها هو الجدار وقد أصبح مشاركًا. من هنا يتضح لنا أن تنوع المواقف المسجلة يحول دون وضع نموذج عام للتنسيق والتنظيم يطبق اعتباطيًا على مجموعة المغارات المزخرفة. وهذا ما بينته على سبيل المثال الدراسات والأبحاث التى أشرف عليها دينيس فيالو Denis Vialou حول الفن المجدلينى للمغارات فى منطقة آرييج Ariege أو تلك التى قادها ميشيل لوربلانشيه Michel Lorblanchet حول كثير من تجاويف منطقة كيرسى quercy(٢).

---

(١) قول منقول عن هنرى ديلبورت Delporte, Henri, L'Image des animaux...,op.cit., p.239.

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذه الموضوعات راجع:
Sauvet, Georges et Sauvet, Suzanne, «Fonction sémiologique de l'art pariétal animalier francocantabrique», Bulletin de la Société préhistorique française, vol.

أدى ذلك تدريجيًا بكثير من الكتاب إلى القول بأنه إذا كان على عالم ما قبل التاريخ تحديد القواعد المنظمة للزخارف الجدارية فإنه يحظر عليه استنتاج دلالة أو بالأحرى أن يضع نموذجًا تفسيريًا أحاديًا مهما بلغت جاذبية هذا النموذج[١].

بعد مرور أكثر من قرن من التساؤلات الملحة حول معنى هذا الفن هل علينا النكوص والتراجع عن أى تفسير لهذه الأعمال التى يعادل غموضها الشديد ما بها من جماليات مذهلة؟ هل علينا الاكتفاء بتأملها ووصفها محللين أشكالها بدون أن نفهم منها غير الدوافع الجمالية؟ الواقع أن الموقف شديد التباين.

فقد حل محل النقد الموجه لنموذج لوروا – جورهان توجهات عدة بينها الكثير من التضاد، أحد هذه التوجهات سعى من جديد إلى إيجاد تفسير عام ونقصد هنا تلك الفرضية الشامانية التى اقترحها حديثًا دافيد لويس – ويليامز David Lewis - Williams وجون كلوت Jean Clottes.

بحث فى الأسس الأركيولوجية للبنية السياسية – الدينية:

ظهر الشامان فى فن العصر الحجرى القديم منذ زمن بعيد كما ورد ذكره كثيرًا فى الدراسات التى أجريت طوال القرن العشرين، والشامان استنادًا إلى

LXXVI, fasc. 10-12, 1979, p. 340-354 ; Roussot, Alain, «Approche statistique du bestiaire figuré dans l'art pariétal», L'Anthropologie, vol. LXXXVIII, n° 4, 1984, p.485-498; Vialou, Denis, L'Art des grottes en Ariège magdalénienne, Paris, CNRS, Gallia Préhistoire», suppl.22, 1986; Lorblanchet, Michel, Les Grottes ornées de la Préhistoire. Nouveaux regards, Paris, Errance, 1995; Delporte, Henri, L'Image des animaux...,op.cit.

(١) نبه ميشيل لور بلانشيه إلى أن جماليات هذه الأعمال وقدراتها التأثيرية تجاوز أى معنى يراد إعطاؤها لها.

Lorblanchet, Michel, «L'origine de l'art», in Kozlowski, Janusz et al. (dir.), «Naissance de la pensée symbolique et du langage», op.cit., p.118

النماذج الإثنولوجية التى تم التعرف عليها فى السهوب السيبيرية وصحراء كلهارى هو ذلك الشخص القادر على التواصل مع الأرواح والقوى الطبيعية والحيوانات وهو يقوم بذلك من خلال طقوس يدخل أثناءها حالة من الهذيان والارتعاد تقوده إليها إيقاعات الموسيقى والرقص وتأثيرات العقاقير.

ويرى التفسير الشامانى أن الإنسان بتواصله مع الأرواح ومحاولاته اصطفاءها والاستبصار من خلالها يكشف عن رغبته فى كشف سر وجوده ومكانته فى الطبيعة والتنصل من الإهانة التى يلحقها بالحيوانات التى يقتلها كما يسعى للاستعانة بهذه الأرواح. ويمكن القول إن بروى Breuil لم يكن إلى حد ما بعيدًا عن هذا المنظور فى قوله: "بأن الصياد يشعر بتضارب فى أحاسيسه تجاه الحيوان: فهو من جهة يدافع عن ذاته بصيد اللحم اللازم لإبقائه على قيد الحياة ومن جهة أخرى يحاول أن يستميل الحيوان ويجتهد فى ضمان وجود جديد له"[1].

إذا نحينا جانبًا التشابه بين بنية المعتقدات فى الشامانية والأنيميزم Animisme أو مذهب حيوية المادة وجدنا أن ممارسة الشامانية كما قدمها مؤخرًا دافيد لويس ويليامز David Lewis Williams تلبى احتياجًا عامًا لدى الإنسان لمعرفة دخائله. بعبارة أخرى يمكننا القول بأن الشامانية وحالة التوتر التى تصاحبها هى واحدة من أكثر الإجابات وردود الفعل شيوعًا بين الشعوب البدائية لإيجاد معنى للحالات المتباينة للوعى (بالنوم والأحلام والهذيان ... إلخ)[2]

وقد اقترح دافيد لويس – ويليامز، متضامنًا فى ذلك مع جون كلوت Jean Clottes أن يتم تطبيق هذا التفسير المستوحى من السياق الإثنى الأركى لأفريقيا

---

(1) Breuil, Henri et Lantier, Raymond, Les Hommes de la pierre ancienne...op.cit., p.322-323

(2) Lewis-Williams, David, L'Esprit dans la grotte. La conscience et les origines de l'art (2002), Monaco, Editions du Rocher, 2003.

الجنوبية على العصر الحجرى القديم الأوروبى.[1] وطبقًا لرؤيتهمـــا فـــإن الجـــزء الأكبر من أشكال التعبير الفنية الخاصة بهذه الفترة على الأقل.

والملاحظ أن الجداريات تعكس تدريجيًا رؤى الشامانات خلال ما يمرون به من تجارب متعددة. وبالتالى يكون تنفيذهم للأعمال الفنية بهدف إعطاء شكل مادى لهذه الرؤى لإمكانية حفظها فى الذاكرة ونقلها للغير. من هنا يمكن اعتبار بعـــض الزخارف المكونة من رموز وعلامات "وحدات باطنة"؛ أى أشكالاً هندسية تفرض نفسها على الشامان فى أول مراحل التوتر والاضطراب التى تعتريه.

أما الأشكال الحيوانية فتجسد حالات الهذيان العميق. تبقى بعد ذلك الأشـــكال الجامعة للملامح البشرية والحيوانية وتعكس ذروة الاضطرابات الداخلية. يعاود هنا السحرة الذين أشار بروى Breuil إلى وجودهم، الظهور فـــى صـــورة شـــامانات ويتجسدون فى هيئة أرواح من عالم آخر.

يقدم إذن كل من دافيد لويس – ويليامز David Lewis – Williams وجـــون كلوت Joan Clottes تفسيرًا شاملاً للفن الجدارى يدعم من ناحية هذه النظرية لـــدى الجمهور العريض ويضعفها من ناحية أخرى فى نظر العديد من المتخصصين فى هذا المجال. من المؤكد أن الشامانية ممارسة واسعة الانتـــشار بـــين الجماعـــات الحديثة فى الكثير من القارات ومن ثم يلزم البحث فى تأريخها. ونلاحظ أن القاعدة الحتمية البيولوجية تسير فى ذات الاتجاه:

فالحالات المتباينة للنفس المضطربة وما يصاحبها من هذيان وثيقة الـــصلة بخواص وصفات عامة، مما يسمح بتمييز الأشكال الهندسية الدالة على بدء حالـــة التوتر. ويثور هنا تساؤل عن مدى إمكانية التعرف على الفن الشامانى. فمع وجود

---

(1) Clottes, Jean et Lewis-Williams, David, Les Chamans de la préhistoire, op.cit..

المواصفات ذاتها من وحدات هندسية وأشكال حيوانية ومهجنة ألا نخاطر بنسب أعمال فنية إلى الشامانية إذا ما كان لهذه الأخيرة تعريف ثابت؟ وهو ما يعترض عليه بعض الكتاب. وقد ثار حاليًا نقاش حاد حول مدى ملاءمة هذا التفسير وتطبيقه على سياق العصر الحجرى القديم.(١)

يمكننا على أية حال محاولة قياس التوابع الاجتماعية للشامانية، فهذه الممارسة كما يقول روبير سيمونيه Robert Simonnet تطرح سؤالاً عن السلطة فى مجتمعات العصور الحجرية القديمة(٢). للشامان، مفوض الجماعات فى عالم الأرواح، سلطة يمكن الربط بينها وبين مكانة اجتماعية ما، مثل "الكاهن الساحر" الذى حدثنا عنه بروى Breuil. هل صورة الشامان على هذا النحو قادرة على توجيه فكرنا إلى البنية ليست فقط الدينية وإنما أيضًا السياسية فى هذه المجتمعات؟ إذا كان الأمر على هذا النحو فهناك تعارض طفيف مع فكرتنا عن المساواة الكاملة بين أفراد هذه المجتمعات.

الواقع أن السلطة بما لها من صلات، وأشكال للتقسيمات الاجتماعية، ومعايير للتدرج فيها تعد من المفاهيم المحيرة فى مجال أركيولوجيا العصر الحجرى القديم؛ فصورة مجتمعات هذا العصر تقدم لنا دومًا باعتبارها من أكثرها تمتعًا بالمساواة. من ناحية أخرى نرى أنه بدون أدنى شك لا يوجد تخصص حرفى لدى أفراد الجماعات حتى أنه يمكننا القول إن كافة مجالات الثقافة المادية – من

---

(١) راجع فى هذا الصدد:

Lorblanchet, Michel, Le Quellec, Jean-Loïc, Bahn, Paul G., Francfort, Henri-Paul, Delluc, Brigitte et Delluc Gilles, Chamanismes et Arts préhistoriques. Vision critique, Paris, Les Hespérides / Errance, 2006; Francfort, Henri-Paul et Hamayon, Roberte (dir.), The Concept of Shamanism. Uses and Abuses, Budapest, Akadémiai Kadó, 2001.

(2) Robert Simonnet, Communication Personnelle مداخلة مقدمة من روبير سيمونيه

تجهيزات مصنوعة من الحجر والعظم والجلد وأدوات للزينة – ليست صنيع "متخصصين" بمعنى أفراد تتركز وظيفتهم الاجتماعية جزئيًا فى إنجاز هذه المهمة بين أبناء جماعاتهم. فعلى النقيض من ذلك، نجد أن كل فرد فى هذه الزمر قادر على تنفيذ كافة الأشياء التى تتطلب ثقافته استعمالها ومستعد لإنجاز كافة المهام التى يرى مجتمعه ضرورة القيام بها. وشكل التقسيم الوحيد الباقى للمهام هو القائم على الجنس وغالبًا ما يكون الصيد هو المقصود به.[١] لا شك أنه ينبغى لنا إضافة التقسيم القائم على الفارق العمرى بين الأفراد وعلى مدى نضجهم.

ولكن أيًا ما كان الأمر، فمجتمعات العصور الحجرية القديمة غالبًا ما توصف كعالم لا قائد له ولا حرفيين بالمعنى الاجتماعى للكلمة. من هنا يمكننا القول بأن الشامان يعد استثناء وكذلك المجال الدينى كله.

إلى أى مدى تؤكد أركيولوجيا هذه الجماعات الفرضية الشامانية؟

رأينا من قبل كيف أن مقر السكنى قادر على تزويدنا بمعلومات اجتماعية شديدة الثراء إذا ما وفقنا فى وصف بنيته بدقة متناهية وأمكننا تحليل التوزيع المساحى للأنشطة المزاولة به... إلخ[٢]. وإذا ما أمعنا النظر فى أماكن سكنى هذه الفترة وجدنا أنها لا تشي بوجود هيراركية اجتماعية ولا بدلائل على تخصص حرفى بالمعنى الحرفى للعبارة. أى أننا إذا أمكننا استخلاص بعض القواعد المطبقة فى التعامل مع المساحات من مجموعة الوثائق والمراجع الأركيولوجية التى بحوزتنا فإننا سنعجز عن العثور بها عن شيء يشير إلى التخصص الحرفى أو البنية السياسية.

---

(١) راجع الفصل الخامس.
(٢) راجع الفصل السادس.

والأمر لا يختلف بالنسبة للشامانات. هناك مما لا شك فيه أماكن إقامة ذاخـرة بأعمال وقطع من الفن المنقول وقد ارتكزت عليها فرضية وجود مواقع "مدمجة".

وقد وجدت فى ذات السياق آثار للسكنى فى مغارات عميقة ملحقة بقطاعات مزخرفة وخاصة فى الثقافة المجدلينية. ولكن فى كلتا الحالتين لا يسعنا الربط بـين طبيعة هذه المقار التى لا يداخلنا شك فى كونها ولو جزئيـا ذات وظيفـة أو دور دينى وبين وجود القائمين عليها.

دفن الشامان:

لنترك عالم الأحياء، فقد تم التثبت فى فترات لاحقة من الدلائل على وجـود تقسيمات اجتماعية فى المجال الجنائزى من خلال العناية التى كانت تولى للموتى، وقبورهم وقطع المنقولات المصاحبة لهم.(١)

لا يتطرق إلينا الشك فى أن القبور التى كانت موجودة فى العصر الحجـرى القديم الأعلى كانت تضم رفات شخص واحد – وهو الأمر الأكثر شيوعًا – أو عدة أشخاص(٢). إلا أن ما لدينا من معلومات لا يتصف بالثبات والاستمرارية عبـر الزمان والمكان. فقد كان هذا الأمر استثنائيًا فى الألفيـات الأولـى مـن العـصر الحجرى القديم الاعلى(٣). ثم تطور مع مقدم الدور الجرافيتى (وبصفة خاصة فـى

(١) فى ذات الموضع.

(٢) وجدت بالفعل قبور ثنائية وثلاثية تضم رفات أكثر من شخص, بل إنه عثر على مقابر تـضم أعدادًا كبيرة من الأجساد على شاكلة القبر الجرافيتى فى منطقة بردموستى Predmosti فـى الجمهورية التشيكية حيث وجدت بها عشرون جثة. راجع فى هذا الصدد:

Maureille, Bruno, Les Premières Sépultures, op.cit.

(٣) هناك احتمال لوجود حالة واحدة فى موقع سان – سيزير Saint – Cezaire خـلال الـدور الشاتلبيرونى.

وسط وشرق أوروبا وإيطاليا وجنوب غرب فرنسا). وقد لوحظ ثباته بين بعض جماعات الفترة فوق الجرافيتية L'Epigravattien بينما شهد عدم استمرارية لدى نظرائهم من الدورين السوليترى والبادجولى.

أما فى المنطقة الأطلنطية فقد تطلب الأمر انتظار الدور المجدلينى للحصول على دلائل وجود عملية دفن بقبور. مثل هذه الفروق تذكرنا بأن الدفن طريقة من عدة طرق للتعامل مع الموتى مثل حرق الجثث وهو ما لم يتم الاستدلال على وجوده فى العصر الحجرى القديم الأعلى. فالجماعات التى لم يتم العثور لها على قبور كانت بالقطع تلجأ إلى ممارسات أخرى كما تدلنا على ذلك التعاملات المختلفة مع البقايا العظمية؛ فقد كانت هناك أسنان آدمية فى قطع الزينة الأورينياكية وتجاويف جماجم أدخل عليها السوليتريون والمجدلينيون تعديلات وتغييرات للانتفاع بها بطرق لم يعثر لها على أثر.(١)

ويمكننا القول إنه حتى فى السياقات الجرافيتية والمجدلينية التى عرفت بوفرة الأدلة والوثائق فإن عدد القبور التى تم التثبت من وجودها ضعيف نسبيًا. ففى فرنسا لم يوجد إلا اثنا عشر جرافيتيًا مدفونين وعدد مماثل من المجدلينيين وجدت المجموعة الأولى فى قبور متعددة أو مجمعة وقد أوتى بها من موقعين فى إقليم البريجور للكرو- مانيون والكوساك Cussac (سبعة وخمسة أفراد على

(1) Henry-Gambier, Dominique, Maureille, Bruno et White, Randall, «Vestiges humains des niveaux de l'Aurignacien ancien du site de Brassempouy (Landes)». Bulletins et Mémoires de la Société d'Anthropologie de Paris, vol. XVI, n° 1-2, 2004, p. 49-87; Henry-Gambier, Dominique et Le Mort, Françoise, «Modifications artificielles et séries anciennes: possibilités et limites de l'interprétation palethnologique», Bulletins et Mémoires de la Société d'anthropologie de Paris, vol. VIII, n° 3-4, 1996, p. 245-260.

التوالى). أما القبور المجدلينية فكلها فردية وأكثر بعثرة (وجد أحد عشر فردًا موزعين على تسعة مواقع).

هذا لا يمكننا من القول فى الحالة الأولى أننا بصدد مدن للموتى حتى وإن كانت أماكن الدفن على ما يبدو بمنأى عن المساحات المخصصة للحياة اليومية كما فى مغارة كوساك المزخرفة. أما فى الدور المجدليني فقد دفن الموتى فى أرض أماكن السكنى.(١)

ويمكننا بصفة عامة القول بأن الرجال والنساء على السواء يمكنهما أن يحظيا بقبور، كما أنه قد وجد مدفونًا بها أناس من جميع الفئات العمرية بما فيها الرضع. وقد لوحظ أن الأجساد مع احترام كافة أوضاعها قد وضعت فى حفر جدرانها مكسوة بتراب صلصالى يستخدم فى التخضيب. وقد وجد أن ملابس الموتى غالبًا ما تكون مزينة بخرز من العاج أو بأصداف وأحيانًا بأسنان حيوانات، فكثيرًا ما نجد قواطع آيل أو أنياب ثعلب تشكل وحدات زخرفية على غطاء للرأس أو صدار أو غيره. قد تكون زينة الرأس هى الأكثر شيوعًا إلا أن هناك نماذج كثيرة لأساور تلتف حول ذراع أو ساق الميت أو نطاق يحيط بخصره، هذا غير أشياء كثيرة من الأحجار والعظام والمواد الأخرى تحيط به. قد توجد فى المنقولات

---

(1) Aujoulat, Norbert, Geneste, Jean-Michel, Archambeau, Christian, Delluc, Marc et Henry-Gambier, Dominique, «La grotte ornée de Cussac. Observations liminaires», Paléo, n° 13, 2001, p.9-17

ويتوجب هنا تحديد الجوانب التالية:
هناك أولاً قبور فردية جرافيتية لصيقة بأماكن السكنى خارج حدود فرنسا، حتى وإن كنا قد لاحظنا أيضًا وجود قبور جماعية أشهرها قبر "برد موستى" الذى سبق لنا الإشارة إليه. ليس يسيرًا بالقطع إيجاد رابط زمنى بين عمليات الدفن التى تمت فى أماكن الإقامة وفترات المكوث الفعلى بها. وإذا كانت مدن الموتى الأولى تنسب غالبًا إلى العصر الميزوليثى استنادًا إلى الاكتشافات التى عثر عليها فى موقعى تيفييك Téviec وهودك Hoedic بإقليم بريتانى Bretagne فهناك أمثلة أكثر قدمًا فى العصر فوق الحجرى القديم فى المغرب والشرق الأدنى.

الجنائزية تماثيل صغيرة أو قلادات كما فى "سانجير" ومالتا السيبيرية[1] إلا أنه أمر أكثر ندرة.

وينقل عن برونو موراى Bruno Maureille أن ثراء منقولات بعض الأفراد كما فى موقع "سانجير" يدفع إلى التفكير فى كونه دلالة على هيراركية اجتماعية [2] مطبقة على مستوى البالغين بل والأطفال.

---

(١) وجد فى القبر الثانى الكائن بموقع "سانجير" الروسى الذى سبق وصفه، تمثالان صغيران من العاج كل منهما بجوار رفات طفل يمثل أحدهما حيوان الماموث أما الثانى فأغلب الظن أنه لحصان. أحد الأمثلة النادرة الأخرى المعروفة وجد فى موقع مالتا السيبيرى الذى كان يضم قبرًا آخر لطفل أحدث قليلاً من قبر "سانجير" (٢١٠٠٠-١٣٠٠٠ قبل التاريخ المدون) وقد وجدت به قلادة حيوانية على شكل عصفور.

Taborin, Yvette, Langage sans parole. La parure aux temps préhistoriques, Paris, La Maison des Roche, 2004. جدير بالذكر أن قدم اكتشاف معظم القبور تجعل ما وصلنا من معلومات عنها منقوص المصداقية. ففى فرنسا نجد على سبيل المثال ستة قبور من إجمالى أحد عشر قبرًا مجدلينيًا معروفًا قد خرجت إلى الوجود قبل عام ١٩٠٠ أما أحدثها فقد تم التنقيب عنه عام ١٩٦١، هذا لا يمنع أن بعض القبور المكتشفة قديمًا كانت محل دراسة عميقة كما جاء فى الكتاب التالى الذى يعد مرجعًا ميثودولوجيًا فى دراسة قبور العصور الحجرية القديمة.

Henry-Gambier, Dominique, La Sépulture des enfants de Grimaldi (Baoussé-Roussé, Italie). Anthropologie et palethnologie funéraire des populations de la fin du Paléolithique supérieur, Paris, Editions du CTHS et de la RMN, «Documents préhistoriques», n° 14, 2001, (avec la collaboration de Marie-Agnès Courty, Eric Crubézy, Bertrand Kervaso, Nadine Tisnérat-Laborde et Hélène Valladas).

(٢) بالقرب من قبر الأطفال الثانى فى "سانجير" وجد قبر لرجل بالغ يضم بالإضافة إلى الأسلحة المصنوعة من العاج التى سبقت الإشارة إليها وإقرانها بالأطفال (راجع الفصل الخامس) بعض الأدوات الأخرى مثل العصى المثقوبة والأزاميل والإبر. وقد ضم هذان القبران وحدهما أكثر من عشرة آلاف خرزة من العاج وبضعة مئات من أسنان الثعالب المحفورة وأساور من عاج بعضها ملون باللونين الأحمر والأسود وقلادات وأقرص هندسية وحلقات إلى جانب التمثالين الصغيرين الذين سبقت الإشارة إليهما.

من القبور الأخرى شديدة الثراء بالمنقولات هناك قبر "الأمير" الشاب فى مغارة آرين كانديد Arene Candide بإيطاليا وهو مراهق تم دفنه فى عام ١٨٥٠٠ قبل التاريخ المدون تقريبًا مزينًا بعقد من الأصداف وأسنان الأيايل وقلادات من العاج وأساور. وقد وجدت إلى جواره أيضًا عصى مثقوبة.

هل علينا استنتاج وجود نقل بالوراثة لبعض أشكال السلطة أو لتميز اجتماعى نعجز عن فهم طبيعته؟ بعد استعراض مطول لكل ما يخص زينة هذه الفترة وسياقات اكتشافها هدأت إيفيت تابوران Yvette Taborin من حدة هذه الاستنتاجات. فبالنسبة لها تمثل هذه القبور:

"حالات حتى الآن منفردة لا تدفع بنا إلى المغامرة بالقول بأنها علامة أو دلالة على وجود هيراركية اجتماعية فى مجتمع نعرفه. هذا غير أن هناك آلافًا من قطع الزينة المصنوعة من العاج قد عثر عليها فى مساكن مما يثبت أن استخدام الزينة أمر عادى وعملى".(١)

وقد أيدت فكرة كون مجال الزينة هو "مجال الأفكار والمعتقدات وبالطبع القيم الاجتماعية". وبوصفها كذلك فإن توقعاتنا منها أن تنقل "القيم التى ترسى دعائم الثقافة، الرموز الدينية التى توضح هيراركية الأفراد، وقدراتهم الشخصية مرورًا بانتمائهم إلى شرائح عمرية وجماعات خاصة". غير أن الأمر يستوجب منا البقاء على حذرنا ونحن نحاول على هذا النحو تفسير وثائق العصور الحجرية.

فالتمييز بين الزينة الرجالية والنسائية والتفرقة بين تلك الخاصة بالبالغين والشباب والأطفال(٢) أمر بالغ الدقة؛ نظرًا لقلة عدد القبور التى تم العثور عليها. من هنا يمكننا القول بأنه من الصعب الربط بين الزينة والوضع أو المكانة الاجتماعية.

---

2. Maureille, Bruno, Les Premières Sépultures, op.cit., p.83-84.

1. Taborin, Yvette, Langage sans parole...,op.cit., p. 197.

(١) ذات المرجع ص٢٠٩ وص٩ وص١٠.

(٢) قدم راندال وايت Randal White ملاحظات فى هذا الصدد حول قبور "سانجير" وكذلك ماريان فانهيرن Marian Vanhaern بشأن قبر طفل المادلين الذى يرجع تاريخه إلى نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى (المجدلينى الحديث أو فوق العصر الحجرى القديم).

أورد ذكر هذه الدراسة موراى برونو.

هل نفترض من ذلك أن الدراسات المتعلقة بالزينة عاجزة عن إنطاق هـذه الأشياء وجعلها تشى بمكنوناتها؟ الواقع أن الأمر على العكس مـن ذلـك تمامًـا. فتحليل هذه التجميعات الثرية ومقارنة أشكالها وتقنياتها فى التحـول تجعـل منهـا ناقلات قوية للهوية الثقافية(١)، بل إن بعضًا منها يعد دلائل إقليمية. بالإضافة إلـى كل ذلك فهى تبدو كشهود متميزين على تداول الثروات والمنقولات وانتقال الأفراد لمسافات طويلة وبذلك تجسد العلاقات والروابط بين مجموعـات غيـر متقاربـة جغرافيًا.

وقد سمحت دراسة الأصداف والقواقع التى يمكن تحديد مـصادرها بـشىء كبير من الدقة لإيفيت تابوران Yvette Taborin بطرح أكثر مـن فرضـية حـول الأسباب الاجتماعية الكامنة وراء انتقالات هذه الأشياء المستخدمة فى الزينة.

تفترض هذه العالمة أن تداول الأصداف بصفة خاصة نـاتج عـن وجـود زيجات بين جماعات موزعة الإقامة على مساحات شاسعة. هذه الأشـياء الهـشة

Maureille, Bruno, Les Premières Sépultures, op.cit., p.84 ; Vanhaeren, Marian et D'Errico, Francesco, «La parure de l'enfant de la Madeleine (fouilles Peyrony). Un nouveau regard sur l'enfance au Paléolithique supérieur», Paléo, n° 13, 2001, p.201-231.

لنذكر هنا بأن إيفيت تابوران Yvette Taborin قد انضمت إلى لوروا – جورهـان Leroi-Gourhan فيما يخص بعض الأقراط كما أنها من ناحيتها ترى أن قطع الزينة المـصنوعة مـن الأصداف ذات مدلولات جنسية؛ أنثوية وذكورية بغض النظر عمن يرتديها.

(١) على شاكلة أعمال راندال وايت Randal White حول الزينة الأورينياكية.

White, Randall, «Thechnological and Social Dimensions of "Aurignacian-Age" Bodu Ornaments across Europe», in Knecht, Heidi, Pike-Tay, Anne et White, Randall (dir.), Before Lascaux. The complex Record of the Early Upper Paleolithic, CRC, 1993, p.277-299.

4. Vanhaeren, Marian et d'Errico, Francesco, «Aurignacian ethno-linguistic geography of Europe revealed by personal ornaments», Journal of Archaeological Science, vol. XXXIII, n° 8, 2006, p. 1105-1128.

تبقى حول عنق[١] الخطيب أو الخطيبة كذكرى أو دلالة على الرحلة التى تم القيام بها. يبقى أمام هذه الدراسات صعوبة إيجاد صلة بين بعض من هذه الزينة وأى بنية سياسية أو دينية مثل الشامانية على سبيل المثال[٢].

بعبارة أخرى، حتى إذا نحت بعض المراجع وسبل التوثيق الأركيولوجية ومنها قطع الزينة بشكل عام والقبور بشكل خاص إلى إثبات وجود أكواد وقواعد منظمة للتميز الاجتماعى، فإنه من الصعوبة بمكان رؤية دلالة ما بها على وجود هيراركية، أو ربطها ببنية سياسية دينية محتملة يجسدها شخص كالشامان. نخلص فى نهاية هذا المطاف إلى أنه حتى إذا أمكن فى بعض السياقات الإثنولوجية مع وجود إثباتات أخرى غير قطع الزينة ذاتها، استخلاص حجج قوية تدعم الطابع الشامانى لمثل هذا الإنتاج الفنى فإن المعايير المستخدمة فى ذلك تبقى عاجزة وغير فاعلة فى عقد مقارنات عبر الزمان والمكان لتفسير هذه الفنون التى نجهل تمامًا سياقات وظروف إبداعها.

---

(١) تشى الأصداف بوجود ديناميكية فى الحياة الاجتماعية تدعمها روابط التكاتف ومبادلات الأفراد. فالأصداف لم يتم جلبها من أماكنها البعيدة عن طريق بعثات وقوافل منظمة خصيصًا لذلك وإنما انتقلت بشكل غير إرادى ممن تزينوا بها وارتحلوا من مكان لآخر، وهناك أسباب أخرى نذكر منها بصفة خاصة مبادلات الأفراد بين الجماعات وبعضها البعض.

Taborin, Yvette, Langage sans parole...,op.cit., p.70; id., La Parure en coquillage au Paléolithique, Paris, CNRS, «Gallia Préhistoire», suppl. 29, 1993.

(٢) هناك بالطبع "الخبيئة" الشهيرة التى عثر عليها فى مدخل مغارة لاباستيد Labastide فى جبال البرانس وهى قطع للزينة من العظم المحفور على شكل رؤوس الماعز زخرف بها ثوب مدفون عن قصد بالقرب من القطاعات المزخرفة من المغارة. إذا كانت هذه الفرضية مقبولة فتنقصنا أمثلة أخرى مشابهة للربط بين ما يمكن أن تمثله هذه للزينة وأى وظيفة طقوسية محتملة.

Simonnet, Rbert, Louise et Georges, «Art mobilier et art pariétal à Labastide», in Clottes, Jean (dir.), L'Art des objets au Paléolithique, t.I, L'Art mobilier et son Contexte, Actes du colloque de Foix-Le Mas d'Azil (1987), Paris, Ministère de la Culture, 1990, p. 173-187.

واقع الأمر أنه من الصعب التمييز بين الفن الشامانى وما عداه من فنون من خلال الشواهد الفنية فقط. من هنا فالمشكلة الرئيسية فى هذه النظرية هى أنها لا تحوى فى ذاتها إمكانية دحضها. ومحصلة الأمر أنها مهما لاقت من قبول فإن الفرضية الشامانية تبقى غير قادرة على تبيان حدودها وبالتالى لا تقيم جسورًا مع أى تفسيرات منافسة.

من هنا فإن الشامان يتراجع ببطء ويعود إلى أدراجه فى السهوب السيبيرية وقفار كلهارى الشاسعة التى خرج منها، غير تارك وراءه غير خيوط واهية مع الحقيقة ومزيد من الغموض حول البنيات السياسية والدينية فى هذه المجتمعات والهوية الاجتماعية لمبدعى هذه الأعمال.

هل توجد علامات أخرى توضح تفرد هؤلاء المبدعين الذين نصفهم دومًا بالفنانين رغم ضعف ورخاوة المصطلح اجتماعيًا؟

معنى الشكل:

اهتم كثير من علماء ما قبل التاريخ فى بحثهم عن معنى لهذا الفن، بالأساليب المميزة لهذه الأعمال وقد سعوا مع إبرازهم للمزايا التشكيلية فيها إلى إنطاق الأشكال التى يحويها حتى يتمكنوا من تأريخها وسلسلتها زمنيًا، والحق أن الفن الجدارى يضم إبداعات حقيقية.

وحتى لا نكرر الحديث فى المراحل المختلفة لهذا التناول(١) نذكر بأنه حتى بداية التسعينيات كان الاستناد إلى التأريخ الأسلوبى الذى قام به العالم لوروا -

(١) سيجدها القارئ مفصلة بوضوح فى مؤلفات نذكر منها:

- Delporte, Henri, L'Image des animaux...,op.cit.

- Roussot, Alain, L'Art préhistorique, op.cit.

جورهان Leroi – Gourhan يرتكز على تقدم "متماسك" منذ الصور الهيكلية المميزة للأسلوبين III فى الفترة البدائية (الأورينياكية ثم الجرافيتية) وحتى الاتجاه الطبيعى "الكلاسيكى" المميز للأسلوب IV (المجدلينية) مرورًا بالمرحلة "الأركية" المميزة للأسلوب III (السوليترية)(١).

وقد احترمت هذه الرؤية أطر الفكر التطورى لواضعها(٢). ونذكر فى هذا الصدد أنه حين يمنح لوروا – جورهان بعدًا لا زمانيًا لمعنى هذه الأعمال، فإن ذلك لا يمنعه من القول بأن أشكالها تبدو له خاضعة لقوانين التقدم التى يجسدها تمكنهم من الواقعية. والحق أن النموذج التفسيرى الخاص به يؤكد على الحداثة الفكرية لهؤلاء الحرفيين.

فى عام ١٩٩٤ تم اكتشاف أثر جديد نزع عن هذا التسلسل الزمنى للأساليب قيمته: فقد عثر على مغارة "شوفيه" Chauvet فى إقليم "الأردش" "Ardeche" الذى يرجع جزء من جدارياتها إلى الدور الأورينياكى. وقد أثبت هذا الجزء أنه منذ أقدم مراحل العصر الحجرى القديم الأعلى هناك توافق بين التعبير الفنى والرغبة فى النقل الدقيق لحركة الحيوانات وأشكالها التشريحية(٣). تساءلت جموع علماء ما قبل التاريخ آنذاك عن صحة الأساس الذى ارتكز عليه لوروا – جورهان فى تأريخه وألقى هذا الاكتشاف بتوابعه الثقيلة على القيمة المعطلة لمفهوم الأسلوب.

---

(1) Lero1. Leroi-Gourhan, André, Préhistoire de l'art occidental, op.cit.

(٢) راجع ما سبق فى الفصل الرابع.

(٣) تم تنفيذ الجداريات الأورينياكية الموجودة فى هذا التجويف فيما بين الأعوام ٣٢٠٠٠ و٣٠٠٠٠ قبل التاريخ المدون.

. Clottes, Jean (dir.), La Grotte Chauvet. L'art des origines, Paris, Seuil, 2001

Geneste, Jean-Michel (dir.), Recherches disciplinaires dans la grotte Chauvet, Actes des journées de la SPF, Lyon (2003), Paris, Société préhistorique française, 2005.

غير أنه خلال ذات الفترة أى فى التسعينيات رج اكتشاف جديد عالم الدراسات الخاصة بفن العصر الحجرى القديم وهو المنحوتات الصخرية فى وادى "كوا" coâ بالبرتغال. وقد أصبح الفن الجدارى اعتبارًا من هذه الآونة غير قاصر فى تواجده على الطبقات المدفونة تحت الأرض. ظهر للعيان على مقربة من أماكن العيش وسط الطبيعة ومناطق الصيد.

أمام هذا الاكتشاف غير المتوقع احتدمت مناقشات حول حقيقة هذا الفن أو على الأقل حول نسبته تأريخيًا إلى العصر الحجرى القديم. مثّل أسلوب تصوير الحيوانات الحجة الرئيسية للمدافعين عن قدم هذا الفن، وقد وصف إيمانويل جى Emmanuel Guy درجة التشابه الواضحة بين عدد كبير من الأعمال الفنية التى عثر عليها فى وادى "كوا" "Coâ" والأعمال التى ترجع إلى الفترتين الجرافيتية والسوليترية(1). فقدت محاولة لوروا - جورهان للتأريخ الكثير من قيمتها من خلال "شوفيه" وفى ذات الأثناء ساهمت تناولات أخرى فى إعادة إحياء مدلول مفهوم "الأسلوب".

واقع الأمر أن واحدًا من الأبعاد الملفتة لهذا الفن يتمثل فى تنوعه الكبير فى الأساليب؛ فهو يجمع الأشكال الهيكلية التى يطغى فيها تداخل الخطوط وتشابكها أحيانًا على وصف الشىء المصور، إلى تلك التى على العكس من ذلك تنقل الواقع بدقة بالغة. استطاع هؤلاء الفنانون رسم موضوعاتهم رسمًا "مسطحًا" بدون منظور كما استطاعوا اللعب بسمك خطوط حدودها لإعطائها حجومًا. من هنا يمكن القول إن فن العصر الحجرى القديم لا يتلخص فى صيغ أسلوبية وإنما يقدم مجموعة اختيارات أيقونية شديدة الثراء.

(1) Guy, Emmanuel, «Contribution de la stylistique à l'estimation chronologique des piquetages paléolithiques de la vallée du Côa (Portugal)». in Sacchi, Dominique (dir.), L'Art paléolithique à l'air libre...,op.cit., p. 65-72

وإذا كان علينا طرح فكرة التقدم الخطى لهذا الفن جانبا فإن أساليبه المتعددة تصلح لأن تكون علامات ثقافية ذات تناغم تاريخى وجغرافى(١).

لندعم هذه الفكرة بمثال. طوال سنوات العصر الحجرى القديم الأعلى كانت الصور الأنثوية إحدى الوحدات المتكررة، وبمقارنة مجمل أعمال الدورين الجرافيتي والمجدليني خاصة فى مرحلته الحديثة نجد أن الكل قد تناولها بتقاليده الأسلوبية المميزة؛ فلا مجال للخلط بين الرسومات الهيكلية الخاصة بالفترة الثانية وبين امتلاء الأجسام الذى اتسمت به كل أجسام النساء فى الفترة الجرافيتية(٢). من هذه الأعمال يمكننا أن نستشف معلومة أخرى بفضل التوزيع الجغرافى لأنماط التصوير: فالرسومات الهيكلية المجدلينية تعبر عن الوحدة الثقافية بين جماعات موزعة على مساحات شاسعة من Aquitaine إلى Rhenanie أما "الأشكال الفينوسية" الجرافيتية فهى أحد العناصر الجامعة والموحدة لهذا الكيان على المستوى الأوروبى من الأطلنطى إلى جبال الأورال تقريبًا(٣).

---

(١) انظر على سبيل المثال:

Fritz, Carole et Tosello, Gilles, «Entre Périgord et Cantabres:les Magdaléniens de Marsoulas», in Jaubert, Jacques et Barbaza, Michel (dir.), Territoires, déplacements, mobilité, échanges durant la Préhistoire...,op.cit., p. 311-327

إلى جانب مؤلفات إيمانويل جى Emmanuel Guy التى تناول فيها الفن الجرافيتي والتى سبق لنا الإشارة إليها تجدر مراجعة كتابه:

Guy, Emmanuel, «Enquête stylistique sur l'expression figurative épipaléolithique en France: de la forme au concept», Paléo, n° 5, 1993, p. 333-373.

(٢) يطلق تعبير "فينوس" فى الدور الجرافيتى على تماثيل صغيرة منحوتة من مواد مختلفة كالحجر والعاج وهى تمثل أكثر الأشكال الأنثوية شهرة فى عصور ما قبل التاريخ.

(٣) لعبت هذه الأعمال دورًا ذا معنى عندما استدعى الأمر فى الستينيات تمييز الحضارة pan-europeenne الخاصة بأوروبا التى تحولت إليها الفترة الجرافيتية عبر مختلف التفسيرات.

Bon, François, Potin, Yann et Henry-Gambier, Dominique (avec la collaboration de François Causse, Philippe Gardère, Pascal Kervinio, Claire Letourneux, Romain Mensan et Randall White), «Pré-histoires parallèles. Henri Delporte, Edouard Piette

هذا الانتشار الجغرافى لأعراف الأعمال الفنية وتقاليدها مسجل حساس للروابط التى تجمع الجماعات المبعثرة بين الأقاليم الأوروبية المختلفة. من هنا، وعلى شاكلة الدراسات التقنية للتجهيزات فإن مسألة الأسلوب تلحق بالبعد الاجتماعى المحيط بتنفيذ هذه التعبيرات الفنية وانتشارها. لا تكشف النوايا وطرق التنفيذ عن وجود اختيارات وحريات فردية فحسب وإنما تكشف أيضًا عن ضغوط خاصة بتعلم المعايير والضوابط واحترامهما، والتحليل العميق للقواعد المحيطة بتنفيذ أسلوب يمكن أن يسفر عن وجود "مدرسة" أو على الأقل تعلم جاد لقواعد وضوابط الإبداع(١).

ويؤخذ بهذا الاعتبار فى الفن الحيوانى ذى الاتجاه الطبيعى (كما هو الحال فى الدورين الأورنياكى والمجدلينى) كما يؤخذ به فى الفن الهيكلى (الأكثر شيوعًا فى الدورين الجرافيتى والسوليترى). ويختفى خلف مصطلح "الفن الهيكلى" عالم أيقونى قادر على الإفصاح عن نفسه فى صيغ متعددة. وفقًا لملاحظات إيمانويل جى Emmanuel Guy، على سبيل المثال، فإن هناك بعض التقاليد الجرافيتية تتفق

---

et les grottes de Brassempouy», in Desbrosse, René et Thévenin, André (dir.), Arts et Cultures de la préhistoire. Hommages à Henri Delporte, Paris, CTHS, «Documents préhistoriques», n° 24, 2007, p. 185-196 ; Leroi-Gourhan, André, Les Religions de la Préhistoire...,op.cit., p.86 ; Simonet, Aurélien, «Les Gravettiens des Pyrénées...», op.cit.

يرتكز بالطبع إثبات وجود تقارب تصورى أو معنوى بين الأعمال المنفذة فى مناطق متفرقة من القارة الأوروبية على خواصها الشكلية وليس على معناها ويرجع ذلك كما يرى لوروا – جورهان إلى أن "الانغماس والتشبع بنسق موحد من المرجعية الرمزية يشهد بهذه الوحدة النسبية ولكنه لا يعنى بالمرة أن كل الجماعات التى تبنته قد أدخله ذات المحتوى الأيديولوجى".

Leroi-G[illegible]an, André, Les Religions de la Préhistoire...,op.cit., p.86

Simone[illegible]rélien, «Les Gravettiens des Pyrénées...», op.cit.

(1) Guy, Emmanuel, «Esthétique et préhistoire: pour une anthropologie du style», L'Homme, n° 165, 2003, p. 283-289

والمعالجة الهندسية لمحيطات الأشكال الحيوانيـــة أو بـــالأحرى بتكـــرار وحـــدات نموذجية خاصة بهذا التقليد الفنى.

ويمكن تطبيق نمط مماثل من التفكير على تقنيات تنفيذ هذه الأشكال الفنيـــة المختلفة - لا لأن تقنية محددة كالحفر بالحربة أو بالتوتيد أو الرســم أو النحــت - خاضعة تمامًا لأسلوب محدد، فالأساليب المختلفة تستخدم معظمها مجموعة متباينة من التقنيات، وإنما لأن هذه الأخيرة فى حد ذاتها هـــى موجهـــات لـــبعض القـــيم المذكورة آنفًا بشأن الأسلوب.

من هنا فإن تعلم المعايير والمعنى الثقافى لمهـــارة بعينهـــا، يمكّــن بـــذات الطريقة، من اكتشافها من خلال دراسة التقنيات فى الفنين المنقول والجدارى كمـــا فعلت كارول فريتز Carole fritz بالنسبة للأول، وجيـــل توســـيلو Gilles Tosello بالنسبة للفن الجدارى(١). فى هذا المجال الأخير تم عمل أبحاث حول عدة جداريات جرافيتية من مغارة بش مرل Pech Merle الواقعة فـــى إقلـــيم كرســـى Quercy، وكانت هناك محاولات تجريبية وعملية لإعادة تسلسل الحركـــات والبروتوكـــولات التى استخدمها فنانو عصور ما قبل التاريخ مما أثرى رؤيتنا لمهاراتهم وللظـــروف المحيطة بتنفيذهم لهذه الأعمال(٢).

---

(1) Fritz, Carole, La Gravure dans l'art mobilier magdalénien. Du geste à la représentation. Contribution à l'analyse microscopique, Paris, Maison des Sciences de l'homme, «Documents d'archéologie française», n° 75, 1999 ; Fritz, Carole et Simonnet, Robert, «Du geste à l'objet d'art mobilier: les contours découpés de Labastide», Technè, n° 3, 1996, p. 63-77; Tosello, Gilles, Pierres gravées du Périgord magdalénien. Art, symboles, territoires, Paris, CNRS, «Gallia Préhistoire», suppl. 36, 2003.

(2) Lorblanchet, Michel, Les Grottes ornées de la préhistoire...,op.cit.

بين ميشيل لوربلانشيه Michel Lorblanchet القائم بهذه الدراسة أن الفروق بين تقنيات ــ الرسم بأقلام المنجنيز وبنفخ الألوان أو بنفثها من الفم على الجدار ــ لا تتعلق فقط بالمردود الجمالى. من المؤكد أن الطريقة الأولى تمنحنا خطوطًا مستقيمة بينما تسفر الثانية عن ألوان ضبابية متداخلة كما هو الحال عند استخدام مرش الدهانات ولكن بغض النظر عن هذه الفروق الجمالية يجدر بنا التوقف أمام ظروف تنفيذ الأعمال؛ فالعمل الفنى المنفذ بنفث الألوان ونفخها يتطلب وقتًا أطول فى الإنجاز من ذلك الذى تستخدم فيه الأقلام. ويتراوح هذا الوقت بين عدة ساعات وعدة أيام وما يمكن أن يوصف بالتقنيات الضاغطة سواء من ناحية المادة المستخدمة و/أو الزمن، ينطبق على الأعمال التى تقع فى نطاق مشروع محدد، ومخطط مُجنَّد لتنفيذه فرد أو عدة أفراد لأيام طويلة وربما لأسابيع، هذا إذا فكرنا فى الوقت الذى استلزمه تنفيذ زخارف مثل تلك الموجودة فى مغارة "لاسكو" Lascaux والتى استخدمت فى جزء منها تقنية نفث الألوان.

هذا لا يعنى أن التقنيات التى تسمح بإنجاز العمل بشكل سريع لا دور لها فى هذا النوع من المشروعات، بعضًا منها أثبت ذلك وساهم فى تبيانه وهو ما يهمنا هنا. إذا ما أخذنا فى اعتبارنا فى آن واحد درجة التمكن من بعض معايير الرسم والتميز والتقنيات المستخدمة فيها سنجد أن تكوينات فنية عديدة قد قام بتنفيذها أناس اكتسبوا مهاراتهم بعد تعلم وتدريب طويل(١). هناك بالتأكيد بعض

الجداريات التى تم الرجوع إليها فى هذه الدراسة الخاصة بالتقييات هى جدارية "الإفريز الأسود" وجدارية "لوحة الجياد المرقطة".

راجع فيما يخص الفن الجدارى الدراسات الخاصة بجداريات مغارة شوفيه Geneste, Jean-M l (dir.), Recherches pluridisciplinaires dans la grotte Chauvet, op.cit.

(١) تسمح بعض السياقات والمواقع بإدراك أن بعض الأفراد قد اكتسبوا منذ سن صغيرة الخبرة بالتواجد فى المحيط الفنى وهذا قياسًا على آثار الأقدام الصغيرة العديدة التى اكتشفت فى بعض المغارات المزخرفة, وهو ما لوحظ بصفة خاصة فى عدة تجاويف صخرية تقع فى

طرق التعبير أيسر من غيرها فى التنفيذ كالفن الهيكلى إذا ما تم تنفيذه بـالحفر أو التوتيد. هذا لا يعنى أن طرق التعبير الأقرب إلى المدرسة الطبيعية تفضلها.

أيًا ما كان الأمر فإن درجة الإبداع واليد الواثقة فى التنفيذ خاصة فى الفنون ذات الدلالة الطبيعية والبعد "التجريبى" الذى يشى به التنفيذ أحيانًا تدعو كلهـا إلـى التساؤل عن هوية مبدعيها.

حتى إذا تعلق الأمر هنا ببعد بالغ الرقة فى التناول، قد تعظم فيه درجة الذاتية نطرح هنا تساؤلاً: هل كان بوسع أى شخص المشاركة فى تنفيذ هذه الأعمال؟ يمكننا بطبيعة الحال التعرض لمجتمعات يشارك جميع أفرادها فى إبداع الصور ونقلها كما يشاركون فى تشذيب حجر الصوان أو فى معرفة القنيصة وغيرها من المهام....، إلا أنه لا يبدو محتملاً أن تكون بعض الأعمال الفنية المنقولة وبعض الجداريات قد نفذت بغير أيدى "متخصصين". يؤيد هذا التفسير الواقع القائل بأن بعضها قد استلزم عملاً طويلاً نسبيًا.

يوضح إذن فن العصر الحجرى القديم فى جوهره وجود "فنـانين" بـالمعنى الاجتماعى للمصطلح.[1] إلا أن ظهور بعض أشكال التعبير الفنى كما لـو كانـت أيسر فى التنفيذ لا يعنى أنه كان هناك فن قامت بتنفيذه الجموع وفن آخر عهد بـه لمتخصصين، فالفن الذى تم إنتاجه بكثرة قد يكون بناء على تكليف مـن المجتمـع

منطقة آربيج Ariege التى كان يختلف إليها المجدلينيون مثال ذلك: نيو Niaux، لو توك دودو بير Le Tuc d'Audou bert، وفونتانيه Fontanet.

هؤلاء الأطفال لم يكن فى استطاعتهم الوصول بمفردهم إلى هذه الأمـاكن التـى بهـا آثـار أقدامهم. من هنا يتضح أنهم منذ سن مبكرة قد دفع بهم إلـى أعمـاق هـذه التجـاويف المزينـة بالزخارف.

(١) يمكننا حتى أمام أكثر الجداريات مدعاة للذهول استبعاد فكرة "لحظة العبقريـة" مـن جانـب مبدعيها وذلك طبقًا لما قاله لوروا ـ جورهان. بدون أن ننحى جانبًا هذا البعد نرى وجـوب التسليم بأن التعبير عن "عبقرية" يتطلب قبل كل شىء سياقًا اجتماعيًا عاقد العزم على تلقيها.

لمبدعين بعينهم. نكرر مرة أخرى أن ما يجتذبنا هنا هو عناصر الإيضاح التى تقدمها الأعمال ذاتها فى اتجاه وجود أفراد يمكننا اجتماعيًا حصرهم فى صفة الفنانين وهويتهم منذ زمن بعيد، وعلماء ما قبل التاريخ يرون أن بعض أعمال العصور الحجرية القديمة هى صنيعة فنانين بالمعنى الكامل للكلمة[١]، وهذا الرأى نجده مرة أخرى إلى حد ما، فى فرضية الشامانية.[٢] غير أنه يبدو أن التوابع الاجتماعية لمثل هذه الظاهرة لم يتم قياسها مطلقًا بشكل كامل. ذلك أنه وبصورة نهائية فى هذه الفرضية، يصبح المرجع الفنى واحدة من الشهادات الوحيدة على تفسير المجتمع على أساس آخر غير الجنس والعمر[٣]. واقع الأمر أنه لا يوجد مجال تقنى أو اقتصادى نجد فيه أثرًا لمثل هذا التفرد فى القائمين به.

هل مبدعو هذه الأعمال مكلفون أيضًا بصياغة الرسالة التى تنقلها هذه الأعمال؟ هل هم واضعو اليد عليها أم مقدموها لمجتمعاتهم؟ من المستحيل الرد على هذا السؤال حتى لو علمنا أن بعض الأعمال كانت مخبأة فى أعماق الفجوات

---

(١) طبقًا لبروى Breuil فإنه من المسلم به أن العديد من الأشكال التى تطلب تنفيذها وقتًا طويلاً وعلمًا حقيقيًا بالرسم وتقنيته ــ تقنية تطلب اكتسابها ممارسة طويلة فى أوقات مقتطعة من متطلبات الحياة المادية ومن الصيد ــ تشهد من ناحية بأن الفنان كان يجد متعة جمالية حقيقية فى إنجاز عمله ومن ناحية أخرى أن الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه كان قد احتفى بتنفيذ هذه الأعمال وضمن لمنفذها حياة لا تقيدها الهموم اليومية لأن أعماله كانت تساهم فى إشباع حاجات تعد أساسية لمعاصريه ولوجودهم.

Breuil, Henri et Lantier, Raymond, Les Hommes de la pierre ancienne...,op.cit., p. 215.

(٢) لنلاحظ أن بعضًا من الملاحظات السابق ذكرها (كتطبيق معايير أسلوبية صارمة وتقنيات طويلة الاكتساب) لا تتفق تمامًا مع التفسير الشامانى الذى يضع الرعدة وتشوش الحواس واضطرابها كأساس للعملية الإبداعية.

(٣) هذا لا يمنع ــ وربما العكس ــ أن صناعة التجهيزات والآلات من الحجر أو العظام كانت أحيانًا تتطلب مستوى عاليًا من المهارة التقنية: حتى أنه يصعب القول إنه لم يكن كل عضو من أعضاء الجماعة يمتلك قدرًا منها يطبقه بقليل أو كثير من الحنكة.

ولم تكن هناك نية لعرضها على عدد كبير من الناس.(١) أيًا ما كان الأمر وحتى إذا لم يكن فى استطاعتنا استعادة طبيعة البنيات السياسية الدينية التى ينتمى لها هذا الفن بقدر من الدقة، ــ أو على الأقل بعض من هذا الفن ــ فهذا المجال يصحبه أكثر من غيره توزيع اجتماعى ما. خلف لعبة الأقنعة ذات التعبيرات الفولكلورية "للسحرة" و"الكهنة" و"المشعوذين" و"الشامانات" يقف الفنان متفردًا ومعه يثور السؤال عن التنظيم السياسى الدينى لهذه المجتمعات.

الأعمال الرمزية والانتقال بين العصرين الحجريين القديمين الوسيط والأعلى:

تعد الأعمال الفنية الخاصة بالعصر الحجرى القديم الأعلى، واحدة من أهم الشهادات على وجود ملكات فكرية من عشرات الآلاف من السنين لم يكن ليدانيها شيء. وهي بهذا المعنى تعد تجسيدًا لإنسانية حديثة بمعنى الكلمة من الجانب المعرفي.

غير أن ظهور الفن وتقدمه تعد أعراضًا لتغيرات اجتماعية أكثر منها معرفية: لا شيء يشير إلى أن جماعات العصر الحجرى القديم الوسيط التى يتكون أغلبها من البشر العاقلين Homo Sapiens لم تكن قادرة فكريًا على تقديم مثل هذه الأعمال. لنقل فى المقابل إن الظروف الاجتماعية لم تكن آنذاك مجتمعة. وبذا عاود الظهور أحد معانى النقلة بين العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى(٢) الذى كانت قوى الخيال وعنفوان الرموز خلاله ثرية بتعاليم اجتماعية أحاثية بذات قدر ثراء تجهيزات الصيد واستغلال الموارد البيئية.

---

(١) تلحق هذه الملحوظة بتلك التى خلص إليها لامنج إمبرير Laming Emperaire وهى "إن دراسة مكان الأعمال الفنية يسمح بملاحظة أن فنانى العصور الحجرية القديمة كانوا يبحثون عن نوعين من أماكن العرض لأعمال الرسم والحفر التى يقومون بها، منها المعروض للعيان والذى يراه الكثيرون ومنها ما يتم إخفاؤه عن الأنظار".
هذه الأقوال نقلها هنرى ديلبورت فى كتابه.

Delporte, Henri, L'Image des animaux...,op.cit., p. 216.

(٢) راجع ما سبق فى الفصلين الخامس والسادس.

يشهد وجها الصياد والفنان اللذان حاولنا الاقتراب منهما واحدًا بعد الآخر فى المقام الأول بهذه التحولات. الأول أوضح لنا تقسيم العمل وقادنا إلى مسألة الأسس الاجتماعية لتقسيم المهام القائمة على الجنس. أما وجه الفنان فقد انطوى على أشكال أخرى من التوزيع والتقسيم الاجتماعى تظهر السطوة المحتملة للنواحى الدينية على هذه الجماعات الإنسانية. وتلتقى هذه التحقيقات عند تناول عملية تقنين الموارد الطبيعية.

فمما لا شك فيه أن القوى الرمزية المتمثلة فى الفن أو فى الزينة تؤثر فى العلاقة بالبيئة التى لم ينظر إليها إلا من خلال المظاهر التقنية والاقتصادية فقط.[١] يكتسب هذا المنظور ثقلاً وكثافة جديدة إذا ما استدعينا إلى الذهن محصلات دراسات وأبحاث موريس جودولييه Maurice Godelier الذى يرى أن ما يقيم بالفعل مجتمعًا إنسانيًا "هو الممارسة الجماعية لنوع من السيادة والهيمنة على جزء من الطبيعة وعلى الكائنات التى تستوطنه، ليست النباتات والحيوانات فحسب وإنما البشر أيضًا ومعهم الموتى، والأشباح والآلهة التى يمكن أن تكون مستقرة به"[٢]؛ فتحت سطح العالم المرئى الذى حاولنا من قبل الاقتراب منه، عن طريق القواعد الاقتصادية والاختيارات التقنية التى تعمل بها هذه الجماعات، يظهر عالم خفى تتقاذفه قوى الخيال. ويعد المكان الذى يذوب فيه هذان العالمان كل منهما فى الآخر، فى نقطة التقاء هى أقرب ما كان يمكن أن يلتقيا فيه فى الواقع، هو الأعمال الفنية.

---

(١) يتفق هذا الرأى وذلك الذى كثيرًا ما عبّر عنه علماء ما قبل التاريخ من خلال جملة كلود ليفى ستروس Claude Lévi – Strauss الشهيرة القائلة بأن "الأجناس الطبيعية لا تختار لأنها طيبة المذاق وصالحة لإشباع الجوع وإنما لأنها مادة صالحة للتفكير". راجع على سبيل المثال ما ذكره Delporte, Henri, L'Image des animaux...,op.cit., p. 193.

عن أحد مؤلفات هذا العالم ونقصد هنا: Le Totemisme aujourd 'hui (1965)

(2) Godelier, Maurice, Au fondement des sociétés humaines. Ce que nous apprend l'anthropologie, Paris, Albin Michel, «Bibliothèque des idées», 2007, p. 98-99.2

أوضحت حجج عديدة أن هذه التحولات الاجتماعية واسعة المدى، هى ثمرة تطور متدرج بطيء بدأ فى الألفيات الأخيرة من العصر الحجرى القديم الوسيط، ووصل إلى ذروة الازدهار فى مطلع الفترة اللاحقة. من هنا، وكما أوضح نيقولا تيساندييه Nicolas Teyssandier وجوا زيلهاو joão Zilhão، فإنه إذا كانت بعض الأعمال ذات الطابع الرمزى مثل الزخارف الجسدية قد ظهرت فى أوروبا قبل مقدم العصر الحجرى القديم الأعلى واستقرار الثقافة الأورينياكية فإن الفن التصويرى قد برز فى مرحلة متقدمة من ذات الثقافة.(١)

إذا لم تكن دوافع هذا التعديل السلوكى موثوقة ومرتبطة "بثورة معرفية" عنيفة وكانت ذات طابع اجتماعى بحت، فإنه يتبقى أمامنا تحديد محركاتها. يرى جوا زيلهاو João Zilhão أن النمو السكانى فى هذه الفترة هو الذى قاد الإنسانية إلى تحديد بعض قواعد سير العمل مجدداً، ذهب ستيفن كوهن Steven Kuhn ومارى ستينر Mary Stiner هما أيضًا إلى اعتبار أن ظهور الزخارف "يعبر عن التفاعل بين القدرات المعرفية السابق ظهورها وتحول السياق الاجتماعى والسكانى" الذى سيحدث خلال هذه المرحلة.(٢) طبقًا لهما فإن نمو الزينة والزخارف وتقدمهما يمكن تفهمه من خلال التفاعلات الاجتماعية الناتجة عن تنقلات الجماعات. وهناك تحليل مماثل يمكن تطبيقه فى الفن وهو يضرب بجذوره فى إرادة نقل الرموز. أصبحت الزينة والزخارف عبر الزمان ناقلة لرسائل رغب فى إطالة مداها عند

---

(1) Teyssandier, Nicolas, En route vers l'Ouest...,op.cit.

Zilhão, João, «The emergence of ornaments and art: an archaeological perspective on the origins of "behavioural modernity"», Journal of Archaeological Research, n° 15, 2007, p. 1-54.

(2) Kuhn, Steven L. et Stiner, Mary C., «Les parures au Paléolithique. Enjeux cognitifs, démographiques et identitaires», in Kozlowski, Janusz K. et al. (dir.), «Naissance de la pensée symbolique et du langage», op.cit., p. 47-58.

الاقتضاء إلى أكثر من جيل. أما عبر المكان "فتحيلنا الزينة إلى توسع ذى مغزى للعلاقات الاجتماعية أبعد من أصغر الدوائر الأسرية وأقرب الأفراد".(١)

وتشكل هذه التفسيرات صدى كاملاً وواضحًا للمنظور العام لهذا الفصل وبصورة أشمل لمنظور هذا المقال، ربما باستثناء مجال الحجة الديموجرافية التى لا تبدو لنا لا كافية ولا ضرورية.

والسؤال هنا عما إذا كانت صياغة بنيات اجتماعية جديدة يجسدها وجه الصياد أو الزخارف الجسدية وترسى لها بنيات سياسية ودينية جديدة فى حاجة لزيادة مطردة فى عدد السكان لتعبر عن مكنوناتها.

مع إعطاء مكانة متميزة وحيوية للتفاعلات الاجتماعية، وقبول فكرة أن عدد السكان لا بد أن يترك عليها بعض الأثر، بمعنى آخر: هل يمكن أن ينظر لهذه الظواهر المختلفة كنتاج لتفاعل "كيميائى" مرتبط فقط بزيادة عدد أعضاء المجتمع؟

من الممكن ألا تكون الزيادة السكانية هى المحرك وإنما النتيجة المترتبة على مثل هذه التغيرات الاجتماعية. واقع الأمر أن هناك تبديلات وتغيرات محتملة ذات صلة ببنيات القرابة وندائها الاجتماعى يمكن أن يكون لها تأثير على نسبة المواليد وهو الأمر الذى نجهل عنه كل شىء.

وأيًا ما كان الأمر فالحجة الديموجرافية قد لا تروى ظمآن؛ لأن ذلك الباعث الاجتماعى الظاهر – الذى غالبًا ما يخفى حتمية بيئية – قد يمنع طرح أسئلة أخرى أكثر أهمية عن الدوافع العميقة وراء هذه التغييرات.(٢)

---

(١) ذات المرجع صـ ٥٦.
يرجع المؤلفون فى هذا الصدد إلى فكر كليف جامبل Clive Gamble ومفهومه الخاص عن تأصيل القرب".

(٢) فيما يخص الحجة الديموجرافية يمكن الاطلاع على نقد كل من ألان تستار Alain Testart والمدارس الأنجلوسكسونية الذين تم جمعهما تحت عنوان Cultural ecology.

ونحن من جانبنا نفضل مؤقتًا الاكتفاء بوصف أعراض عملية التقنين هـذه للعلاقات الاجتماعية التى يبدو أن الجماعات الإنسانية فى نهاية العصر الحجـرى القديم الوسيط ولاحقًا فى العصر الحجرى القديم الأعلى قد ارتبطت فيهـا، وذلـك حتى لو تقبلنا فكرة عجزنا عن تحديد معناها ودوافعها بدقة.

وقد يكون من الممكن الذهاب إلى أبعد من ذلك قليلاً. فقد أمكن القول بـأن الأساليب والتعبيرات الشكلية وتكرار بعض الموضوعات الخاصة بالحيوانات تتغير عبر الزمان مع ثبات محملها الاجتماعى. الحق أن كثيرًا من المؤلفين المنـشغلين بوضع وتحديد فاصل بين الإنسان الحفرى والإنسان البـدائى والاحتفـاء بالتـالى بظهور الإنسان الحديث لم يكترثوا بتطور الممارسات طوال العصر الحجرى القديم الأعلى. وهذا هو كنه فكر بروى Breuil الذى كتب يقـول إن جماعـات العـصر الحجرى القديم الأعلى منظورًا لها فى مجملها "تبدو كما لو كانت متطـورة جـدًا وتماثل فى تعقيدها شعوب الصيادين الذين ما زالوا على قيد الحياة".(١)

ومع احترامنا لقناعاته، ينبغى القول بأن هذه الرؤية تصادر تساؤلاتنا عـن تطور بعض السلوكيات خلال هذه الفترة(٢). إلا أننا نلحظ مع ذلك بعض التحولات ومن خلالها يحق لنا التساؤل عن بعض المسارات التطورية ودوافعها.

---

1. Testart, Alain, Eléments de classification des sociétés, op.cit. =
وبصفة خاصة صـــ ١٢ – ١٤ حاشية ٣"

(1) Breuil, Henri et Lantier, Raymond, Les Hommes de la pierre ancienne...,op.cit., p.328.

(٢) فى مواجهة هذا الرأى، ذهب لوروا – جورهان Leroi- Gourhan إلى أن مفهـوم المغـارة "المحراب" قد ظهر خلال العصر الحجرى القديم الأعلى وبالأحرى خلال الـدور الجرافيتـى ومعها تحول المغزى والمحمل الدينى وبالتالى الاجتماعى لهذه التعبيرات الفنية. ولكن منذ أن تم اكتشاف مغارة "شوفيه" Chauvet وجدارياتها الأورينياكية كذب ودحض هذا الرأى وظهـر فن العصر الحجرى القديم الأعلى من جديد ككل يصعب الاستدلال داخلـه علـى اتجاهـات

الأشكال البشرية فى الفن المجدلينى:

تمثل الثقافة المجدلينية العصر الذهبى لفن العصر الحجرى القديم وأكثر تعبيراته رمزية وتألقًا. ولكن إلى أى مدى لا يخفى هذا الثراء اختلافات نوعية؟ مع مقدم الدور المجدلينى انتشر الفن فى كل مكان:

جليل مهيب فى مدخل المغارات، بالقرب من أماكنِ السكنى هذا إذا لم يصاحب الإنسان فى غياهب الكهوف.

ويظهر الفن أيضًا فى أدوات الحياة اليومية مزينًا الأسلحة والأدوات فى صورة لويحات من الحجر وقطع من العظم المحفورة والمنحوتة والمتروكة بعد ذلك بين مخلفات المطبخ وحجر الصوان. ويختفى بين كل هذه الأعمال شهود على تغيرات ذات دلالة؛ فزخارف الأسلحة والأدوات تندر فى المراحل السابقة على الدور المجدلينى تاركة المجال للوحدات الهندسية. ويمكن تدليلاً على ذلك رؤية "المصقال المزخرف" الخاص بالدور الأوريناكى والزخرفة الجرافيتية على الأدوات المختلفة فى أوروبا الوسطى والشرقية بصفة خاصة.

نلاحظ فى المقابل أن الأشكال الحيوانية والبشرية قلما تقترن بالأشياء ذات المنفعة التى ليست لها دلالة رمزية خالصة. غير أن الأمر تغير فى الفترة المجدلينية. غزت الأشكال والصور سطوح الكثير من الأدوات. وكان لوروا – جورهان Leroi-Gourhan قد لاحظ أن أكثر الزخارف دقة كانت مقصورة على الأشياء الأطول عمرًا (كالمقذاف والعصى المحفورة) أما الأدوات قصيرة المدى فى الاستعمال فقد زخرفت بوحدات قليلة متباعدة (رؤوس الحراب).(١)

تطورية باستثناء ما تعلق منها بالموضوعات (لوحظ تكرار نسبى لبعض موضوعات الحيوانات) والأساليب.

(١) فسر لوروا – جورهان بعض الوحدات الهندسية المحفورة على أسنة الحراب باعتبارها علامات ذات دلالات ذكورية وخلص إلى أن "هذا الاتجاه فى الزخرفة يمكنه أن يدعم التشبيه بين الحربة ورمز الفحولة".

وتقترح هذه الظاهرة، بدون المساس بالتفسير عاليه، دافعية أخرى: ففى الفترة المجدلينية استخدمت الرموز المصورة فى زخرفة الأشياء المرتبطة بالأشخاص. هذه الرؤية بالطبع قابلة للنقاش ويمكننا التساؤل عن مفهوم الملكية الشخصية لِهذه الأدوات، كما أن هناك مجموعة أخرى من الأدوات تدعم هذا المنظور وهى الزخرفة الجسدية. وهذه تحديدًا، لم يكن بها زخارف مصورة إلا نادرًا فى مراحل سابقة على العصر الحجرى القديم الأعلى.

أما الأقراط المتدلية على شكل حصان وسمكة التى اكتشفت واحدة بعد الأخرى فى قبرى طفل سانجير Sungier ومالتا Mal'ta فهى استثناء بالرغم من وجود تماثيل صغيرة جرافيتية استعملت كقلادات[1]. غير أنه لا شىء يضاهى الدور المجدليني. تطورت أنماط جديدة من الزينة للإحاطة بالرقبة وتم وضع وحدات تشكيلية فى الأقراط. تؤكد هذه العناصر أن التنوع فى زينة الأدوات وزخارفها، نحت إلى زيادة المطالبة بالهوية الاجتماعية للأفراد المكونين للجماعة، زيادة رمزية. غير أن هذا كان يتم من خلال تخصيص رموز كانت فيما سبق تبدو خاصة بالهوية الجماعية لذات الجماعة.

تثير هذه الأشياء الجديدة، غير مسألة تفرد مبدع الصورة، مسألة المتلقى لها – علمًا بأنهما يمكن أن يكونا شخصًا واحدًا. وأيًا ما كان الأمر وحتى لو لم نكن نملك لهذه الأشياء تفسيرًا، فهى تعبر طبقًا لما نراه عن تغيير بعض القيم الاجتماعية وربما الدينية التى تستتبع تغييرًا فى هوية الأفراد فى داخل الجماعة.

= Leroi-Gourhan, André, Les Religions de la Préhistoire...,op.cit, p. 135..

(١) هذا حال النسخة القادمة من جريمالدى بإيطاليا والتى يطلق عليها "المرأة ذات العنق المثقوب". يتوجب هنا ذكر الخرز والأقراط المتدلية المصنوعة من العاج التى ترجع إلى الدور الجرافيتى الشرقى وتشير إلى مضامين جنسية أنثوية أو ذكرية أو كليهما. راجع فى هذا الصدد:

Delporte, Henri, L'Image de la femme...,op.cit., p.102.

تم الرجوع إلى فرضية الزخارف الجسدية المصورة فيما يخص بعض تماثيل الحيوانات الصغيرة الأوريناكية فى إقليم Jura souabe مثل تمثال الماموث الصغير المصنوع من العاج الذى تم العثور عليه فى فوجلهيرد Vogelherd بألمانيا.

يتبع حقل الملاحظة هذا شهادة أخرى؛ فالأشكال الآدمية وإن كانت أقل شيوعًا من تصوير الحيوانات إلا أنا نجدها عبر كل السياقات الفنية في العصر الحجري القديم الأعلى. طوال هذه الفترة كانت هناك بعض الثوابت نذكر منها: هيمنة الأشكال الأنثوية وظهور ملازم للأيدي (خاصة في الفن الجرافيتي) إلى جانب الأشكال الحيوانية إنسانية الصفات.

بقي الحال على ما هو عليه خلال الدور المجدليني إلا أن الشكل الإنساني اكتسب في الفن المنقول بعدًا جديدًا. في هذا السياق نلقى أكبر عدد من "المشاهد" التي تجمع أشكالاً إنسانية من الجنسين مع واحد أو أكثر من الحيوانات. أما "مشاهد المواجهة والصراع" بين الإنسان والحيوان فهي شائعة ومعروفة من قبل، خاصة خلال الفترة السوليترية[1]. وقد تنوعت هذه المشاهد خلال الدور المجدليني - حتى وإن كان هناك إقرار منا بغموض معظم الأعمال وانغلاقها أمام تفكيرنا.

من ناحية أخرى، فإنه إذا كان الشكل الإنساني قد ظهر في أغلب الأحيان في الفن المجدليني والفنون السابقة عليه في شكل نموذج مثالي كما كان متبعًا في المسرح القديم، فإن البشر لا يمثلون أبدًا أفرادًا وإنما أنواعًا من الرموز، وفي ضوء ذلك غالبًا ما يظهرون في صورة إنسان قد جُعل وحشًا - وقد تطور الموقف قليلاً في هذه الحقبة.

وسياق العصر المجدليني هو في الواقع الوحيد الذي ترك وجوهًا بشرية تذكر بأفراد حقيقيين مختلفين بشكل واضح بما أضيف إليهم من صفات (اللحية، تصفيفة شعر، هيئة)، وهو ما ظهر في الأرضيات واللويحات الجيرية في مغارة لا

---

(١) هناك مثال يقدمه الإفريز المنحوت في صخرة Sers في إقليم شارونت Charente. يتوجب أيضًا الإشارة إلى "مشهد الآبار" الشهير في مغارة لاسكو Lascaux الذي يمثل رجلاً برأس عصفور وقد صرعه حيوان بيسون مبقور البطن.

مارش La Marche فى مدينة فيينا التى درسها ليون بال Léon Pales[1]. بين المئات من الصور البشرية التى تم تمييزها، فى هذا الكم من الوثائق المتفردة نجد بعضنا منها ينطبق عليه تعريف "البورتريه" حتى وإن تطلب الأمر بعض الحذر حيال هذا المصطلح وعدم تصور أن وراء هذه الوجوه يختفى أفراد من لحم ودم.

دور البنيات السياسية الدينية فى تطور مجتمعات العصر الحجرى القديم الأعلى:

يبدو مهمًا فى هذه المرحلة من تحقيقنا أن نشير إلى عمل تناول مسألة مكان الشكل الإنسانى وبصورة أشمل وجود المشاهد فى الفن الجدارى الخاص بالعصر الحجرى القديم. ونقصد هنا الدراسة التى قام بها مؤرخ الفن إيمانويل أناتى Emmanuel Anati. الواقع أننا لا نتفق مع التفسير المقدم من هذا المؤلف غير أن أسباب رفضنا له تسمح لنا بالتعبير عن بعض الأفكار التى نراها من وجهة نظرنا أساسية. وسيسمح لنا هذا النقاش بدلاً من تقديم مفاتيح تفسير محركات التغييرات التى تمت خلال العصر الحجرى القديم وضع معالم للطريق.

شرع إيمانويل أناتى Emmanuel Anati فى عمل تصنيف طموح للفن الجدارى العالمى مما أوصله إلى تفسير مجمل هذه الأعمال على اختلافها الظاهرى وذلك من خلال زاوية الهوية الاجتماعية الاقتصادية للجماعات محل الدراسة. رأى هذا المؤرخ، مستلهمًا من نماذج المدارس الأنجلوسكسونية التطورية الجديدة، أنه يمكن تقسيم هذه الجماعات إلى خمس فئات: وقد أطلق عليها، مع احترام التسلسل الزمنى لظهورها، الأسماء التالية:

---

(1) Pales, Léon et Tassin de Saint-Péreuse, Marie, Les Gravures de la Marche, t. II, Les Humains, Paris, Ophrys, 1976

"فئة الصيادين الأركيين" و"فئة جامعى الثمار الأركيين" و"فئة الصيادين المتطورين" و"فئة مربى الماشية" و"فئة الجماعات ذات الاقتصاد المركب".

وتغطى الفئتان الأولى والثانية جماعات العصر الحجرى القديم الأعلى والعصر الميزوليثى تقريبًا. ويذهب إيمانويل أناتى Emmanuel Anati إلى أنه توجد "اختلافات أسلوبية وتصورية مهمة فى التعبير الفنى بين صيادى القنيصة ذات الأحجام الكبيرة وأولئك اللاحقين بهم من صيادى القنيصة ذات الأحجام المتوسطة والصغيرة".(١)

يضطلع الحيوان فى فن "الصيادين الأركيين" بدور رئيسى وتبدو العلاقات بين الجنسين من الموضوعات المحورية. على النقيض من ذلك نجد أنه فى فن "الصيادين المتطورين" تظهر مشاهد الحياة اليومية بشكل أكثر سردية وطبيعية وأقل تجريدية من ذات المشاهد فى فن "الصيادين الأركيين".(٢)

---

(1) Anati, Emmanuel, «Structure de l'art et structure de l'esprit», in Kozlowski, Janusz K. et al. (dir.), «Naissance de la pensée symbolique et du langage», op.cit., p. 95-115, p. 98-99.

لإثبات صحة هذه الاختلافات ارتكز إيمانويل أناتى على التناول الميثودولوجى التالى. يرتكز التحليل الشكلى للفن الجدارى على ثلاثة معايير أساسية وهى على التوالى:

"القواعد القائمة على الموضوعات والتصنيف, التركيب ذى الصلة بالتجميع والمقاطع المتعمدة والمشاهد, والأسلوب الذى يشمل ما يولى من أهمية لبعض الحيوانات المفترسة والأليفة ووجود أو غياب بعض الرموز التى تقوم بعمل [الحفريات المرشدة] بالإضافة إلى التأكيد على بعض الملامح المميزة مثل الرسم الاختزالى Stylisation لقرون الحيوان وللأعضاء التناسلية البشرية إلى جانب درجة التبسيط والتوليف أو التجميع فى الصور".

ذات المرجع ص ١٠٢.

نلحظ هنا بشكل عابر الطبيعة الغير متسقة للعناصر المندرجة تحت مفهوم كلمة "أسلوب". كما نشير إلى أن التمييز الذى يقوم به إيمانويل أناتى بين "الصيادين الأركيين" و"الصيادين المتطورين" يستند بشكل أساسى إلى استعمال القسى من عدمه.

(٢) ذات المرجع ص ١١١ – ١١٢.

يرى إيمانويل أن هذه النماذج الفنية المختلفة تبدو أساسًا ناتجة عن تجهيز ذهنى يعكس العادات الاجتماعية والاقتصادية للجماعات محل الدراسة[1]. بعبارة أخرى فإن الوضع الاجتماعى الاقتصادى للجماعات يشكل "النسق المعرفى للإنسان"[2] الذى يملى بدوره الاتجاهات الأساسية للأعمال الفنية: فبنية الفن تعكس بنية الذهن الذى يعد بدوره نتاج تشكيل الأنشطة الاجتماعية الاقتصادية.

لا يساور الشك أحدًا قط فى أن البنيات الاجتماعية والأنشطة الاقتصادية والمهارات التقنية تقيم صلات وثيقة مع الأعمال الفنية. وقد حاولنا الكشف عن بعض من هذه العلاقات والصلات غير أن اقتراح إلحاق الأخيرة بالأولى يبدو لنا ناشئًا عن رؤية آلية دقيقة، ومعرضًا للخلط بين الأسباب والنتائج، وتجاهل الأسس التى تقوم عليها المجتمعات الإنسانية.

واقع الأمر أننا يمكننا اعتبار أن الأنشطة التقنية الاقتصادية والبنيات الاجتماعية تتأثر فيما بينها بشكل تبادلى؛ لأنها متأثرة بعالم من القيم – بنية أيديولوجية – ينزل بكل ثقله على صياغة اللغة الفنية. غير أنه طبقًا لما نراه لا يمكن أن تكون التقنية والاقتصاد بحال من الأحوال محركات لبناء هذه البنية الأيديولوجية فهى على العكس تمامًا تبدو أقل قربًا من قلب البناء من قوى الخيال. ألا تجد هذه الأخيرة فى الفن أكثر أنواع التجسيد الرمزى تعبيرًا وبلاغة؟.

يلحق هذا التفكير بذلك الدائر حول المكان اللائق بالبنيات السياسية الدينية التى غالبًا ما يكون للفن ضلع بها. أكد موريس جودولييه Maurice Godelier فى هذا الصدد على الدور التأسيسى للعلاقات السياسية الدينية فى إقامة المجتمعات[3] موضحًا أن:

---

(١) ذات المرجع ص ٩٧.
(٢) ذات المرجع ص ١٠٦.
(3) Godelier, Maurice, Au fondement des sociétés humaines..., op.cit., p. 247.

"ممارسة هذه الوظائف الدينية والسياسية ظهرت خلال التاريخ وفي عدة مجتمعات كنشاط أكثر أهمية لكل أعضاء مجتمع ما، من الأنشطة الأكثر تواضعًا ذات النتائج الملموسة ونقصد الأنشطة المنتجة والمهيمنة على الظروف المادية للوجود الاجتماعي للبشر كالزراعة وصيد الأسماك وصيد الحيوانات".(١)

من العسير المضي في تفسيراتنا استنادًا إلى الحجج الأركيولوجية فقط، غير أنه من المهم ملاحظة ومراقبة تمحور المجالات المختلفة؛ ونقصد هنا الاقتصادي والتقني والديني حول البنية الأيديولوجية التي تجعل من جماعة بشرية مجتمعًا إنسانيًا فعليًا، وذلك بدون الارتكاز على افتراض أن المجالات الأكثر سهولة ويسرًا في التناول، مثل تلك الناشئة عن الهوية التقنية الاقتصادية لجماعة ما، تؤثر في صورة عامل جازم وحاسم أكثر قوة من المكونات الأخرى لهذا المجتمع.

ما يكشف عنه الفن المجدليني من تطورات حدثت خلال العصر الحجري القديم الأعلى يسير بقوة في هذا الاتجاه؛ فالتغييرات التي حدثت، من نسب بعض الرموز للذات وأنماط إظهار الشكل الآدمي، هي في نظرنا انعكاسات للمرآة التي يحب الإنسان أن يرى فيها نفسه من خلال خياله.

إذا كانت الفرضيات الموضوعة دقيقة وكانت هذه الأعمال تعبر ليس فقط عن نظرة أخرى من الإنسان لنفسه وإنما أيضًا عن وجود قلقات اجتماعية جديدة وضغوط مصاحبة لها، فإن هذه الأعمال قادرة على تصوير وتجسيد وإيضاح التغيرات الأيديولوجية العميقة التي هزت المجتمعات الإنسانية في فترة لم يكن يعمر فيها الأرض سوى الصيادين جامعي الثمار الرحل "الأركيين".

---

(١) ذات المرجع ص ٢١٩.

الخاتمة

دفاعًا عن أنثروبولوجيا اجتماعية قبتاريخية خدمة للتفكير فى التطور الإنسانى

يصل بنا هنا إلى منتهاه تحقيقنا حول "الإنسان العاقل" "Homo sapien" فـى العصور الحجرية القديمة وبصفة خاصة تلك الجموع منه التى حركت فى أوروبـا الألفيات الثلاثين الأخيرة من هذه الفترة العريضة المعروفة بالعصر الحجرى القديم الأعلى. بدت هذه المرحلة التأريخية كمفهوم صيغ بحيث يحـيط بـدور "الإنـسان العاقل" ويعطى صورة كاملة عن السلوكيات الحديثة، مقدمة بذلك حدودًا ملموسـة بين إنسانية حفرية ولت وإنسانية بدائية مبشرة بمستقبل آت.

بعيدًا عن كل العوامل التى شاع الاستناد إليها لتفسير كل تطـور محـسوس مثل الهوية البيولوجية التى غالبًا ما ينظر إليها كمحرك أساسى للتقدم، نجد أن علم اجتماع هذه الجماعات من الصيادين جامعى الثمار الرحل هـو الـذى اسـتقطب انتباهنا فى هذا الكتاب. إن وجود سلوكيات، إلى حد ما، جماعية مثـل دلائـل أى تقسيم فى داخل الجماعات، وكل ما يشير إلى علاقتها بالبيئة مثل تخطيط الحاجات والتوزيع المكانى والمساحى للأنشطة هى عوامل تتسم بتناغم اجتماعى يلقى بضوء آخر على بعض المسارات التطورية. بهذا التناول، يبدو لنا أننا قد ساهمنا فى إعادة قراءة لمكان العصر الحجرى القديم الأعلى بين ما سبقه ولحقه من فترات ومـدى ارتباطه بها.

من هنا فقد أمكننا وصف وجود أكثر من مدرج تطوري طويل المدى والمغزى. نستعيض بها عن الظواهر العنيفة التى غالبًا ما يعزى إليها تطور الإنسان والجماعات مثل هجرة بعضها واختفاء البعض الآخر أو "ثورة" ثقافية ناجمة عن تحول سريع للبيئة. وعلة ذلك أنه بدلاً من الوقفات "الكارثية" بين العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الحجرى القديم الأعلى وبين هذا الأخير والعصر الميزوليثى فإن الربط بين هذه الفترات التأريخية، المسلسلة زمنيًا يستحق أن يعاد فيه النظر فى ضوء المسارات الاجتماعية العميقة التى تشكل هى ذاتها علامات فارقة له.

واقع الأمر أن التجهيزات التقنية الخاصة بجماعات الصيادين - جامعى الثمار الرحل - تشهد بتغيير بطيء للصناعات يتمحور حول التفرد المتزايد لبعض مجموعات الأنشطة وهى ظاهرة واضحة فى مجال الصيد. انعكاسًا لهذا التغيير فى التجهيزات فقد اتسم التنظيم المكانى والمساحى للأنشطة فى داخل مقار السكنى وعلى مستوى الأقاليم بنشوء شكل من التفرد الاجتماعى. وقد توصلنا من خلال كل ذلك إلى أن هوية الصياد - على عكس الصورة التى استقرت فى الأذهان والمستوحاة فى الواقع من الشعوب المعاصرة - يجب أن ينظر إليها قياسًا على المدرج التطورى البطيء الذى ساهم فى تكوينها على مدى الزمن.

أما هويته الاجتماعية فقد تشكلت على مدى عصور ما قبل التاريخ مما ينفى عنها الطابع الوراثى. والعصر الحجرى القديم الأعلى يبدو هنا كمرحلة أساسية فى مدرج التفرد التقنى وبالتالى الاجتماعى مشكلاً جسرًا بين ضفتى العصر الحجرى القديم الوسيط والعصر الميزوليثى، فترتين حدث بينهما التحول فى نشاط الجماعات البشرية لصالح تعبير أكثر تقنينًا لدور الأفراد فى داخلها.

ظهر لنا أثناء قيامنا بهذا العمل معيار آخر وهذه المرة من زاوية اقتصاد هؤلاء الصيادين – جامعي الثمار. كان هناك دومًا سعى لوضع انتهازية زمر وجماعات العصر الحجرى القديم الوسيط فى مواجهة التسبيق النشط لخلفائها.

من المؤكد أن الجماعات الأولى قد أثبتت مرونة أكبر فى طريقتها فى إشباع حاجاتها فى مجالى الغذاء واقتناء المواد اللازمة لتجهيزاتها التقنية ولكن مثل هذا السلوك لا يبدو أقل استباقًا بالنظر إلى مرونته، من اقتصاد أكثر تخطيطًا.

واقع الأمر أن المرونة السلوكية هى شكل من التأقلم عالى الفعالية لمواجهة المستقبل وتشهد بذلك المائتان والخمسون ألف عام التى استغرقها العصر الحجرى القديم الوسيط. ما يميز بعمق أكبر، سلوكيات العصرين الحجريين القديمين الوسيط والأعلى هو وجود علاقة إلى حد ما مقننة بين كل جماعة وبيئتها، ويمكن القول بتحديد أكبر، بين مختلف أعضاء الجماعة ومختلف الموارد المتاحة لها. مما لا شك فيه أنه لقاء هذا المقابل تتحول أى مساحة من الموارد إلى إقليم أو موطن حقيقى يتم التفكير فيه على هذا النحو من قبل الجماعة التى تقيم عليها.

يمكن بالتالى هنا القول إن الأمر بدلاً من أن يكون تحولاً تدريجيًا من اقتصاد "انتهازى" إلى اقتصاد "استباقى" فهو ارتكاز لاقتصاد العصر الحجرى القديم الأعلى على مدلول جديد ظهر لموارد البيئة استنادًا لدوافع اجتماعية محضة..

والنتائج المترتبة على مثل هذا الاختيار عديدة؛ فإعمال مثل هذا التوجه الاقتصادى يصحبه شكل من التشيع فى مواجهة لبعض موارد البيئة الطبيعية بشكل حصرى. وبالتالى يمكن القول إن ما يبدو كتأقلم وتكيف مميز مع موارد بيئة ما مهدد مع أقل تغيير. مما لا شك فيه أننا هنا بصدد واحد من أكبر دروس نهاية العصر الحجرى القديم حين أدت سخونة الطقس التى ميزت فترة الانتقال من البلايستوسينى إلى الدهر الهولوسينى إلى قلب موازين البيئة المحيطة بأقوام

التوندرا والسهوب. وسرعان ما تركت قطعان الرنة والبيسون المكان للقنيصة الغابية، وجاء أفراد لاستصلاح الغابات حتى ترعى قطعانهم ويتمكنوا من وضع حدود لحقولهم.

انتمت آخر مجموعات الصيادين – جامعى الثمار – إلى العصر الميزوليثى قبل اختفائها التام من أوروبا. إلا أن بعضًا من الأفكار التى نشرتها هذه الزمر والشعوب القديمة، قاطنة سهوب العصور الحجرية القديمة، مثل الاستغلال المقنن والمخطط للبيئة ستجد أشكالاً أخرى للظهور فى الزراعة والرعى. مرة أخرى إذن يظهر العصر الحجرى القديم الأعلى كمفصلة.

تقودنا مسألة صلة كل جماعة إنسانية ببيئتها إلى معيار ثالث يقربنا من الإشكالية الأكثر عمومية وهى نفاذية مجتمعات عصور ما قبل التاريخ بعضها بالنسبة للبعض الآخر. فتقنيات العصر الحجرى القديم الأعلى هى غالبًا خليط لتوجهين واضحين: أولهما إعمال حلول تتطلب استعمال مواد تشى بوجود صلات وثيقة بين المجموعة الإنسانية وإقليمها – كما ذكرنا من قبل، وثانيهما إدخال ملامح تقنية تيسر تكيفها مع مختلف البيئات وبالتالى انتشارها وانتقالها من جماعة إلى أخرى عبر المكان – بعبارة أخرى ضمنت الثقافة المادية لهذه الجماعات إمكانية نشر نموذج ذى قيمة كونية مع الاحتفاظ بهوية خاصة لكل جماعة. والجمع بين هاتين الوجهتين يتوجب تفسيره فى ضوء الميزات الاجتماعية. واقع الأمر أن الفكرة التقنية التى يفترض فيها القابلية للانتشار هى بتطبيقاتها المتباينة دلالة على وجود قيم مشتركة. أما هوية الجماعة بين الجماعات الأخرى فيتم الدفاع عنها نظرًا لاتسامها بصفات خاصة. لقاء هذا المقابل فقط يمكن لأى تبادل حقيقى أن يتم علمًا بأن به هو الآخر قيمًا اجتماعية ثرية. مع قدوم العصر الحجرى القديم الأعلى أصبح نشر الأفكار ومبادلة الأشياء والبضائع مفهومين رئيسيين فى العلاقات بين المجتمعات الإنسانية.

ويمكننا القول فى نهاية الأمر إن عملية تقنين العلاقات بين الإنسان وبيئته وبين الفرد وجماعته وبين الجماعات وبعضها البعض يمكن رؤيتها بوضوح فى المناسبات والاحتفاليات الرمزية الخاصة بهذه الفترة بالإضافة إلى كل ما يزينون به الأجسام ويبدعونه من فنون. وراء هذا العالم المرئى الذى يمكن تبينه من خلال المجالين التقنى والاقتصادى عالم آخر خفى يغذيه الخيال، أو لنقل عالمًا خياليًا تفصح الأعمال الفنية عن وجوده. ونستدل على أهمية هذه الظاهرة من خلال البنيات السياسية – الدينية التى حاولنا الاقتراب منها من خلال ملامح الفنان. على هذا النحو تصبح الأعمال الفنية ليست أدوات هوية ثقافية فحسب وإنما ناقلات للهوية الاجتماعية تشي بوجود تقسيمات رمزية فى داخل الجماعات الإنسانية.

من هنا كان عدم توقفنا طويلاً أمام المنظور الشائع للبيئة باعتبارها ذات دور محرك يفسر تطور مجتمعات عصور ما قبل التاريخ؛ فقد بدا لنا أن الأمر الأكثر أهمية هو التفسير الذى يقوم به الإنسان لخواص بيئته فى ضوء اختيارات اجتماعية بحتة لا دخل له بها.

ويثور هنا تساؤل آخر حول العلاقات بين الهوية البيولوجية لهؤلاء البشر العاقلين وبعض من التطورات الملاحظة: هل المسار التطورى الذى أشرنا إليه سابقًا، هذه الصياغة الجديدة للعلاقات الاجتماعية الحاكمة لحياة الجماعات الإنسانية ومستقبلها، خاص بالإنسان العاقل ولا أحد غيره من البشر – بدءًا من إنسان النياندر؟ ربما كان علينا هنا قلب المنظور رأسًا على عقب.

رغم ما سقناه من حجج لتسكين الظواهر الملاحظة فى مدارج تطورية بعيدة المدى إلا أنه لا ينبغى لنا استبعاد وجود مراحل "تعجيل وتسريع"؛ فبالنظر إلى أوروبا والشرق الأدنى، نجد أن الفترة الواقعة بين الأعوام ٤٥٠٠٠، ٣٥٠٠٠ تبدو كمرحلة تغيرات سلوكية سريعة، فإن تزامنها مع هيمنة الإنسان العاقل على حساب إنسان النياندر يجعل من المسموح لنا الربط بين هاتين الظاهرتين.

ولكن أيًا ما كان قدر واقعية هذه الصلة هل يتوجب علينا الخلوص إلى الإقرار بسيادة جماعات الإنسان العاقل على قرنائهم من النياندرتاليين؟

بعض ملامح وسمات المدرج المشار إليه سلفًا مثل التفرد التقنى وبالتالى الاجتماعى للأنشطة المختلفة والمتوقع لها الازدهار خلال العصر الحجرى القديم الأعلى، ترجع فى أصولها إلى الألفيات المتأخرة من العصر الحجرى القديم الوسيط مشكلة ركيزة الصناعات المتعددة التى تعرف بالصناعات الانتقالية. إلا أن هذه الصناعات، طبقًا للمناطق محل الدراسة هى نتاج إنسان النياندر والإنسان العاقل على السواء. هل يعنى ذلك أن جماعات إنسان النياندر قد ساهمت في وجود هذا المدرج قبل أن تختفى من الوجود كاختفاء من تصيبهم اللعنة؟ ليس ذلك بالأمر المستبعد.

إلا أن هناك تفسيرات أخرى ممكنة. أحد أهم المحركات المحسوسة خلال الانتقال من العصر الحجرى القديم الوسيط إلى العصر الحجرى القديم الأعلى هو، وفق ما نراه، عملية إعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أعضاء الجماعة الواحدة وبينها وبين الجماعات الإنسانية الأخرى. هذا التغيير الذى تحمل الثقافتان المادية والرمزية علامته قد صاحبته بالضرورة تعديلات فى بنيات القرابة أو على الأقل فى العلاقات الزوجية.

من هنا فالفترة الممتدة من العام ٤٥٠٠٠ إلى العام ٣٥٠٠٠ قبل التاريخ المدون، التى شهدت انتشار ظواهر عظيمة المدى، لم تقتصر على تبنٍّ تدريجى لحلول جديدة لصناعة السلاح أو تزيين الأجسام بالرسومات إنما ساهمت فى إعادة تعريف جمعى لسير عمل الجماعات، قد صاحبها اختلاط وامتزاج وراثى قوى.

إذا كان قد تبين أن الإنسانية آنذاك كانت تتسم بنوع تشريحى كبير – كان للبعض ملامح نياندرتالية وللبعض الآخر سمات الإنسان العاقل – إلا أن جميعهم كانوا ينتمون إلى الجنس ذاته وقد نحت المعطيات السلوكية طواعية إلى تأييد هذا الامتزاج الوراثى.

طبقًا لهذه الفرضية، فإن الطباع النياندرتالية قد تلاشت خلال بضعة مئات من الأجيال الإنسانية، وليس النياندرتاليون أنفسهم.

يمكننا حتى الذهاب إلى القول بأن التفوق البيولوجي للبشر العاقلين لم يكن وراء نجاحهم الثقافي وإنما التغيرات الاجتماعية التي ساعدت في نقل الجينات ونشرها قلصت التنوع التشريحي للجماعات. صب ذلك كله في طباع تلخص الإنسانية جمعاء في الشكل غير المسبوق للإنسان العاقل.(١)

بدون الحسم بين الآراء المتعارضة للعلماء الإحاثيين وعلماء الوراثة الإحاثيين الذين يرى البعض منهم أن الإنسان العاقل وإنسان النياندر ينتميان إلى جنسين مختلفين ويرى البعض الآخر أنهما تابعان لجنس واحد مما يجعل كل سبل وطرق التجنيس بينهما مقبولة(٢) – نرى هنا أن نؤكد على فكرة أن مثل هذه التدرجات السلوكية تستتبع وجود علاقات اجتماعية لها بالضرورة توابع وانعكاسات على المستوى البيولوجي. من هنا يتوجب وزن تأثير هذا الأخير على البعد الثقافي للإنسان. واقع الأمر أنه إذا كان علينا المخاطرة برهان فإننا نرى بكل الرضا وبدون السؤال عن الجزء الخاص بإنسان النياندر الذي يجري في عروقنا، أن اختفاء هذه الطباع بالذوبان البطيء في الجماعات الحاملة لصفات الإنسان العاقل هو في حد ذاته عرض شديد الوضوح للتغيرات الاجتماعية، التي تعرضت

(1) Teyssandier, Nicolas, Bon, François et Bordes, Jean-Guillaume, «Within projectile range. Some thoughts on the appearance of the Aurignacian in Europe», Journal of Anthropological Research, n° 66.

(٢) راجع حول هذا الموضوع هذه المجموعة المنتقاة من وجهات النظر المنشورة في الأعمال الآتية:

Hublin, Jean-Jacques et Tillier, Anne-Marie (dir.), Les Néandertaliens. Biologie et cultures, Paris, Editions du CTHS, 2007; Trinkaus, Erik, «Early modern humans», Annual Review of Anthropology, n° 34, 2005, p. 207-230; Serre, David, Langaney, André, Chech, Mario, Teschler-Nicola, Possnert, Göran et Pääbo, Svante, «No evidence of Neandertal mtDNA contribution to Early modern humans», PloS Biology، vol. II, n° 3, 2004, p. 313-317.

لها إنسانية العصر الحجرى القديم خلال هذه الحلقة المؤدية إلى ظهور العصر الحجرى القديم الأعلى.

تساؤلات عن التطور "المقصود":

خلف الفرضية القائلة بانصهار سلوكى وبيولوجى بين الإنسان العاقل وإنسان النياندر أثناء مقدم العصر الحجرى القديم الأعلى، تظهر فكرة ما عن طريقة عمل المجتمعات الإنسانية. فالواقع أننا لا نعير ظواهر التمييز والفصل التفاتًا كبيرًا، ونرى أنه على العكس من ذلك تمامًا أن تطور هذا الإنسان تدعمه ظواهر تداخل بين الجماعات.

ويمكننا ترتيبًا على ذلك القول أننا إذا لم نؤمن بالتفرق بين العديد من الأجناس فذلك لأنه ينضوى على إقصاء وإبعاد جوهرى للجماعات الإنسانية. بالإضافة إلى أن وجود الثقافات "النقية الخالصة" هو تكوين أيديولوجى محض، وكذلك الفكرة القائلة بفرضية وجود حدود فاصلة بينهما. تخفى هذه الرؤى فى نظرنا مدرجًا أكثر عمقًا وثراء فى مدلوله: فالتأثيرات والمبادلات التى تمر بكل مجتمع بشكل واع ومقبول بوضعه هذا، هى محرك تطور جماعى.

يهدف هذا التفكير إلى إظهار بعض النماذج التى تبعث الحياة فى منهجنا. من هذه النماذج هناك واحد من الضرورى تفحصه وتأمله من جديد وهو ما يعرف بالتطورية. تعرضنا على مدى هذا العمل لمسألة الديناميات الفاعلة لإيضاح تطور الإنسان ومجتمعاته فى العصر الحجرى القديم. كثير من المؤلفين يعتبرون التطور تطورية أى منظور لا يصف فقط التحولات التى تمت بالفعل وإنما يتساءل عن معناها قياسًا على الغرض المفترض منها. إلا أن هناك فارقًا كبيرًا بين محاولة وصف ظروف ظهور الإنسان الحديث إلى الوجود ورؤيته بأعتباره نهاية لمشروع ما يطلق عليه تطور.

ويرجع ذلك إلى أنه إذا كان التطور حدثًا واقعًا فإن التطورية تفسير. وهو يقترح إعادة قراءة لاحقة لتسلسل الأحداث. غير أنه ما زال مستحيلاً تبيان كون الإنسانية، سواء تبعت مرحلة أو أخرى من العصر الحجرى القديم، كانت تمتلك ليس فقط إمكانيات التغيرات القادمة وإنما طريقة تنفيذها اللاحقة على نحو محدد وليس غيره.

ويمكننا فى نهاية الأمر القول، وقد يثير هذا بعض الدهشة، بأن التطورية فى جزء كبير منها تخرج عن نطاق الخطاب العلمى. وهناك فى المقابل منظور آخر يبدو لنا محتفظًا بكل مبادئ مثل هذا المنهج. وهو يقوم على التساؤل لا عن معنى تحول أو آخر فى ضوء ما هو منتظر ومتوقع منه ولكن عما يتسم به من عدم القابلية للانعكاس بمجرد حدوثه. من هنا يمكننا القول بأنه إذا كان هناك منطق يمكن الوصول إليه عن طريق حجة علمية قابلة للدحض والتفنيد، فهو ليس الذى يهدف إلى تحديد توقعية تسلسل الأحداث ولكنه المنطق الذى يسعى لتفسير كيف أن تطورها يتعارض بشكل قطعى مع أى إمكانية للعودة إلى الوراء.

لنفهم ما يقصد بالمدرج غير القابل للانعكاس يمكننا أن نسوق مثالاً من اللغة بدءًا من اللحظة التى تتطور فيها اللغة، وتصبح واحدة من الطرق الأساسية للتواصل، هل يمكن الاستغناء عنها؟ حتى نمضى فى الشوط إلى منتهاه نقول إنه لا يتسنى لأى جماعة إنسانية الاستغناء عن اللغة فى أى حقبة كانت؛ فالتفكير فى "اللا – لغة" هو استحضار للغة. غير أن هذه المسألة تبعدنا عن مجال تحقيقنا فهذا المجال – مأخوذًا بالمعنى الواسع للتواصل – يتخطى حدود الإنسان ليلحق بحدود كل كائن حى. وحتى لو سعينا إلى قصر تعريفه على تعريف الطباع الإنسانية الخالصة – اللغة المنطوقة بصفة خاصة – نجد أنفسنا نتوغل أكثر فأكثر فى الزمن، ربما أكثر مما فعلناه فى هذا المؤلَّف.

الواقع أن اللغة المنطوقة قد ظهرت بالتأكيد قبل العصر الحجرى القديم الأعلى وقد استلزم الأمر اعتبار الإنسان العاقل وريث تطور بطيء للسلوكيات البشرية التى شكلت بعمق فسيولوجيا الإنسان قبله(١).

إلا أن هناك شكلاً آخر للغة يمكن استخدامه، يتفق والموضوع الرئيسى فى هذا العمل وهو الفن. بدءًا من اللحظة التى يبدأ فيها الإنسان فى التفكير فى العالم الذى يحيط به – ويخترعه كما يخترع ذاته – عن طريق الصور والرموز، هل يمكن القول بأن هذا التطور المتدرج للتشفير السريع الذى سبقت الإشارة إليه باعتباره مميزًا للعصر الحجرى القديم الأعلى، قابل للانعكاس؟

بعبارة أخرى إذا كانت هذه الصور وهذه الرموز قابلة للتحول تمامًا بعد ذلك وفقًا للأشكال المتعددة التى ستختار المجتمعات الإنسانية تبنيها، فهل هذه القابلية العامة قادرة على الانعكاس؟

ذلك أن عليها، اعتبارًا من الآن، سيرتكز، ولو جزئيًا، تعلم الشفرات السابق الحديث عنها، سواء المتعلقة بمكانة الفرد فى جماعته، أو هوية الجماعة بين الجماعات الأخرى أو هويتها حيال العوالم المرئية وغير المرئية المحيطة بها.

ولا نعنى مطلقًا بعبارة "الظاهرة الغير قابلة للانعكاس" أن السلوكيات البشرية أو البنيات الخفية التى ترتكز هذه السلوكيات فوقها، عليها أن تتماسك

---

(١) نجد هنا مرة أخرى منظور التفاعل القوى بين البيولوجيا والثقافة كما لخصه مارسيل أوت Marcel Otte عندما كتب أن الثقافة هى: عنصر حيوى للإنسانية كلها وتشريحها لم يفعل شيئًا إلا التكيف مع ذلك تدريجيًا.

وقد أوضح مارسيل أن هذا أمر ينطبق تمامًا على اللغة إذا ما أخذنا فى اعتبارنا الضغط الانتقائى الذى تتعرض له الحنجرة بل وكل الجهاز الصوتى حتى تزدهر كل اللغات الإنسانية.

Otte, Marcel, «Origines du langage: sources matérielles», in Kozlowski, Janusz K. et al. (dir.), «Naissance de la pensée symbolique et du langage», op.cit., p. 59-70.

وتبقى ولا تتغير أو تزول منذ ظهورها إلى الوجود. وفى السياق ذاته يمكننا القول إن مفهوم "نهاية التاريخ" القائل بأن بعض المجتمعات الحالية تجسد "الحداثة" فى ذروتها هو وهم. ونحن فى المقابل نقصد بمفهوم عدم القابلية للانعكاس ظواهر تترك أثرًا من العمق فى المجتمعات الإنسانية حتى أنها إذا أزيل كيانها تركت فراغًا شاغرًا لا مناص من ملئه بكيان آخر. من هنا كان رأينا بأنه اعتبارًا من اللحظة التى تتكون فيها هيراركية اجتماعية فلا يمكننا اعتبارها قابلة للانعكاس.

غير أن هذه الظواهر تترك بصمة لا سبيل أمام أى تطور لاحق لها إلا أن يتأثر فى كثير أو قليل بها، مما يجبر المجتمعات اللاحقة على تحديد موقع لها فى هذه الهيراركية. وبالتالى فإن الإنسان فى ذهننا يبقى حرًا فى اختياراته – وربما أكثر مما هو متوقع له من خلال المنظور التطورى – غير أن عليه بالضرورة التوافق مع ما تركه له ماضيه من ثلمات.

يتفق هذا المنظور مع ما يراه موريس جودولييه Maurice Godelier من "أن الإنسان ليس فقط كائنًا يتكيف، ولكنه كائن يعيد ابتداع ذاته؛ كائن لا يستطيع العيش فى مجتمع دون أن يبذل ذاته أو يتلقى منذ مولده القدرة على إنتاج مجتمع ليحيا"(١). بعبارة أخرى لا يكتفى الإنسان بالعيش فى مجتمع، وإنما يصوغه وهو ما يميزه عن الكائنات الحية الأخرى. ويضيف موريس جودولييه Maurice Godelier:

"لا يعد تحويل أنماط عيش اجتماعية وابتداع أنماط أخرى اختراعًا للحياة فى المجتمع أو تأسيسًا لمجتمع كما يحلو الظن لبعض الفلاسفة، وإنما هو عمل تاريخ مختلف لمجموعة إنسانية، مستقبل آخر، وفى عبارة واحدة، صياغة تاريخ".

---

(١) Godelier. Maurice. Au fondement des sociétés humaines...،op.cit., p.189.

"بهذه الطريقة تتطور الإنسانية وهى-تأخذ بمرور الزمن أشكالاً تاريخية مختلفة بغير هدف نهائى يراد الوصول إليه، وغالبًا بدون إمكانية النكوص إلى وضع سابق"(١).

يخص هذا التغيير أو التحول كل النواحى المشكلة لهوية أى جماعة إنسانية والتى تجعل منها مجتمعًا حقيقيًا منظورًا إليه "ككل" من قبل أعضائه: الاقتصادية والتقنية وناحية التوزيع الاجتماعى للمهام... إلخ

ويميز موريس جودولييه بين هذه المجالات المتباينة؛ ذلك الذى تتمحور حوله كل المجالات المشار إليها وهو المجال السياسى – الدينى. وقد خلص فى نهاية تحقيق مقارن بين مجموعة مجتمعات حالية قائمة على تنظيمات سياسية اقتصادية ومالكة لمهارات تقنية متباينة، إلى أن:

"ما غيّر بعض المجتمعات بعمق وعدل من مسار تاريخها هو ظهور [...] جماعات إنسانية بدأت فى تكريس وجودها ووقتها لإنجاز وظائف اجتماعية حلت فى أعينهم وأعين الجماعات الأخرى المكونة لمجتمعهم، من ناحية، حقهم فى ألا يصيغوا بأنفسهم الظروف المحسوسة لوجودهم ومن ناحية أخرى حقهم فى التحكم فى وصول أعضاء المجتمع الآخرين إلى ذات الظروف الخاصة بإنتاج الوسائل المادية لوجودهم الاجتماعى، وأخيرًا حقهم فى الاحتفاظ لأنفسهم بقوتهم فى العمل ببعض من البضائع والخدمات الناتجة عن عملهم"(٢).

---

(١) ذات المرجع صـ ٢٢٢.
(٢) ذات المرجع صـ ٢١٧ وكلمة "جماعة" مستخدمة هنا بمعنى "مجموعات من البشر" فى داخل وحدة عمرانية.

والوظائف المشار إليها إما دينية أو سياسية. وتتضمن الأولى طقوسًا للتعاون مع الآلهة والأسلاف لخير البشر، "أما الثانية فتتعلق" بالحكومة فى المجتمع وبالحفاظ على نظام اجتماعى منظورًا له كما لو كان مؤسسًا فى نظام الطبيعة والكون "هذه الوظائف تدافع أيضًا عن سطوة المجتمع على أرضه ضد الجماعات المجاورة له التى ترغب فى القضاء عليه".

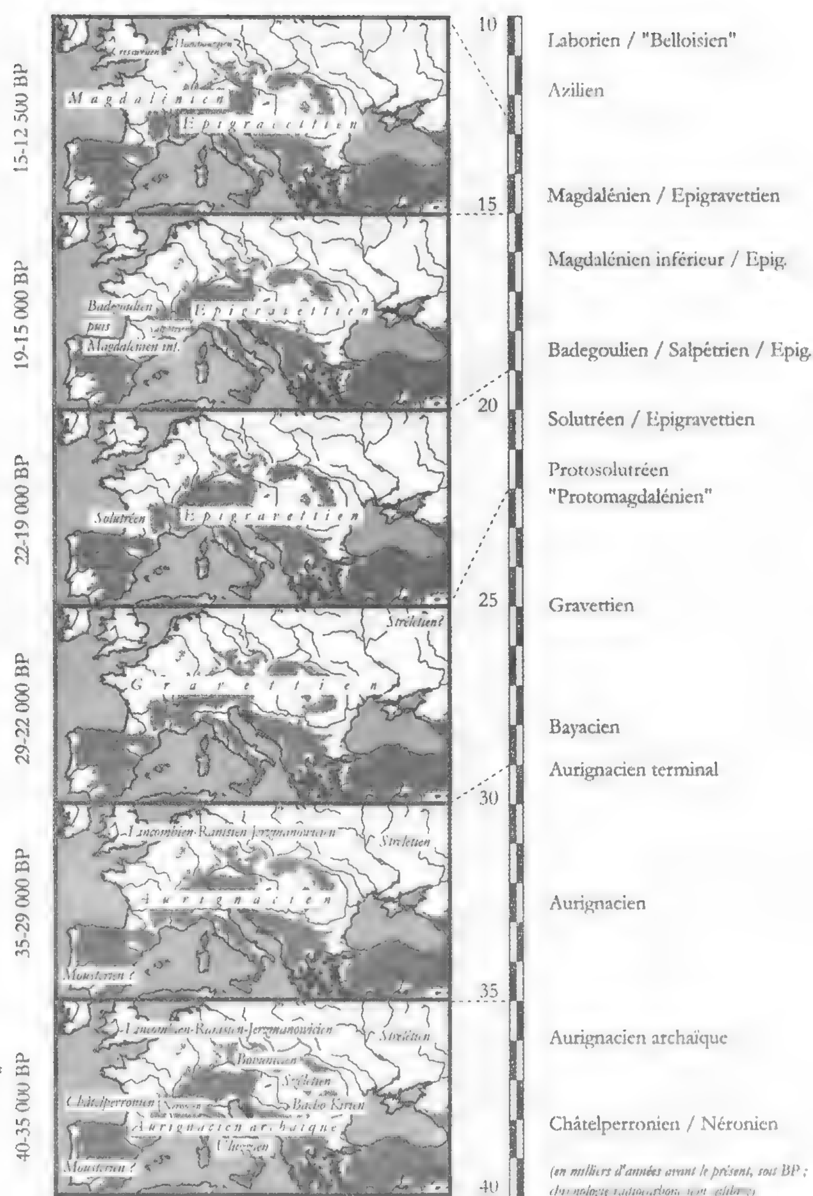
والسؤال المطروح هنا هو: هل المعطيات التى تم جمعها عن العصر الحجرى القديم الأعلى والتفسيرات الصادرة بشأن مكانه فى تطور السلوكيات البشرية قابلة لتغذية مثل هذا المنظور؟ أم أن علينا بالنظر للمصادر التى بحوزتنا أن نصرف النظر عن هذا الأمر تمامًا؟ حتى إذا توجب الحذر، فإنه يبدو وأن الفن الذى رأينا من قبل أنه لم يكن فقط ناقلاً للفكر الدينى وإنما ربما أيضًا مصدرًا لتنظيم سياسى يمنح دورًا خاصًا لمبدع الصورة وناقلها، هذا الفن قابل للمشاركة فى هذا التفكير.

ويمكننا بدقة أكبر القول إنه اعتمادًا على الوثائق المتاحة لنا فإن هذا المجال هو الوحيد الذى يقترح غير التقسيم فى العمل القائم على الجنس والفارق العمرى، تقسيمًا آخر وفقًا للمهام التى يكلف بها المجتمع أعضاءه. ورغم الطابع الغامض للأعمال تشير هذه الملحوظة إلى قيمة هذا البعد السياسى الدينى فى بناء مجتمعات العصر الحجرى القديم الأعلى.

أيًا ما كان الأمر، فمع الإقرار بوجود شيء من الذاتية فى هذا التفسير، نأمل أن نكون قد ألقينا بعض الضوء على أثر العصر الحجرى القديم الأعلى على تكون المجتمعات الإنسانية وأن نكون قد سقنا النماذج غير القابلة للانعكاس التى ورثتها المجتمعات[1] اللاحقة ومنها مجتمعاتنا بعد نحو عشرة آلاف سنة.

---

(١) ذات المرجع ص٢١٧.



15-12 500 BP
19-15 000 BP
22-19 000 BP
29-22 000 BP
35-29 000 BP
40-35 000 BP
Magdalénien
Epigravettien
Badegoulien
puis
Magdalénien inf.
Epigravettien
Solutréen
Epigravettien
Strélétien?
Gravettien
Strélétien
Aurignacien
Moustérien ?
Strélétien
Châtelperronien
Aurignacien archaïque
Moustérien ?
10
15
20
25
30
35
40
Laborien / "Belloisien"
Azilien
Magdalénien / Epigravettien
Magdalénien inférieur / Epig.
Badegoulien / Salpétrien / Epig.
Solutréen / Epigravettien
Protosolutréen
"Protomagdalénien"
Gravettien
Bayacien
Aurignacien terminal
Aurignacien
Aurignacien archaïque
Châtelperronien / Néronien
(en milliers d'années avant le présent, soit BP ;

شكر

أتوجه بكل الشكر إلى فريق العمل بجامعة باريس Paris I I الـذى تكونـت علميًا به، وإلى مجموعة العمل التى استقبلتنى بجامعة تولوز لو ميراى Toulouse le Mirail.

ليجد الجميع زملاء وباحثون وطلاب فى سطورى هذه، كل الامتنان للمتعـة الفكرية والإنسانية التى أستشعرها فى العمل معهم. أشكر كذلك فرق العمـل التـى سعدت بالتعاون معها عمليًا فى المواقـع الفرنـسية (براسـمبوى Brassempouy وريجيمون لو هو Régismont – le – Haut) وفى خارج فرنسا (بتاجونيا التـشيلية Patagonice chilienne وإيطاليا وأفريقيا الجنوبية وأثيوبيا).

كل امتنانى لإتيان شامبيون Etienne champion ويان بـوتين Yann Potin اللذين أدين لهما بالشروع فى كتابة هذا العمل، ولمشيل باربـازا Michel Barbaza وفرنسوا جزافييه فوڤـال أيمار Francois Xavier Fauvelle Aymar وجـون لـوك بوجول Jean-Luc Pujol وبوريس فالنتين Boris Valentin الذين قبلـوا مراجعتـه، وكذلك للورانس ديفيلـر Lawrence Devillairs وكاميـل وولـف Camille Wolff وفانى بوتييه Fanny Bouteiller لمساعدتهم لى فى وضع اللمسات الأخيرة له.

أشكر فى النهاية أسرتى مارى هيلـين Marie Héléne وكاميـل Camille ومادلين Madeleine لمساعدتهن وصبرهن ومساندتهن لى.

المؤلف فى سطور:

فرانسوا بون

يشغل وظيفة مدرس فى جامعة تولوز – لو ميراى Toulouse – Le Mirail، وقد تخصص فى آثار عصور ما قبل التاريخ.

مؤلفاته

١- الدور الأورينياكى بين البحر والمحيط

L`Aurignacien enre mer et océan

Réflexion sur l'unité des phases anciennes de l'Aurignacien dans le Sud de la France

Société préhistorique française, 2002

٢- دراسة نقدية لجدارية "الأبقار الطائرة" (عمل مشترك) فى جنوب إفريقيا

Vol de vaches à Christol Cave

Histoire critique d'une image rupestre en Afrique du Sud

En collaboration avec J-L. Le Quellec et F. – X. Fauvelle – Aymar

Publication de la Sorbonne, sous presse

المترجمة فى سطور:

د. سونيا محمود نجا

- حاصلة على درجة الدكتوراه فى اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة الإسكندرية، ودبلوم الترجمة من جامعة السوربون.
- قامت بالتدريس فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية من ١٩٧٩ وحتى عام ١٩٩٧، وفى كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية من ١٩٩٧ وحتى عام ٢٠٠٤.
- تقوم حاليًا بالتدريس فى جامعة فاروس بالإسكندرية.

من ترجماتها:

1- Carré, Jean – Marie, Voyageurs *et Ecrivains Français en Egypte*, Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1956 – Tome I – 440pages

الناشر: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى ٢٠٠٦

2- Saiah – Baudis, Ysabel, " Oum Kalsoum L'étoile de L'Orient, Editions Du Rocher, 2004 325 pages

الناشر: المركز القومى للترجمة ٢٠٠٨

أعمال مترجمة إلى الفرنسية

١- كتاب "عمارة من أجل عالم متغير" عن أعمال مؤسسة أغاخان

الناشر مكتبة الإسكندرية - ٢٠٠٧

٢- الطاهر الحداد, كتاب "إمرتنا فى الشريعة والمجتمع" ١٩٣٠.

الناشر مكتبة الإسكندرية ٢٠١١ - ٣٥٠ صفحة.

التصحيح اللغوى: رفيق الزهار

الإشراف الفنى: حسن كامل